موقف تركيا من قيام دولة « إسرائيل »

د. عوني عبد الرحمن السبعاوي

أستاذ مساعد قسم التاريخ - كلية التربية

جامعة الموصل

مدخل :

حينما كانت فلسطين جزءا من الدولة العثمانية حاولت الحركة الصهيونية الحصول على تسهيلات من تلك الدولة بشأن الاستيطان اليهودي هناك . وكانت أبرز هذه المحاولات محاولة ثيودور هرتزل T.Herzel مؤسس الحركة الصهيونية لدى السلطان عبد الحميد الثاني ، إذ حاول اغراءه بشتى السبل لحمله على قبول استيطان اليهود في فلسطين ، إلا أن السلطان رفض ذلك رفضا قاطعا[1] . وكان ذلك أحد أسباب الاطاحة به وعزله عام ١٩٠٩ ، إذ تعاون اليهود في تركيا مع حزب الاتحاد والترقي في تحقيق ذلك . وكان من نتائجه تزايد هجرة اليهود إلى فلسطين ، حيث ارتفع عددهم هناك من ١٠ر٦٠٠ يهودي في عام ١٨٥٦ إلى قرابة ٦٠ ألف يهودي عام ١٩١٣[2] كما تزامنت الهجرة اليهودية مع بدايات اليقظة القومية للعرب ، فقد عدّ عرب فلسطين ذلك بمثابة تحد كبير لكيانهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي .. مما حملهم على مقاومة هذه الهجرة بكل السبل والوسائل المتاحة ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين للدفاع عن حقوقهم ووجودهم ، إذ أدت الطبيعة الاستيطانية للهجرة اليهودية إلى تهديد الفلاح الفلسطيني في أرضه . وانقطاع مورد عيشه ، وإلى اشتداد المنافسة اليهودية للحرفيين والمتعلمين والتجار الفلسطينيين في المدن[3] .

وأصبحت فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى جزءا من المناطق التي احتلتها بريطانيا بموجب معاهدة " سايكس بيكو " الموقعة بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩١٦ . وزالت السيادة التركية على فلسطين بمقتضى معاهدة " لوزان " التي أبرمتها تركيا الحديثة مع الحلفاء في عام ١٩٢٣ . ووضعت تحت الانتدا البريطاني ، وسبق ذلك وعد بلفور الصادر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ الخاص بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

وقد قاوم الفلسطينيون الاحتلال البريطاني والاستيطان الصهيوني بكافة الوسائل المتاحة لهم ، وخاضوا العديد من الثورات والانتفاضات ، كان من أبرزها ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ التي اضطرت بريطانيا في مقاومتها إلى الاستعانة بالأسطول وسلاح الطيران واستدعاء الاحتياطي[٤] .

تركيا و مشاريع تقسيم فلسطين

بعد نشوب الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ ، حاولت بريطانيا من خلال عصبة الأمم عام ١٩٣٧ تقسيم فلسطين إلى ثلاثة أجزاء ، تتألف من دولة عربية وأخرى يهودية ، وابقاء المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية والدينية الخاصة تحت الانتداب البريطاني[٥] ، تسهيلاً لحكمها فلسطين ، والحفاظ على مصالحها الحيوية ، ومحاولة احتواء المقاومة الفلسطينية ، وتحقيق المطامع الصهيونية على أرض فلسطين.

وقد وافقت الحركة الصهيونية على هذا التقسيم ، في حين عارضه الفلسطينيون، وصعدوا من ثورتهم ، مما أدى إلى اخفاق هذا المشروع[٦] وفي الوقت نفسه حث العراق الحكومة التركية على تقديم مذكرة رباعية ترفعها دول حلف سعد آباد[٧] ، المتكونة من كل من العراق وتركيا وإيران وافغانستان إلى مجلس عصبة الأمم تتضمن استنكار تقسيم فلسطين ، وتأييد حق الفلسطينيين في أرضهم ووطنهم[٨] .

وقد وافقت تركيا على مقاومة أي قرار للجنة التي شكلت في عصبة الأمم ، والعمل مع الدول الأخرى لمناقشة ذلك ، ورفض التقسيم وانقاذ فلسطين من المحنة التي سبقت إليها [٩] .

لكن على صعيد الواقع لم تتخذ تركيا أي اجراء رسمي حول هذه القضية ، بل حاولت استغلالها من أجل تحقيق مطامعها الإقليمية في الاسكندرونة التي كانت تتهيأ للاستحواذ عليها بتواطؤ فرنسا وبريطانيا ، فقد صرح الرئيس التركي مصطفى كمال اتاتورك في المجلس الوطني التركي الكبير قائلا « إن الجرح الذي أوجدته انكلترا في قلب الإسلام بسبب تقسيم فلسطين شعرنا به نحن الأتراك قبل أن يشعر به العرب في الاسكندرونة » [١٠] .

وخلال عقد الاجتماع الثاني لدول حلف سعد آباد في طهران في ١٤ أيلول ١٩٣٨ برئاسة وزير الخارجية الايراني " مظفر اعلم " وعضوية كل من وزير الخارجية التركي "توفيق رشدي آرامس " ووزير الخارجية العراقي " توفيق السويدي " والوزير المفوض الأفغاني " محمد خان " نيابة عن وزير الخارجية الأفغاني ، درس المجتمعون تطورات القضية الفلسطينية ، ولاسيما تزايد الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، واظهروا انسجاماً واتفاقاً ازاء القضايا المطروحة ، وأبدوا ضرورة صيانة المصالح المشروعة لعرب فلسطين، وعدم السماح بهجرة اليهود إلى البلدان الموقعة على معاهدة الحلف ، والاحتفاظ باليهود المقيمين في بلادهم ، ومنعهم من الالتحاق بيهود فلسطين [١١] . ولوحظ خلال هذا الاجتماع تعاطفاً تركياً أكثر من ذي قبل تجاه القضية الفلسطينية ومساندة عرب فلسطين [١٢] .

وقد تواصلت المحاولات العراقية لحمل تركيا على اتخاذ مواقف أكثر قوة ووضوحاً تحفظ حقوق الشعب العربي الفلسطيني على أرضه ووطنه ، ولكن دون جدوى ، فخلال محادثاته مع وزير الخارجية التركية توفيق رشدي آرامس في ٥ آيار ١٩٣٩ قال وزير العراق المفوض لدى أنقرة ناجي شوكت أنه يعتقد أن الحكومة التركية تميل لمؤازرة القضية الفلسطينية ، ولكنها ترى من المفيد ايجاد وسيلة تقرّب بين وجهتي النظر

العراقية والبريطانية حول هذه القضية ، وتوصي بضرورة التروي وكتمان الأمر[١٣] .

وازاء عجز بريطانيا في اعقاب الحرب العالمية الثانية عن اقرار السلام في فلسطين، والايفاء بتعهداتها للفلسطينيين الذين اوقفوا ثورتهم عشية الحرب . عمدت إلى اشراك الولايات المتحدة الأمريكية معها في تأليف لجنة امريكية بريطانية لبحث المشكلة ، وعرض مقترحاتها بهذا الشأن ، ولم تأت هذه اللجنة بحلول ترضي الأطراف المعنية ، مما اضطر بريطانيا إلى احالة القضية على هيئة الأمم المتحدة . وبذلك خرجت القضية الفلسطينية من إطارها المحلي الإقليمي إلى الاطار الدولي الذي كان مهيئاً لتأييد أطماع الحركة الصهيونية في تقسيم فلسطين واقامة دولة " اسرائيل " ، وبخاصة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية التي توجهت أنظار الحركة الصهيونية إليها ، بعد بروزها قوة عظمى اعقاب الحرب العالمية الثانية .

ولأجل حمل تركيا على تأييد حق الشعب العربي الفلسطيني في أثناء مناقشة القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة ، للرد على خصومه السياسيين في العراق وأقطار المشرق العربي ، اقترح رئيس مجلس الأعيان العراقي نوري السعيد خلال مباحثاته مع المسؤولين الاتراك بصدد عقد المعاهدة العراقية - التركية عام ١٩٤٦ ادخال نص في هذه المعاهدة يشير إلى القضية الفلسطينية . ويعبّر عن موقف ودي من جانب تركيا نحو هذه القضية ، لكن الأتراك رفضوا ذلك المقترح لخشيتهم من آثاره السلبية المحتملة على الرأي العام اليهودي ، وطلبوا من نوري السعيد مقابلة السفير الأمريكي في أنقرة والتباحث معه بهذا الشأن وقد نصح الأخير السعيد بأن يكتفي بوعد خاص من الأتراك يتضمن عطفهم فقط[١٤] .

وفي هذا السياق أشار السكرتير العام لوزارة الخارجية التركي فريدون جمال اركين إلى أن نوري السعيد طلب من الحكومة التركية تزويده بكتاب سري يتضمن وعدا بتأييد تركيا للعراق في قضية فلسطين ، إلا أن الحكومة التركية رفضت ذلك رفضا قاطعا ، وأوضحت أنها لا ترفض الدخول في اتفاق سري فقط بل أن تركيا لن تتدخل في قضية فلسطين التي لا تهمها مباشرة ، وأنها وخاصة في تلك الظروف المضطربة

يجب أن لا تفعل شيئا يؤدي إلى نفور الرأي العام الأمريكي[١٥] . الذي كانت تركيا تطمح لكسبه إلى جانبها لأجل دفع الحكومة الأمريكية لتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية إليها لتمكينها من الوقوف في وجه التهديدات السوفيتية بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ ، وهذا ما تحقق فيما بعد بموجب " مبدأ ترومان " عام ١٩٤٧ .

قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيسان ١٩٤٧ تشكيل لجنة خاصة لدراسة القضية الفلسطينية ورفع توصياتها إلى الجمعية العامة في دورتها العادية الثانية في آب ١٩٤٧ . وقد قدمت اللجنة مشروعين احدهما عرف بـ " مشروع الأغلبية " الذي نص على تقسيم فلسطين إلى دولتين ، عربية ويهودية ، وتكوين اتحاد اقتصادي بينهما ، ونص المشروع الثاني الذي عرف بـ " مشروع الأقلية " على إنشاء دول فيدرالية مستقلة في فلسطين تضم قطاعين ، أحدهما عربي والآخر يهودي وتكون القدس عاصمة لها ، وإلى جانب هذين المشروعين طرحت الأقطار العربية مشروعا ثالثا يقضي بانشاء حكومة مركزية واحدة تتولى مؤقتا إدارة كل فلسطين ، على أن يتم الجلاء البريطاني عنها بعد سنة واحدة من قيام هذه الحكومة ، يعقبها اجراء انتخابات عامة لجمعية تأسيسية تتولى وضع دستور للبلاد على أساس وحدتها المستقلة[١٦] .

وجدت تركيا نفسها في حرج شديد من اتخاذ قرار محدد ازاء المشروعات المطروحة يرضي الأطراف العربية التي تحاول تحسين علاقاتها معها تمهيدا لادخالها في مشروعات تحالف ضد الاتحاد السوفيتي من جهة ، وعدم اثارة الدول الغربية والحركة الصهيونية التي تربطها معها علاقات متطورة من جهة أخرى .

وللخروج من هذا المأزق قام نائب السكرتير العام لوزارة الخارجية التركية فؤاد جارم Fuet Carim بالاتصال بالسفير البريطاني في أنقرة في ٢٢ نيسان ١٩٤٧ ، موضحا له الصعوبات التي ستعترض تركيا في الاجتماع القادم للجمعية العامة الخاص بالمقترحات المطروحة حول القضية الفلسطينية وقال أن الهدف الثابت للحكومة التركية هو أن تكون سياستها منسجمة مع السياسة البريطانية التي شجعت تركيا على تحسين علاقاتها مع جيرانها العرب ، ومن المحتمل أن تشهد الاجتماعات مناقشات حادة ،

ويصبح الممثلون الأتراك في موقف صعب . وطلب المسؤول التركي من السفير البريطاني الاستفسار من حكومته حول ما يمكن أن تتخذه تركيا من مواقف[١٧] .

جاء الرد البريطاني على الاستفسار التركي في ٢٥ نيسان ١٩٤٧ مؤيدا المعضلة التركية في اتخاذ موقف محدد ازاء هذه القضية ، وطلبت وزارة الخارجية البريطانية من الحكومة التركية أن يكون مندوبها على اتصال دائم مع مندوب بريطانيا في هيئة الأمم المتحدة[١٨] .

لكن عندما طرحت مشروعات حل القضية الفلسطينية الثلاثة المشار إليها في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٧ أعلنت تركيا موقفها الرافض لمبدأ الوطن القومي لليهود في فلسطين ، وصوتت لصالح كل من المشروع العربي ومشروع الأقلية ، فيما صوتت ضد مشروع الأغلبية " مشروع التقسيم "[١٩] .

وعلق وزير الخارجية التركية نجم الدين صادق على هذا الاجراء التركي بقوله « لقد صوتنا ضد التقسيم ، وأردنا بذلك افهام اصدقائنا بأن ذلك القرار كان غير قابل للتنفيذ »[٢٠] .

وتناولت صحيفة " جمهوريت " التركية ابعاد هذا الموقف التركي وتأثيره في العلاقات العربية التركية قائلة " إن الجهود التي تبذلها دول العالم لحل القضية الفلسطينية لم تكن مرضية ، وإن موقف تركيا من الدول العربية في هذه الظروف الحالكة لجدير بالاجلال والتقدير ، إن تركيا هي مصدر أمل للدول العربية في قضاياها العادلة[٢١] .

حظي هذا الموقف التركي باستحسان الرأي العام العربي ، كما عبّر عن ذلك رئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي في البرقية التي بعث بها إلى نظيره التركي عصمت اينونو قائلا فيها « إن هذا الموقف البنّاء من قبل تركيا في تأييد قضايا العرب بعد حقبة جديدة في تطور العلاقات العربية التركية ولاشك أن تركيا تشاركنا الرأي في أن الخطر الاستعماري العالمي يحدد الدول المحبة للسلام »[٢٢] .

إن تصويت تركيا ضد قرار التقسيم خلافا لرغبة بريطانيا والولايات المتحدة

الأمريكية يعد أمرا مثيرا للاهتمام ، ولعل ذلك يعزي إلى الضغط السوفيتي على تركيا في المطالبة ببعض الأقاليم التركية والمشاركة في حماية المضائق التركية ، وتأييده لقرار التقسم وإقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، مما ولد مخاوف كبيرة داخل تركيا انعكست اصداؤها في الصحافة التركية ، حيث أظهرت المقالات الرئيسية فيها قاطبة ترديد ذكر الأخطار الناجمة عن إقامة دولة يهودية يؤيدها السوفيت ، وأنه إذا ما نالت هذه الدولة استقلالها فما الذي يمنعها من أن تقيم علاقات وصلات حميمة مع الاتحاد السوفيتي ، فتهدد تركيا من الجنوب ، وقالت صحيفة " جمهوريت " التركية « إن دولة (إسرائيل) ستكون بلا شك متأثرة إلى حد بعيد بالعناصر اليسارية التي تسيطر على اقتصادياتها » . كما عبّر المعلق السياسي في الإذاعة التركية بصراحة عن قلق تركيا من خطر إقامة الدولة الصهيونية وجعلها أداة بيد الاتحاد السوفيتي يحركها كما يشاء ضد المصالح الغربية بوه عام وضد أمن تركيا بوجه خاص قائلا « إنه إذا ما تحقق ذلك فسيشكل خطرا على العالم ، ولاسيما بعد أن ثبت وجود عناصر شيوعية متطرفة بين يهود فلسطين تضم أخصائيين وخبراء في الشؤون العسكرية »[٢٣] .

وبدأ هذا التصور جليا أيضا في مباحثات الوزير المفوض العراقي في أنقرة مع وزير الخارجية التركي ومع السكرتير العام لوزارة الخارجية التركي ومع بعض أعضاء المجلس الوطني التركي الكبير والشخصيات السياسية المرموقة . . وأظهر بعضهم تشاؤمه من النصر الوقتي الذي حققته العصابات الصهيونية في فلسطين وتقاعس الحكومات العربية عند التدخل بصورة فعلية بقواتها العسكرية لنصرة اخوانهم عرب فلسطين[٢٤]

كان من نتائج ضعف بريطانيا واحسار دورها العالمي المؤثر في السياسة الدولية وبروز الولايات المتحدة الأمريكية قوة عظمى بعد الحرب العالمية الثانية ، أن اتجهت الحركة الصهيونية صوب الأخيرة بكل ثقلها . وكانت فترة الحرب كافية لكي تؤكد الصهيونية نفوذها في الولايات المتحدة الأمريكية ، وتمارس ضغطا قويا داخل المؤسسات الأمريكية السياسية والاقتصادية والثقافية . . وتدعم فكرة إنشاء الدولة

الصهيونية على أرض فلسطين .

بدأ الرئيس الامريكي هاري ترومان منذ عام ١٩٤٦ يتخذ مواقف مناصرة للصهيونية ، مؤكدا ضرورة هجرة أعداد متزايدة من اليهود إلى فلسطين ، ومشجعا تقديم مساعدات مالية كبيرة للجاليات اليهودية عدّها بمثابة عمل خيري معفى من الضرائب التي تخضع لها رؤوس الأموال الكبيرة ، فأصبحت الحركة الصهيونية منذ ذلك الوقت ترتبط بالنظام الرأسمالي الأمريكي ، وتجد فيه مجال نموها الطبيعي[٢٥] .

وتواترت الأحداث بعد ذلك في فلسطين بالشكل المعروف ، وأدى التواطؤ البريطاني مع الحركة الصهيونية إلى انشاء دولة إسرائيل في عشية انسحاب بريطانيا من فلسطين في ١٥ آيار ١٩٤٨ ، ونسبت على أثر ذلك الحرب بين العرب وإسرائيل ، والتي انتهت باخفاق العرب في القضاء على هذا الكيان المصطنع الذي أصبح يتحكم في مناطق واسعة من فلسطين ، يقع الكثير منها ضمن الحدود التي عينها مشروع التقسيم آنف الذكر للدولة العربية ، ونزوح أعداد كبيرة من الفلسطينيين عن ديارهم .

وتم عرض القضية مرة أخرى على الأمم المتحدة التي أوفدت الكونت برنادوت Count Bernedot الوسيط العام إلى فلسطين المحتلة في خريف عام ١٩٤٨ ، وقدّم تقريرا إلى الأمم المتحدة أكد فيه أن عرب فلسطين لم يغادروا ديارهم طوعا واختيارا ، وإنما غادروها نتيجة أعمال العنف والارهاب التي ارتكبتها السلطات الصهيونية ضدهم ، وأن قضية فلسطين لا يمكن حلها إلا بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وممتلكاتهم المغتصبة . وفي ضوء هذا التقرير اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها المرقم (١٩٤-٣) في ١١ كانون الأول ١٩٤٨ بتأليف لجنة التوفيق الثلاثية التي ضمت ممثلين عن فرنسا وتركيا * والولايات المتحدة الأمريكية ، وقد خولت هذه اللجنة صلاحية اتخاذ كل الاجراءات الممكنة لتحقيق تسوية نهائية للمشاكل المعلقة وضمان حماية الأماكن المقدسة وحرية ارتيادها وتسهيل عودة اللاجئين الفلسطينيين الراغبين في العودة ، ودفع تعويض عادل لغير الراغبين في العودة[٢٦] .

وأدت عضوية تركيا في هذه اللجنة إلى حدوث فتور في العلاقات العربية التركية

بسبب معارضة الأقطار العربية تشكيل تلك اللجنة على هذا النحو ، وبدأت هذه الأقطار تنظر إلى تركيا بوصفها عميلا للدول الغربية[٢٧] ، خاصة أن تركيا في هذه اللجنة خضعت للضغوط الأمريكية التي احبطت عمل هذه اللجنة ، ولم تستطع تحقيق أي شيء يذكر لصالح القضية الفلسطينية .

لقد تأرجح الموقف التركي بين التصويت ضد قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، والاعتراف بقيام دولة إسرائيل ، ومناصرة اليهود القاطنين في تركيا لهذا الكيان ، بما في ذلك غض النظر عن هجرة أعداد كبيرة من الشباب اليهود الأتراك إلى فلسطين المحتلة بطرق ملتوية بحيث وصل عددهم إلى أكثر من عشرين ألفا ، وتسريب الأسلحة والأموال إلى هناك[٢٨] ، وترك المخابرات البريدية والبرقية بين تركيا وإسرائيل تعمل كالسابق ، وتشجيع التبادل التجاري ولو بنسب ضئيلة وبطرق خفية ، وابحار بعض البواخر التركية إلى الموانئ الفلسطينية المحتلة والتسامح مع الصحف اليهودية * المؤيدة للصهيونية ، وحملاتها على العرب[٢٩] .

تركيا والاعتراف بدولة إسرائيل

لقد مهدت هذه الأمور وغيرها الطريق أمام تركيا للاقدام على الخطوة القادمة في علاقاتها مع إسرائيل وهي الاعتراف الرسمي المعلن بهذا الكيان ، بعد أن ادركت تركيا أهمية إسرائيل لدى الدوائر الأمريكية والغربية ، وأنه لم يعد يشكل خطرا على أمن تركيا باحتمال تحالفه مع الاتحاد السوفيتي كما كان يعتقد المسؤولون الأتراك في السابق ، فبدأت تركيا بتغيير نظرتها وتوجه سياستها تجاه إسرائيل ، وهذا ما حمل وزير الخارجية التركي نجم الدين صادق إلى الادلاء بحديث لوكالة أنباء الأناضول التركية في ٨ شباط ١٩٤٩ جاء فيه « إن إسرائيل أصبحت حقيقة ، وقد اعترفت بها أكثر من ثلاثين دولة » ، وأضاف في معرض حديثه عن مباحثات الهدنة الخاصة بانهاء الحرب بين الأقطار العربية وإسرائيل ١٩٤٨ - ١٩٤٩ « إن الممثلين العرب يجرون مباحثات مع ممثلي (إسرائيل) ، أما فيما يتعلق بتركيا فإننا لكي نتمكن من القيام

بواجبنا في لجنة التوفيق بشكل أفضل وجدنا أن عدم تغييرنا لموقفنا الحالي سيكون أكثر فائدة » ، ورداً على سؤال حول هجرة اليهود الاتراك إلى فلسطين المحتلة والعلاقات التجارية بين تركيا وإسرائيل ، اجاب الوزير التركي بالقول : « إن اليهود أحرار في الذهاب اينما شاؤوا ، وإن البواخر التركية أيضا تستطيع أن تذهب إلى موانئ فلسطين » . وختم الوزير التركي حديثه بتأكيد الأنباء الواردة حول اعتزام تركيا الاعتراف بـ « إسرائيل » قائلاً : « إن الحكومة التركية ستعترف بحكومة إسرائيل بعد انتهاء مهمة لجنة التوفيق »[٣٠] .

وعلقت الصحافة التركية على هذه التصريحات للمسؤول التركي مؤيدة ما جاء في مضمونها ، ولاسيما اعتزام تركيا الاعتراف بإسرائيل ، فصحيفة « اولوس » الناطقة بلسان « حزب الشعب الجمهوري » الحاكم كتبت تقول : « يجب على تركيا أن تبحث موضوع الاعتراف بـ (إسرائيل) » ، أما صحيفة « حريت » التركية ، فأكدت بقولها « إن مصلحة تركيا تقتضي الاعتراف بإسرائيل ، ولاشك في أن الأخيرة ليست ببعيدة عن حدودنا »[٣١] .

ثم جاء القرار التركي المتوقع حينما أعلنت تركيا مساء يوم ٢٨ آذار ١٩٤٩ اعترافها بإسرائيل اعترافاً « واقعياً De Facto » . لتصبح أول دولة إسلامية تعترف بشرعية إسرائيل ، وتقيم علاقات دبلوماسية معها .

وقد رحبت الصحافة التركية بهذه الخطوة ، كما رحبت بوصول وفد إسرائيلي لاجراء مفاوضات تجارية مع الجانب التركي ، تستهدف تنمية العلاقات التجارية بين تركيا وإسرائيل[٣٢] .

وعلى أثر ذلك قابل رؤساء البعثات الدبلوماسية العربية المعتمدون لدى انقرة السكرتير العام لوزارة الخارجية التركية للاستفسار منه عن فحوى الاعتراف التركي بإسرائيل ، فأبلغهم أن الحكومة التركية اعترفت بإسرائيل كأمر واقع[٣٣] ، وهذا النوع من الاعتراف أضعف من الاعتراف الآخر المعروف بالاعتراف القانوني De Jure إذ أن الاعتراف الثاني هو اعتراف قوي صريح ومباشر[٣٤] .

ولتبرير هذا القرار الذي اقدمت على اتخاذه الحكومة التركية قال المسؤول التركي « إن الحكومة التركية وقفت حتى الآن بجانب العرب الذين فاوضوا الصهاينة ولا تزال تعطف على قضيتهم ، وتأمل أن لا يؤثر هذا الاعتراف في العلاقات القائمة معهم.. » (٣٥) .

ولتنفيذ إجراءات إقامة العلاقات الدبلوماسية تبودلت الرسائل بين تركيا وإسرائيل، وتقرر أن يكون التمثيل الدبلوماسي بينهما بدرجة وزير مفوض ، وفي ١٦ تشرين الأول ١٩٤٩ عيّن " فيكتور اليعزر " قنصلا عاما لإسرائيل في تركيا . كما عيّن " الياهو ساسون " مدير دائرة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الإسرائيلية وزيراً مفوضاً لإسرائيل في أنقرة (٣٦) .

وقدم " ساسون " أوراق اعتماده إلى رئيس الجمهورية التركية عصمت اينونو في ٩ كانون الثاني ١٩٥٠ بحضور كل من وزير الخارجية التركية وسكرتير عام وزارة الخارجية التركية ، وفي اليوم التالي زار المسؤول الإسرائيلي ضريح أتاتورك ووضع عليه أكليلا من الزهور ، وعقد مؤتمرا صحفيا أشاد فيه بالعلاقات القائمة بين تركيا وإسرائيل ، وامتدح موقف تركيا في هيئة الأمم المتحدة تجاه القضية الفلسطينية قائلا « لقد سررنا بالخطة التي سارت عليها تركيا في هيئة الأمم المتحدة ، وللسياسة الواقعية التي التزمتها عند عرض القضية » ، وأعرب عن أمله في أن تلعب تركيا دورا مهما في تحقيق ما أسماه بالأمن والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط (٣٧) .

وخلال افتتاحه دورة المجلس الوطني التركي الكبير ألقى رئيس الجمهورية التركية عصمت اينونو خطابا أشاد فيه بتبادل التمثيل الدبلوماسي بين تركيا وإسرائيل ، وقال أنه يأمل في أن تكون إسرائيل عنصر أمن واستقرار في منطقة الشرق الأوسط (٣٨) . دون أن يوضح كيف يمكن لدولة عنصرية قامت على حراب الأجنبي المستعمر ، وفرضت على شعب جرى تشريده من أرضه ووطنه دون ذنب اقترفه ، وتسعى للعدوان والتوسع وفرض هيمنتها على العرب أن تكون عنصر أمن واستقرار في المنطقة .

كان لاعتراف تركيا باسرائيل وإقامة علاقات دبلوماسية معها أثره السلبي العميق

في العلاقات العربية التركية ، إذ وجّه هذا الاعتراف ضربة شديدة لتلك العلاقات ، وعدّ العرب تلك الخطوة برهانا على عزم تركيا هجر الشرق العربي المسلم[٣٩] . وقد حاولت تركيا وفي جميع اتصالاتها مع الأقطار العربية تقديم شتى التبريرات حول ما اقدمت عليه ، والتي لم تكن في جملتها معقولة ، ومن هذه التبريرات التي طرحت آنذاك أن إسرائيل الدولة القائمة على أسس دينية ستبقى ضمن الحدود السياسية التي حددتها لها الأمم المتحدة ، ومنها أيضا أن مصالحة سيتم التوصل إليها بين إسرائيل والأقطار العربية المجاورة ، ولهذه الأسباب ولغيرها اعترفت تركيا بدولة إسرائيل[٤٠] . كما قامت صحيفة " اولوس " المتحدثة باسم حزب الشعب الجمهوري التركي الحاكم والصحف التركية الأخرى بنشر العديد من المقالات لتبرير ذلك الاجراء التركي ، ومحاولة تخفيف ما علق بنفوس العرب من امتعاض واضح بسبب ذلك الاعتراف ، ونتيجة ما لاحظته الأوساط السياسية والصحفية في تركيا من اهمال الصحافة والرأي العام في الوطن العربي الاهتمام به والتعليق عليه[٤١] .

لقد جاء الاعتراف التركي بإسرائيل مدفوعا بجملة اعتبارات أساسية ، فقد كانت تركيا تسعى لتوثيق علاقاتها بدول المعسكر الغربي ، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية ، للحصول على مساعدات عسكرية ومالية ودعم سياسي من دول حلف شمال الأطلسي . لمواجهة التهديدات السوفيتية ضدها ، وكان هذا سببا جوهريا في إقدام تركيا على الاعتراف بإسرائيل وتبادل التمثيل الدبلوماسي معها ، بعد أن أدركت أن إنشاء إسرائيل يقع ضمن الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة العربية وتطور مصالحها السياسية والاقتصادية ، وهذا ما حمل الصحافة التركية على الربط بين اعلان اعتراف تركيا بإسرائيل وبين سفر وزير الخارجية التركية نجم الدين صادق إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتطوير العلاقات الثنائية والحصول على الدعم المادي والسياسي ، وقالت أن لذلك أثرا مهما في تسهيل مهمته[٤٢] .

وعلى أساس هذا التصور فان تركيا في سياستها هذه انطلقت من مصالح واعتبارات ذاتية بحتة للحصول على الدعم الأمريكي والغربي ، وهذا ما عبّرت عنه صحيفة " اولوس " في ٢ نيسان ١٩٤٩ عندما قالت « الحق أن تركيا سائرة في هذه

القضية كما في جميع القضايا الأخرى على السياسة الواقعية ، فلا هدف لها سوى مصالحها الخاصة بها ، ولا يشغل بالها غير المخاطر التي تجابهها ، أما كونها مدركة أخطار الصهيونية وعواقبها وتعقداتها فذلك أمر مفروغ منه ، ولكنها ترى أن التيار بجانب اليهود جارف وان في مقاومته وازعاج أمريكا واليهود معا ضررا لا تريد أن يصيبها منه شيء »[٤٣] .

إن تركيا في اجراءاتها تلك لم تعر أي اهتمام للمشاعر العربية والإسلامية فعندما برزت القضية الفلسطينية لم تكن تركيا تشجع الحركة الصهيونية وعارضت تقسيم فلسطين ، ولكنها عندما رأت أن مصلحتها تتطلب قبول الأمر الواقع المفروض لم تتردد في تأييد قيام دولة إسرائيل والاعتراف بها وإقامة العلاقات الدبلوماسية معها .

كما رأت تركيا من خلال اعترافها بإسرائيل وإقامة العلاقات الدبلوماسية أن تنشط اقتصادها وتجارتها مع هذا الكيان ، بحكم توافر عوامل التكامل والتقارب الجغرافي بينهما ، في حين لم تكن اقتصاديات الأقطار العربية وتركيا في ذلك الوقت لتكمل احداهما الأخرى ، إضافة إلى أن تجارة تركيا الخارجية مع هذه الأقطار لم تكن ذات أهمية لتركيا ، إذ تشير المعلومات إلى أن العلاقات الاقتصادية والتجارية بين الأقطار العربية وتركيا خلال الأربعينيات كانت تمر بمرحلة ركود نسبي ، ولم يكن هناك سوى التبادل التجاري المحدود الذي يعتقد أنه كان في حقول المواد الزراعية والحيوانية، إذ أنه لم يتبين وجود أي نشاط أو علاقات في حقول استيراد المواد الصناعية أو تبادل الخبرات أو الاستشارات أو السياحة على نطاق معقول ، إضافة إلى فقدان التعاون في قطاع التعهدات والبنوك والتأمين اللهم إلا في وجود مؤسسة مصرفية تحمل اسم " البنك العثماني " ظل اسمها متداولا في بعض الأقطار العربية حتى أواخر الستينيات ، وكانت من التابعية البريطانية[٤٤] . لذلك لم تعر تركيا اهتمامها للسوق العربية ، بل اتجهت ناحية السوق الصهيونية ، وكان ذلك أحد أسباب اعتراف تركيا بإسرائيل ، وهذا ما أكده وزير التجارة والاقتصاد التركي " جميل سعيد بارلاس " في حديثه لمراسل وكالة " بالكور " اليهودية في ١٩ شباط ١٩٤٩ ، إذ قال « إن كلاً من تركيا وإسرائيل تتم احداهما الأخرى ، من وجهة النظر التجارية ، فبينما تستورد تركيا من إسرائيل

المنتوجات الصناعية على نطاق واسع فان إسرائيل تكون مهمتها استيراد المواد الخام على الأخص من تركيا »[٤٥] .

وقد رأت إسرائيل أيضاً في تركيا سوقاً رائجة لتصريف بضائعها المصنعة ، ومصدراً مهماً للحصول على المواد الخام والمنتجات الغذائية ، وفتح منفذ آخر امام إسرائيل لأرخاء قبضة الحظر الاقتصادي العربي المفروضة عليها ، وتحقيق نوع من التكامل الاقتصادي بينها وبين تركيا[٤٦] .

وأصبحت تركيا بذلك وحتى نهاية الخمسينيات الدولة الآسيوية الوحيدة التي تقيم علاقات تجارية طبيعية مع إسرائيل[٤٧] .

لقد أدى الاعتراف التركي بإسرائيل وإقامة العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين الدولتين إلى تزايد هجرة اليهود الاتراك إلى إسرائيل ، وسمحت الحكومة التركية بانشاء مكتب في اسطنبول لرعاية جميع المسائل المتعلقة بهجرة يهود تركيا إلى إسرائيل ، إذ هاجر نحو أكثر من نصف اليهود الأتراك إلى إسرائيل والامريكيتين الشمالية والجنوبية ، وبعض الدول الأوربية ، ولم تهتم تركيا بذلك ، لأن أغلب هؤلاء المهاجرين كانوا من الطبقات الفقيرة في أزمير واسطنبول[٤٨] .

ويعزو أحد الباحثين الاتراك أسباب تغير موقف تركيا تجاه القضية الفلسطينية والاعتراف بدولة إسرائيل إلا أن الدوائر الحاكمة في تركيا أخذت تتطلع للحصول على مساعدات عسكرية ودعم سياسي من دول حلف شمال الاطلسي الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية للوقوف بوجه التهديدات السوفيتية لتركيا . وكانوا على استعداد لتقديم أية تضحيات مهما بلغ ثمنها من أجل الدخول في التحالفات الغربية ، كما أن العديد من الأتراك كانوا يعتقدون أن الارتباط بالغرب يرادف موضوعه (التقدم الحضاري) ، وإن إسرائيل هي بوابة الدخول التركية إلى الحضارة الغربية[٤٩] .

وعزز مجيء الحزب الديمقراطي التركي إلى الحكم في آيار ١٩٥٠ مكانة تركيا في النظام الرأسمالي العالمي ، وشكل نقلة نوعية في علاقاتها مع الدول الغربية ، ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية[٥٠] .

وعلى هذا الأساس لم يطرأ أي تغيير في سياسة تركيا تجاه إسرائيل ، بل على العكس من ذلك شهدت العلاقات التركية - الإسرائيلية تطورات مهمة على المستويات السياسية والاقتصادية والتجارية والعسكرية والثقافية .. ، ولم تكن تركيا مهتمة بتقديم أي دعم للعرب في هذه القضية الحيوية التي تعنيهم ، حتى ولو اقتصر الأمر على الجانب المعنوي أو المجاملة الدبلوماسية ، فهي لم تكن ترى آنذاك سوى مصالحها الذاتية البحتة ، دون اعتبار لعوامل الجيرة والدين والتاريخ التي تربط تركيا بالعرب.

وكان الاتراك يعللون مواقفهم تلك بالضغوط الأمريكية وشروط حلف شمال الأطلسي (الناتو) ، وبالتهديدات السوفيتية لأراضي ومياه تركيا ، وضرورة مجابهته بتلقيها الدعم والاسناد الغربي ، السياسي والاقتصادي والعسكري .. الذي يمر عبر البوابة الإسرائيلية ، الذي تحقق الكثير منه من خلال قبول تركيا في عضوية حلف شمال الأطلسي (الناتو) عام ١٩٥٢ ، وفي نظرة التعاون الاقتصادي الأوربي Oeec عام ١٩٤٩ وتلقيها مساعدات اقتصادية بعضها على شكل منح لتطوير قدراتها العسكرية ، وكذلك قبول انضمامها إلى المجلس الأوربي عام ١٩٥٢ ، وسعيها للانضمام إلى السوق الأوربية المشتركة . في حين كان العرب يسعون لاقامة علاقات ودية متوازنة مع تركيا خارج نطاق التكتلات والاحلاف العسكرية الغربية ، بحفظ للعرب حقوقهم الوطنية والقومية ولاسيما حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل ، انظر :

انيس صايغ ؛ يوميات هرتزل ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٢ ، ١٩٧٣ ، ترجمة هلا شعبان صايغ ٠

خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، بيروت ، مركز الأبحاث ، ١٩٧٣ ، بيروت ، مركز الابحاث ، ١٩٧٣ ، ص ٤٢ ٠

رفيق شاكر النتشة ، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، الاردن ، عمان ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٩٨٤ ٠

وحول تفاصيل أكثر عن علاقة اليهود بالاتحاديين ودورهم في الاطاحة بالسلطان عبد الحميد ، انظر : خيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص ٤١ ٠

(٢) كمال المنوفي ، تركيا والصراع العربي الإسرائيلي ، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، العدد ٢٣ ، ١٩٧٧ ، ص ٩٣ ٠

(٣) عبد الوهاب الكيالي ، تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، ١٩٧٣ ، ص ٣٦١ ٠

(٤) المصدر نفسه ، ص ص ٣٦٢ - ٣٦٤ ٠

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٣٢ ٠

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣٣ ٠

(٧) تم التوقيع على حلف سعد آباد في طهران في ٨ تموز ١٩٣٧ بين الدول الأربع تركيا والعراق وإيران وأفغانستان ٠ وتضمنت بنوده عدم التدخل في الشؤون الداخلية واحترام الحدود الإقليمية بين الدول الأربع ، وأن تتشاور دول الحلف بشأن المشكلات الدولية المؤثرة على المصالح المشتركة ٠ وعدم تورط أي دولة من دول الحلف مع دولة كبرى ضد احدى دوله ٠ وهذه البنود في حقيقتها لم تكن أكثر من تنظيم للعلاقات بين دول متجاورة تهدف الحفاظ على حدود كل واحدة منها واستشارة بعضها البعض في القضايا المشتركة وعدم اعتداء أي طرف على الطرف الآخر دون الالتزام الجدي بأية مسؤولية دفاعية من أية نوع ٠ كما أن معظم المبادئ والأسس التي نصت عليها بنود الحلف يغلب عليها طابع الشمول والتعميم لتثبيت مبادئ العرف الدولي بصيغ قانونية أكثر وضوحا ٠ وتوافرت عوامل وظروف اقليمية ودولية عقد هذا الحلف فالمسألة الكردية وما كانت تسببه من مشاكل على الحدود المشتركة بين كل من

تركيا وإيران والعراق تطلب من هذه الدول تنسيق جهودها لاتخاذ موقف موحد ازائها . كما أدى تفاقم الظروف الدولية في أوربا الغربية والتوسع الايطالي في افريقيا واحتلال الحبشة عام ١٩٣٦، وخشية تركيا من الخطر الايطالي وتهديده لمنطقة شرق البحر المتوسط ، مما دفعها للتحرك السريع لايجاد أسس تفاهم مع الدول المعنية بالحلف لكي تبقى الجبهة الجنوبية لتركيا والقريبة من الخليج العربي منطقة آمنة مستقرة . ولكن لم يكن لهذا الحلف أي دور خلال الحرب العالمية الثانية لأن ولادته كانت ضعيفة . كما أن الدول الداخلة فيه لم تكن من القوة أو القدرة على مجابهة الدول الكبرى ، وعقد آخر اجتماع لدول الحلف عام ١٩٣٩ . للتفاصيل انظر :

1 - Ismail Soyal : 1937 Saadabad Pact, Studies on Turkish - Arab Releations, Istanbul 1988. P. 130-135.

2 - J.C. Hwiwit, Diplomacy in The Near and Middle Eust 1914 - 1965, Vall 11 PP. 214 - 216.

3 - Gecffrey Lewis, Turkey, London 1965. P.117.

(٨) د . ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٩٠٦ ، كتاب وزارة الخارجية العراقية إلى مجلس الوزراء ت/١١/٦/١١ في ١٠ آب ١٩٣٧ .

(٩) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٧٢١ ، كتاب وزارة الخارجية العراقية إلى مجلس الوزراء ت/١/٩/٩ في ١٨ آب ١٩٣٧ .

(١٠) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٧٩١ ، كتاب وزارة الخارجية العراقية إلى مجلس الوزراء ق/٦/٢/٦ في ١٥ أيلول ١٩٣٧ .

(١١) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ق/٢٦/٦ ، كتاب وزارة الخارجية العراقية إلى مجلس الوزراء ق/٦٠/٢ في ١٧ تشرين الأول ١٩٣٨ .

(١٢) وزارة الخارجية العراقية : ش/٨/٦٩٨/٧٤٨٥ ، تقرير المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية ق/٤٩٦ في ٣٠ أيلول ١٩٣٨ .

(١٣) وزارة الخارجية العراقية : ش/٩٦/٦٩٨/٧٤٨٥ في ١٥ آذار١٩٣٩ .

(١٤) انظر : الوثيقة البريطانية المرقمة F.O.371/52400 والمؤرخة في ١٥ آذار ١٩٤٦ ، المنشورة في ، نجدة فتحي صفوت ، " موقف تركيا من قضية فلسطين " ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (٤٥) ، ١٩٨٢ ، ص ٩٠ .

(١٥) انظر : الوثيقة البريطانية المرقمة F.O.371/52400 والمؤرخة في ٢٥ آذار ١٩٤٦ ، المنشورة في ، المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(١٦) United Unations Yearbook, 1947-1984, N.Y., 1948. P.245.

(١٧) انظر : الوثيقة البريطانية المرقمة F.O.371/61775 والمؤرخة في ٢٢ نيسان ١٩٤٧ ، المنشورة في ، صفوت ، المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(١٨) انظر : الوثيقة البريطانية المرقمة F.O.371/61773 والمؤرخة في ٢٥ نيسان ١٩٤٧ ، المنشورة في ، المصدر نفسه ، ص ٩١ .

(١٩) United Nations Yearbook, OP. Cit. P.247.

(٢٠) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٢٧٢٧ ، تقرير المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية ت/٣/١٨١ في ٣١ آذار ١٩٤٨ .

(٢١) أحمد نوري النعيمي ، السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية (بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٥) ص ٢٧٤ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

(٢٣) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٢٧٣٧ ، كتاب المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية ت/٣/٢٣٩ في ٢٦ نيسان ١٩٤٨ .

(٢٤) الوثيقة نفسها .

(٢٥) الصهيونية والعنصرية ، المجلد الثاني ، أبحاث المؤتمر الفكري حول الصهيونية ٨ - ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٦ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ص ص ١١٨ - ١١٩.

* مثّل تركيا في هذه اللجنة الكاتب التركي المشهور بعدائه للعرب حسين جاهد يالجين ، وهو من يهود الدونمة .

(٢٦) United Nations Yearbook, Op. Cit. P.250.

(٢٧) سيم شاكماك ، « موقع تركيا في الحلف الأطلسي ، وأثر ذلك على علاقاتها بالوطن العربي »، مجلة المستقبل العربي ، العدد (٤٥) ، ١٩٨٢ ، ص ١٠٤ .

(٢٨) وزارة الخارجية : ع/١٠٧٠/٢٣٧/١٣ في ١٥ كانون الأول ١٩٤٨ .

* ركزت الصحف اليهودية الصادرة في تركيا ومنها صحف (شالوم - نجمة الشرق) في حملاتها الإعلامية على تبيان الفوائد التي يمكن لتركيا أن تجنيها ، إذا ما اعترفت بالكيان الصهيوني وتعاونت معها لأن العرب حسب رأي هذه الصحف إن رجحت كفتهم واشتد ساعدهم فانهم لن ينصرفوا عن المطالبة بالاسكندرونة وغيرها من المناطق العربية الموجودة ضمن الأراضي التركية.

انظر : د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٢٧٣٧ ، تقرير المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية ت/٣/٢٤١ في ١٥ آذار ١٩٤٨ .

(٢٩) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٢٧٣٧ ، تقرير المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية ت/١/٥ في ١٠ شباط ١٩٤٩ .

(٣٠) الوثيقة نفسها .

(٣١) النعيمي ، المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(٣٢) وزارة الخارجية العراقية : ع/٦٠/٦٠/١٣/٥٥٣٤ في ٣ نيسان ١٩٤٩ .

(٣٣) الوثيقة نفسها .

(٣٤) وزارة الخارجية ، الوثيقة السابقة .

(٣٥) صفوت ، المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(٣٦) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٢٧٣٨ ، تقرير المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية س/٣/١٧٠ في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٩ .

(٣٧) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٢٧٣٧ ، كتاب المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية س/٣/٢٠ في ١٤ كانون الثاني ١٩٥٠ .

(٣٨) Ozturk, Cunhur Baskan Larinin Murkiye Buyuk Millet Neciisindo Acis Nutulari, No. 19, Istanbul, 1969. S.415.

(٣٩) عمر كوركجي اوغلو ، « الرأي العام العربي وتركيا ، اتجاه الامتين نحو القضايا العامة » ، مجلة أوراق تركية معاصرة ، العدد الثاني ١٩٨٧ .

(٤٠) سيفي تاشان ، « السياسة التركية المعاصرة تجاه الشرق الأوسط » ، مجلة أوراق تركية معاصرة ، العدد الأول ١٩/١٧ ، ص ٢٦ .

(٤١) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/١٧٣٧ ، تقرير المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية ت/٢/١٦٦ في ٧ نيسان ١٩٤٩ .

(٤٢) وزارة الخارجية : ع/٦٠/١٣/٥٥٣٤ في ٣ نيسان ١٩٤٩ .

(٤٣) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٢٧٣٧ ، تقرير المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية ت/١/٥ في ٢٠ نيسان ١٩٤٩ .

(٤٤) رؤوف سعد أبو جابر ، « العلاقات الاقتصادية العربية التركية في القرن العشرين » ، بحث مقدم للمؤتمر الثالث للعلاقات العربية التركية ، مكتب ارتباط جامعة اليرموك - الأردن ، ٢٥-٢٨ نيسان ١٩٨٥ ، ص ٧ .

(٤٥) د.ك.و : وثائق البلاط الملكي ٣١١/٢٧٣٧ ، كتاب المفوضية العراقية في أنقرة إلى وزارة الخارجية العراقية ت/٢/١٣٩ ، في ٢٤ آذار ١٩٤٩ .

(٤٦) ريتشارد ف. غريمت ، الن ليبسون ، تركيا ، صعوبات وآفاق ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ترجمة ، مؤسسة الأبحاث العربية ، سلسلة دراسات استراتيجية - ١٢ ، ص ٦٣ .

(٤٧) صفوت ، المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٤٨) أحمد عبد القادر الجمال ، من مشكلات الشرق الأوسط ، (القاهرة ، مكتبة الانجلو - مصرية، ١٩٥٥ ، ص ٤٩٤ .

(٤٩) Turkaya Ataov, " The Palestine Question and Turkey " , In Turk - Arap I Liskileri Geomiste, Bugun Ve Gelecekte, Uluslararasr Konfernasi Bildivileri, Hacettepe Universities, Turkey Ve Orta Dogu Arastima Enstitusu, 18-22 Hazirau 1979, Ankara, PP.209-211.

(٥٠) بيرج بيرير وكلر ، تركيا في أزمة ، من رأسمالية الدولة إلى الاستعمار الجديد ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ١١٤ .

المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق الأجنبية :

1 - F.O. 371/52408, 15 March 1946.

2 - F.O. 371/52400. 25 March 1946.

3 - F.O. 371/61775, 22 April 1947.

4 - F.O. 371/61773, 25 April 1947.

5 - United Unations Yearbook, 1947 - 1948, N.Y, 1948.

ثانياً : الوثائق العربية :

أ - وثائق وزارة الخارجية العراقية المحفوظة في أرشيف الوزارة :

١- ش/٧٤٨٥/٦٩٨/٨ - ١٩٣٨

٢- ش / ٧٤٨٥/٦٩٨/٩٦ - ١٩٣٩

٣- ٤/١٠٧٠/٢٣٧/١٣ - ١٩٤٨

٤- ٤/٦٠/٦٠/١٣/٥٥٣٤ - ١٩٤٩

٥- ٤/٦٠/٦٠/١٣/٥٥٣٣ - ١٩٤٩

ب - الوثائق المحفوظة في دار الكتب والوثائق - بغداد .

وثائق البلاط الملكي :

١- ٣١١/٩٠٦ - ١٩٣٧

٢- ٣١١/٧٢١ - ١٩٣٧

٣- ٣١١/٧٩١ - ١٩٣٧

٤- ة/٦//٢٦ - ١٩٣٨

٥- ٣١١/٢٧٣٧ - ١٩٤٨

٦- ٣١١/٢٧٣٧ - ١٩٤٩

ثالثاً : الكتب العربية والمترجمة :

١- بيير وكلو : بيرج : تركيا في أزمة ، من رأسمالية الدولة إلى الاستعمار الجديد ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ترجمة ، مركز البحوث والدراسات .

٢- الجمال ، أحمد عبد القادر : من مشكلات الشرق الأوسط ، القاهرة ، مكتبة الانجلو - مصرية، ١٩٥٥ .

٣- صايغ ، أنيس : يوميات هرتزل ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٢ ، ١٩٧٣، ترجمة : هلال شعبان صايغ .
٤- غريمت ، ريتشارد . ف ، الن ليبسون : تركيا ، صعوبات وآفاق ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية - سلسلة دراسات استراتيجية ، ١٢ .
٥- قاسمية ، خيرية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، بيروت ، مركز الأبحاث ، ١٩٧٣ .
٦- الكيالي ، عبد الوهاب : تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٢ ، ١٩٧٣ .
٧- النتشة ، رفيق شاكر : السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، الاردن ، عمان ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٩٨٤ .
٨- النعيمي ، أحمد نوري : السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٥ .
٩- الصهيونية والعنصرية ، المجلد الثاني ، أبحاث المؤتمر الفكري حول الصهيونية ٨ - ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٦ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

رابعاً : البحوث العربية والمترجمة :

١- أبو جابر : رؤوف سعد : « العلاقات الاقتصادية العربية التركية في القرن العشرين » ، بحث مقدم للمؤتمر الثالث للعلاقات العربية التركية (الاردن - عمان ، مكتب ارتباط جامعة اليرموك ٢٥ - ٢٨ نيسان ١٩٨٥ .
٢- اوغلو ، عمر كوركجي : « الرأي العام العربي وتركيا ، اتجاه الأمتين نحو القضايا العامة » ، مجلة أوراق تركية معاصرة ، العدد الثاني ، ١٩٨٧ ، مركز الدراسات التركية ، جامعة الموصل .
٣- تاشان ، سيفي : « السياسة التركية المعاصرة تجاه الشرق الأوسط » ، مجلة أوراق تركية معاصرة ، العدد الأول ١٩٨٧ ، مركز الدراسات التركية ، جامعة الموصل .
٤- صفوت ، نجدة فتحي : « موقف تركيا من قضية فلسطين » ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٤٥ ، ١٩٨٢ .
٥- شاكماك ، سيم : « موقع تركيا في الحلف الأطلسي ، وأثر ذلك على علاقاتها بالوطن العربي» ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٤٥ ، ١٩٨٢ .
٦- المنوفي ، كمال : « تركيا والصراع العربي الإسرائيلي » ، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، العدد ٢٣ ، ١٩٧٧ .

خامساً : الكتب والبحوث الأجنبية :

1 - Hwiwit J.c, Diplomacy In Thje Near and Middle East, 1914 - 1965, Vall 11.

2 - Lewis. Geoffrey, Turkey, London , 1965.

3 - Soyal Ismail , 1937 Saadabad Pact, Studies on Turkish - Arab Releations, Istanbul 1988.

4 - Ozturk, Cunhw Bashan larinin Murkiye Buyuk Millet Necllsindo Acis Nutulari, No. 19. Istanbul, 1969.

5 - Ataov Turkaya, " The Palestine Question and Turkey", In Turk - Arap Iliski, Leri Geomiste, Bugun Ve Gelecekle, Uluslararasr Konfernasi Bildivilert, Hacettepe Universsities Turkey Ve Orta Dogu Arastima Enstitusu, 18-22 Haziran 1979, Ankara.

جماليات البديع المعنوي ووظيفته الفنية

د. الأخضر عيكوس

معهد الآداب واللغة العربية

جامعة قسنطينة ـ الجزائر

من المعلوم أن المتلقى – في أي عملية إبداعية – إنما يستقبل الأثر الفني بعقله وبمختلف حواسه وجميع قواه المدركة .

وإذا كان النقاد والبلاغيون العرب القدامى لم يهتموا بسيكولوجية المتلقى وما يبذله من جهود ذاتية في تلقي العمل الأدبي ، فإنهم ما فتئوا يسجلون ملاحظاتهم الانطباعية عن تأثير الفعل الفني في وجدان هذا المتلقي . وكثيرا ما كانت ملاحظاتهم هذه منصبة على نقاط استقبال معينة مركوزة . إما في قوى إدراك المتلقي الذهنية وقدراته العقلية ، وإما في صميم حواسه وقوى التخيل والتذكر لديه . ومن هنا بالذات كانت نظرتهم إلى العمل الأدبي الذي حددوا له سبيلين اثنين يسلكهما إلى متلقيه . فهو إما أن يستقبل الصورة الفنية – والبديع صورة فنية – بعقله بعد عملية تفكير . وينفعل لها انفعالا ذهنيا . وهذا يتطلب توافر شروط الإبانة والإفهام ، أي أن الاستجابة الانفعالية – لا تحدث إلا بعد عملية فهم واستيعاب . وإما أن يتلقى هذه الصورة بحواسه ووجدانه فينفعل لها انفعالا حسيا ونفسيا ، وهذا يتطلب توفير شرط المثير المناسب من إيقاعات موسيقية أو صور صوتية ولفظية فيها فن وإبداع وأصالة مثلما ركزوا على ذلك في كثير من ألوان البديع اللفظي التي درسوها .

وفي البديع المعنوي ، الذي نحن بصدد دراسته ، نجد البديعيين يركزون على المعنى التجريدي الذي يدرك بواسطة العقل . وقد صاغوا جملة من القواعد والضوابط الفنية التي إن التزم بها الشاعر ، جاءت صوره البديعية جميلة مؤثرة .

أجل ، لقد أرجعوا قيمة كل تعبير شعري بديع إلى مصدرين إثنين : إما إلى الجمال الكامن في معناه ، وإما إلى الجمال الكامن في مبناه ، ويبدو لي أن هذا الانشطار في التعامل مع النص الشعري عامة والصور الشعرية خاصة كان نتيجة لذلك الصراع المحتدم بين اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون ، كما يصطلح عليه اليوم في النقد الحديث . وهو الصراع الذي قسم البلاغيين إلى فريقين من مؤيد للمعنى على حساب اللفظ ومنتصر للفظ على حساب المعنى .

ولكن ملامح المصالحة بين هذين الفريقين كانت تبدو من حين إلى آخر في موقف فريق ثالث رأى أن الصواب في عدم الفصل بين هذين العنصرين أو هذين المسلكين لذين يمر فيهما الأثر الفني إلى المتلقي ، لأنهما في الواقع مسلك واحد لوجهان مختلفان لعملة واحدة .

وفي ضوء هذه المعطيات ، سأقوم بعزل جملة من أضرب البديع المعنوي ، وأجري عليها تحليلا بديعيا . يطمح أن يجلي جوانب من مظاهر الإبداع الفني في الصورة البديعية المعنوية بعامة .

حسن البيان :

إن هذا المصطلح يبدى لأول وهلة أنه أسلوب في التعبير تحكمه قواعد وضوابط محددة ، ولكنه – لمن يمعن النظر فيه – يبدو حكما نقديا عاما لا يقابله ضد ؛ فلا يقال : قبح البيان : لأن البيان لا يمكن أن يوصف بالقبح ؛ فهو مثل الجمال ؛ فلا يقال جمال قبيح .

ولكن للبيان درجات يمكن الأرتقاء فيها بأسباب إلى أن يبلغ الشاعر في شعره أو الخطيب في خطبته درجة من البلاغة والفصاحة والفهم والإفهام متميزة ، هي ما عبّر عنه البديعيون بحسن البيان . وشرطه « كشف المعنى وإيصاله إلى النفس

بسهولة»[1] أو هو « الإبانة عما في النفس بألفاظ سهلة بليغة بعيدة عن اللبس »[2].

وليس في كلام الشعراء والأدباء والخطباء ، مهما علا وارتقى في سلم البيان ، ما يضارع بعضا من كلام الله عز وجل الذي خلق الإنسان فعلمه البيان .

وقد أجمع البلاغيون على أن حسن البيان هو مطمع كل متكلم خطيب ومطمح كل شاعر أديب . فهو « مادة البدائع وموضوع النكت والروائع . وذلك أنه هيولي سائر أساليب البديع . وجزئيات البلاغة وسائرها صور له . فنسبة البيان إليها هي نسبة المادة إلى الصورة »[3] . وجميع الأمثلة التي استشهد بها البديعيون على حسن البيان كانت آيات بينات من القرآن الكريم . واقتداء بهؤلاء العلماء الأجلاء نرى أن نثبت ما تيسر من آثات قرآنية اتصفت بحسن البيان ، وصورت معاني سامية متميزة، وعبّرت عن مواقف جليلة ومهيبة . فمن صور حسن البيان في القرآن الكريم قوله تعالى : { ولكم في القصاص حياة }[4] ، قال السجلماسي : فهذا بيان في غاية الإيجاز[5] . وقوله عز وجل : { كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم }[6] «وهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الأغترار بالإمهال »[7] . وكذلك قوله جلت قدرته : { وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم }[8] . « وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج»[9] . وقوله جل جلاله : { الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين }[10]؛ قال « وهذا أشد ما يكون من التنفير عن الخلة إلا على التقوى »[11] ؛ وقوله عز وجل: { أن تقول نفس يا حسرنا على ما فرطت في جنب الله }[12] . قال « وهذا أشد ما يكون من التحذير من التفريط »[13] .

ومثل هذا كثير في كلام الله عز وجل ، بل إن كلام الله تعالى حسن بيان .

وأما حسن البيان في الشعر فكقول أبي العتاهية مادحا :

يضطرب الخوف والرجاء إذا حرك موسى القضيب أو فكر

وكقول الشاعر :

له لحظات عن خفافي سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل

قال ابن أبي الإصبع معلقا على هذين البيتين : « فإن هذين الشاعرين أرادا مدح هذين الممدوحين بالخلافة . ووصفهما بالقدرة المطلقة وعظم المهابة بعد الله سبحانه ، فإذا نظر أحدهما نظرة ، أو حرك القضيب مرة ، أو أطرق مفكرا لحظة ، اضطرب الخوف والرجاء في قلوب الناس ، فأبانا عن هذه المعاني أحسن إبانة »[١٤] .

والواقع أن الشاعرين قد استطاعا في هذين البيتين ليس فقط ، أن يصفا ممدوحيهما بالهيبة والقدرة . ولكنهما استطاعا بفضل قدرتهما البيانية أن يزرعا في نفوس السامعين شعورا حقيقيا بالرهبة والخوف والرجاء والطمع : من هذين الممدوحين، لما عرف عنهما من صفات متميزة يتقاسمهما الغضب والحلم .

ويلاحظ أن الكلمات التي تشكل مراكز النبض والإشعاع في مثل هذا الأسلوب من البديع المعنوي . لم تعد تثيرنا بجرس حروفها أو بموسيقى أصواتها . كما شهدنا ذلك في البديع اللفظي * ، وإنما أصبحت تثيرنا بما تبعثه في مخيلتنا من إيحاءات ، وظلال وألوان شفافة يتراءى المعنى من خلالها صورة مشعة نابضة بالحياة ، مثلما يتجلى لنا ذلك في هذه اللوحة الشعرية التي تبرز الممدوح في صورة ملك من أعظم الملوك مهابة وحيا ، وعزة سلطان : قال :

لما وقفت عليه في الجموع ضحى	وقد تعرضت الحجاب والخدم
حييته بسلام وهو مرتفق	وضجة الناس عند الباب تزدحم
في كفه خيزران ريحها عبق	من كف أروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضى من مهابته	فما يكلم إلا حين يبتسم[١٥]

إن حسن البيان أرقى أسلوب وأجمل صياغة تعبيرية ، يتكشف فيها المعنى للمتلقي كشفا فنيا ، فيه متعة فكرية ، وفيه إثارة وجدانية تحرك المشاعر وتذكي الأحاسيس والانفعالات النفسية .

ولا يستحق الكلام أن يوصف بحسن البيان إلا إذا تحقق فيه شرط الكشف « عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة »[١٦] .

وفي أبيات الحزين الكناني السابقة التي يمدح فيها عبد الله بن عبد الملك بن

مروان، نجد الشاعر قد ألم بجملة من الصفات المعنوية الخاصة ، ألبسها شخص الممدوح مستعملا ألفاظا فصيحة ، سهلة في أغلبها ، ولكنها من حيث البنية الإيقاعية والصوتية لا تقدم شيئا ذا بال . إلا أنها على المستوى الوصفي ، استطاعت أن تنقل إلينا الفضاء المكاني بكافة عناصره الحية المتحركة والجامدة الساكنة ، كما استطاعت أن تضفي على شخص الممدوح هالة من هيبة الملك ، وقوة الحكم ، ومجد السلطان ورفعته. وقد ألم الشاعر في هذه الألفاظ البسيطة القليلة بمعاني جليلة أخرج الممدوح من خلالها في أبهى صورة مهيبة .

وأبرز صفة أضفاها الشاعر على ممدوحه هي صفة الحياء وقد اقترنت بصفة أخرى هي الحزم والصرامة . فالممدوح قد جمع بين صفات معنوية لا توجد إلا في شخص عالي الهمة . عظيم الملك والمهابة . وقد كان للفظة " خيزران " وتوابعها : أروع . . عرنين . . شمم . . . إيحاء خاص أضفى على الممدوح هالة من القوة والعظمة والجلال.

هذا هو حسن البيان ، إنه أعلى رتبة في سلم التعبير الفصيح ، وأسمى درجة في مرقاة البلاغة والبيان .

الإيضاح :

حين يكون المعنى مشوبا ببعض اللبس أو الغموض . فإن ذلك يعد قدحا في البيان وشيئا يذهب بحسنه وجماله . وعليه فلابد من تحري الإبانة والتبيين في كل تعبير شعري ، وذلك بالعمل على إزالة كل ما من شأنه أن يحول دون وصول المعنى إلى ذهن المتلقي في وضوح تام ، ويستعان على تحقيق ذلك بالإيضاح الذي هو «توفية الدلالة على المعنى أقصى غاياتها . والبلوغ بها أبعد نهايتها »[١٧] .

ومعنى هذا أننا نعمد إلى الإيضاح عندما نشعر أن هنالك إبهاما داخل كلامنا أو إبهاما استولى على أذهان السامعين فالتبس عليهم فهم المقصود .

والإيضاح أو التوضيح - كما سمي أيضا - يشتمل على كل من البيان والتفسير فإذا ما جاءت العبارة مستقلة في دلالتها ، مكتفية بذاتها ولا تحتاج إلى غيرها ،

فتلك عبارة يمكن أن توصف بالبيان . وإذا جاءت هذه العبارة مفتقرة إلى غيرها بسبب ما اكتنفها من غموض أو إبهام . فتلك عبارة يمكن أن يصطلح عليها بالتفسير[١٨] . كما سنبين لاحقا .

ولابد من ملاحظة تداخل مصطلحات كل من التوضيح والتفسير والتبيين عند البديعيين ، إلا أن بدر الدين بن مالك قد فرق بين هذه المصطلحات ورسم حدودها الفاصلة بينها[١٩] . على أن مؤكد الفرق بين التفسير والإيضاح ، هو أن التفسير كما يقول ابن أبي الإصبع ، تفصيل الإجمال وأن الإيضاح هو رفع الإشكال »[٢٠] .

ومن أساليب التعبير البديعي المعنوي التي لا تستقيم إلا بالاعتماد على عنصر الإيضاح ، قول الشاعر مادحا :

يذكرنيك الخير والشر كله وقيل الخنا والعلم والحلم والجهل
فألقاك عن مكروهها متنزها وألقاك في محبوبها ولك الفضل[٢١]

إن البيت الأول بيت موجه في مفهوم ابن مالك بمعنى أنه يحمل دلالتين متناقضتين نظرا لما جمعه من تضاد ألفاظ ، تعبّر عن المدح والهجاء في آن واحد ، وإذا لم يوضح هذا البيت ، فإن المعنى يبقى بعيدا عن الفصاحة والبديع .

ولهذا حين فطن الشاعر إلى أنه أوقع نفسه ، كما أوقع المتلقي ، في الغموض ، سارع في البيت الثاني إلى توضيح مراده ، يذكر ما أزال اللبس والغموض ، وأجلى المعنى : فلمع في ذهن المتلقي صافيا مشرقا .

وإذن ، فإذا كان الإشكال واللبس والغموض من عيوب المعاني ، فإن التوضيح والتفسير أو التبيين هي الأساليب البديعية الكفيلة بإزالة هذه العيوب .

ومثلما يكون التوضيح في معاني المدح والهجاء يكون في غيرها ، ومن أبرز أساليبه ما يأتي لإظهار حكم خفي أو تحديد دلالة كلام موجه . فمثال الثاني عبّر عنه البيتان السابقان . وأما مثال الأول فكقول الشاعر :

ومقر طق يغني النديم ، بوجهه عن كأسه الملأى وعن إبريقه

فعل المدام ولونها ومذاقهـــا   في مقلتيه ووجنتيه وريقه[٢٢]

إن الدلالة المعنوية في البيت الأول غير مستقلة بذاتها . فهي تحتاج إلى إيضاح ؛ لأن الشاعر قد أقر حكماً لم ينفذ إلى ذهن المتلقي بسبب الإشكال العالق به واللبس الذي يكتنفه . لأن وجه هذه الجارية الحسناء ، وإن كان جميلاً ، لا يمكن أن يستعيض به النديم عن الخمر ؛ مثل هذا الاعتراض الذي قد يبديه المتلقي هو الذي تنبه إليه الشاعر، وتدارك حكمه بقوله : إن ريق هذه الجارية العذب ووجنتيها الورديتين ومقلتيها المسكرتين يغنى بها النديم عن الكأس والإبريق .

المذهب الكلامي :

الظاهر أن المذهب الكلامي - كأسلوب بديعي - ظهر في الشعر العربي مع ظهور المنطق وعلم الكلام . وقد كان أحد الأصول الخمسة التي بني عليها ابن المعتز كتابه في علم البديع مثلما يبدو ذلك في مؤلفه ، وهو ، وإن لم يحتفل به كثيرا ، فإن غيره من البديعيين أولوه عنايتهم وحشدوا له الأمثلة والشواهد الأدبية والشعرية ، ونحن من خلال استقرائنا لهذه الأمثلة والشواهد ، تبين لنا أن المذهب الكلامي ، وسماه بعضهم : المحاجة[٢٣] يتخذ أسلوبين بارزين في التعبير الشعري ؛ الأول : يقوم على نظم الكلمات بطريقة منطقية لتصوير المعنى مع مراعاة شروط التضاد والتقابل والتناسب والترتيب ، وغيرها مما من شأنه أن يحمل المتلقي على معاودة التفكير في الصورة الشعرية بهدف استخلاص الدلالة . ومثاله ، قول إبراهيم بن العباس :

وعلمتني كيف الهوى وجهلته   وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي
وأعلم مالي عندكم فيميل بي   هواي إلى جهلي فأعرض عن علمي[٢٤]

إن عنصر التضاد والتقابل هو العنصر المسيطر على صياغة هذين البيتين اللذين يتضمنان معنى أساساً بدور حول ست كلمات مركزية هي : العلم - الجهل - الميل - الإعراض - الظلم والطبر .

ويلاحظ أن الشاعر كأنما يستخرج المعاني من بعضها بعضا . وقد ساعدته على إقامة هذا الأسلوب التعبيري حروف العطف والجر التي بلغت مجتمعة عشرة حروف في

البيتين معا . ورأى أن هذا الأسلوب من المذهب الكلامي لا يمكن أن يستقيم دون الاعتماد على هذه الحروف . ولننعم النظر في البيتين التاليين لمعاينة دور حروف المعاني في نسج الفكرة التي ضمنها الشاعر اعتذاره لممدوحه :

البر منك وطاء العذر عندك لي   فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بي فأصبح عندك لي   مقام شاهد عدل غير متهم[٢٥]

أما الأسلوب الثاني من المذهب الكلامي ، كما توضحه الشواهد الشعرية ، فيقوم على ضرب من الجدل ؛ ولذا قيل في حده إنه « ادعاء شيء مع الحجة عليه »[٢٦] ؛ وهذا ما عناه ابن مالك في تعريف لهذا المصطلح[٢٧] .

وإذا كان الأسلوب الأول يتصف ببعض الجدل والاحتجاج ، ولا يتطلب « مسلمة صحيحة الاستلزام » . فإن الأسلوب الثاني يتطلب برهانا ودليلا على صحة الادعاء والزعم . ويمكن أن تستوضح صورة هذا الأسلوب ونظام تركيبه في الأمثلة الشعرية الآتية ، قال بعضهم :

يا ذا الذي بصروف الدهر عيرنا   هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف   وتستقر بأقصى قعرها الدرر
وفي السماء نجوم لا عداد لها   وليس يكسف إلا الشمس والقمر[٢٨]

إن أسلوب المذهب الكلامي هنا قد مكّن الشاعر من أن يظهر أمام خصمه في صورة البطل الهام ، والجواد الكريم ، والجبل الذي تتكسر عليه مصائب الدهر . وقد رسم لنفسه هذه الصورة باعتماده طريقة المتكلمين في جدلهم وحوارهم ، وكان ذلك أن بنى مقدمة ظنية افتراضية انطلاقا من مخاطبة الخصم الذي عير الشاعر . وتشفى فيه لما حل به من مصائب ، ثم الرد عليه بتوظيف كلمة الدهر في سياق جديد مؤداه أن الدهر لا يعاند إلا من كان ذا شأن وخطر ؛ ثم أكمل مدحه لنفسه في البيتين الباقيين بتقديم أدلة وحجج على صحة ادعائه بأنه رجل ذو خطر ، فهو كالبحر يلفظ الرغاء والزبد والتافه من الأشياء ، ويحتفظ في أعماقه بكل عظيم جليل ، وهو كذلك عظيم الشأن مثل الشمس والقمر بين الكواكب السيارة التي مهما بدت مضيئة لا تبلغ مرتبة

هذين الكوكبين العظيمين .

والأبيات ، كما نرى ، صيغت في شكل ضرب أمثلة تعتمد على عنصر المفارقة بين صفتين متناقضتين في الشيء الواحد ؛ وذلك بهدف المفاضلة بينهما ، وترجيح إحداهما على الأخرى . وهنا نرى أن الشاعر يشبه نفسه بالدر ويشبه خصمه بالجيفة ضمنا . ويعد خصمه من الأرذال ويجعل نفسه في مصاف الأبطال والملوك . وهذا كله لا شك ، يقدم لنا صورة هجائية مقذعة تسلك أسلوب المذهب الكلامي ، ولكنها تستفيد من أساليب التعبير البياني الأخرى مثل التشبيه والاستعارة .

وهذا مثال آخر على أسلوب المذهب الكلامي الذي يقوم على القياسات المنطقية ، وهو أبيات قالها مالك بن المرحل ، وقد ضمنها رأيه في الحب :

لو يكون الحب وصلا كله	لم تكن غايته إلا الملل
أو يكون الحب هجرا كله	لم تكن غايته إلا الكلل
إنما الوصل كمثل الماء لا	يستطاب الماء إلا بالعلل[٢٩]

ففي البيتين الأولين « قياس شرطي » وفي الثالث « قياس فقهي » لأنه « قاس الوصل على الماء ، فكأنما الماء لا يستطاب إلا بعد حرارة الهجر »[٣٠] .

التبيين :

التبيين غير البيان ، كما هما في عرف البديعيين ، وكما استطاعت هذه الدراسة أن تصفهما وتوضح الفرق بينهما[٣١] .

فالبيان هو القدرة على الكشف والإفصاح ، والإبانة عما يختلج في النفس من المعاني والمشاعر ، وإيصالها إلى المتلقي بكل دقة ووضوح ، بعيدا عن كل لبس وغموض يمكن أن يحول دون فهمه لها ؛ فهو بهذا يكون ملكة لدى المتكلم وطاقة كامنة تمنحه قوة التعبير البديع التي يتميز بها متكلم عن آخر ، كما يذهب إلى ذلك ابن البناء المراكشي .

وأما التبيين فهو إجراء عملي يقوم به الشاعر في أثناء كلامه لتفسير ما خفي

منه على المتلقي أو شكل عليه فهمه ؛ سواء كان ذلك من جهة المعنى أو من جهة اللفظ .

وتتجلى وظيفة التبيين في مثل هذا البيت للمتنبي ؛ قال :

فتى كالسحاب الجون يرجى ويتقى   يرجى الحيا منه وتخشى الصواعق (٣٢)

فالعبارة المكونة لصدر البيت تحتاج إلى تفسير لكونها غامضة ، فقد شبه الشاعر الممدوح بالسحاب والجون ، وجعله مصدرا للطمع والخوف وفي هذا لبس وغموض من جهتين : من جهة المعنى ؛ لأن المتلقي لابد أن يبقى يتساءل : فيم يرجى - ومم يتقي؟ ومن جهة الألفاظ ، لأن كلمة " الجون " من الأضداد ، فهي تحتمل دلالة السواد والبياض كليهما . وإذن فالشاعر مضطر أن يبين معناه للمتلقي ويفسره لإزالة الالتباس ؛ لهذا قال في الشطر الثاني إن ممدوحه يرجى منه الجود والعطاء فهو كالحياة أي كالمطر الذي يحيي الأرض ؛ وهو أيضا كالصواعق التي يمكن أن تدمر كل شيء وتحرق كل حي .

وبهذا يتمكن المتلقي من ترجيح إحدى دلالتي لفظة " الجون " التي ينبغي أن تضفي على السحاب صفة السواد . لأن السحب البيضاء لا يرجى نوالها ، ولا يخشى ضررها ، وليس ذلك حال الممدوح .

ومثل هذا الأسلوب البديعي في إخراج المعاني والتعبير عنها تعبيرا فنيا ، قول الشاعر :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر
يحكي أفاعيله في كل نائبة   الغيث والليث والصماصة الذكر (٣٣)

فقد أجمل الشاعر حكما في صدر البيت صرح فيه بأن هنالك ثلاثة أشياء تضفي إشراقا وبهجة على الحياة . ولاشك أن السامع سيتطلع إلى معرفة هذه الأشياء الثلاثة ؛ وسيظفر بلذة الكشف والإبانة عن الحكم بمجرد إزالة الشاعر للغموض الذي تعمده في صدر البيت لغاية فنية ؛ وذلك بتفصيل ما أجمله في العدد ثلاثة ، حيث ذكر الشمس

والقمر مقرونا بهما أبو إسحاق .

الحقيقة إنه ينبغي أن تنظر إلى أساليب التعبير البديعي ، لا على أنها مجرد أساليب عفوية ؛ ولكنها أساليب تعبير تقوم على أسس فنية مدروسة فيها جانب كبير من الصنعة والتكلف ؛ أعني الجهد الذي بذله الشاعر من أجل أن يخرج معانيه الشعرية في مثل هذه الصورة البديعية المعبّرة والمثيرة .

إن أساليب التعبير البديعي سواء كانت لفظية أو معنوية ، تقوم على أسس تركيبية ونفسية ، فالتركيبية متعلقة بالمبدع نفسه ، والنفسية تخص المتلقي ، أي أن الشاعر بوصفه مبدعا يجهد نفسه وفكره في إبداع البنية أو التركيبة الشعرية التي تمكنه من ملامسة شعور المتلقي وإثارة انفعاله ، ليشاركه المتعة الفنية التي أجهد نفسه في تحقيقها ضمن ما أنجزه من صور وتراكيب .

وأظن أن الشاعر العربي القديم كان - على عكس الناقد - يهتم كثيرا بسيكولوجية المتلقي الذي يمثل بالقياس إليه عنصرا هاما ، ينبغي مراعاته أثناء العملية الإبداعية .

وتتجلى وظيفة التبيين أيضا في مثل هذه الصورة التي تنبه صاحبها كثيرة عزة إلى ما اعتراها من التباس بسبب ألفاظها ذات الدلالات المشتركة ، قال :

وأنت التي حببت كل قصيرة إليّ ولم تعلم بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا ، شر النساء البحاتر [٣٤]

فلفظة « قصيرة » تعني المحبوسة من النساء تلازم بيتها لا يسمح لها بالخروج [٣٥] ، كما أن القصيرة هي ضد الطويلة . والدلالة الأولى تفيد صفة معنوية حسنة . أما الثانية فتفيد صفة ذميمة . لهذا فإن الشاعر « لما أحس بالاشتراك مع كونه مفهما معنى مستقبحا ، رفع ذلك المفهوم بتعيين المفهوم المراد من مدلولي المشترك ومفهوميه » [٣٦] .

والخلاصة أن التبيين ، كغيره من ألوان البديع ، أسلوب في التعبير وضرب من

الصياغة الشعرية التي يتعمدها الشاعر بهدف إثارة المتلقي ، ويكون ذلك بانتهاج طريقة مخصوصة في تركيب العبارة أساسها إضفاء قدر من الغموض على المعنى يحمل المتلقي على التطلع إلى الفهم والإبانة ؛ لأن العبارة الشعرية في أسلوب التبيين تبقى غير واضحة بسبب الإبهام والغموض الذي يعتورها في جزئها الأول عادة ، أي في الجزء الذي يحتاج إلى تفسير .

ويلاحظ السجلماسي أن هذا الإيهام الذي يحدث للعبارة عرضا أو يكون عن قصد من الشاعر ، يؤدي وظيفة فنية لأن « إيهام الشيء حامل على الطموح إليه ، وباعث على اشتداد الحرص عليه ، لولوع النفس أبدا بإخراج ما في القوة إلى الفعل »[٣٧] .

التتميم :

يحتل التتميم - بوصفه محسنا بديعيا معنويا - اهتماما بالغا عند البديعيين بالقياس إلى كثير من ألوان البديع الأخرى[٣٨] .

ولاشك أن هذا الاهتمام يعود إلى الوظيفة التي يؤديها التتميم في العبارة الشعرية ، فهو يمنح الشاعر الفرصة لتدارك خطأ وقع منه في عبارته الشعرية فشانها ، كما يوفر له حيزا في البيت ، يشغله بعبارة جزئية يحتاط بها عن الوقوع في الخطأ ، أو يحترز بدلالتها عن تقصير قد يلحقه في معناه .

فالتتميم بهذا المفهوم له وظيفة تكميلية ينشدها الشاعر بغية تحقيق الكمال للمعنى الذي يروم التعبير عنه ، فلا يغادر ما يفيد تمامه إلا أورده ، ولا ما يفيد توكيده إلا ذكره من زيادة معنى أو إضافة لفظ[٣٩] .

ومن الأمثلة التي تناقلها البديعيون مستشهدين بها على التتميم ، قول الشاعر:

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمي

فقوله " غير مفسدها " تتميم للمعنى واحتراس للديار من الفساد بكثرة المطر[٤٠] .

وقول بعضهم في فرس :

قامت قوائمه لنا بطعامنا غضًا وقام العرف بالمنديل

« فقوله " غضا " احتراس عجيب ، إذ لو لم يذكر لتوهم أنهم ينقلون عليه أزوادهم[٤١] .

وبهذا يكون التتميم إضافة معنوية مفيدة ، تمنح المعنى الذي تجيء فيه زيادة فهم وحسن تبيين .

ولكن قد يجيء التتميم عبارة تكون حشوا لا تمنح المعنى زيادة وضوح أو بيان ، ولكنها تسهم في إقامة وزن البيت . وإذا جاء التتميم على هذه الصورة ، فإنه لا يرقى إلى درجة المحسن المعنوي إلا إذا أدمج فيه ضرب من أضرب الدبيع الأخرى . مثال ذلك قول المتنبي :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي رأيت فيه جهنما[٤٢]

فقد جاءت عبارة - يا جنتي - لا لتؤدي وظيفة تتميم ، لأن المعنى تام بدونها ولا يحتاج إلى زيادة لفظ ، وإنما لتؤدي وظيفة بديعية تمثلت في الجمع بين المتضادين، حين قابل الشاعر الجنة بجهنم .

التقسيم :

يدل التقسيم بوصفه تركيبة شعرية ، على نمط مخصوص من البناء اللغوي الذي يقوم في أساسه على ترتيب عناصر المعنى وأجزائه بحيث يشكل هذا البناء قسمة يأخذ فيها كل عنصر من عناصر المعنى ما يتصل به من الأجزاء المتعلقة أو العائدة إليه .

فمثلاً حين أراد بشار أن يعبر عن نتائج معركة حسمت لصالح ممدوحه ، ويصف اندحار العدو وانهزامه ، قال :

فراح فريق في الإسار ومثله قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه[٤٣]

يقول النقاد البديعيون في تعليقهم على هذا البيت إنه لا يوجد فريق رابع يمكن ذكره ، لأن الشاعر قد ألم بجميع عناصر المعنى الذي ضمنه دلالة الهزيمة : إذ ما من

معركة إلا وتمخضت عنها نتائج مثلما ذكر الشاعر .

ويشبه قول بشار هذا ما قاله المتنبي في الغرض نفسه :

الدهر معتذر والسيف منتظر — وأرضهم لك مصطاف ومرتبع
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا[٤٤]

وتختلف صورة المتنبي عن صورة بشار في إلمام المتنبي بعنصر الدمار المادي ، من نهب الممتلكات ، وحرق الدور والزروع ، وإغفاله عنصر الأسرى الذي استبدله بالسبي .

ويمكن أن نستنتج من هاتين الصورتين أن ممدوح بشار كان في حالة دفاع ، وأن ممدوح المتنبي كان في حالة هجوم . كما يقال في لغة المعارك ، لذا تحدث الأول عن الأسر والقتل والفرار . وألم الثاني بمعاني السبي والقتل والنهب والحرق . ورتبها ترتيبا منطقيا راعى فيه الجمع بين النظائر والمتناسبات : السبي والقتل للنفوس ، والنهب والحرق للممتلكات وهذه هي وظيفة التقسيم التي من شروطها : صحة القسمة بإضافة كل عنصر إلى ما يلائمه . وحسن سياقه الأعداد ، واستقصاء جميع عناصر المعنى الكلي التي لها علاقة بعناصره الجزئية واستيفاء أبعادها[٤٥] .

وكثيرا ما يقوم أسلوب التقسيم في البديع ، على الجمع بين المعاني المتضادة ، وذلك بتوظيف أسلوب المقابلة بين الشيء وضده ، كما يتجلى في قول عباس بن الأحنف :

وصالكم هجرٌ ، وحبّكم قِلا وعطفكم صدٌّ وسلمكم حرب[٤٦]

وتنقل كتب البلاغة أن محمد بن موسى المنجم ، كان من محبي التقسيم في الشعر ، وبلغ من شدة إعجابه بصورة ابن الأحنف أن قال : « أحسن والله فيما قسم ، حيث جعل حيال كل شيء ضده ، والله إن هذا التقسيم لأحسن من تقسيمات إقليدس»[٤٧] .

ولاشك أن أثر المنطق الفلسفي بادٍ في التقسيم بوصفه وجها من أوجه البديع المعنوي ، كما بدا في المذهب الكلامي ؛ وهذا ما يدل على أنهما أسلوبان تعبيريان

مبتدعان ، نجما عن تأثر الشاعر العربي بالمنطق والفلسفة بوصفهما معارف وعلوما وفنونا وافدة على العقلية العربية التي لم تكن تحفل بتزيين المعنى أكثر من احتفالها ببلاغته ؛ فكان هدف الشاعر وغرضه الفني أن يثير مخيلة المتلقي بإلقاء تشبيه حسن يراعي فيه شرط الإصابة في الجمع بين المتشابهين ، أو كناية لطيفة يستشف المتلقي المقصود من خلالها محتجبا وراء ألفاظ تشع بدلالته ، وتوحي بمغزاه ، أو إشارة ، تعدل به عن فهم المقصود في صورته الحقيقية ؛ لأن دلالته أعمق مما هو ظاهر ومشاهد.

ويبدو ، بل من المؤكد أن الشعراء كانوا يتنافسون في مجال البديع مثلما كانوا يتنافسون في شتى أنواع الفنون والأغراض الأخرى .

وفي الصورتين الآتيتين ، نرى كيف يتبارى شاعران في استغلال المعاني وتوظيفها مستعينين بحواسهما ومختلف قوى الإدراك التي يتمتعان بها ، قال الأول ، وقد أقام مقابلة بين أربعة معان وأربع حواس من حواسه :

وفي أربَعٍ مني جلت منكِ أربعاً فما منه أدري أيهما هاج لي كربي
أوجهك في عيني أم الريق في فمي أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي

وقال الثاني ، وقد وظف جميع حواسه ليستوفي المعنى الذي رامه ، والمتمثل في الإشادة بجميع قسمات جمال صاحبته ومظاهر حسنها المادي :

وفي خمسة مني جلت منك خمسة فريقك منها في فمي طيب الرشف
ووجهك في عيني ولمسك في يدي ونطقك في سمعي وعرفك في أنفي(٤٨)

فقد قابل الشاعر بين كل حاسة وما يناسبها من عناصر أو مظاهر . فريق الحبيبة يحلو في فم الشاعر ، ووجهها يحلو في عينيه ، وملمسها يحلو في يديه ، ونطقها يحلو في مسمعه ، ونشر رائحتها يحلو في أنفه .. والنتيجة أن تذوق جمال الحبيبة بالقياس للشاعر كان بجميع حواسه ، وقد أجمل المعنى في صدر البيت الأول بذكره خمسة أشياء في الحبيبة تحلو في خمسة أشياء في الشاعر ، ثم فصل كل ذلك وفق ترتيب أعاد فيه كل شيء إلى ما يناسبه ويتفق معه ؛ ويقال إن يعقوب بن اسحق

الكندي لما سمع مثل هذا الشعر قال « هو تقسيم فلسفي »[٤٩] .

الاحتراس :

أسلوب الاحتراس يشبه كلا من التتميم والتكميل والإيغال ، لأن هذه الأساليب جميعا تشترك في وظيفة فنية أساسية تتمثل في تكميل المعنى وتزيينه وتجميله ، سواء كان ذلك بزيادة معنى أو إضافة كلمة تقوم أود الوزن . أو إدخال جملة في السياق تفيد في رفع التباس أو احتراز من عيب شائن أو تصحيح خطأ فادح .

والاحتراس يأتي في العبارة الشعرية إذا أحس الشاعر أن في معناه غموضا أو في منطوقه غلطا ، فيصحبه بعبارة أخرى أو بمعنى آخر ليحفظ نفسه من الزلل ويخلص قوله من العيب . لذلك قالوا في حد هذا الأسلوب البديعي ، هو « أن يكون على الشاعر طعن فيحترس منه »[٥٠] .

ومن أمثلة الاحتراس قول الشاعر :

ألا يا اسلمي يا دار ميَّ على البلى ولازال منهلا بجرعانك القطر[٥١]

قال أسامة بن منقذ في تعليقه على هذا البيت :

فعابه من لا يعرف في النقد شيئا ، وقال : كأنه إنما دعا عليها بالهدم .. وقال النقاد : إنه لا مطعن عليه لأنه ، قد دعا لها بالسلامة في أول البيت »[٥٢] .

إننا حين نتحدث عن لون بديعي مثل الاحتراس نكون قد نسينا كثيرا من المصطلحات المتصلة بجمال الألفاظ وفصاحتها وموسيقاها الصوتية ، وليس ذلك لشيء إلا لأننا نبحث في معنى الشعر وليس في مبناه ، وهذا يؤكد حقيقة ما ذهب إليه البديعيون من تقسيمهم ألوان البديع إلى محسنات لفظية وأخرى معنوية ، وأسندوا للأولى وظيفة جمالية صوتية إيقاعية ، كما أسندوا للثانية وظيفة تبيينية إفهامية ، وأخرى تحسينية تزيينية .

وإنما يلجأ الشاعر إلى الاحتراس بوصفه أحد ألوان البديع المعنوي متى شعر بأن كلامه قد اعتراه ، أو كاد يعتريه ، عيب يشين فصاحته ، ويقبح دلالته ، فيأتي

الاحتراس في هذه الحالة لتبيين المعنى والإفصاح عنه وإخراجه في صورته الصحيحة الفصيحة .

ولنمعن النظر في هذه الصورة البديعية لصفي الدين الحلي :

فوفّني - غير مأمور - وعودك لي فليس رؤياك أضغاثا من الحلم[٥٣]

لنتبين كيف احترس الشاعر بلفظ « غير مأمور » عن وقوعه في خطأ يقبح معناه ، لأن « لفظة - وفّني - فعل أمر ، ومرتبة الأمر فوق مرتبة المأمور »[٥٤] .

إن الاحتراس بهذا المفهوم عبارة شبه زائدة ، يأتي بها الشاعر « لاحتمال دخل يتطرق على المعنى وإن كان تاما كاملا ووزن الكلام صحيحا »[٥٥] .

التكميل :

يسجل البديعيون فرقا بين التميم والتكميل مفاده « أن المعنى قبل التكميل صحيح تام ، ثم يأتي التكميل بزيادة يكمل بها حسنه إما بفن زائد أو بمعنى »[٥٦] .

وكان إحساسهم بتداخل هذين الفنين نابعا من ملاحظتهم وجود تشابه كبير في الصيغة التي يجيء عليها كل منهما ، فعادة ما يحتلان موقعا معترضا ، هو بمثابة الحشو ، في البيت الشعري .

ويشاركهما في التزام هذه الصيغة كل من الاحتراس والاعتراض ، وبين جميع هذه المصطلحات فروق ، فأما التتميم والاحتراس فقد سبق بعض الحديث عنهما . وأما الاعتراض فسنتحدث عنه بعد قليل .

وأما ما يتعلق بالتكميل فإنه بالإضافة إلى ما ذكرناه بخصوص إفادته معنى زائدا يحسن به المعنى الأصلي ويكمله ، نود أن نسجل بأن التكميل لا يكون إلا في المعاني التامة الصحيحة . كما في هذه الصورة البديعية لعوف بن محلم السعدي :

إن الثمانين - وبُلغتُها - قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[٥٧]

فلا شك أن المعنى في هذا البيت تام دون عبارة « وبُلغتَها » ، غير أن هذه

العبارة، على قصرها ، فيها من الزيادة والإضافة المعنوية ، ما جعل بيت ابن المحلم هذا يرقى إلى ذروة البيان والفصاحة . لما اشتملت عليه هذه الجملة من مشاعر الامتنان والدعاء للممدوح بالصحة والعافية ، وهي معان زائدة عن المعنى الأصلي الذي رام الشاعر التعبير عنه وهو ما أصبح يشعر به من ثقل في سمعه .

فالتكميل إذن له وظيفة تتمثل في الارتفاع بالمعنى والسمو به إلى درجة من الإفصاح والصفاء والكمال ؛ ويكون ذلك متى أحس الشاعر أن معناه يحتاج إلى إضافة تزيده حسنا وتبيينا يشد بحواس المتلقي ومداركه .

وتتناقل كتب البديع قول كعب بن سعد الغنوي مادحا ؛ للاستشهاد به على التكميل :

حليم إذا ما الحلم زيّن أهله   مع الحلم في عين العدو مهيب

« فحاصل قول الغنوي أن ممدوحه حليم في الموضع الذي يحسن فيه الحلم ، ثم رأى أن المدح بمجرد الحلم لا يكمل به المدح ، لأن من لم يعرف منه إلا الحلم ، ربما طمع فيه عدوه ، ونال منه ما يذم بسببه . فكمل مدحه بأن قال : « مع الحلم في عين العدو مهيب »[(٥٨)] .

إذن فقد أضاف الشاعر معنى جديدا أكمل به المعنى الأول ، حيث أحس بأن صفة الحلم . وهي ميزة عالية ، ستتعزز أكثر وتكمل في شخص الممدوح ، إذا أضيفت إليها صفة المهابة التي تعكس الوجه الثاني للصورة الشعرية . ومن نماذج التكميل ، قول المتنبي :

أشد من الرياح الهوج بطشا   وأسرع في الندى منها هبوبا

فالمتنبي يضفي على ممدوحه ملامح صورة الجبار العنيد الذي يشبّهُ في غضبه ، وفتكه بأعدائه ، بالعواصف المدمرة التي تهلك الحرث والنسل ؛ ولكن ممدوحا على هذه الصورة – لاشك – مبغض لدى الناس ، وهذا ما تنبه له الشاعر ، فعضده بمعنى جديد كمل به المعنى الأول ، وبلغ ذروة البلاغة والفصاحة ، وذلك حين أخرج ممدوحه في صورة الريح ذاتها ، لكنها ريح ثانية محملة بالخصب والجود والنماء .

هكذا يأتي التكميل ليؤدي وظيفة تبيينية تجميلية ، ترتقي بالمعنى إلى درجة عالية من البيان ، وبهذا فقط يمكن أن يكون المعنى بديعا ، على أنه ينبغي الإشار إلى أن التكميل لا يمتلك صورة بنائية مخصوصة يجيء عليها ، بخلاف التتميم والاعتراض والتذييل .

التذييل :

للتذييل صورة بنائية مخصوصة بعكس التكميل ، وقد نبه البديعيون إلى أن هذه الصورة قد تأتي عبارة عن جملة مستقلة بعد تمام الكلام تشتمل وجوبا على معناه، وفيها تأكيد له وتحقيق ؛ أو تأتي عبارة في نهايته ، وتكون في شكل مثل أو ما يشبه المثل .

وفي الواقع لا تكون وظيفة التذييل المتمثلة في تحقيق المعنى وتوكيده وإخراجه مخرج المثل سوى وظيفة تبيينية تفهيمية تزيد المعنى وضوحا وإشراقا في ذهن المتلقي، وتمنحه بعدا تعبيريا أكثر عمقا وانتشارا ، ولو أن التذييل - كما يتضح من تسميته - يأتي كمتمم للمعنى ، أي كإضافة لا كجزء أساسي يقوم عليه هذا المعنى . يقول الحطيئة :

نزور فتًى يعطي على الحمدِ ماله   ومن يُعطِ أثمانَ المكارم يُحمد[٥٩]

يبدو الشطر الأول في هذا البيت مستقلا بنفسه من حيث معناه ومبناه على السواء ، ولكن الشاعر أضاف عبارة أخرجها مخرج المثل مبرزا من خلالها ضربا من التظرف والأدب . وذلك حين لعب بلفظة « الحمد » فجعلها شرطا لجزاء وجزاء لشرط ، فالشاعر يزور فتاة الجواد الكريم الذي يمنح هباته السخية لمادحيه ؛ وفتى مثل هذا في نظر الشاعر يستحق الشكر والثناء ، لأنه يدفع أثمان شكره والثناء عليه ، وإذا نظرنا إلى الشطر الثاني من البيت لوجدناه ، هو أيضا ، مستقلا بنفسه .

ومن نماذج التذييل قول ابن نباتة السعدي :

لم يبق جودك لي شيئا أؤمله   تركتني أصحبُ الدنيا بلا أَمَلِ[٦٠]

فالممدوح قد غمر الشاعر بكرمه وجوده حتى كأنه لم يعد يجد ما يأمل ويتمنى ، لنيله جميع ما كان يأمل ويتمنى ؛ وقد احتاج إلى تتميم البيت وأرادَ إتمامه بتكرار المعنى المتقدم فيه ، استحسانا له وتوكيدا ، وكره التكرير لا لمعنى زائد ، وعلم أن لا مزيد على معناه في بابه ، فأخرجه مخرج المثل . . ليحصل له ما أراد من التوكيد وزيادة المعنى ، لأن المدح إذا خرج مخرج المثل كان أسْيَرَ في الأرض . . »[61]

ولا أجد مزيدا على هذا التعليق الدقيق على الرغم من طوله . وأظن أن بيت المتنبي الآتي يعتمد الأسلوب نفسه ، أعني أسلوب التذييل الذي يخرج مخرج المثل :

من يهُنْ يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميت إيلام

فعادة ما يتخذ البلاغيون هذا البيت شاهدا على التشبيه الضمني في علم البيان، ويحددون وظيفته بكونه يقرر حال المشبه « في نفس السامع وإبرازها فيما هي أظهر وأقوى ، ويكثر في تشبيه الأمور المعنوية بأخرى تدرك بالحس »[62] .

ولكن هذا البيت في البديع يقوم شاهدا على التذييل كما هو هنا ؛ لأن شطره الأول منفرد بذاته أي أنه يشكل معنى مستقلا تاما ومفهوما ؛ غير أنه ، رغم انفراده، يبقى بنظر إلى الشطر الثاني الذي فيه توكيده وصداه ، فمن تعود المهانة والإذلال ، يصبحان بالنسبة إليه حالة مألوفة لايتأثر لها فهو مثل الميت الذي لا يشعر ولا يحس بألم الجرح في جسده .

هكذا يقول المتنبي ، ونحن إذا أمعنا النظر في البيت ، نجد أن معنى شطره الثاني مشتمل على معنى شطره الأول . وهذه هي طبيعة التذييل التي يفترق بها عن بعض الألوان البديعية الأخرى التي تشترك معه في الشكل والموقع مثل التكميل والإيغال والتمكين[63] .

ويتجلى أسلوب التذييل في الصورة الشعرية الآتية لابن الحداد كمعادل حسي يقدمه الشاعر برهانا وتوكيدا للمعنى الذي أراد إقناعنا به ؛ يقول :

واصل أخاك وإن أتى بمنكر فخلوص شيء قلما يتمكن
ولكل حسن آفة موجودة إن السراج على سناه يدخن[64]

فعبارة « إن السراج على سناه يدخن » هي المعادل الحسي كما في التشبيه الضمني الذي جسد الشاعر بواسطته معنى التحمل والاصطبار على إساءة الإخوان وظلمهم ضاربا مثلا بالحسن الذي لابد من آفة تشينه في مقابل النور الذي لا بد له من دخان . قال العسكري :

« وللتذييل في الكلام موقع جليل ، ومكان شريف خطير ، لأن المعنى يزداد به انشراحا ، والمقصد إيضاحا »[٦٥] ومثل بقول الشاعر :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

« فاستوفى المعنى في النصف الأول وذيل بالنصف الثاني »[٦٦] .

وأوصى بأن هذا الأسلوب البديعي ينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ، لأن تلك المواطن تجمع البطئ الفهم والبعيد الذهن والثاقب الفريحة ، والجيد الخاطر ؛ فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللقن ووضح للكليل البليد »[٦٧] .

الاعتراض :

يلتبس الاعتراض في أحيان كثيرة بالالتفات ، ولكن السجلماسي اجتهد في تبيين الفرق بينهما حين قال : « واسم الالتفات هو اسم مشترك بين المعنى الواقع في هذا النوع والمعنى الآخر الذي هو النوع الأول من جنس التتمة ، وهو المسمى اعتراضا ، وكأنه اعتراض تشكيك ، ولذلك غلط من عدهما نوعا واحدا غير متباين »[٦٨] .

وحقا هنالك فرق واضح بين الأسلوبين ؛ فالاعتراض أقرب إلى الاحتراس والتكميل من حيث الوظيفة ؛ وقد وظف كمصطلح لغوي عند النحاة . أما الالتفات فهو مصطلح بلاغي محض له وظيفة غير وظيفة الاعتراض ، حيث إنه يمكّن الشاعر من تصريف وجوه الخطاب ، فيلتفت من الخبر إلى المخاطبة ، وينصرف عن المخاطبة إلى الخبر ، وما إلى ذلك من أساليب « تردد المتكلم في الوجوه »[٦٩] .

وإذا كان الالتفات عبارة عن تنويع في الصياغة ، وصرف أوجه الكلام ، يقوم به

الشاعر عن وعي منه وإرادة ، فإن الاعتراض يكون لمعنى يعن للشاعر أو يخطر بباله فجأة في أثناء صياغة فكرته الشعرية ، فيضيف زيادة من جملة أو عبارة تمنح فكرته جمالا وحسن بيان بتوضيحها في ذهن المتلقي وإبعاد كل تشكيك محتمل أو تساؤل متعلق بما تلقاه واستمع إليه هذا المتلقي . ومثال الاعتراض قول الشاعر :

لو أن الباخلين – وأنت منهم – رأوك ، تعلموا منك المطالا[٧٠]

فلو أن كثيّر عزة لم يوظف أسلوب الاعتراض في بيته والمتمثل في الجملة الأسمية – وأنت منهم – لأمكن أن يعتري ذهن المتلقي سؤال مؤداه : ما علاقة البخلاء بصاحبة الشاعر ؟ ولكن حين عد الشاعر صاحبته من هؤلاء البخلاء أغنى عن كل سؤال وضمن البيت باعتراضه معنى في العتاب ظريفا ، وجعل صاحبته أنموذجا في المطال يقتدي بها الباخلون ؛ وأخرج المعنى في منتهى الحسن واللطافة . ولابد أن يكون للاعتراض إضافة معنوية وإلا عد حشوا .

ومن صوره ما رسمه العباس بن الأحنف :

قد كنت أبكي وأنت راضية حذار هذا الصدود والغضب
إن تم ذا الهجر ياظلوم – ولا تم – فما في العيش من أرب[٧١]

فقوله « ولا تم » اعتراض يشتمل على دعاء ، ضمنه الشاعر نفي الشك الذي ساوره في قوله « إذا تم الهجر » . ومثل هذا قول نصيب :

فكدت – ولم أخلق من الطير – إن بدا سنا بارق نحو الحجاز أطير[٧٢]

فالشاعر لا يقر حقيقة كونه لم يخلق من الطير عن طريق توظيف الاعتراض ، لأن ذلك من تحصيل الحاصل ، ولكنه يؤكد حقيقة كونه أوشك أن يطير ، وهو في صورة الإنسان ، بفعل تأثير سنا البرق الذي يلوح في سماء الحجاز .

ولا نحب أن نتعمق الجوانب الوجدانية لهذه الصورة الشعرية البديعية ، وإنما نكتفي بما علق به أحد النقاد القدماء عليها ضمن هذه القضية : « يُروى أن التي قيل فيها هذا البيت ، لما سمعته ، تنفست نفسا شديدا ، فصاح ابن أبي عتيق : أواه !! قد

والله أجابته بأحسن من شعره ، والله لو سمعك لنعق وطار . . . فجعله غرابا لسواده»[٧٣] ، وكما هو ملاحظ فإن هذا البيت لا يخلو من مبالغة .

المبالغة :

المبالغة من أساليب البديع المعنوية التي حظيت باهتمام النقاد والبلاغيين قديما لما اشتملت عليه من خروج على طبيعة ميزان الاعتدال في التعبير الشعري ، وتجاوزها حدود المنطق والعقل ، ودخولها في الخيال والكذب ، الأمر الذي أثار حولها جدلا نقديا وبلاغيا كبيرا .

والحقيقة أن المبالغة هي الأسلوب التعبيري الوحيد الذي يمكن أن نقيس به درجة صدق الشاعر أو كذبه في شعره ؛ لأنها وسيلة تعبير فنية تعكس مدى توتر المشاعر وانفعاله بالموقف أو الحدث ، وتجسد في الوقت ذاته درجة تأثره بهما ؛ أو تأثيره فيهما .

وقد كانت المبالغة - وما تزال - أسلوبا شعريا ممتازا قادرا على إثارة المتلقي ، لما في طبيعتها التركيبية من مفارقة معنوية ، وإغراب ، وخروج عن الحد والمعقول .

والمبالغة بوصفها أسلوبا بديعيا يهتم بفصاحة المعنى وتبيينه وتفهيمه يمكن أن يكون في كل صورة من صور البلاغة والبيان والبديع : في التشبيه والاستعارة ، وفي كثير من ضروب البديع اللفظي والمعنوي .

وقد ألف النقاد أن يتحدثوا ، ضمن كلامهم على المبالغة ، عن أسلوبين فرعيين لها هما : الغلو والإغراق ؛ بمعنى أن المبالغة ثلاث درجات أو ثلاثة أقسام ، يعتمد الشاعر في توظيفها طريقتين : الأولى باستعمال اللفظ في غير معناه لغة كما في المجاز ، والثانية بزيادة صفات أو متممات للمعنى بقصد تهويل الأمر أو تضخيم الحدث بإضفاء ألوان من الغرابة على المعنى ، وذلك بالاعتماد على المفارقات اللغوية غير المألوفة .

ومن أمثلة المبالغة قول قيس بن ذريح :

ولو أن ليلى العامرية صدحت ومن فوق رمسينا صفيح منصب
يظل صدى جسمي وإن كان رمة لصوت صدى ليلى يهش ويطرب[٧٤]

وتندرج هذه الصورة ضمن الغلو لأنها غير ممكنة الوقوع كما يقول البلاغيون ولكن نظرتهم تلك نظرة عقلية ؛ فلم تكن المبالغة أبدا لتعترف بما هو منطقي أو تخضع لسلطان العقل ؛ فلا شك أن الشاعر قد انتقل بنا ، من خلال هذه الصورة ، إلى فضاء يفترض فيه أن يكون فضاءً ساكنا عديم الحركة ؛ يوحي بالرهبة والخشوع ؛ ولكنه باعتماده أسلوب الغلو قد حول السكون إلى حركة والموت إلى حياة ، حتى لكأننا نسمع حديث أجداث القبور ، ونأنس بوجودهم .

والصورة بعد ذلك تجسد صدى وجدان جريح يمور فيه أوار حب لا ينطفئ ولا يخمد، وقد استبدت ليلى بقلب الشاعر وعقله ، فصارت تخطر له مثل هذه الخيالات التي لا يقف في طريقها إلى ذهن الشاعر أي عائق . والفرق بين شاعر يغلو في شعره، وآخر لا يغلو هو الفرق في درجة التحمل والتعقل ، أي تحمل قوة المثير ، وشد عقال العاطفة ، وكبح جماحها . ومما جاء وفق هذا الأسلوب قول الشاعر :

ومازال يبري جملة الجسم حبها . وينقصه حتى لطفت عن النقص
وقد ذبت حتى صرت إذ أنا جئتها أمنت عليها أن يرى أهلها شخصي[٧٥]

إن هذا الإقرار من قبل الشاعر إقرار كاذب في نظر العقل ، لأنه مستحيل أن يؤول إلى ما آل إليه من ضعف وهزال يجعله جسيما غير مرئي ؛ ولكنه في نظن الفن إقرار مقبول لما لبسه من حلة التخييل المثير لمخيلة المتلقي والمحرك لانفعاله .

وقد بالغ الشعراء في هذا الضرب من أساليب التعبير البديعي حتى خرجوا إلى الإحالة والمحظور عقلا وعادة وشرعا .

وقال صاحب معاهد التنصيص بخصوص الغلو : « ومراتبه تتفاوت إلى أن تؤول بقائلها إلى الكفر والعياذ بالله تعالى ، فمن ذلك قول ابن دريد في المقصورة :

مارست من لوهوت الأفلاك من جوانب الجو عليه ماشكا

قيل : لأجل إدّعائه في هذا البيت ابتلاه الله بمرض كان يخاف فيه الذباب أن يقع عليه »[٧٦] .

إن الغلو هو درجة قصوى لأسلوب المبالغة التي فهمت عند النقاد الأوائل بكونها «أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله وأقرب مراتبه »[(٧٧)] .

ولكن يبدو أن الحرية الفكرية التي شجعها بعض الخلفاء والحكام في عصور الازدهار الفكري والحضاري قد أدت في بعض الأحيان إلى نوع من التحلل والتفسخ الأدبي في أوساط الكتّاب والشعراء والأدباء مثلما يمكن أن يحدث في أي ظرف زمني مشابه ، ومن ثم فلم يبق الغلو مقتصرا على التخيل الكاذب المجافي للحقيقة والصدق، ولكن صار أسلوبا يستعان به على صوغ معاني الانحراف عن القيم الخلقية والاستهتار بمبادئ الدين والعقيدة ، وينسب في هذا الصدد إلى ابن دريد السابق قوله:

ولو حمى المقدور منه مهجة لرامها أو يستبيح ما حمى
تغدو المنايا طائعات أمره ترضى الذي يرضى وتأبى ما أبى

كما ينسب إلى المتنبي قوله :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

« وقال بعض من اعتذر للمتنبي : إن المراد بالتوحيد هنا : نوع من التمر ، وبعض أصلح البيت فقال : « هن فيه حلاوة التوحيد »[(٧٨)] .

وأما الإغراق فهو درجة أقل حدة من الغلو وأرفع قليلا من المبالغة التي يصطلح عليها باسم التبليغ أيضا[(٧٩)] ، ويقوم الإغراق على أمر ممكن الوقوع لكنه ممتنع وقوعه في العادة[(٨٠)] ولابن أبي الإصبع رأي في المصدر اللغوي لمصطلحي الغلو والإغراق والفرق بينهما ، قال : « وقد رأيت من لا يفرق بين الغلو والإغراق ، ويجعل التسميتين لباب واحد ، وعندي أن معنى البابين مختلف كاختلاف اسميهما . . . »[(٨١)] .

ومن الأمثلة المستشهد بها على الإغراق قول الشاعر :

ولو أن ما بي من جوى وصبابة على جمل لم يدخل النار كافر

« يريد أنه لو كان مابه من الحب بجمل لنحل حتى يدخل في سم الخياط ، وذلك

لايستحيل عقلا ، إذا القدرة صالحة لذلك ، لكنه ممتنع عادة » . وقد أحالنا الشاعر في هذه الصورة على الآية الكريمة { ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط } (الأعراف الآية ٤٠) .

وشبيه بهذا قول المتنبي يشكو نحوله :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل   لولا مخاطبتي إياك لم ترني [٨٣]

ويأتي الإغراق في الشعر على ضربين : أبلغهما بيانا وفصاحة معنى ما يكون بأداة تقربه من المعقول وتخرجه من البطلان مثل « لو » و « لولا » و «كاد » و «كان » و « كأن » [٨٤].

وأما المبالغة أو التبليغ فهي من أساليب البديع المعنوي الذي يقوم على ما يستبعد في العقل ووقوعه صحيح [٨٥]، وهي إصابة الشاعر الهدف وبلوغ مراده منه .

والمبالغة أقل درجة من الغلو والإغراق من حيث الحدة وقوة الإثارة ، ولها - إذا أحسن استخدمها - أريحية للمتلقى واستفزاز لمشاعره وتحريك لانفعالاته ، ولاسيما إذا شابها عنصر الإغراب وجنحت نحو الإبداع والابتكار ، كما في هذه الصورة للوأواء الدمشقي :

متى أرعى رياض الحسن منه   وعيني قد تضمنها غدير
ولو نصبت رحى بإزاء دمعي   لكانت من تحدّره تدور [٨٦]

لاشك أن الشاعر قد بالغ في وصف غزارة دموع عينيه حين شبهها بغدير يمكن أن تُنْصب له رحى يديرها ، ولكن المبالغة لم تخرج بالمعنى على الحد الذي يرسمه التخيل، لذا فهي مبالغة مقبولة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المبالغة تكون جائزة ومستحسنة متى كانت خاضعة لمنطق العقل ، ولاتكون كذلك إذا خرجت عنه ، كما تكون لونا بديعيا جميلا إذا استمدت عناصرها التخيلية من عالم المدركات الحسية التي في متناول حواس الإنسان وقوى إدراكه العقلية والفكرية .

ومن بديع اللوحات الشعرية التي شكلت المبالغة أحد عناصرها الفنية ، هذه اللوحة لابن اللبانة ، قالها في ولد « المعتمد بن عباد » وقد رآه يمارس حرفة الصياغة بعد زوال ملك أبيه ، وهي لوحة تفيض حزنا وتنضج بالعاطفة الصادقة والآلام الموجعة ، قال :

أذكى القلوبَ أسىً أجرى الدمعَ دَمَا	خطبٌ وجودك فيه يشبه العدَما
وعاد كونُك في دكّان قارعَةٍ	مِن بعد ما كنتَ في قصرٍ حكَى إرَما
صرِّفت في آلة الصواغ أنملةٌ	لم تدرِ إلا الندى والسيفَ والقلمَا
يد عهدتُك للتَقبيل تبسطها	فتستقلُّ الثريَّا أن تكونَ فَمَا
يا صائغا كانت العليا تُصاغ له	حلياٍ وكان عليه الحَلى منتظما
للنَّفْخ في الُصور هولٌ ماحكَاه سوى	يوم رأيتك تنفُخُ الفحَمَا
وددت إذ نظَرتْ عيني إليك به	لو أنَّ عيني تشكو قبل ذاكَ عَمَا
لُحْ في العُلا كوكباً إن تلُحْ قمَراً	وقُمْ بها ربْوة إن لم تقُم عَلَما [87]

الحقيقة أن هذه الأبيات من أبدع ما عثرت عليه في أثناء قراءاتي الكثيرة ، وهي تشكل مجتمعة في نظري لوحة فنية كاملة بمشاهدها الحزينة الباكية التي يجتر الشاعر من خلالها ما تبقى من ذكريات مُلك منهار ، يكتب مرثيته بدموعه ، ويألم لحال أميره الذي أصبح وجوده كعدمه بعد عز ، وصار مجده وسلطانه في دكان ، وقد كان يصرف أمور الرعية من قصر منيف ؛ وتحول - وهو السلطان الأمير - إلى حرفي يعالج بأصابعه الندية صناعة المعادن ؛ وقد كانت لا تمسك سوى أدوات يصرف منها شؤون الحكم (سيف وقلم ومال) . هكذا تعصف عوادي الزمن بهذا الأمير ، وتهون يده الكريمة التي كانت تنزل الثريا من عليائها لتقبلها .

ويلتفت الشاعر إلى كانون الفحم الملتهب ، ينفخ فيه الأمير ، فيهوله المشهد ويفزعه ، فيستحضر " الصور " بوصفه معطى متخيلاً يشكل مرجعية دينية بالقياس للشاعر ، ويعقد مقارنة بين هول النفخ في الصور يوم القيامة ونفخ الأمير في الفحم مبالغاً أشد مبالغة ، ويألم الشاعر لحال أميره ، ويتمنى أن لو كان فاقداً بصره حتى لا

يرى أميره على هذه الحال .

ثم يستجمع الشاعر في نهاية هذه اللوحة قواه متجملاً بالصبر مخاطباً الأمير داعياً له بعودة ملكه ، فيشرق في الدنيا كالقمر ويشمخ كالجبال :

لح في العلا كوكبا إن لم تلح قمرا   وقم بها ربوة إن لم تقم علما

الخلاصـة :

أرى في ما قدمته من نماذج وصور بديعية في هذه الدراسة كافيا لإبراز وظيفة البديع المعنوي وجمالياته الفنية والذي يشكل أحد وجهي الصورة الشعرية في القصيدة العربية ، وذلك بالنظر إلى كون القول الشعري ، إنما هو في البدء والنهاية ، عبارة عن عنصرين متلاحمين لا يستغني أحدهما عن الآخر ، هما شكله ومحتواه .

ولا بد في النهاية من تسجيل الملاحظات التالية :

١- إن البديع المعنوي هو أسلوب تعبيري يهدف إلى صياغة الفكرة أو المعنى صياغة فنية يراعى فيها عنصر الإبانة والإفهام .

٢- إن النظرة الشائعة عن البديع بوصفه حلية أو فضلة نظرة غير صحيحة . فالبديع سواء كان لفظيا أو معنويا ليس مجرد زينة ، وإنما هو مذهب في القول وأسلوب في التعبير عن المعاني والأفكار ، وطريقة في البحث والاكتشاف ووسيلة لتجسيد المشاعر والأحاسيس ، ونقلها إلى المتلقي بهدف إثارة إنفعاله والتأثير في وجدانه .

٣- وأخيراً فإن تعدد المصطلحات البديعية وكثرتها لم يكن سوى اجتهاد من النقاد والبلاغيين بهدف البحث عن سر جمال العبارة الشعرية في القصيدة العربية .

الهوامش

(١) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، تصنيف بدر الدين بن مالك الأندلسي الطائي المتوفي سنة ٦٨٦هـ ، طبعة الخيرية ١٣٠٢هـ ، ص ٩٢ .

(٢) شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، صفي الدين الحلي ، تحقيق نسيب النشاوي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٨٩ ، ص ١٠٩ .

(٣) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد القاسم السجلماسي ، تقديم وتحقيق علال الغازي ، ط ٨ ، مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب ، ١٩٨٠ ، ص ٤٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٧٩ .

(٥) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ٤١٧ .

(٦) سورة الدخان ، الآيتان ٢٥ ، ٢٦ .

(٧) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ٤١٧ .

(٨) سورة يس ، الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

(٩) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ٤١٨ .

(١٠) سورة الزخرف ، الآية ٦٧ .

(١١) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ٤١٨ .

(١٢) سورة الزمر ، الآية ٥٦ .

(١٣) المنزع البديع في تجنيس البديع ، ص ٤١٨ .

(١٤) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبي الإصبع المصري ، تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ ، ص ٤٩١ .

(١٥) تحرير التحبير ، ص ١٩٢ .

(١٦) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ١١٦ .

* أشير هنا إلى بحثي الجاهز بعنوان : جماليات البديع اللفظي ووظيفته الفنية (معدٌ للنشر).

(١٧) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ١١١ .

(١٨) نفسه ، ص ١١١ .

(١٩) تراجع الدلالات اللغوية والاصطلاحية لهذه المصطلحات ضمن دراستنا بعنوان : « مصطلحات البديع المعنوي (معدة للنشر) .

(٢٠) تحرير التحبير ، ص ٥٦٠ .

(٢١) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، ص ٩٣ .

(٢٢) نفسه ، ص ٩٣ .
(٢٣) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق د. عبد القادر حسين ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الفجالة القاهرة ، د.ت ، ص ٢٨٠ .
(٢٤) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، عبد الرحيم العباسي ، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب ، بيرت ، د.ت ، ج٣ ، ص ٤٩ .
(٢٥) نفسه ، ص ١٩ .
(٢٦) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، ص ٢٨٠ .
(٢٧) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، ص ٩٤ .
(٢٨) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ٣ ، ص ٥٠ .
(٢٩) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٠ .
(٣٠) نفسه ، ص ٥٠ .
(٣١) يراجع الفرق بين هذين المصطلحين ضمن دراستنا ، مصطلحات البديع المعنوي (معدة للنشر) .
(٣٢) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ١٢٦ .
(٣٣) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، ص ٩٤ .
(٣٤) تحرير التحبير ص ٣٣٩ . وانظر المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ٤٢٨ .
(٣٥) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ٤٢٨ .
(٣٦) نفسه ، ص ٤٢٨ .
(٣٧) نفسه ، ص ٤٢٢ .
(٣٨) يراجع مصطلح التتميم ضمن دراستنا : مصطلحات البديع المعنوي (معدة للنشر) .
(٣٩) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ، تصنيف أبي هلال العسكري ، تحقيق محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر ، ١٩٧٨ ، ص ٤ .
(٤٠) العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق وشرح مفيد محمد كميحة ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣ ، ص ٦ .
(٤١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .
(٤٢) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، ص ١٥ .
(٤٣) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، ص ٩٦ .
(٤٤) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ٣٥٨ .
(٤٥) نفسه ، ص ٣٥٥ .
(٤٦) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٤٧) نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٤٨) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

(٤٩) نفسه ، ص ٣١٢ .

(٥٠) البديع في البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ ، حققه وقدم له عبد . آ . مهنا ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ ، ص ٣١ .

(٥١) نفسه ، ص ١١ .

(٥٢) نفسه ، ص ١١ .

(٥٣) شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، ص ٣١٦ .

(٥٤) نفسه ، ص ٣١٧ .

(٥٥) نفسه ، ص ٣١٧ .

(٥٦) نفسه ، ص ٣١٧ .

(٥٧) تحرير التحبير ، ص ٣٦٠ .

(٥٨) نفسه ، ص ٣٦٠ .

(٥٩) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، ص ٩٨ .

(٦٠) تحرير التحبير ، ص ٣٨٧ .

(٦١) نفسه ، ص ٣٩٠ .

(٦٢) علوم البلاغة ، البيان والمعاني والبديع ، تأليف أحمد مصطفى المراغي ، تحقيق جماعة من الأخصائيين ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٢ ، ص ٢٩٩ .

(٦٣) تحرير التحبير ، ص ٣٩١ .

(٦٤) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .

(٦٥) كتاب الصناعتين ، ص ٣٨٧ .

(٦٦) نفسه ، ص ٣٨٨ .

(٦٧) نفسه ، ص ٣٨٧ .

(٦٨) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ١١٢ .

(٦٩) نفسه ، ص ١١٢ .

(٧٠) نفسه ، ص ٥٤٢ .

(٧١) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، ص ٤٥٤ .

(٧٢) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، ص ٩٩ .

(٧٣) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ١ ، ص ٣٧١ .

(٧٤) البديع في البديع في نقد الشعر ، ص ١٦٤ .

(٧٥) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ٣ ، ص ٢٩ .
(٧٦) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٣ .
(٧٧) كتاب الصناعتين ، ص ٣٧٨ .
(٧٨) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ٣ ، ص ٣٣ .
(٧٩) كتاب المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، ص ١٠٠ .
(٨٠) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، تأليف يحيى بن حمزة العلوي ، نشر مؤسسة النصر ، طهران ، طبعة المقتطف بمصر ، ١٩١٤ ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .
(٨١) تحرير التحبير ، ص ٣٢٢ .
(٨٢) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ٣ ، ص ٢٥ .
(٨٣) علوم البلاغة ، البيان ، المعاني البديع ، ص ٤٠٢ .
(٨٤) نفسه ، ص ٤٠٢ .
(٨٥) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .
(٨٦) معاهد التنصيص على شواهد التخليص ، ج ٣ ، ص ٢١ .
(٨٧) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ٣ ، ص ٢١ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق د . عبد القادر حسين ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، د . ت .
- البديع في البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ ، تحققه وقدم له عبد . آ . مهنا ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ .
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ابن أبي الإصبع المصري ، تقديم وتحقيق د . نسيب النشاوي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ١٩٨٩ .
- شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع ، صفي الدين الحلي ، تحقيق د . نسيب النشاوي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ١٩٨٩ .
- علوم البلاغة ، البيان والمعاني والبديع ، تأليف أحمد مصطفى المراغي ، تحقيق جماعة من الأخصائيين ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٨٢ .
- العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق وشرح الدكتور مفيد محمد قميحة ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٨٣ .
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) تصنيف أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، تحقيق محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر ، ١٩٧١ .
- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، تأليف يحيى بن حمزة العلوي (٣ أجزاء) ، نشر مؤسسة النصر ، طهران ، طبعة المقتطف بمصر ١٩١٤ .
- المصباح في علم المعاني والبيان والبديع ، تصنيف بدر الدين بن مالك الأندلسي الطائي المتوفي ٦٨٦ هـ ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٢ هـ .
- معاهد التنصيص على شواهد التخليص (٤ أجزاء في مجلدين) عبد الرحيم العباسي ، تحقيق وتعليق محمد محيي الدبن عبد الحميد ، عالم الكتب ، بيروت ، د . ت .

سمات المنطقة التجارية المركزية
في مدينة الكويت

د. وليد عبد الله المنيس

كلية الآداب - جامعة الكويت

مقدمة :

تطورت الدراسة الجغرافية الحضرية للمدن وتعمقت إلى مستوى قطاعات المدينة واجزائها الوظيفية وأحيانا إلى جزيئات التركيب الحضري والوظيفي للمدينة ، فمن ذلك المنطقة التجارية المركزية ومكوناتها التي تتدرج من البؤرة وهي أضيق منطقة فيها إلى أركانها والشوارع المتصلة بها أو المؤدية إليها . وقد حظيت هذه المنطقة على كم هائل من الدراسات عند المدرسة الغربية (الامريكية والاوروبية) وإن كان طابع المدن الأمريكية كمدن الولايات وكندا له سماته الخاصة والمميزة بالمقارنة مع المدن الأوروبية ذات الحجم الأصغر والتركيب المتكتل . ومدينة الكويت بدورها عندما نمت واتسعت بعد اكتشاف النفط شهدت الكثير من مظاهر التغير الحضري خاصة بالمنطقة التجارية التي تشكلت بفعل عوامل ومؤثرات جديدة ساعدت على إعادة بنائها كمركز تجاري رئيسي للبلاد بعد أن خرج سكان المدينة القديمة إلى ما وراء أسوارها وتحولت إلى مركز لخدمة الكويت الكبرى من المنظور الحضري .

هدف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على ملامح المنطقة التجارية وعلى الأخص المنطقة التجارية المركزية أو منطقة الأعمال المركزية في مدينة الكويت بالاستعانة بعدد من المؤشرات العامة المطبقة عالميا إضافة إلى المؤشرات الخاصة التي تنفرد بها مدينة

الكويت عن المدن الأخرى . ومن أبرز هذه المؤشرات : (١) الأهمية التجارية لهذه المنطقة في مدينة الكويت من منظور تاريخها الحضري بالمقارنة مع المواقع التجارية الأخرى (٢) دور المخططات الهيكلية والتنظيم البلدي في التأكيد على مركزية هذه المنطقة (٣) أنماط أسعار الأراضي حولها (٤) التحرك الحضري العام داخل هذه المنطقة وما يحيط بها بالإشارة إلى نموذج كلاسن Klassen وكذلك نظام التحرك منها وإليها على مستوى حركة الشراء والعودة (٥) نمط المشاريع الإسكانية المؤكدة على الشخصية التجارية والإدارية للمركز (٦)حركة الأموال المتداولة في المنطقة المركزية على مستوى البنوك والبورصة (٧) أنماط الحيز المكاني للاستخدام التجاري (٨) أنماط العمران من خلال المشاهدة الميدانية ومن خلال التنظيم البلدي والخطط الهيكلية . هذا وتعد هذه المؤشرات أبرز ما يمكن تتبعه لاثبات مدى مركزية هذه المنطقة .

أهم الدراسات السابقة :

تنقسم الدراسات التي تعاملت مع هذه المنطقة من جسم المدينة إلى قسمين أساسين:

الأول: الدراسات التي أفرزتها المدارس الغربية وهي أما دراسات حول مفهوم التركيب الوظيفي بالعلاقة مع هذه المنطقة ، أو دراسات متخصصة قائمة على دراسة هذه المنطقة بالذات .

الثاني: الدراسات التي تعاملت مباشرة مع مدينة الكويت وهي ليست كثيرة غير أنها ذات قيمة معتبرة .

فمن النوع الأول الدراسة القيمة من تحرير لارى بورن من المدرسة الكندية L.Boune ، عام ١٩٧١ بعنوان : « التركيب الداخلي للمدن » يحوي هذه الكتاب على أكثر من ٦٠ مقالاً قيماً بأقلام كبار المتخصصين بالدراسات الجغرافية الحضرية للمدن وتركيبها الداخلي أمثال Brian Berry وهو غني عن التعريف في المدرسة الأمريكية ، وموردى Murdie من المدرسة الكندية وصاحب منهجية التحليل العاملي

للمدن Factorial Analysis . وفي ثنايا هذا الكتاب تظهر دراسات قيمة تتصل بموضوع البحث . كما تظهر دراسة الونسو Alonso من المدرسة الأمريكية في التسعينيات عن مفهوم أسعار الأراضي داخل المدينة من منشورات مجلة دراسات حضرية Urban Studies وقد استخدمت في دراسة « هل الرحلة إلى العمل يمكن فهمها من البنية الحضرية للمدينة ؟ » لجوليانو وسمول Giuliano & Small ، في Urban Studies (العدد ٣٠ ، رقم ٩ ، ١٩٩٣) . وهناك دراسة قيمة لكوك Cooke أيضاً في التسعينيات عن مفهوم النظرية الحضرية بعنوان : « مسألة النظرية الحضرية الحديثة » وفيها إشارات قيمة للتركيب الحديث للمدن المعاصرة ومسميات جديدة لأجزاء المدينة كالنطاق الحضري للضواحي Suburbia وطبيعة التحرك من وإلى المراكز خاصة في المدن البريطانية وخصائص المنطقة التجارية قديماً وحديثاً في مجلة " معهد الجغرافيين البريطانيين " " Institute of British Geographers " (العدد ١٥ ، رقم ٣ ، ١٩٩٠) . ومقالات لـ سمبسون Simpson عن العلاقة بين مكان العمل والمسكن وحركة الذهاب والإياب في مجلة دراسات حضرية Urban Studies (العدد ٢٤ ، رقم ٢ ، ١٩٨٧) ، ومقال ليفر Lever " عن مفهوم تحضر أطراف المدن " أو اتجاه التحضر من الأطراف إلى القلب Reurbanisation ، ويعد من أهم الأبحاث حيث استعرض نموذج كلاسن Klaassen عن أوجه التحضر بالعلاقة مع أنماط التغير السكاني في مراكز المدن . يضاف إلى ذلك أمهات الكتب في جغرافية الحضر التي تتناول الدراسة التقليدية النظامية مثل كتاب Carter عام ١٩٧٥ " جغرافية الحضر " ، ودراسة هاجيت Haggett عام ١٩٧٩ عن " الجغرافية الحديثة " والأخير محاولة للخروج عن المنهج التقليدي المعتاد لإلقاء الضوء على الاتجاهات الدراسية المعاصرة . وهذه الكتب تعالج تركيب المدن بالتفصيل وتفيد في استعراض أسس المنهجية المتبعة في هذا النوع من الدراسات .

أما النوع الثاني فيما يتعلق بالدراسات المتخصصة عن الكويت فأبرزها دراسة Ffrench & Hill عام ١٩٧١ بعنوان « الكويت : دراسة طبية وحضرية » وهي

دراسة تفصيلية حضرية باستخدام التحليل العاملي Factorial Analysis مع المقدمة التاريخية الحضرية . ودراسة " هل " أيضاً Hill وهي بحثه للدكتوراة عن «سمات التحضر والنمو الحضري في الكويت » عام ١٩٦٩ . وكذلك دراسة أحمد حسن إبراهيم وهي لا تقل أهمية وتمتاز بتفصيلها وتحليلها الذي يعد استمراراً للدراسات المتخصصة المفصلة عن الكويت وهي بعنوان : « الكويت دراسة في جغرافية المدن » ، وقد نشر ضمن " منشورات مجلة دراسات الخليج " عام ١٩٨٢ (رقم ٧) . ودراسة أخرى لـ : " هل " أيضاً Hill في كتاب من تحرير برايان كلارك Clark عام ١٩٧٣ من منشورات معهد الجغرافيين البريطانيين رقم (٥) بعنوان : " Social Patterns in Cities " " الأنماط الاجتماعية في المدن " ، والبحث بعنوان : "Segregation in Kuwait" وهو بحث مهم مستقى من بحثه الذي عمله في الكويت في مرحلة الدكتوراة . يضاف إلى ذلك وربما يعتبر مقدم على ما ذكر المخططات الهيكلية التي وضعها المخططون والاستشاريون مثل مخططات بيوكانن وشانكلاند ومخططات البلدية واسقاطاتها للفترات ما بين ١٩٥٠- ٢٠٠٥ وتتناول دراسة مفصلة واسعة . وكذلك دراسة " التطور والعمران " عام ١٩٨٢ انتاج بلدية الكويت وهي ايجاز دقيق لمجمل أعمال الخطط الهيكلية إلى مرحلة مخطط شانكلاند كوكس ١٩٧٧- ٢٠٠٠ . وغيرها .

منهج الدراسة :

تقوم هذه الدراسة على اثبات حدود وخصائص المنطقة التجارية وعلى الأخص بؤرتها التجارية في مدينة الكويت . ولهذا فان طبيعة المنهج نابعة من الهدف أي أنها منهجية مقارنة تحليلية تحاول اثبات تحقق المؤشرات التي اعتبرتها أساسية في تأكيد مركزية المنطقة التجارية . كما ان هذا النوع من الدراسات استقرائي واستدلالي ميداني في بعض جوانبه حيث يضع تصورات ومقاييس سابقة ويحاول أن يتقصى وجودها في الميدان الحضري والواقع المكاني .

تمتاز المنطقة التجارية المركزية بخصائص عديدة جعلتها تنفرد بشخصية وظيفية

مكانية ذات ملامح خاصة يسهل تميزها من خلال المنظور العام لتركيب المدينة الوظيفي . ولقد حافظت هذه المنطقة الوظيفية على خصائصها وسماتها في الجزء التجاري من المدن عبر العصور منذ أن أنشأ الإنسان المدن وعمرها .

ففي مرحلة " العصر الزراعي " عندما كان الريف ولياً لأمر المدن ومهيمنا عليها حافظت المنطقة المركزية على موقعها وسماتها ضمن جسم المدن التي كانت أسواقا لتصريف منتجات الريف . وعندما ظهرت النظريات التي تتحدث عن الموقع المركزي كانت تعنى بحديثها مفهوم الموقع الزراعي المركزي الذي يتحدد بعوامل تبرر مركزيته أو أهميته الموقعية في قلب الجسم الزراعي[١] . فقد بني " ريكاردو Recardo " نظريته المتعلقة بالريع أو العائد الاقتصادي على عامل خصوبة التربة من حيث ان العائد الاقتصادي ينخفض بانخفاض خصوبة التربة ، بمعنى ان خصوبة التربة هي التي تحدد مركزية المكان ومايتصل به من عائد مرتفع وسعر مرتفع للأراضي الزراعية الخصبة وذلك في فترة هيمنة الزراعة واستحواذ الأرياف على المدن[٢] .

وعندما تطور الأمر إلى الأراضي الحضرية " في العصر التجاري " سار الأمر على نفس المنوال وظلت الطريقة تعمل بنفس الآلية فكلما ينخفض العائد الاقتصادي بانخفاض خصوبة التربة وقدرتها الانتاجية ، فان " الموقع الحضري " المركزي لسوق التصريف يحدد نمط الاستخدام الزراعي حوله . بمعنى أن مركزية السوق تؤثر في سعر الأراضي الزراعية حولها التي لابد وان تستغل بمحاصيل ومنتجات قادرة على تغطية سعر الأرض من جهة وذات عائد مرتفع وتصريف آني للمنتج كما جاء به ثونن Thunen عام ١٨٢٦ . ورغم أن البدايات الحضرية كانت محددة نظراً لحداثة النمو الحضري بالمقارنة مع الهيمنة الريفية إلا أن ذلك قد فسر أهمية المراكز في تحديد نطاقات الاستخدام حوله بطريقة تدل على ان العائد يقل بالبعد عن المركز وبالتالي يؤثر على قيمة الأرض الزراعية وعلى نوع استغلال الأرض بالمحاصيل والمنتجات المعينة واتضح ذلك بصورة أكبر مع مرور الوقت عندما اتسعت السوق الحضرية على حساب الريف . وفي " العصر الصناعي " وظهور الثورة الصناعية وتطور وسائل النقل حافظت " المنطقة

المركزية " على قوتها ووجودها في مقابل انحسار الزراعة نحو الأطراف . فظهرت محاولات مماثلة لإثبات قوة المركز في السوق الحضرية أو الأرض الحضرية . واتضح الأمر أن المبادئ أيضاً تسير على نفس المنوال وأن الأرض الحضرية في العصر الصناعي تخضع لنفس الأسس لكن مع دخول متغيرات جديدة ليس للزراعة دوراً فيها بعد طغيان النشاط الحضري وبعد أن صارت المناطق الحضرية الكبرى "Metropolitan Areas" أسواقاً كبرى لتصريف المنتجات الصناعية الزراعية بدلاً من الأسواق المحدودة في فترة المد الزراعي(٣) .

ففي هذه المرحلة أي مرحلة التوسع الحضري واضطراد التمدن برز هذا الجزء الوظيفي من جسم المدن فتقاطرت الدراسات المختلفة لتحديده والتعرف على سماته وخصائصه ، وقد كانت البدايات في الولايات المتحدة منذ العشرينيات على حد قول ألونسو Allonso ، وفيها عرف هذا الجزء بالمنطقة التجارية المركزية C B D(٤) . وقد يقول قائل ان النظريات التي تعاملت مع المركزية المكانية قد بدأت في ألمانيا على يد ثونن Thunen ١٨٢٦ كما مر بنا ، وبعد فترة على يد كريستالر Christaller ١٩٣٣ في نظرية المكان المركزي Central Place Theory لكن الرد على ذلك يكمن في ان هذه النظريات قد تعاملت مع أنماط التوزيع المركزي على سطح الإقليم الحضري الواسع دون تفصيل لجزئياته . فإن كريستالر قد قصد بالمركزية تلك التي تعطى الأماكن صفة المحلات المركزية المتعلقة بالوظائف المركزية Central Professions التي تقدم سلعاً مركزية Central Goods وفي الوقت نفسه امتنع عن استخدام مصطلح مدينة أو مركز عمراني بل أكد على مسمى "المكان المركزي "(٥) ، وهذا يؤكد اختلاف مقاصده فيما لو قارناها بعناصر المنطقة المركزية التجارية في التركيب الحضري للمدن وهي عناصر خاصة ومفصلة ولا تتصل بالتوزيع الاقليمي السداسي HeXagnal Distribution الذي انتهى إليه كريستالر في نظريته .

ولابد لنا من القول هنا أن الأرض الحضرية التي تتشكل عليها البنية الحضرية

للمدينة بوظائفها وقطاعاتها المتعددة تختلف عن الأرض الزراعية وما يتصل بها من تقسيم وظيفي من حيث أن الأخيرة ذات مساحة كبيرة جدا أحيانا أو متوسطة وقد تستغل بمحصول واحد بخلاف الوظيفة التجارية في المدينة مثلا التي لا تشكل في الغالب أكثر من جزء صغير جدا من الجسم الوظيفي للمدينة وهذا الجزء الصغير يكتنفه تزاحم عمراني وتنوع وظيفي متعدد الأوجه . غير أن هذا الجزء الصغير الذي قد لا يتجاوز ٥٪ من جسم المدينة يستوعب حوالي ٤٠٪ من الأيدي العاملة في مدن الولايات المتحدة مثلا[٦] ، وقد تصل النسبة إلى ضعف ذلك أحيانا في مدن الموانئ التي تقوم أساسا على التجارة مثل هونج كونج ودبي على سبيل المثال .

أولاً: التركيب الحضري للمدن مع الإشارة إلى المنطقة التجارية المركزية :

عندما ازدادت الدراسات المتعلقة بالمدن وتنوعت نزل بعضها إلى مستوى جزيئات التركيب الوظيفي المدروس كالوظيفة التجارية والسكنية والصناعية والترويحية وغيرها ، ولم تتوقف عند ذلك بل انتقلت منها إلى المستوى الأصغر من جسم الجزء الوظيفي كأجزاء المنطقة التجارية فنتج عن ذلك معرفة دقيقة مفصلة عن خصائص كل جزء وظيفي ومن ذلك المنطقة التجارية المركزية التي نحن في صدد تقصي سماتها أيضا .

يعتبر النشاط التجاري أو الوظيفة التجارية من أهم الوظائف التي يتفاعل السكان معها داخل المدن أو من خارجها ولهذا يصعب تصور مدينة بغير نشاط تجاري تقوم به خارج حدودها الحضرية ولهذا فهي وظيفة قاعدية أو أساسية لا يمكن تجاهلها عند الحديث عن تعريف وظائف المدن[٧] . وقد ظهرت محاولات مستمرة لتحديد أجزاء الوظيفة التجارية مكانيا فانتهى البعض إلى تحديد خمسة مواقع هي(٨) :

(١) المنطقة المركزية (٢) منطقة الاركان (٣) حافة الاركان (٤) الشوارع التجارية (٥) حافة المنطقة التجارية . ويتصل بذلك مناطق استخدام تجاري مستقلة عن مراكز المدينة " كالأسواق الإقليمية " و " أسواق الضواحي "[٩] . ويركز بحثنا على المنطقة

الأولى التي هي المنطقة التجارية المركزية Central Business District ويطلق عليها أيضا منطقة البؤرة التجارية Core Area ويتصل بها منطقة الاركان وحافتها في الغالب Core - Fringe وهي تتصف بصفات المنطقة التجارية المركزية إلى حد كبير .

وتوصف المنطقة التجارية المركزية بانها منطقة تركز لأكبر تجمع تجاري وتتصف بما يأتي من سمات[١٠] : (١) يتمثل فيها أعلى سعر للأرض بالنسبة للقدم أو المتر المربع، (٢) يوجد فيها أكبر عائد اقتصادي للأنشطة الاقتصادية مثل المصارف ، البورصة ، شركات الأوراق المالية ، ومحلات بيع الالماس والذهب ونحوها من الأعمال التي تعطي أعلى عائد بالنسبة للمكان الذي تشغله ، (٣) تشغل جزءا صغيرا من المساحة الوظيفة التجارية إذ لا تشكل أكثر من ١٪ من جسم التركيب التجاري غير أن عائدها هو أعلى عائد بالمقارنة مع بقية الاستخدامات التجارية الأخرى ، (٤) تأخذ مبانيها الاتجاه الرأسي أو العمودي العالي جدا أحيانا حسب ما تسمح به لوائح استعمالات الأرض وذلك لتعوض صغر المساحة وارتفاع أسعار المتر أو القدم المربع عن طريق الاكثار من الطوابق المتعددة الاستخدام خاصة الاستخدامات ذات المردود المرتفع ، (٥) يقل الاستخدام السكني في هذه المنطقة إلى حد أدنى حد ولا يكاد يظهر إلا من خلال الفنادق القديمة أو التي جددت إلى فنادق ذات مستوى عال ولكن على نطاق ضيق جدا وغالبا ما توجد في حافة البؤرة ، (٦) يتم التسوق فيها عن طريق المشي على الأقدام أو بالاتصالات دون حضور خاصة على مستوى الصفقات التجارية العالمية كالبورصة والمضاربة والعرض والطلب من قبل سماسرة العقار والأموال والتجارة .

ويضيف (عباس ، ١٩٧٧) عن أبرز سمات المنطقة التجارية المركزية أيضا ، بانها تتصف بازدحام حركة مرور المتسوقين وعادة ما تقل فيها الشوارع حيث تقوم الحياة التجارية على شارع أو شارعين أو ثلاثة على الأكثر ، أما ما يحيط بها فهو متصل بها بصورة أو أخرى . ويفرق برجس (Briggs, 1982)[١١] بين منطقة الأعمال المركزية الأمريكية والمنطقة المركزية البريطانية بقوله أن منطقة الأعمال المركزية

الامريكية تتصف بارتفاع المباني وارتفاع سعر الأرض فيها مع تركز كبير للمجلات في منطقة ضيقة ، أما المنطقة التجارية البريطانية فهي عادة ما تقوم على تقاطع الطرق الرئيسية ثم ما تلبث أن يحدث النمو حولها ويتباين حجم هذه المنطقة حسب حجم السكان وحجم المدينة .

وتوجد هذه السمات بصورة أكبر في العواصم المالية للعالم أو التي تتشابه معها في التركيب التجاري . فمن ذلك مثلا إقليم نيويورك الحضري الكبير New York Metropolitan Region (الذي يختصر إلى NYMR) حيث تتركز البؤرة التجارية فيه The Core في ميناء نيويورك - نيوجرسي أي حول هذه المنطقة التي تربط قارة أمريكا الشمالية ببقية العالم وتشمل ما يتصل بالتجارة والسوق الرأسمالية كالاستثمار ، المصارف ، السندات والأسهم ، شركات التأمين العالمية إذ يتركز فيه أكثر من ١/٤ صادرات الولايات المتحدة كما أنه مسئول عن ١٠٪ من الدخل القومي للبلاد [١٢] .

والشيء نفسه يقال عن طوكيو وإقليمها التجاري الذي يحمل هذه الصفات حيث تتركز الأنشطة التجارية لليابان فيما يسمى بإقليم العاصمة القومية National Capital الذي يغطي المسافة التي تحيط بالعاصمة طوكيو على نطاق ١٥٠ كيلو مترا بشكل دائري ويضم على وجه الدقة ٧ مقاطعات أو أجزاء صغيرة متلاصقة هي شيبا Chiba وجوما Gumma وايباراكي Ibaraki وكاناجاورا Kanagawa وسيتاما Sqitama وتوشيجي Tochigi وطوكيو Tokyo ، وتقسم هذه الـ ١٥٠ كيلو مترا حول العاصمة إلى أجزاء تشكل في مجملها أجزاء التركيب التجاري لهذه المنطقة . أولها على بعد ٢٥ كيلو مترا والثانية على بعد ٥٠ كيلو مترا ثم على بعد ١٠٠ كيلو مترا ثم ١٥٠ كيلو مترا ، ويكون التركيز على اشده في الـ ١٠٠ كيلو متر الأولى من العاصمة . وتجذب هذه المنطقة الجزء الأكبر من العمالة ، وحركة الأموال رغم أنها لا تشكل سوى ١٠٪ من حجم البلاد [١٣] . وفي العادة تختلط بؤرة المنطقة المركزية مع أركانها أو حافتها الملاصقة بها خاصة في المدن الصغيرة بينما يسهل

التمييز بين أجزاء المنطقة التجارية في المدن الكبرى[١٤] .

ثانياً : طرق تحديد المنطقة التجارية المركزية :

هناك طرق كثيرة للتعرف على حدود هذه المنطقة الحيوية من جسم المدن غير أن أهمها وأكثرها مناسبة هي بتتبع السمات والخصائص المذكورة سابقا ميدانيا حتى يسهل معرفة حدودها ومكوناتها . ولعل من أهم الطرق التي تعتمدها الدراسات التي تدرس هذه الظاهرة هي :

١- تتبع أسعار الأراضي في المنطقة التي تتصف بالسمات السابقة إذ يبدأ عندها أعلى سعر ويقل نحو أطرافها .
٢- تتبع أنواع الأعمال والأنشطة القائمة التي تدل على تركز النشاط التجاري ذي المردود العالي .
٣- تقصى أنواع الاستخدام الوظيفي في المباني القائمة في هذه المنطقة والمحيطة بها مع متابعة أشكال المباني أيضا حيث ينعدم في هذه المنطقة الاستخدام السكني المعتاد إلا من مبان قديمة قام حولها المركز وبعد وجودها مؤقتا سرعان ما يتبدل إلى نشاط ذي مردود مرتفع[١٥] .

ويقتضي ذلك الاستعانة بمقاييس إحصائية أو نسب مئوية تقيس درجة التركز التجاري وأنواعه في المكان المعين وهذه في الواقع أهم الطرق المعتبرة كما بينتها المراجع المختلفة ويستدعي ذلك عمل خريطة مركبة يظهر فيها أنواع الاستخدام الأرضي ثم في الطوابق المتعددة[١٦] ، كما يحتاج الأمر إلى خريطة يجدد فيها اسماء الشوارع المؤدية لهذه المنطقة أو المنتهية إليها .

وقد استعرض كارتر Carter مجموعة من المعادلات المستخدمة في تحديد ملامح المنطقة التجارية المركزية[١٧] لعل ما يهم الدراسة منها ما يعرف بمؤشر كثافة الاستخدام الوظيفي في المنطقة المركزية Central Business Intensity Index (CBII) وهو مخصص لقياس مجموع مساحة الاستعمالات التي تنتمي إلى

المنطقة المركزية التجارية في كل الطوابق مقسم على مجموعة المساحة الكلية للبلوك أو القطعة مضروب في ١٠٠ وهو :

$$CBII\ \ 100 \times \frac{\text{كثافة الاستعمالات في المنطقة التجارية}}{\text{مجموع مساحة البلوك}}$$

ولابد أن لا يقل الناتج عن ٥٠٪ لاثبات التركز . ويضاف إلى ذلك أن يكون البلوك أو القطاع المكاني جزءا من مجموعة استعمالات الأراضي المنسوبة إلى المنطقة التجارية ومكملا لغيره ، وإذا احتل القطعة مؤسسة حكومية فانها تضم مع المنطقة التجارية رغم اختلاف الاستخدام ، أما إذا احتلت احدى طوابق المباني فان ذلك انسب ويحدد بالمعادلات السابقة . أما المنطقة التجارية المركزية أي القلب أو البؤرة فان نسبة الاستخدام تتراوح بين طابق إلى أكثر من خمسة طوابق أو أكثر لمعرفة طبيعة الاستخدام ودرجة تركزه وهو أنسب لأنه أي هذه المنطقة هي نقطة التقاء كل خصائص المنطقة التجارية المحيطة بها . لهذا فمقياس الـ CBII يصلح للتعامل مع أكثر من طابق يحكم تركز الاستخدام .

ونحن في الواقع لا نرمي إلى استخراج خريطة مركبة بل سنحاول أن نستخدم ما يتناسب الدراسة لتحديد هذه المنطقة باستعمال الأسس أو الطرق السابقة وهي أسعار الأراضي وأنواع الاستخدام وأنواع الأنشطة ، لأن الخريطة المركبة تستدعي منهجية ميدانية لها طريقها المعتبر في تقصي الطوابق الموجودة في كل بناء من الأبنية في المنطقة المدروسة وللخروج بالخريطة المذكورة . وهي بحد ذاتها موضوع متكامل ليس هذا بحاله ، غير أننا قمنا بدراسة هذه المنطقة باستخدام خريطة البلدية (مقياس ١ : ١٠٠ متر) ميدانيا في محاولة لتطبيق معادلة مؤشرات كثافة الاستخدام الوظيفي التجاري في المنطقة وذلك لاثبات أمرين هما :

أ - ان الاستخدام التجاري هو المهيمن على هذه المنطقة عمرانيا .

ب - ان نسبة الاستخدام التجاري أعلى ما تكون فيها خاصة منطقة البورة وذلك بعد تقسيمها إلى ٤ أجزاء كما سيظهر عند الحديث عن الشكل رقم (٧) لاحقا .

ثالثاً : المؤشرات المحددة للمنطقة التجارية المركزية في الكويت :

مر بنا آنفا أن هناك طرق كثيرة لتحديد هذه المنطقة ومن أبرزها تتبع خصائصها الوظيفية وملامحها الحضرية ثم محاولة اثبات تواجد هذه الملامح في المكان الذي تتمثل فيه . وبطبيعة الحال فان مركز المدينة التجاري معروف عند عامة الناس وخاصتهم غير أن التحديد الدقيق للجزء المركزي أو البؤرة وأركانها يقتضي متابعة وتقصي لمتغيرات وخصائص محددة . أما الثوابت والمتغيرات التي تفترض الدراسة أنها كفيلة بتحديد هذه المنطقة فهي :

١- الأهمية التجارية للمنطقة التجارية المركزية وأركانها من منظور تاريخها الحضري.
٢- دور المخططات الهيكلية والتنظيم البلدي في تحديد المنطقة التجارية المركزية .
٣- حيز الأرض للاستخدام التجاري في المنطقة التجارية بالمقارنة مع المناطق الأخرى .
٤- أسعار الأراضي من وإلى المنطقة التجارية المركزية .
٥- التحرك الحضري العام بين المركز وخارج المركز كمحدد للمنطقة التجارية المركزية .
٦- خطط الاسكان والعمالة كمحددات للمنطقة التجارية المركزية .
٧- حركة الأموال في المنطقة التجارية المركزية وما حولها .
٨- المنظور العام للأنماط العمرانية في المنطقة التجارية المركزية .

وسنقوم بمعالجتها تباعا لتقصي مدى آثارها في تحديد المنطقة التجارية والمركزية في المدينة داخل حدود السور الذي حل محله شارع السور المحاذي للحزام الأخضر .

١- الأهمية التجارية للمنطقة المركزية وأركانها من منظور تاريخها الحضري :

المنطقة المركزية التجارية لمدينة الكويت ليست وليدة العهد النفطي بل هي امتداد الأصل المدينة التي تمت حول نواتها التجارية القديمة التي كانت تضم منطقة الميناء والجمرك وما يحيط بهما من أسواق متلاصقة متصلة يتوسطها أو ما كان ولا يزال يعرف " بقيصرية التجار " و " سوق المناخ " . والمتأمل لشكل المنطقة التجارية في المدينة يسهل عليه التعرف على أصل نواتها حيث أن موقعها الجغرافي الممتاز قد يسر

لها مياهها محمية صالحة للملاحة ورسو السفن . ورغم وجود ظاهرة متكررة في كثير من المراكز التجارية للمدن وهي ما يعرف " بالثنائية " أي اتصال السوق القديمة بالأسواق الجديدة باشكالها العصرية ، إلا أن المخطط الحضري بعد اكتشاف النفط استطاع أن يربط بين الجزأين بشيء من الانسجام والاتصال الحضري الانسيابي الذي ينقل السكان بشكل تدريجي من الاطراف العصرية إلى النواة القديمة التي أدخل عليها بعض التجديد .

إن المتأمل لشيء من الجغرافيا التاريخية والاقتصادية لدولة الكويت ينتهي إلى محصلة من النتائج أبرزها ثلاث هي : (١) إن النشاط التجاري كان العمود الفقري لاقتصاد الكويت (٢) إن الكويت لها ميناء ومراسي للسفن على طول سواحلها (٣) إن للنشاط التجاري أماكن تشغل أجزاء كبيرة من المدينة وأن هذه الأماكن هي نواتها التجارية التي نمت من حولها المدينة واتسعت نحو الأطراف مع الزمن .

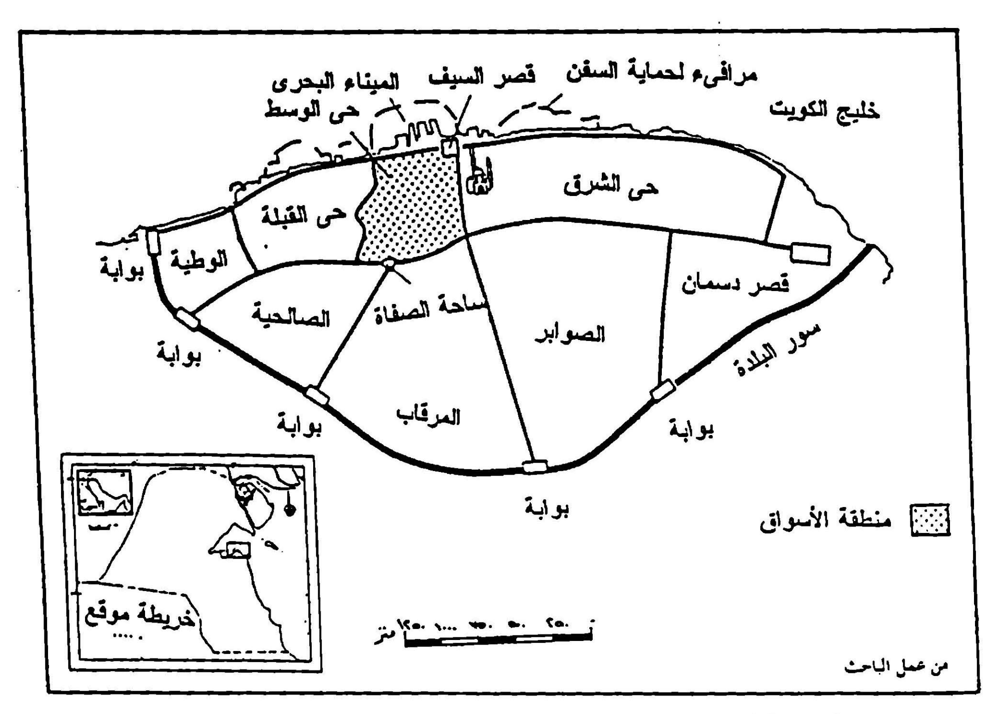
وقد ثبت ذلك من خلال التقارير والمشاهدات التي لاتزال آثارها باقية إلى أيامنا هذه . فالتقارير البريطانية الرسمية عن التجارة في منطقة الخليج في النصف الأول من القرن التاسع عشر تدل دلالة قاطعة على ضخامة الوظيفة التجارية في مدينة الكويت. إذ يشير بكنجهام Buckingham في رحلته عام ١٨١٦ « ان لمدينة الكويت ميناء عظيم وان غالبية سكانها من التجار في جميع ضروب التجارة .. إلخ[١٨] . كما يشير كمبل Kemball المقيم الإنجليزي في الخليج في تقرير له في ٦ يناير ١٨٤٥ بقوله عن مدينة الكويت « إنها مدينة أنموذج للنجاح التجاري » وقدر سكانها في تلك الفترة بـ ٢٥ ألف نسمة ، وذكر أن سفنها التجارية والسفن الأخرى الصغيرة كانت على النحو التالي :

أ - ٣١ بغلة وبتيلا تتراوح حمولة الواحدة منها بين ١٥٠ - ٣٠٠ طن .
ب - ٥٠ سفينة صغيرة تعمل في التجارة على سواحل الخليج .
ج - ٣٥٠ قاربا وتعمل في صيد اللؤلؤ[١٩] .

وقرر أن الكويت ميناء حر لا تجمع فيه أي جمارك أو مكوس فيما عدا الضرائب التي تفرض على البدو الذين يؤمون مدينة الكويت لشراء حاجياتهم ، وكان ذلك في عهد جابر الأول ١٨١٥ - ١٨٥٩م . وفي تقرير آخر لـ بلى Pelly المقيم البريطاني في الخليج عام ١٨٦٣ و ١٨٦٥م أشار إلى أن قيمة واردات الكويت من مدينتي ملبار وبومباي في الهند تصل إلى ٢٠٠ر٠٠٠ روبية وذلك نظير استيراد الأرز والأقمشة والقهوة والأخشاب والبهارات ، بينما صدرت الكويت ٨٠٠ حصان أصيل يبلغ متوسط ثمن الحصان منها ٣٠٠ روبية ، وما قيمته ٤٠ر٠٠٠ روبية من الأصواف ، و ٦٠ر٠٠٠ روبية من التمور وحوالي ٤٠ ألف من بضائع أخرى . أما البحارة الكويتيون فيصفهم بلي Pelly بالسمعة الطيبة والمهارة وقدر عددهم بـ ٤٠٠٠ بحار، وذكر أن الكويت ترسل نحو ٣٠ مركبا إلى بومباي في العام الواحد معدل حمولتها ١٠٠ طن حاملة ٢٠٠٠ ريال فرنسي أو ٦٠ر٠٠٠ روبية . كان ذلك في عهد الحاكم الرابع صباح الثاني ١٨٥٩ - ١٨٦٦[٢٠] .

وقد تضاعفت التجارة واتسعت البلاد وزادت السفن والتجار والتجارة إلى أضعاف ذلك في عهد مبارك الكبير مؤسس دولة الكويت الحديثة ١٨٩٦ - ١٩١٥ كما هو معلوم .

وكانت مدينة الكويت تتكون من قطاعات وظيفية حضرية تحيط بمنطقة الميناء والجمرك التي يوازيها طريق يؤدي إلى داخل السوق . وهذه القطاعات هي : (١) منطقة الميناء وشارع السيف (٢) منطقة الأسواق وساحة الصفاة (٣) الاحياء السكنية وتحيط هذه المناطق بمنطقة « السوق وشارع السيف المتصل بالميناء » إذ أن هذه المنطقة كما يصفها من عاصر تلك الفترة من أهل البلد أو ممن وصفها من الرحالة والمقيمين السياسيين تعد القلب النابض للحركة التجارية للبلد وهي نواتها المركزية[٢١] ونواتها التجارية وتقع في نطاق محددة في القلب بشكل شبه متعامد على منطقة الميناء والجمرك (انظر الشكل رقم "١") .



شكل رقم (١) ، مكونات مدينة الكويت القديمة وشكلها العام قبل اكتشاف النفط

وهذه القطاعات الوظيفية رغم تخصص كل قطاع بوظيفته الخاصة به إلا أنها متفاعلة ومرتبطة مع بعضها البعض إذ تصل السفن إلى الميناء والجمرك أو إلى "النقع" التي تقع أمام بيوت ملاك السفن وهذه النقع عبارة عن مراسي للسفن أعدت من قبل الناس حيث يحدها صف من الصخور البحرية الكاسرة للأمواج بحيث تدخلها السفن وترسوا بداخلها للتنزيل أو التحميل أو للصيانة . ويحيط بهذه المنطقة الأسواق التي تتلقى هذه السلع وهي أسواق متصلة ببعضها ومسقفة على نمط الأسواق العربية المعروفة بالمدن العربية الإسلامية حيث يقطعها الماشي في رحلة شراء واحدة لاتصالها وتخصصها . ثم حول ذلك تقع الأحياء السكنية المتصلة بها التي تضم السكان يلي ذلك سور يحيط بالمدينة وله بوابات تفتح في النهار وتغلق في المساء كما هو معتاد في المدن في تلك الفترة لدفع الأخطار وصيانة المجتمع وترابطه .

كانت مساحة المدينة تتراوح بأقصى تقدير وفي أقصى اتساع لها أيام الشيخ مبارك الكبير بين حوالي ميلين على طول الساحل وبين ربع إلى ثلاثة أرباع الميل نحو الداخل ، أما ديكسون فيقدر طول الواجهة البحرية المحددة بالسور بحوالي ثلاثة أميال ونصف ويعمق حوالي ميل وربع خاصة عند أقصى نقطة اتساع وهي المركز[٢٢] المقابل للميناء ، على اعتبار أن شكل المدينة هلالي أو نصف دائري منفتح على البحر ومنغلق على الصحراء .

٢- دور المخططات الهيكلية والتنظيم البلدي في تحديد المنطقة المركزية :

في الفترة التي أعقبت ظهور النفط وتدفق عوائده على الدولة والفرد ، انعكس ذلك على شكل المدينة التي باتت في أمس الحاجة إلى تنظيم جديد لها يتناسب مع التغير الوظيفي ، والنمو السكاني ، ودخول الوسائل الجديدة كالسيارات ونظم الاتصالات التي اعطت المخطط مجالا للاتساع خارج نطاق السور الذي حافظ على حجم المدينة طوال حوالي قرنين ونصف من الزمان . ومن أكبر المؤثرات الحضرية تحويل مدينة الكويت القديمة باسرها ، أي التي كانت محددة بالسور إلى « سوق مركزية » لخدمة مدينة الكويت الكبرى التي امتدت إلى ما وراء السور الذي ازيل بعد عام

١٩٥٧ وذلك نتيجة المخطط الهيكلي الأول ١٩٥١ - ١٩٥٢ الذي واكبه عملية "التثمين " أو استملاك الأراضي داخل السور وتعويض أهلها بأسعار مضاعفة عن سعر السوق مع توفير قطع سكنية اعدها المخطط الهيكلي الأول لتلقى هذه الأفواج الخارجة من القلب إلى الأطراف حيث نتج عنها أول » حراك حضري رسمي « Official Urban Mobility . أما سور مدينة الكويت فقد هدم ولكن ترك ما يدل على وجوده وهي " البوابات القديمة " التي ابقيت كمعالم تاريخية حضارية " وكذلك تسميته شارع السور الذي حل محل السور وقد تمت حمايته رسميا بحزام أخضر Green Belt مواز له ليكون فاصلا بين المدينة القديمة التي صارت سوقا كبرى للكويت باكملها ، وبين بقية الاستخدامات الوظيفية الجديدة .

في هذا الصدد يمكن القول بأن " المنطقة المركزية التجارية قد حافظت على وجودها وظلت حتى الآن كما كانت من قبل تمثل نواة أو بؤرة النشاط التجاري " ، ويقتضي هذا منا أن نستعرض الخطط الهيكلية خاصة فيما يتعلق بالمنطقة التجارية المركزية ، ثم الاستعانة بالمتغيرات التي تثبت أن المنطقة المركزية التجارية لازالت متواجدة وظيفيا ومكانيا . وقد حدث الشيء نفسه عندما حددت المخططات الهيكلية اللاحقة التي تعاملت مع هذه المنطقة على أنها القلب أو النواة التجارية . فلو تعاملنا مع كل مخطط على حدة لظهر لنا ذلك من واقع التنظيم الحضري الرسمي .

١- المخطط الهيكلي الأول مونوبوريو وسبنسلي وماكفارلن ، وخطة نزع الملكية ١٩٥٢.

٢- المخطط البلدي التنظيمي ١٩٦٧ للبلدية .

٣- المخطط الهيكلي ١٩٧٠ - ١٩٩٥ ليبوكانن وشركاه .

٤- المخطط الهيكلي ١٩٧٧ - ٢٠٠٠ لشاكلاتد كوكس وشركاه .

٥- المخطط الهيكلي ١٩٨٣ - ٢٠٠٥ لبيو كانن وشركاه .

لعبت المخططات الهيكلية مع التنظيم البلدي دورا هاما في تأكيد أهمية المنطقة المركزية التجارية وذلك من خلال ما طرحته من تصورات لنموها الحضري المستقبلي .

وكان دور البلدية يعد أساسيا في ذلك عن طريق تبني أسس حضرية تنظيمية يمكن استخلاصها بالمتابعة الميدانية وهي :

١- اعتبار هذه المنطقة موقعا رئيسا للاستخدام التجاري المركز كامتداد للتاريخ الحضري التجاري لمدينة الكويت .
٢- الاسراع في نزع الملكية المتبقية منها أو ما يحيط بها لتأكيد الهيمنة التجارية فيها .
٣- السماح بانشاء المباني المتعددة الأدوار ذات الواجهات التجارية والاستخدام المتعدد الطوابق لتعويض النقص في المساحة .
٤- تخطيطها مروريا بطريقة تؤكد منع الازدحام المروري عن طريق صرف السيارات إلى أطرافها أو أركانها في ساحات مخصصة أو بمواقف متعددة الأدوار والسماح لسيارات الأجرة والنقل العام بدخولها .
٥- تنظيمها حضريا بما يساعد على قطعها مشيا على الأقدام باحياء مبدأ التقارب الوظيفي من خلال الطرق القصيرة النهايات ومنع أسواق الشوارع الطويلة الامتداد التي تستدعي استخدام السيارة ، مع بناء الانفاق الخاصة بالمشاة قرب ساحة الصفاة .
٦- تصميم المناطق التي تقع على أطرافها أو فيما وراء أركانها بطريقة تؤكد مركزيتها وذلك بجعل الطرق الرئيسية تنتهي إلى أطرافها مما يجعلها أشبه ما يكون بمركز يخرج منه طرق شعاعية الانتشار بطريقة أو بأخرى .
٧- ولما جاء دور الخطط الهيكلية التي بدأت منذ الخمسينيات أي منذ عهد تدفق عوائد النفط عملت هذه الخطط على تأكيد ما أوجدته البلدية التي وضعت الخطوط العامة والتصورات الخاصة لآفاق الامتداد الحضري وأشكاله . بينما عمل المخطط الهيكلي على تفصيل التركيب الوظيفي وتعديل ما يناسب خاصة وأن الذين وضعوا الخطط الهيكلية قد جاؤوا بمبادرة واستدعاء من البلدية التي هيمنت على القرار التنفيذي .

ولو أمعنا النظر في الخطوط العامة الاستراتيجية والمكانية لكل مخطط لوجدنا أن هذه المنطقة التي نحن معنيون بالحديث عنها قد لاقت من الاهتمام ما يوازي بقية الاهتمامات في المخطط الهيكلي للدولة . أما المخطط الهيكلي الأول عام ١٩٥٢ الذي اعدته الاستشارية البريطانية مونوبوريو وسبنسلي وماكفرلن فهو أهم مخطط هيكلي قامت على خطوطه مدينة الكويت الحديثة وقد تحقق بأثر هذا المخطط ثلاثة أمور مهمة حضريا وهي :

١- تطبيق نظام الطرق الدائرية أو انصاف الدائرية حول المركز وهو من أحدث أنظمة الانتشار الحضري على مستوى العالم وهو مطبق في لندن مخطط ابيركرومبي Abercrombie [٢٣] ، ومخطط واشنطن دي سي المسمى بالممرات الشعاعية[٢٤] "The Radial Corridor Plan" .
٢- التأكيد على مركزية مدينة الكويت القديمة داخل السور وذلك بابقاء أكبر الأسواق والمؤسسات الحكومية ومقر إدارة الحكم فيها وانطلاق الطرق منها وإليها .
٣- تشجيع الكويتيين للخروج من المدينة القديمة إلى المناطق والضواحي الجديدة التي أعدت لهم .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أهم نقطة في التوصيات السبع التي ذكرت ضمن أهداف هذا المخطط الهيكلي التي تؤكد مركزية العاصمة تجاريا[٢٥] وهي :

« تطوير المنطقة التجارية المركزية وتحسين ساحة الصفاة مع مراعاة التناسق في توزيع مواقع المباني الحكومية حتى تضفي طابعا مميزا للمدينة » .

يضاف إلى ذلك أهداف أخرى تؤكد مركزية العاصمة مثل تخصيص مناطق لقيام المباني الحكومية والمراكز التجارية والخدمات الضرورية على الاخص شبكة الطرق الحديثة داخل المدينة وخارجها ، وبين هذه الطرق فرق كبير ، حيث امتازت الطرق داخل المدينة القديمة بقصرها وتعرجها لأنها حددت ورسمت بالنسبة لمواقع المساجد حيث منع القانون هدم هذه المساجد أما خارج السور فالأرض بكر ولهذا خططت ونظمت بنظام

الطرق الدائرية التي تقطعها الطرق الشعاعية الخارجة من بوابات السور فتشكل بينهما قطع سكنية تتسع بالبعد عن المركز .

ويضاف أيضا إلى أهداف المخطط الهيكلي الأول فيما يتعلق بمركز المدينة مايأتي:

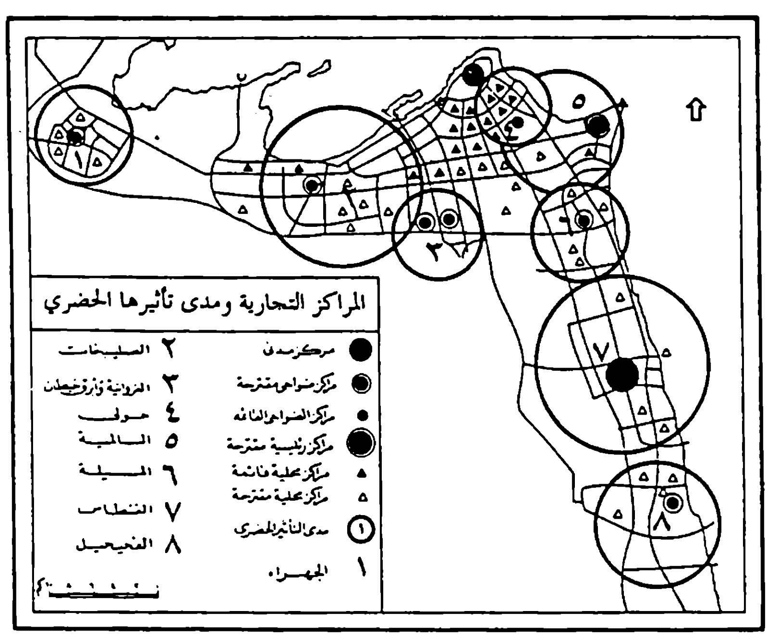
« باعتبارها مركز النشاط التجاري والإداري » فقد اهتم المخطط بوضع الأسس للبنية الهيكلية للمدينة والتي كانت تتقدم فيها سابقا . وقد خصصت منطقة للنشاط التجاري نواتها ساحة الصفاة التي كانت ساحة مفتوحة تتلقى تجارة الصحراء قديما ، ومنطقة للمباني العامة للوزارات والإدارات الحكومية على جانبي شارع عبد الله السالم ثم منطقة أخرى خصصت للأنشطة الصناعية الخفيفة ، وقد غطى المخطط ما يعادل ٧٥٥ هكتارا داخل المدينة وأما خارجها فقد غطى حوالي ١٤٥٠ هكتارا ليشمل المناطق الممتدة حتى الدائري الثالث(٢٦) .

وقد ساعد على سرعة سير المخطط وتنفيذه(٢٧) ما يأتي :

١- توافقه مع خطط استملاك الأراضي داخل السور لإعادة تنظيمها وفقا لمتطلبات المخطط الجديد .
٢- ظهر معه جميع أسس الضبط المكاني واستخدامات الأرض مثل ، تكوين لجنة للتخطيط الحضري ، وضع نظم البناء ، تحديد مواقع الاستخدام المكاني .
٣- كانت المحصلة أن يكون معه : (أ) جهاز فني لتنظيم الطرق والتصميم والمساحة في إدارة الأشغال العامة (ب) تكون " مجلس الإنشاء " برئاسة سمو أمير البلاد مما يعني أن السلطة العليا للتخطيط والعمران كانت تحت أكبر سلطة في البلد مما يدل على سرعة التفاعل مع مطالب التخطيط الحضري والتغيير المرتقب بما يوافق مطالب هذا المخطط .

ولقد ساعد عامل استملاك الأراضي بالتعويض (التثمين) على معرفة المواقع التي تستحوذ على أقصى سعر بالنسبة للقدم أو المتر المربع ومما يدل دلالة قاطعة على تحديد المركز والنواة .

شكل رقم (٢)



المصدر : Master Plan for Kuwait, First Review 1977, Vol. 3; Shankland Cox Partnership, p. 80

أما بالنسبة للمخطط الهيكلي بيوكانن ١٩٧٠ - ١٩٩٥ فانه قد أكد على مركزية هذه المنطقة وذلك بتحديد تدرج حجمي للمراكز التجارية الرئيسية داخل حدود المنطقة التي اعتبرتها الدراسة منطقة المركز التجاري كما أشرنا من قبل . فقد قسم المخطط المراكز التجارية إلى خمسة مراكز تتدرج من حيث أهميتها المركزية هي (انظر الشكل رقم ٢) :

١- مدينة الكويت كمركز رئيسي أول وعاصمة للبلاد .

٢- مركز رئيسي ثان لخدمة المناطق جنوب الدائري السادس لخدمة ٥٠٠ ألف نسمة .

٣- سبع مراكز من الدرجة الثالثة في حولي والسالمية والفروانية والصليبخات والفحيحيل والجهراء والمسيلة لخدمة ١٠٠ ألف نسمة .

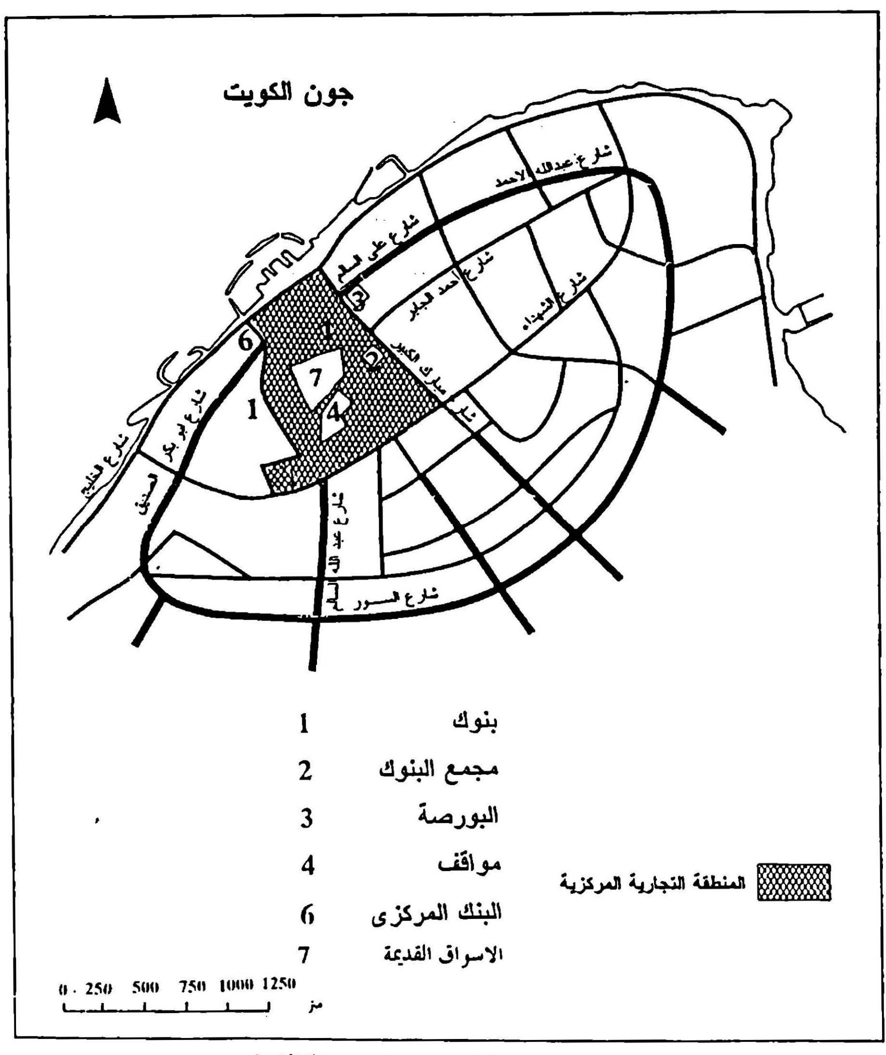
٤- مراكز الضواحي السكنية وهذه لخدمة السكان ما بين ١٠٠٠ إلى ٣٠ ألف نسمة.

٥- دكاكين في الأحياء السكنية .

المطلع على هذا التدرج يجزم بما لايدع مجالا للشك أن مركز المدينة هو المنطقة التجارية الرئيسية بما فيها البؤرة المركزية على مستوى البلاد يؤمها الناس جيئة وذهابا في قوله أنها " مركز رئيسي أول وعاصمة للبلاد " ، أما القلب التجاري بالنسبة للمخطط فيحدده بقوله " تحتوي هذه المنطقة على الأنشطة الحيوية في الدولة من خدمات تجارية وحكومية ، وحددت الشوارع النابضة فيها أو التي تدور حولها أو تنتهي إليها بثلاثة مواقع هي : « على امتداد شارع عبد الله السالم جنوبا وبين شارعي عبد الله المبارك ، ومبارك الكبير ، وعند تقاطع شارعي جابر المبارك وأحمد الجابر »[(٢٩)] . ومما يؤكد كونها المنطقة المركزية التجارية ببؤرتها وأركانها وجود المواقف ذات المدى القصير منعا لتكدس السيارات ، ووجود المواقف المتعددة الأدوار والمواقف الموجودة على حافتها وذلك لتصريف التدفق إلى أماكنه المناسبة لتسهيل التحرك والتنقل كما هو معتاد في مراكز المدن (انظر الشكل رقم ٣) .

أما المخطط الهيكلي شانلكاند ١٩٧٧ - ٢٠٠٠ ، فقد سار على منوال المخطط السابق من ناحية التأكيد على أهمية مركزية المنطقة كما في قوله : « لقد تم تأكيد الأسس الواردة في المخطط الهيكلي لبوكانن ١٩٧٠ » (١) بمعنى التأكيد على مركزية المنطقة التجارية وأركانها إضافة إلى التدرج في أحجام المراكز بالبعد عن المراكز نحو الداخل . وفي الوقت نفسه حرص هذا المخطط على احياء مبدأ " اللامركزية التجارية " في محاولة للتخفيف من الضغط المتوقع على مركز المدينة عن طريق توزيع المراكز الثانوية بعيدا عن العاصمة ولهذا يشير بقوله " إن ما ورد يؤكد الهدف المقصود الا وهو الحد من زيادة مساحة الأرضية التجارية في مدينة الكويت ولكي لا يزداد الازدحام وتتأثر الخدمات والمرافق ، ويؤكد أيضا ما يجري الآن في المدن الغربية من

اتجاه متزايد بإدخال اللامركزية في الأنشطة التجارية .. خاصة من نمو مساحة الأرضية التجارية الكلي للبيع بالمفرق للفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٧ كما يشير الجدول رقم (١) .



المصدر : شانكلاند كوكس ، التقرير النهائي ، الجزء الأول ، ص ١٠٠ ، مع إضافة الباحث .

شكل رقم (٣) ، الاستخدام الوظيفي في المنطقة التجارية المركزية في مدينة الكويت

جدول رقم (١)

النمو في حيز الأرضية التجارية خلال فترة المخطط الهيكلي الأولي بوكانن (١٩٧٠ - ١٩٩٥) وإعادة التطوير الثاني للهيكلي الأول شانكلاند (١٩٧٧ - ٢٠٠٠)

المركز	مساحة الأرضية ١٩٧٠ (م٢)	مساحة الأرضية ١٩٧٧ (م٢)	النمو (م٢)
المدينة	٣٨٣٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	١١٧٠٠٠
حولي	١١٧٠٠٠	١٠٣٠٠٠	- ١٤٠٠٠
السالمية	٧٥٠٠٠	٨٧٠٠٠	١٢٠٠٠
الفحيحيل	١٧٠٠٠	٣٩٠٠٠	٢٢٠٠٠
مراكز الضواحي والدكاكين	٦٠٠٠٠	١٧٩٠٠٠	١١٩٠٠٠
المجموع للبيع والمفرق	٦٥٢٠٠٠	٩٠٨٠٠٠	٢٧٠٠٠

المصدر : شانكلاند كوكس ، المخطط الهيكلي ، الجزء الأول : التخطيط والسياسة ، التقرير النهائي ، إعادة التطوير الأولى (١٩٧٧ - ٢٠٠٠) ، بلدية الكويت ص ٥٦ جدول ٣٨ .

ويشير شانكلاند في معرض تعليقه على الجدول في تقريره النهائي بأن الجدول رقم (١) يبين الأرقام والنمو الذي طرأ على مساحة الأرضية منذ آخر مسح رئيسي اجري بواسطة بوكانن عام ١٩٧٠ - ١٩٩٥ وبان الجدول رقم (١) يشير إلى أن المدينة كمركز تجاري رئيسي تضم ٥٥٪ من مجموع حيز الأرضية للبيع بالمفرق في الكويت كما يجتذب ٦٢٪ من القوة العاملة في هذا القطاع وأنه عند إعداد المخطط ١٩٧٧ - ٢٠٠٠ لشانكلاند أي منذ ١٩٧٠ إلى ١٩٧٧ وهي فترات بداية المشروع زاد الحيز الذي تشغله أرضية البيع بالمفرق إلى ٣٠٪[٣٠] .

ومن خلال النظر إلى الجدول رقم (١) يمكن الخروج بالنتائج التالية :

أ - اطراد النمو بدرجات متفاوتة غير أن مركز المدينة ومراكز الضواحي يشهدان نموا ملحوظا في الحيز الأرضي .

ب - هناك نمو معتدل في السالمية والفحيحيل وهي مراكز بعيدة عن مركاكز المدينة .

ج - هناك نقص ملحوظ في حيز النمو في حولى مقداره ١٤٠٠٠م٢ ويرجع ذلك إلى التوسع في المباني السكنية على حساب النشاط التجاري على اعتبار أن حولى تمثل منطقة تمركز لغير الكويتيين .

والخلاصة ان إطراد نمو المدينة يؤكد مركزيتها أما باقي النمو فهو محاولة لتحقيق لا مركزية تجارية لتخفيف الضغط على المركز الرئيسي داخل الكويت عن طريق تحويل رحلات الشراء إلى مراكز الضواحي والمراكز الأخرى في السالمية والفحيحيل وغيرها .

أما بشأن المخطط الهيكلي لبوكانن ١٩٨٣ المسمى « اعادة التطوير الأولى للمخطط الهيكلي الثاني (١٩٨٣ - ٢٠٠٥) » فقد أكد أيضا الخطوط العامة المتعلقة بمركزية البؤرة بطرق متعددة حيث قام بالاطلاع على ما وضعه المخططون السابقون والتقديرات التي تصروها فيما يتعلق بالأنشطة التجارية في المركز وما حوله. فقد وضع جدولا يبين فيه التغير الذي طرأ على الحيز الأرضي لتجارة المفرق كما هو في جدول رقم (٢) .

جدول رقم (٢)

التغير في مساحة أراضي تجارة المفرق بالـ ١٠٠٠م٢ خلال الخطط الهيكلية

حسب تقدير بيوكانن ١٩٨٣ - ٢٠٠٥

المركز	كولن بيو كانن	٪	اعادة التطوير الأولى١٩٧٧ شانكلاند	٪	اعادة التطوير الثانية ١٩٨٠ بيو كانن	٪
مركز المدينة	٣٨٣	٥٨ر٧	٥٠٠	٥٥ر١	٥٧٥	٥٠
حولي	١١٧	١٧ر٩	١٠٣	١١ر١	١٥٠	١٣ر١
السالمية	٧٥	١١ر٥	٨٧	٩ر٦	١١٤	٩ر٩
الفحيحيل	١٧	٢ر٦	٣٩	٤ر٣	٨١	٧ر١
أخرى (مراكز الضواحي ومراكز تجارية)	٦٠	٩ر٢	١٧٩	١٩ر٧	٢٢٨	١٩ر٩
الاجمالي	٦٥٢	١٠٠	٩٠٨	١٠٠	١١٤٨ر١	١٠٠

المصدر : كولن بيو كانن ، المخطط الهيكلي لدولة الكويت ، التقرير النهائي ، التخطيط والسياسة ، إعادة التطوير الثانية ١٩٨٣ - ٢٠٠٥ ، بلدية الكويت ، ص ٣٥ جدول ٤-١ .

بالرغم من أن الجدول رقم (٢) يشير إلى تقلص الحيز الأرضي لتجارة المفرق في مركز المدينة إلا أن ذلك لا يمنع من أن المركز لايزال يهيمن على كافة الدولة من ناحية أن نسبته لم تنخفض عن ٥٠٪ من إجمالي التوزيع المكاني لتجارة المفرق مما يؤكد مركزية هذه المنطقة وما يحيط بها . وفي الحقيقة أنه بدء في المخطط التطويري الأولى ١٩٧٧ لشانكلاند فإن المحاولات لتحقيق اللامركزية التجارية مستمرة وذلك لتحقيق توزيع حضري متوازن . ولهذا فان بو كانن في تقريره النهائي يقر بذلك حيث قدر أن توزيع حيز الأرضية سيبقى على ماهو حتى عام ١٩٩٠ (سنة الغزو)

وبحلول آخر سنوات المخطط أي عام ٢٠٠٥ فان نصيب مركز المدينة من حيز الأرضية التجارية سينخفض إلى ٤١٪ [٣١] .

٤- أسعار الأراضي من وإلى مركز المدينة :

يعتبر عامل أسعار الأراضي من العوامل المهمة في تحديد مركزية المكان وهيمنته على ما حوله إذ غالبا ما تقل الأسعار بالنسبة للقدم أو المتر المربع كلما ابتعدنا عن المركز نحو الاطراف ، ومرجع ذلك أن مراكز المدن مواضع للتنافس الاقتصادي والمضاربة وتراكم رأس المال والعرض والطلب وبالتالي فهي مكان للأعمال التجارية الضخمة ذات المردود المرتفع المتسارع والتي لا يقدر على البقاء فيها إلا المقتدر على شراء هذا الموقع أو ذاك أو بالتأجير في هذا المكان . وهذا يعلل السبب في تركز مؤسسات مثل البورصة ، والمصارف ، وشركات العقار الضخمة ، وشركات الأوراق المالية في مراكز المدن . وتعرف المدن ومراكزها بالذات من عدة مناظير ووجهات نظر ، " فالمدرسة الايكولوجية " ترى أن المدن ومراكزها عبارة عن كائن اجتماعي Social Organism وساحة للتنافس والغزو والتعاقب Invasion and Succession بين المؤسسات المختلفة وينتج عن ذلك ظهور أو بقاء مؤسسات وموت أخرى ، أما مدرسة الايجار والريع Urban - rent Theories فترى أن المدن ومراكزها عبارة عن مواقع لاحداث التوازن بين القوى القائمة فيها فالاقدر على تحمل الايجار هو الذي يبقى بينما يدفع من هو أقل قدرة إلى حواف أو أطراف المركز . وان المدن لازالت تعزز قوة ومركزية النواة التجارية Central Commercial Core من خلال الأنشطة المختلفة .

ولهذا تعرف المدينة المعاصرة من منظور ما ذكر بانها بنية يهيمن عليها ويديرها باطراد مركز تجاري ضخم له سمات بارزة مثل المباني المرتفعة ، والمكاتب العالية الكثافة، والاسواق ذات الطوابق ، طاردة للصناعة والاعمال التجارية الصغيرة التي لا قدرة عليها للبقاء نحو الاطراف والمواقع الأخرى ، ولاتزال متأثرة بالقوى التاريخية المعتادة التي صاغت بنائها وبنيتها [٣٢] .

وفي دراستنا هذه قمنا بمسح أسعار الأراضي بطريقة مقارنة على مدى عشر سنوات أي أسعار عام ١٩٨٥ ثم أسعار ١٩٩٥ في مواقع مختارة يمكن من خلالها معرفة قوى أو مستوى أسعار البؤرة والمنطقة المركزية عموما بالمقارنة بما حولها . إذ أن الدراسة ترى أن أغلى سعر للأرض بالنسبة للمتر المربع تقع في المنطقة المركزية التي تمثل منطقة سوق المباركية وما يحيط بها مثل شارع مبارك الكبير التي تقع عليه البورصة ومجمع البنوك وشارع عبد الله المبارك وشارع علي السالم المبارك ثم شارع عبدالله السالم وهذه كلها تحيط وتؤدي إلى البؤرة المركزية التي تمثل أعلى الأسعار والتي في نفس الوقت تنخفض الأسعار منها إلى الأطراف ، وهي في الوقت ذاته تضم الأسواق التي نشأت حولها مدينة الكويت قديما .

أما أسعار الأراضي السكنية وهي التي تمتد بمحاذاة الطرق الدائرية المحيطة بالمركز فهي أيضا تقل بالبعد عن المركز غير أنها تضم في جنباتها أسعارا تنفرد بها بعض المواقع نظراً لمزايا خاصة من نمو موقع أو اقبال من السكان عليها أو لكونها استثمارية كما يظهر من الجدول رقم (٣) والشكل الذي يتصل به رقم (٤) .

الجدول رقم (٣)

« اسعار الأرض التجارية والاستثمارية في مدينة الكويت بالدينار الكويتي ١٩٨٥ - ١٩٩٥ »

المنطقة	اسم المكان	نوعه	اسعر ١٩٨٥/م٢ د . ك	اسعار ١٩٩٥/م٢ د . ك
السوق	المباركية	تجاري - مركزالمدينة	٣٠٠٠	٦٠٠٠-٧٠٠٠
الشرق	شرق	استثماري - مركز المدينة	٢٢٠	٤٥٠
حولي	حولي	استثماري - الدائري الرابع	١٥٠	٢٨٠
السالمية	السالمية	استثماري - الدائري الرابع	١٤٠	٢٥٠
السالمية	شارع سالم المبارك	تجاري - الدائري الرابع	٣٠٠-٣٥٠	١٠٠٠-١٢٠٠

المصدر : متابعة ميدانية للباحث . " تجاري " أي مجمع فيه محلات تجارية ومكاتب عمل خاص وليس فيه سكن اطلاقا ، و " استثماري " أي عمارات فيها شقق سكنية وطوابقها الأرضية فيها محلات تجارية .

يظهر في الجدول رقم (٣) اسعار الأرض لفترتين زمنيتين بينهما مدة زمنية تصل إلى حوالي ١٠ سنوات أي عام ١٩٨٥ - ١٩٩٥ . وهذه الفترة شهدت تقلبات بالأسعار حيث أن سنة ١٩٨٥ انخفضت الاسعار بشكل ملحوظ بعد أزمة المناخ غير أنها ارتفعت من جديد مع نهاية الثمانينيات . كما أنها شهدت أحرج وأصعب حادثة في تاريخ البلاد ألا وهي الغزو العراقي الغاشم في أغسطس ١٩٩٠ ، إذ مع الغزو انتهى عمل السوق جملة وتفصيلا كما ان بعد التحرير نمت الأسعار من جديد وكانت اخفضها بعد التحرير مباشرة أي ما بين ١٩٩١ - ١٩٩٢ بسبب الكساد وهروب رؤوس الأموال والعمالة ودخول مرحلة البناء وإعادة انشاء البني الأساسية وغير ذلك بحيث انها لم تستقر إلا في الفترة ٩٣ - ٩٤ والمرحلة الحالية على مشارف العام ١٩٩٦ بعد استقرار الأوضاع . يشير الجدول رقم (٣) إلى ارتفاع سعر المتر المربع بشكل واضح في منطقة السوق خاصة منطقة المباركية التي يحيط بها أكبر مؤسسات الدولة فيما يتعلق بحركة الأموال والبيع والشراء إذ تزخر هذه المنطقة بوجود مجمعات البنوك ، البورصة ، والبنك المركزي وشركات الأوراق المالية الكبرى ، والمؤسسات التجارية الضخمة ، وقطاع التجار ولهذا فهي كما تشير المخططات الهيكلية ، ومن خلال المشاهدة الميدانية انها منطقة نشاط تجاري صرف بحيث يكاد ينعدم الوجود السكني المركز أو الترفيهي أو التعليمي فيما عدا المواقع القديمة مثل المكتبة المركزية في قلب سوق المباركية التي كانت فيما مضى مدرسة المباركية كأول مدرسة أنشأت في الكويت كما يمثل الشكل رقم (٤) صورة هذه الأسعار على الواقع المكاني حيث يلاحظ من الشكل المذكور الفارق الشاسع بين المركز وما يحيط به حتى على مسافات قريبة كمنطقة شرق ، ولا يتقارب معه إلا منطقة السالمية شارع سالم المبارك التي لها نطاقها التجاري المؤثر المنعزل عن منطقة السوق . كما دلت المعلومات العقارية المتداولة في الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٩٥ الحالي إلى بيع قطعة أرض قرب البؤرة في شارع أحمد الجابر بسعر ٣١١٠ دينار للمتر المربع مما يجعل مسألة المنطقة التجارية متطابقة في مجمل الأسعار التي تتخذ اتجاها مطرداً نحو الارتفاع الذي لا يجاريه أي سعر في باقي المناطق المجاورة سوق القلب في المباركية .

أما بشأن أسعار الأراضي في المناطق السكنية فان ذلك ظاهر أيضا من حيث ارتفاع الأسعار كلما اتجهنا إلى المركز خاصة في المناطق التي تقع على الدائري الأول والثاني والثالث . وقد ترتفع الأسعار في مناطق الدائري الرابع والخامس في العديلية والخالدية ، واليرموك وقرطبة والسرة إلا أن ذلك نتيجة لعامل المضاربة غالبا حيث يتراوح سعر المتر المربع حسب مساحة الأرض ما بين ١١٠ إلى ١٨٠ دينارا ، ولكون هذه المناطق جديدة من حيث مدة السكن فيها نسبيا ولوجودها في منطقة وسط بين مركز المدينة الذي يمتد أثره حتى أطراف الدائري الرابع ، وبين المناطق الجنوبية التي تبدأ أثرها عند مشارف الدائري السادس باتجاه الجنوب ، ولهذا انخفضت أسعارها في فترات متصلة بركود المضاربة .

ومن جهة أخرى يشير الجدول رقم (٤) إلى أسعار الأرض السكنية بالبعد عن منطقة البؤرة وتعطي انطباعا عن ارتفاع الأسعار بالقرب من المركز واعتدالها تارة أو انخفاضها كلما بعدت عنه .

جدول رقم (٤)

اسعار الأرض السكنية حول مركز المدينة ١٩٨٥ - ١٩٩٥

المنطقة	اسم الموقع	نوعه	اسعار ١٩٨٥/م٢	اسعار١٩٩٥/م٢
الدائري الأول	ضاحية عبد الله السالم	سكن خاص	١٣٠ د.ك	٤٥٠ د.ك
الدائري الأول	الدسمة	سكن خاص	٦٠ د.ك	١٢٠ د.ك
الدائري الأول	الشويخ (ب)	سكن خاص	١٥٠ د.ك	٢٥٠ د.ك
الدائري الثاني	النزهة	سكن خاص	١١٠ د.ك	١٨٠-١٩٠د.ك
الدائري الثاني	القادسية	سكن خاص	٥٠ د.ك	١٠٠ د.ك
الدائري الثاني	الفيحاء	سكن خاص	٦٠ د.ك	١١٠ د.ك
الدائري الثالث	الروضة	سكن خاص	٦٠ د.ك	١٢٠ د.ك

المصدر : متابعة ميدانية للباحث .

٥- التحرك الحضري العام بين المركز وخارج المركز كمحدد للمنطقة المركزية :

تعتبر الحركة في المدن من انتقال ونحوه من دلائل حياة المدن واطراد نموها خاصة إذا واكب ذلك نظام طرق ومواصلات فعال يحقق الصلة بين مواقع الحركة في المدن . وتعتبر الطرق فعالة إذا ربطت بين استخدامات المدينة الوظيفية كالسكن والعمل والأسواق والترويح بطريقة انسيابية من غير أن ينشل أو ينقطع الارتباط بين أجزاء المدينة في ساعات الذروة . وتقاس فعالية الطرق من خلال معيارين الأول منهما قدرة هذه الطرق في الربط بين الوظائف القائمة في المدينة كما ذكرنا وثانيهما مقدار ما تشغله هذه الطرق من جسم المدينة بحيث أنه كلما تنوعت وتعددت كلما دل ذلك على أثصرها الحضري المؤثر في نمو المدن . وقد ساعدت وسائل النقل على اعطاء فسحة أكبر وبدائل أكثر للموقع السكني والتجاري والصناعي فلم تعد هذه الوظائف محددة بمواقع معينة لا تتعداها كالنزعة نحو المركزية أو التقارب من مواضع لا تتعداها . ويتأثر الانتقال في المدن حسب درجة النشاط الاقتصادي والوظيفي ، وكذلك حسب كثافة ونمط توزيع السكان ، وشكل خطة المدينة أن كانت تتبنى نظام الطرق الدائرية أو النظام الشبكي أو غيرهما ، كما يتأثر أيضا بمساحة الرقعة الحضرية المتاحة ، وأخيراً يتأثر أيضا بمدى تنوع وتعدد الوسائل وانضباطها الدقيق وبنوع الطرق المتاحة ومدى ملائمتها أو تماشيها مع المستويات العالمية المحددة لفعالية الطرق .

أما دوافع الحركة في المدن فهي تشمل التحرك اليومي أو الأسبوعي في الغالب للحاجات الأساسية للحياة في المدن كالذهاب والاياب إلى العمل ، والذهاب والاياب إلى السوق ، الذهاب والاياب للزيارات الاجتماعية ، الذهاب والاياب للترويح والإجازات ، الذهاب والاياب للعبادة . . إلخ . كما تشمل التحرك الموسمي أو الفصلي كحركة السكان بين المدن أو ما بين المذن واقاليمها داخل حدود الدولة وهذه قد تتم بصفة يومية أحيانا إذا كانت طرق النقل فعالة كما في الدولة المتقدمة صناعيا . وسنركز هنا على عملية الذهاب والاياب إلى العمل والسوق كمحددين أساسين للتأكيد على مركزية مدينة الكويت على اعتبار أن كل وزارات الدولة ومقر الإدارة والحكم يتواجد فيها إضافة على وجود الأسواق الأساسية والكبرى في المركز .

ينظر في الدراسات الغربية في مدن أوربا وأمريكا الشمالية إلى رحلة العمل ورحلة الشراء من زوايا محددة وهي زاوية تقليل التكلفة MCost-Minimization[٣٣] أي تكلفة النقل التي غالبا ما يصاحبها تقليل مدة السير على خط الرحلة المعنية Cummuting-time-minimization . ومع ذلك فان عامل تقليل التكلفة والزمن لا يعتد به كثيرا لوجود مؤثرات أخرى تخص الأفراد والأسر لابد من اعتبارها إضافة إلى عامل التكلفة . ومن جهة أخرى فإن التخطيط الحضري لطرق النقل لاشك يستفيد كثيرا من التقديرات الدقيقة لمواقع العمل والسكان وحركة السكان التي بدراستها وفهمها يمكن ايجاد بيئة تحقق اتصالا فعالا بين الثلاثي المؤثر في الحركة (السكن - العمل - النقل) . أما نموذج الونسو Alonso في الستينيات فقد كان يؤكد على أن تحديد موقع السكن يرتبط بالموقع المركزي للعمل ، وان السكان في اختيارهم لموقع العمل والسكن يتأثرون كثيرا بضوابط مثل الدخل ، والرغبة في المكان ، وتكلفة الانتقال ، وسعر الأرض السكنية وغير ذلك[٣٤] .

ومن جهة أخرى فإن فاعلية طرق النقل والحراك الحضري هو الذي أوجد ظواهر جديدة واهتمامات ذات أبعاد تقع فيما وراء حدود مراكز المدن Reubanization[٣٥] الذي يسميه البعض أيضا Suburban Nucleation كما في مدن أمريكا الشمالية[٣٦] . ويهمنا هنا أن نشير إلى سمات الحراك الحضري بصورته المحملة كما في نموذج كلاسين Klaassen في نهاية الثمانينيات[٣٧] ما يوضح نمط اتجاهات حركة السكان العامة بالعلاقة مع مركز المدن ومما سيلقي الضوء على بعض خصائص هذه الدراسة . ونعني بحركة السكان العامة أي الواسعة التي تتم على شكل أفواج أحياناً أو على شكل أعداد كبيرة بخلاف التحرك اليومي الذي مر ذكره . يشير كلاسين Klaassen إلى وجود أربعة أوجه Four Phase Model للحراك الحضري في المدن كما تظهر في الجدول رقم (٥) .

جدول رقم (٥)

أوجه مراحل التحضر في المدن كما في

نموذج فان دن برج وكلاسين Van Den Berg & Klaassen

أوجه التحضر	النوع	نمط التغير السكاني		نوع التكتل
		البؤرة	الاركان	
تحضر	١- نزعة قوية نحو المركز	++	-	+
	٢- نزعة نسبية نحو المركز	++	+	+++ نمو
تحضر الضواحي	٣- نزعة نسبية نحو المركز	+	++	+++
	٤- نزعة قوية خارج المركز	-	++	+
انحسار التحضر	٥- نزعة لا مركزية قوية	-	+	-
	٦- نزعة نسبية لا مركزية	-	-	- انحسار
تحضر القرى	٧- نزعة نسبية مركزية	-	-	-
والاطراف	٨- نزعة قوية مركزية	+	-	-

المصدر :

Lever, W., "Reurbanization - The Policy Implication " , in Urban Studies, Vol. 30, No. 2 , 1993, pp.269, Table (1) .

Note : +,++,+++ = Population Growth, Slow (+), too fast (+++)

العلامة + ، ++ ، +++ = نمو السكان . نمو بطيء = (+) ، نمو سريع جداً = (+++) .

__, ___, ___ = Poplation Decline, Slow (-) , too fast (---)

العلامة - ، -- ، --- = انخفاض أعداد السكان ، انخفاض بطيء = (-) ، انخفاض سريع جدا = (---) (عن نفس المرجع) .

يظهر من الجدول رقم (٥) حسب رأي فان دن برج وكلاسين Van Den Berg & Klaassen أربعة أوجه رئيسية للتحضر في المدن ينتج عنها ٨ أنماط من التغير تبين نوع التحضر الحضري Urban Mobility ذي الطابع المرحلي ، مع وجود ما

يبين نمط التحرك إن كان سريعا أو بطيئا فيما بين المركز والاطراف مع الصورة النهائية إن كان التحضر في حالة نمو متسارع أم في حالة إنحسار ملحوظ . أما المراحل أو الأوجه الأربع التي أشار إليها النموذج فهي :

تحضر	Urbanisation
تحضر الضواحي	Suburbanisation
إنحسار التحضر	Disurbanisation
تحضر الاطراف	Reurbanisation

وكل مرحلة لها سمات تميزها من ناحية ما يتصل بها من نتائج وخصائص حضرية انتقالية ، فبالنسبة للتحضر Urbanistion أو الوجه الأول من الحراك الحضري في المدن فانه يمتاز بخاصيتين أولهما : نزعة قوية نحو المركز وهذا متوقع إذ أن الأفراد والأسر تتدفق نحو المدن خاصة مع وجود الأثر الاستقطابي في البؤرة وأركانها مما يرفع نسبة التحضر ويزداد التكتل ويطرد حول مركز المدينة ويتسارع ، وثانيهما التدفق نحو المركز ومعتدل غير أن التكتل يزداد بسبب تراكم التدفق السكاني . أما في مرحلة تحضر الضواحي Suburbanisation فهذا أيضاً متوقع خاصة مع زيادة التكتل في البؤرة والاركان في مركز المدينة مما يؤدي إلى دفع الناس إلى الضواحي وشبه الضواحي في الحلقات الحضرية المحيطة بالمركز للتخفيف عليه أو لعدم قدرته على استيعاب أفواج جديدة Massive Suburbs and Exurbs Movement فهي تبدأ بنزعة لا مركزية ينتج عنها تكتل ضخم يزداد بالبعد عن المركز ويعظم فيما وراء الحلقات المحيطة بمركز المدن ولهذا تسمى أيضا Exurbanisation وهاتان المرحلتان تمثلان فترة النمو Growth أي اطراد التحرك نحو المركز وحوله في قطاعات المدينة . يعقبها مرحلتان تمثلان فترة الانحدار والانحسار الحضري Decline عن المركز مع تجدد في العودة في آخر المرحلتين . وتضم مرحلة الانحسار الحضري مرحلتين هما مرحلة تلاشي التحضر Disurbanisation ومرحلة العودة إلى تحضر المدينة خاصة ما بعد عن المركز كالمدن الصغيرة والقرى وتشمل أيضا اعادة الهجرة إلى المراكز أحيانا وهي مرحلة Absolute Decentralisation بحيث لا تنال البؤرة أو

المركز أي نصيب من الهجرة الحضرية الداخلية بل تتجه إلى الأطراف بتسارع ملحوظ كما تدل إشارات النموذج وبالمثل تفقد الضواحي ما يعادل ما تفقده البؤرة بل وأحيانا تتعدى البؤرة في الهجرة المعاكسة . أما المرحلة الأخيرة أو الرابعة وهي مرحلة Reurbanisation فهي تمثل بداية العودة مرة أخرى للمركز بعد تحضير الاطراف وما يحيط به غير أنها ليست قوية إذ لايزال الاتجاه نحو الخارج معتبر وملحوظ .

ولو طبقنا ذلك على مدينة الكويت لفهم التحرك الحضري أو نمطه العام من واقع الخطط الهيكلية ومن واقع المشاهدة الميدانية إذ تشير الدراسات التي ربطت التحرك الحضري للسكان من المدينة القديمة داخل السور إلى ما وراء السور إلى وجود حراك حضري مثل هذا النوع مع ما يميزها من خصائص حضرية . إذ تشير الأرقام في الجدول (٦) إلى وجود نمو مطرد ومتسارع لسكان مدينة الكويت ، وتراجع سريع لسكان المدينة القديمة حيث تراجع حجم السكان فيها من ١٠٤٥٥١ نسمة تمثل ٦٨٪ من جملة السكان (١٩٥٧) ، يهبط الرقم إلى ٦٠٣٦٥ نسمة بنسبة ٦٪ فقط (١٩٨٠) بما يؤكد عمق الحراك الحضري تجاه المدينة الجديدة واستمرارية تفريغ المدينة القديمة من سكانها لحساب النشاط التجاري المتنامي بصورة سريعة .

جدول رقم (٦)

نمو سكان دولة الكويت بين المدينة الحالية والمدينة القديمة

(عام ١٩٥٧ - عام ١٩٨٠)

السنة	عدد سكان الدولة	الرقم القياسي	سكان المدينة الحالية	الرقم القياسي	النسبة من جملة السكان	المدينة القديمة	الرقم القياسي	النسبة من جملة السكان
١٩٥٧	٢٠٦٤٧٣	١٠٠	١٥٤٥٦٩	١٠٠	٧٥٪	١٠٤٥٥١	١٠٠	٦٨٪
١٩٦١	٣٢١٦٢١	٦٥١	٢٣٤٤٣٨	١٥٢	٧٣٪	٩٦٨٦٠	٩٣	٤١٪
١٩٦٥	٤٦٧٣٣٩	٢٢٦	٣٨٠٨٨٧	٢٦٢	٨٠٪	٩٩٦٠٩	٩٥	٢٦٪
١٩٧٠	٧٣٨٢٢٦	٣٥٨	٥٥٦٩٠٤	٣٨٣	٦٨٪	٨٠٤٠٥	٧٧	١٤٪
١٩٧٥	٩٩٤٨٧٣	٤٨٢	٧٠١٣٨٧	٤٥٤	٧١٪	٧٧٩٨٩	٧٥	٨٪
١٩٨٠	١٣٥٥٨٢٧	٦٥٧	٩٤٥٢٦٦	٦٦٨	٧٦٪	٦٠٣٦٥	٥٨	٦٪

المصدر : أحمد حسن إبراهيم ، ١٩٨٢ ، " مدينة الكويت دراسة في جغرافية المدن " ، جدول (٣) ص ١٢١ .

جدول رقم (٧)

جملة سكان الكويت للفترة : ١٩٨٥ - ١٩٩٥

السنة	جملة السكان
١٩٨٥	١ر٧١٩ر٦٣٧
١٩٨٦	١ر٧٩٧ر٧١٢
١٩٨٧	١ر٨٧٧ر٢٩١
١٩٨٨	١ر٩٥٨ر٣٧٤
١٩٨٩	٢ر٠٤٠ر٦٩١
١٩٩٠	٢ر١٢٥ر٠٥٣
١٩٩١	--
١٩٩٢	١ر٣٩٨ر٠٥٩
١٩٩٣	١ر٤٣٣ر٢٠٥
١٩٩٤	١ر٤٦٨ر٩٠٢
١٩٩٥	١ر٥٠٥ر١٥٨

المصدر : المجموعة الإحصائية السنوية ، ١٩٩٣ ، العدد ٣٠ ، ص ٢٥ ، جدول رقم ١٠ ، وزارة التخطيط ، الكويت .

(السنوات ٩٤ ، ٩٥ ، عبارة عن تقدير من المصدر) .

إذ يشير الجدول رقم (٦) إلى تطور جملة السكان في الدولة حسب الإحصاءات السكانية الرسمية منذ عام ١٩٥٧ ، ويهمنا من الجدول الأعمدة المتعلقة بالمدينة القديمة أي المحددة بالسور . إذ يشير الجدول إلى انخفاض جملة السكان فيها بطريقة "الانحدار بالقفز " ان صح التعبير إذ توحي النسب إلى عدم وجود " انخفاض تدريجي" فقد كان سكان المدينة القديمة عام ١٩٥٧ يشكلان ما نسبته ٦٨٪ من جملة السكان ثم انخفضت إلى ٤١٪ عام ١٩٦١ ، ثم إلى ٢٦٪ عام ١٩٦٥ ثم إلى ١٤٪ عام ١٩٧٠ ثم إلى ٨٪ عام ١٩٧٥ ثم إلى ٦٪ عام ١٩٨٠ [٣٨] . مما يدل دلالة قاطعة

على تخصيص المدينة لتكون مركزا تجاريا لخدمة الكويت الكبرى كما مر آنفا عند الحديث عن الخطط الهيكلية في تأكيد الموقع التجاري لهذا الجزء من الكويت . ومن جهة أخرى يشير المخطط الهيكلي لبيو كانن ١٩٨٣ - ٢٠٠٥ ويؤكد ذلك غير أنه يدعو إلى اعادة الكويتيين إلى المدينة القديمة من خلال مشاريع اسكان حديثة رغم انخفاض عدد السكان عموما خاصة الكويتيين فهم المقصودون بالاسكان . يشير المخطط بقوله : « بان عدد السكان في مركز المدينة في انخفاض مستمر لعدة سنوات ولكن ينبغي أن تساعد اعادة بناء الأراضي الحالية لأهداف الاسكان في عكس هذا الاتجاه » ويضيف « بأن المخطط الهيكلي قد قصد في مجموعة المساكن المقترحة أن تستوعب ٢٧٫٥٠٠ نسمة من الكويتيين بنسبة ٢٧٪ من عدد سكان مركز المدينة وبزيادة تبلغ ٢٦٪ عن معدلات سنة ١٩٨٠ »[٣٩] . ولو عدنا للجدول السابق رقم (٦) لوجدنا أن نسبة السكان عام ١٩٨٠ في مركز المدينة هي ٦٪ (في المخطط الهيكلي ٧٫٤٪) وتعادل ٦٠٣٦٥ نسمة من مجمل السكان البالغ ١٣٥٥٨٢٧ نسمة حسب الإحصاء الرسمي . أما جدول (٧) فانه يشير إلى جملة السكان في دولة الكويت للتعرف على المنظور العام للنمو السكاني ويلاحظ ارتفاع للسكان في سنوات الغزو أي عام ١٩٩٠ وهذا لا يمثل الحقيقة لأنها محض تقدير على أرقام سابقة للفترة (١٩٨٥ - ١٩٩٥) ، لأن في عام ٩٠/٩١ أنخفض اجمالي السكان إلى حوالي ٢٥٠ ألف نسمة بأثر الغزو العراقي .

ومن جهة أخرى لو حاولنا أن نطبق نموذج فان دن برج وكلاسين Van Den Berg & Klaassen الذي مر ذكره على جدول رقم (٥) مع ما أشار إليه المخطط الهيكلي من ضرورة عودة الكويتيين إلى المركز لكان الناتج العام على النحو التالي :

نزعة قوية نحو المركز ← نزعة قوية خارج المركز ← نزعة نسبية مركزية

أما « النزعة القوية نحو المركز » فهي تخص مدينة الكويت منذ نشأتها حيث كانت هي المدينة وهي الدولة اعني مدينة الكويت داخل السور وكان معظم السكان

يتركزون بها . أما النزعة خارج المركز فهي التي صاحبت الخطط الهيكلية ١٩٥٢ ، مخطط البلدية ١٩٦٧ ، بو كانن ١٩٧٠ ، شانكلاند ١٩٧٧ .

ثم بو كانن ١٩٨٣ حيث أكدت هذه الخطط خاصة حتى عقد السبعينيات على دفع السكان من المدينة إلى ماورائها من خلال اعداد مدينة جديدة محددة بالطرق الدائرية والقطع السكنية المعدة لتلقى الأفواج المهاجرة . وقد صاحب ذلك مشروع البلدية المسمى " نزع الملكية " حيث انتزعت الملكيات في المدينة القديمة نظير مبالغ مضاعفة لجذب السكان للهجرة إلى خارج المدينة القديمة نحو المدينة الجديدة كما أشرنا. فعلى سبيل المثال عام ١٩٥٢ إبان قيام المخطط الهيكلي الأول بلغت الاستملاكات حوالي ١ر٢ مليون دينارا ، وفي عام ١٩٥٣ بلغت ٤ر٣ مليون دينارا ، ثم ٦ر٢١ مليون دينارا ثم إلى ١ر٤٠ مليون دينارا و ٣ر٨٥ مليون دينارا للفترة ١٩٥٧ - ١٩٦٠ [٤٠] . وقد كان عدد السكان في الخمسينيات (أي قبل عام ١٩٥٧ وهو العام الذي اجرى فيه الإحصاء الرسمي) حسب تقدير ديكسون حوالي ١٦٠ ألف نسمة[٤١] ، وتشير الدراسة التي أعدها فرنش وهل French & Hill ان الذين غادروا مدينة الكويت في تلك الفترة من الكويتيين حوالي ٣٣ ألف نسمة[٤٢] من جملة سكان المدينة داخل السور الذي وصلوا إلى ٥٥١ر١٠٤ نسمة أي حوالي ٥ر٣١٪ وتتابع خروجهم إلى المدينة الجديدة بحيث لم يبق إلا أعداد بسيطة مما دعا المخطط الهيكلي إلى اعادة " النزعة المركزية الحضرية " نحو المدينة القديمة .

ومن الأمور التي لها اعتبار أيضا في تعزيز كون هذا المكان مركزا للمدينة والدولة من المنظور التجاري والمالي حركة السيارات والانتقال مثل رحلة الشراء والعودة ورحلة العمل التجاري خاصة من وإلى هذه المنطقة . تشكل السيارة الخاصة ٨٠٪ من حجم المرور في الكويت ، ويتكون المتبقي من الشاحنات المقفلة والمكشوفة ١٨٪ والحافلات ٢٪ . ورغم محاولة الدولة رفع أداء النقل العام للتخفيف من حدة التدفق إلى مركز المدينة إلا أن النقل الخاص يظل هو المهيمن والمسيطر على حركة النقل وإشغال الطرق .

وتتصف شبكة الطرق في المركز بالثبات إذ أنها محددة بأسوار المدينة أو بواباتها القديمة وساحل البحر مما يستدعي تخفيف الحركة لأجل رفع كفاءة المنطقة من ناحية قدرتها على استيعاب حركة السكان منها وإليها . وعموما تستأثر منطقة السوق المحددة بشارع مبارك الكبير وأحمد الجابر وشارع عبد الله المبارك بالحركة المرورية المرتبطة بالمركز التجاري فهي تحيط بمنطقة الأسواق وتتجه إليها . ويبلغ نصيبها من جملة الرحلات ٧٠٪ وتزداد هذه النسبة في مواسم الاعياد ونهاية الأسبوع والإجازات. وتمتاز حركة السكان باتجاهها إلى الأسواق القديمة أكثر للتعامل مع السلع والبضائع اليومية أو الموسمية . أما قطاع سوق الذهب وقطاع المنطقة التجارية الثانية والثالثة مقابل سوق المباركية من جهة الشمال فهي تستحوذ على حركة أقل غير أنها من المنظور المالي فهي أكبر لأنها تحتوي على محلات شركات العقار والأموال . وعموما تشغل منطقة الأسواق وامتدادها حوالي ٢٨٠ر٠٠٠ مترا مربعا من جسم المدينة القديمة[٤٣] . وأيضا فان المخطط الهيكلي لبيوكانن ١٩٨٣ - ٢٠٠٥ يقدر بان حجم التشبع في ارتفاع معدلات ملكية السيارة الخاصة ستنخفض عام ٢٠٠٥ أي مع نهاية سنوات المخطط حيث سيصل عدد السيارات الخاصة إلى ١ر٠١٤ر٠٠٠ سيارة يمتلك الكويتيون منها ٦١٪[٤٤] . وسيحل محلها النقل العام باشكاله للتخفيف من حدة التدفق لتجنب الازدحام ، ومن جهة أخرى تستحوذ المنطقة المحيطة بالمدينة القديمة على حجم هائل من الحركة والنقل تصل إلى ٤٥ ألف سيارة في ساعات الذروة أي ساعات الذهاب إلى العمل ومرجع ذلك إلى وجود مجمع الوزارات الذي ادخل في حيز المدينة التي كانت داخل السور لهذا تزداد هذه الحركة موازية لمنطقة الحزام الأخضر . ورغم محاولة المخطط الهيكلي تجنب ذلك بالتأكيد على السواق الموازية كما في السالمية وحولي وأسواق الضواحي إلا أن التدفق إلى الأسواق لازال يحتل أكبر مركز لوجود

عامل الارتباط النفسي والتاريخي المصاحب لحركة الشراء حيث يلاحظ ميل السكان النفسي للتسوق في المناطق القديمة وعلى الأخص مع وجود أسواق الذهب الرئيسية والمصارف وشركات الأموال كما ذكرنا .

٦- خطط الاسكان والعمالة كمحددات للمنطقة التجارية المركزية :

بالاطلاع على الجدول رقم (٨) يتضح أن الاسكان المقترح لسنوات المخطط الهيكلي ١٩٨٣ - ٢٠٠٥ لبو كانن يؤكد على الاكثار من نظام الشقق الاستثمارية للقطاع الخاص داخل المنطقة التجارية المركزية مع وجود نظام وحدات سكنية لكنها أقل عدداً وأصغر حجما مما هو معتاد خارج نطاق مركز المدينة . إذ أن القسائم السكنية خارج منطقة المدينة القديمة تتراوح ما بين ٣٧٥ إلى ١٠٠٠م٢ . ويصل إلى أكثر من ذلك حسب عدد القسائم المملوكة بالشراء أو غيره بينما يؤكد المخطط وما يطرح على الجمهور أن نظام الوحدات داخل المدينة يتراوح بين ١٥٠ - ٢٠٠ مترا مربعا أو ١٧٥ مترا مربعا على أقصى حد مع السماح بتعدد الطوابق أي تعويض قلة المساحة بالارتفاع رأسيا وأيضا لعدم القدرة على عمل السردات أو القبو الذي صار معتادا في العمارة الكويتية بعد اكتشاف النفط ، ذلك أو الأراضي داخل سور المدينة يرتفع عندها منسوب المياه الأرضية مما يجعل حفر السراديب أمرا مكلفا وأحيانا مستحيلا . وعلى العموم يغلب على هذه المشاريع المبينة في الجدول رقم (٨) أنها صغيرة الحجم وأكبرها حجما منطقة القرية الكويتية التي ستقوم شمال شرق شارع السيف قرب قصر السيف وهي قرية تراثية حرفية سياحية للحرف لكنها مرتبطة بسكن الحرفيين (حوالي ٥٤ وحدة سكنية) تستوعب ٣٦٠ من الكويتيين لتوفير الأنشطة الحرفية في القرية الكويتية التي هي صورة مصغرة للحي الكويتي الواسع المتصل بالأسواق . أما غير ذلك من المشاريع فهي وحدات سكنية أقرب ما تكون إلى نظام الشقق كما في مشروع الصوابر الذي تم انشاؤه في الثمانينيات الذي لم يتلق القبول المتوقع من الكويتيين لعدم تعودهم على السكن في نظام الشقق ولهذا صار غالب ساكنيه من الأرامل والأسر صغيرة الحجم وأسر الشهداء ونحو ذلك .

الجدول رقم (٨)

مقترحات الاسكان مع ما هو قائم حول مركز المدينة حسب المخطط الهيكلي لبو كانن ١٩٨٣ - ٢٠٠٥

الموقع	نوع السكن وسماته العامة	حجم السكان المقترح	ملاحظات
المرقاب	٥٠٠٠ وحدة سكن استثماري نظام الشقق ، و١٧٦٠ من المساكن	١١٫٧٣٩ نسمة من الكويتيين ٢٢٫٠٦٨ من غير الكويتيين	سكن استثماري مع وحدات سكنية
الصوابر	٩٥١ وحدة سكن استثماري نظام الشقق	٦٣٤٣ نسمة من الكويتيين و ٣٦١ من غير الكويتيين	سكن شقق للكويتيين فقط
شمال شرق الصوابر	٣٦٨ وحدة سكن استثماري نظام الشقق	٢٣٤٣ نسمة من الكويتيين و ١٣٩ من غير الكويتيين	سكن شقق للكويتيين فقط
مجمع المثني	٥٠٠ وحدة سكن استثماري نظام الشقق	٢١٣٠ نسمة غير الكويتيين	سكن شقق وأسواق ومبنى استثماري
الوطية	٦٦ فيلا و ٨١٠ شقة قطاع خاص	٥٥٣ من الكويتيين و ٣٥٢٠ من غير الكويتيين	استثماري للقطاع الخاص مع غالبية غير كويتية
جنوب منطقة شرق	١٠٧٥ شقة للقطاع الخاص	٤٧٨٧ غير كويتيين و ١٣٣ من الكويتيين	قريبة من منطقة سوق البورصة ومقترحة للتبادل مع القطاع الخاص
شمال منطقة شرق	٥٤ وحدة حرفية و ٣٦٠ وحدة سكنية	٢٤٠١ نسمة من الكويتيين و ٣٦٠ من أهل الحرف	القرية الكويتية المقترحة والتي تضم حرفيين كويتيين وسكن متناسق مع القرية التراثية
القوع الشرقي	١٥٠ وحدة سكنية	٥٠٠ نسمة من الكويتيين	ازالة منطقة السينمات القديمة واقامة المشروع مكانها

المصدر : بو كانن ، " المخطط الهيكلي لدولة الكويت " التقرير النهائي ، الجزء الأول ، التخطيط والسياسة ، ١٩٨٣ - ٢٠٠٥ ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

جدول رقم (٩)

توزيع العمالة في مركز المدينة ١٩٧٠ - ٢٠٠٥ حسب النشاط الاقتصادي في المخططات الهيكلية

القطاع	اعادة التطوير الأولى		اعادة التطوير الثانية		
سنوات المخطط	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٩٠	٢٠٠٥
الحكومة	٢٨ر٨٠٠	٣٢ر٠٠٠	٣٢ر٥٠٠	٣٦ر٥٠٠	٤١ر٠٠٠
البيع بالجملة والمفرق	١٨ر٠٠٠	١٩ر٩٠٠	٢٢ر٠٠٠	٢٤ر٠٠٠	٢٥ر٠٠٠
الصيرفية/الأنشطة المالية	٣ر٠٠٠	٥ر٥٠٠	١١ر٥٠٠	٢٠ر٥٠٠	٢٩ر٥٠٠
المواصلات	٤ر٤٠٠	٣ر٥٠٠	٣ر٥٠٠	٤ر٥٠٠	٥ر٥٠٠
الصناعية	٤ر٠٠٠	٣ر٢٠٠	٢ر٥٠٠	٢ر٠٠٠	١ر٠٠٠
البناء	١ر٠٠٠	١٠ر٣٠٠٠	٨ر٥٠٠	٨ر٥٠٠	٦ر٠٠٠
قطاعات أخرى	١٦ر٤٠٠	٨ر٩٠٠	١٧ر٦٠٠	٢٤ر٠٠٠	٣٢ر٠٠٠
المجموع	٧٥ر٨٠٠	٨٣ر٠٠٠	٩٨ر١٠٠	١٢٠ر٠٠٠	١٤٠ر٠٠٠

المصدر : بو كانن ، " المخطط الهيكلي لدولة الكويت " ، اعادة التطوير الثانية ١٩٨٣ - ٢٠٠٥ ، التقرير النهائي ، الجزء الأول ، التخطيط والسياسة ، جدول رقم ٢٤ - ٢ ، ص ١٦٧ .

أما بالنسبة للعمالة كمحدد للمنطقة التجارية المركزية فيلاحظ من الجدول رقم (٩) التأكيد على العمالة المرتبطة بالأنشطة التجارية وما يتصل بها من أعمال بعيداً عن الاستخدامات الأخرى كالسكن والتعليم والترويح اذ يغلب عليها الطابع المقارب للأنشطة المالية والبيع والشراء وحتى الصناعة فانها تحويلية متوسطة وصغيرة الحجم وذات مردود مرتفع كصناعة الذهب والفضة والحلي ومع ذلك فان نصيب الصناعة من العمالة في مركز المدينة يتسارع نحو الانخفاض من ٤٠٠٠ إلى ١٠٠٠ عامل كما هو ظاهر في الجدول مما يدل على دفعها إلى الخارج . أما سبب ارتفاع نصيب الحكومة من

العمالة فمرجعه إلى انشاء مجمع الوزارات الذي يضم وزارات الخدمات الأساسية التي تتصل بالسكان كوزارة الشئون الاجتماعية والاسكان والتجارة والاوقاف والشئون الإسلامية ، والذي كان من بين أهدافه زيادة تدفق العمالة الكويتية إلى مركز المدينة لربطها بمشاريع الاسكان المقترحة على نطاق موزع كما ذكر في الجدول السابق وذلك حتى لا تترك العاصمة خالية من سكانها في غير ساعات العمل وفي الاجازات . وقد بدأت الدولة ببناء مشروع الصوابر كمرحلة تجريبية رائدة ولكن لم تلق القبول المتوقع كما أشرنا سابقاً .

٧- حركة الأموال في المنطقة التجارية :

تشهد هذه المنطقة نشاطا منقطع النظير في حركة الاموال بل تعد أكثر منطقة تحتوي على أكبر المؤسسات التي تتعامل بيعا وشراء اضافة إلى احتوائها على زكبر حركة للأموال المتداولة أو الأرصدة تحت التداول والحركة . فبالنسبة للمؤسسات الكبرى للأموال فان هذه المنطقة تحتوي على البنك المركزي والبورصة وسبعة بنوك تجارية وثلاثة بنوك متخصصة وحوالي ٢٣ شركة استثمار و ٢٦ شركة صرافة تقع في هذه المنطقة ومحيطها أو خارج نطاقها لكن في " ظلها المالي والتجاري " من حيث اتصالها اليومي وشبه اليومي مع البنوك السبعة أو البنوك المتخصصة أو البنك الأم " البنك المركزي " ، (انظر الشكل رقم ٥) .

إن وجود هذه المؤسسات مع ما يصاحبها من حركة أموال وحركة مرور يؤكد فعلا تخصص هذه المنطقة للاستخدام التجاري . إذ تشير نشرة البنك المركزي (يونيو ١٩٩٥)[٤٥] إلى أن عرض النقد قد واصل ارتفاعه في شهر ٦/ ١٩٩٥ والشهر السابع على التوالي ليبلغ نحو ٦٤٨٦٫٩ مليون دينار مقابل ٦٤٠٧٫٦ مليون دينار في نهاية الشهر السابق بزيادة قدرها ٧٩٫٣ مليونا (١٫٢٪) ، كما ارتفعت ودائع القطاع الخاص لدى البنوك التجارية إلى ٨٤٫٦ مليون دينار .. إلخ .

أما كمية الأموال المتداولة فهي أيضا الأكبر على مستوى الدولة إذ من هذه المنطقة تتحرك الأموال على مستوى الدولة وكذلك الاتصالات الخارجية سواء في البنك

المركزي أو البنوك التجارية مع شركات الأموال . يضاف إلى ذلك حجم التداول في البورصة ، إذ يشير شكل رقم (٦) إلى حجم التداول في البورصة في عام ١٩٨٧ حتى ١٩٩٤ ويظهر فيه أيضا ضخامة التداول في بعض السنوات مثل عام ١٩٨٧ ، ١٩٩٣ ، وكذلك ١٩٩٤[٤٦] . أما فترة ١٩٨٧ فهي بسبب ارتفاع سعر النفط من جهة وكذلك لبداية التعامل في البورصة بعد مشكلة المناخ الخانقة . كما شهد التعامل فترة أخرى من الانخفاض الشديد وهي الأعوال ١٩٩٠ ، ١٩٩١ ، ١٩٩٢ إذ تمثل هذه السنوات الفترة التي عاصرت وعايشت الغزو العراقي الآثم على بلادنا وما تلاه من فترة اعادة بناء الدولة والارباك الاقتصادي عموما .

٨- المنظور العام للانماط العمرانية في المنطقة التجارية :

يعكس نمط العمران بدوره طبيعة المنطقة حيث يمكن من خلاله تحديد المنطقة التجارية المركزية لما لهذه المنطقة من أنماط عمرانية متميزة . إذ من خلال النظر إلى شكل المباني في هذه المنطقة يتضح بجلاء طغيان وسواد النمو الرأسي من حالة الطابق الواحد في الأجزاء القديمة من المنطقة إلى أكثر من ٢٠ طابقا في مجمعات المصارف ، حيث يسود هذه المنطقة كما سبق أن ذكرنا أنشطة تجارية وأسواق وشركات ومؤسسات ويكاد ينعدم فيها في المقابل النمو الاسكاني الافقي أو الاستخدام التعليمي أو الترويحي الموسع إلا في حالة المباني القديمة التي اعيد استخدامها مثل مكتبة الدولة التي كانت أساسا مدرسة المباركية . كما يغلب على الطوابق الأرضية المحلات التجارية بانواعها أما الطوابق التي تعلوها فيغلب عليها المكاتب إلا في حالة الأسواق المتعددة الطوابق .

وقد قام الباحث بدراسة المنطقة ميدانيا معتمدا على خريطة مفصلة من بلدية الكويت عام ١٩٨٧ بالتعاون مع المخطط الهيكلي بمقياس ١ : ١٠٠ متر وذلك بهدف اثبات أمرين هما :

١- إن الاستخدام التجاري بأنواعه هو المهيمن على هذه المنطقة .

٢- إن نسبة الاستخدام التجاري أعلى ما تكون في هذه المنطقة مقارنة ببقية أجزاء

المنطقة التجارية بالاستعانة بمعادلة كثافة الاستخدام الوظيفي التجارية التي ذكرها في صدر بحثنا وهي :

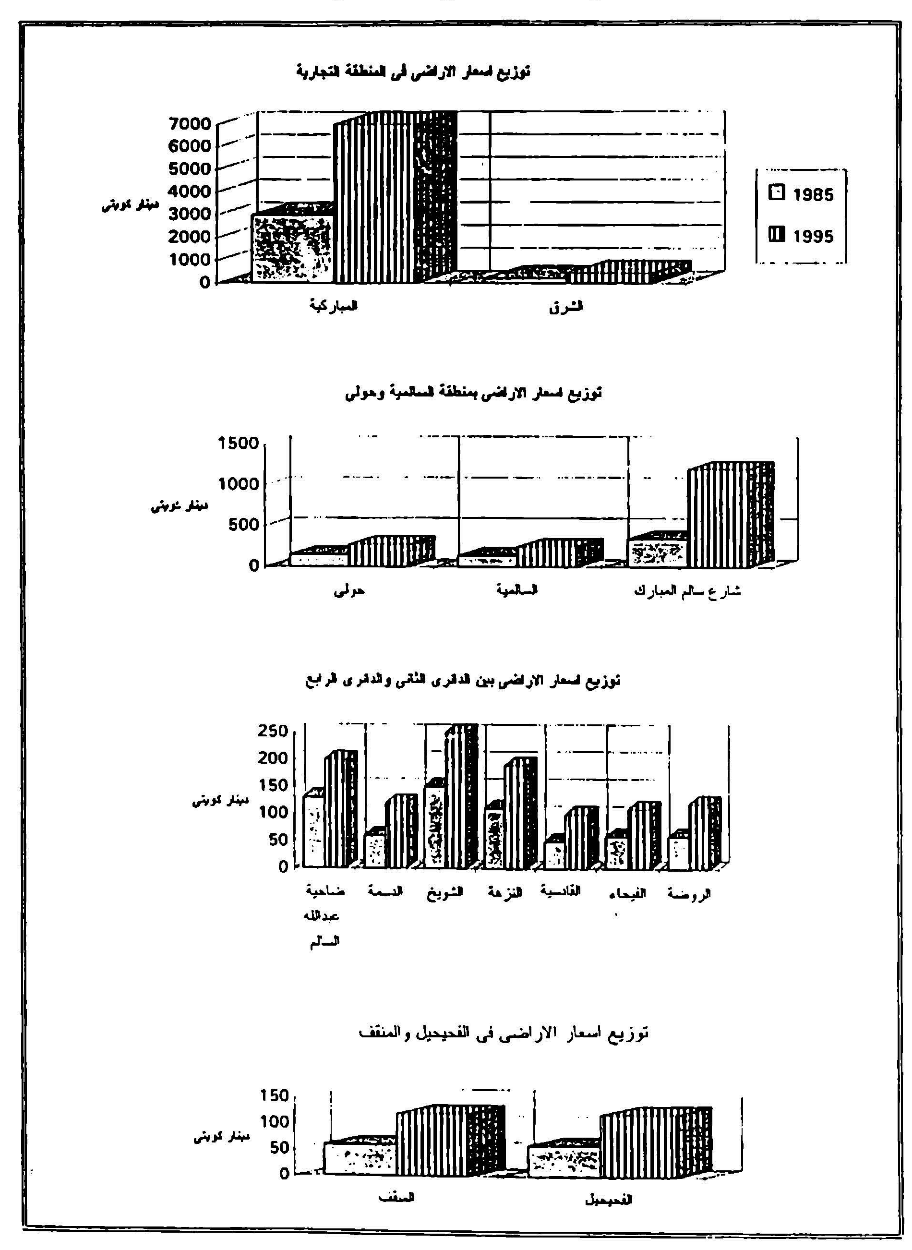
مؤشر كثافة الاستخدام الوظيفي في المنطقة المركزية =

$$\frac{\text{كثافة الاستعمالات في المنطقة التجارية}}{\text{مجموع مساحة البلوك}} \times ١٠٠$$

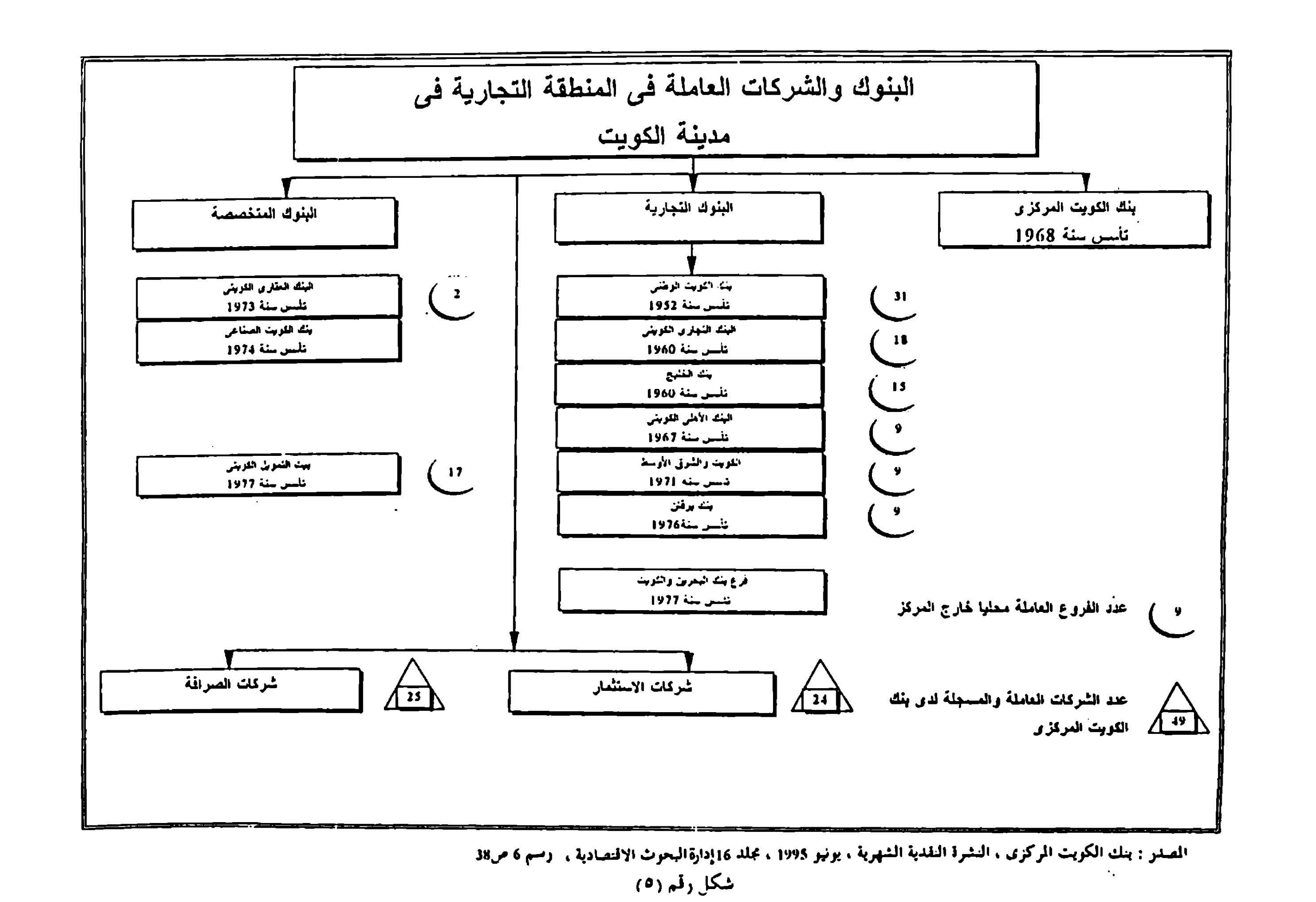
وقد قسمنا المنطقة المدروسة إلى أربعة أجزاء (أي بلوك ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) لتسهيل الدراسة كما يظهر في الشكل (٧) حيث أن الدراسة ترى أن هذه المنطقة تشكل البؤرة التجارية للمنطقة التجارية المركزية لأن فيها أعلى سعر للمتر المربع إذ يصل سعر المتر فيها إلى ما بين ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ دينار ، كما يهيمن على هذه المنطقة الوظيفة التجارية بكافة أنماطها خاصة الوظائف ذات المردود المالي العالي ، والتي يرتفع ايجار المحلات فيها إلى أعلى ما يكون كما يرتفع فيها قيمة الخلو (مبلغ يدفع مقدما نظير اخلال المحل للاستخدام التجاري) إضافة إلى المعايير الأخرى التي مر ذكرها .

وقد لاحظنا من خلال المشاهدة الميدانية أن هذه المنطقة تحوى أربعة أنماط من الاستخدام التجاري هي : (١) استخدام تجاري متشابه عبارة عن طابق واحد وهو نمط الأسواق العربية التي تعرف محليا بالأسواق القديمة وتقع غرب البلوك (١) ، (ب) استخدام تجاري مزدوج عبارة عن طابقين أو ثلاثة وتشمل محلات يعلوها مكاتب وتقع في البلوك(٢) وتعرف محليا بالقيصريات وهي أسواق صغيرة في مبان صغيرة الحجم أقرب إلى النمط العربي للأسواق ، (جـ) استخدام تجاري متنوع متعدد الأدوار والطوابق يشمل محلات وأسواق ومواقف سيارات تحتها وهي المجمعات التجارية ونشاهد في البلوك (٢) والبلوك (٤) ، ثم (د) استخدام تجاري مركز يضم أكثر من خمسة طوابق وهي البنوك وشركات الأوراق المالية التي يقوم فيها نشاط تجاري مركز وهو التعامل بالعملة والاسهم والسندات بيعاً وشراء ومضاربة وتشاهد في البلوك (١) من المنطقة المدروسة والبلوك (٣) حيث بورصة الكويت والبنوك وشركات الأوراق المالية.

اسعار الاراضى الاستثمارية والتجارية والسكنية فى مناطق مختارة بالمتر المربع للفترة 1985 – 1995 فى مدينة الكويت



المصدر : متابعة ميدانية للباحث



المصدر : بنك الكويت المركزى ، النشرة النقدية الشهرية ، يونيو 1995 ، مجلد 16إدارة البحوث الاقتصادية ، رسم 6 ص38

شكل رقم (٥)

أما من ناحية نسبة الاستخدام التجاري فيها بالاستعانة بالمعادلة المشار إليها فقد خرجت الدراسة بما يأتي :

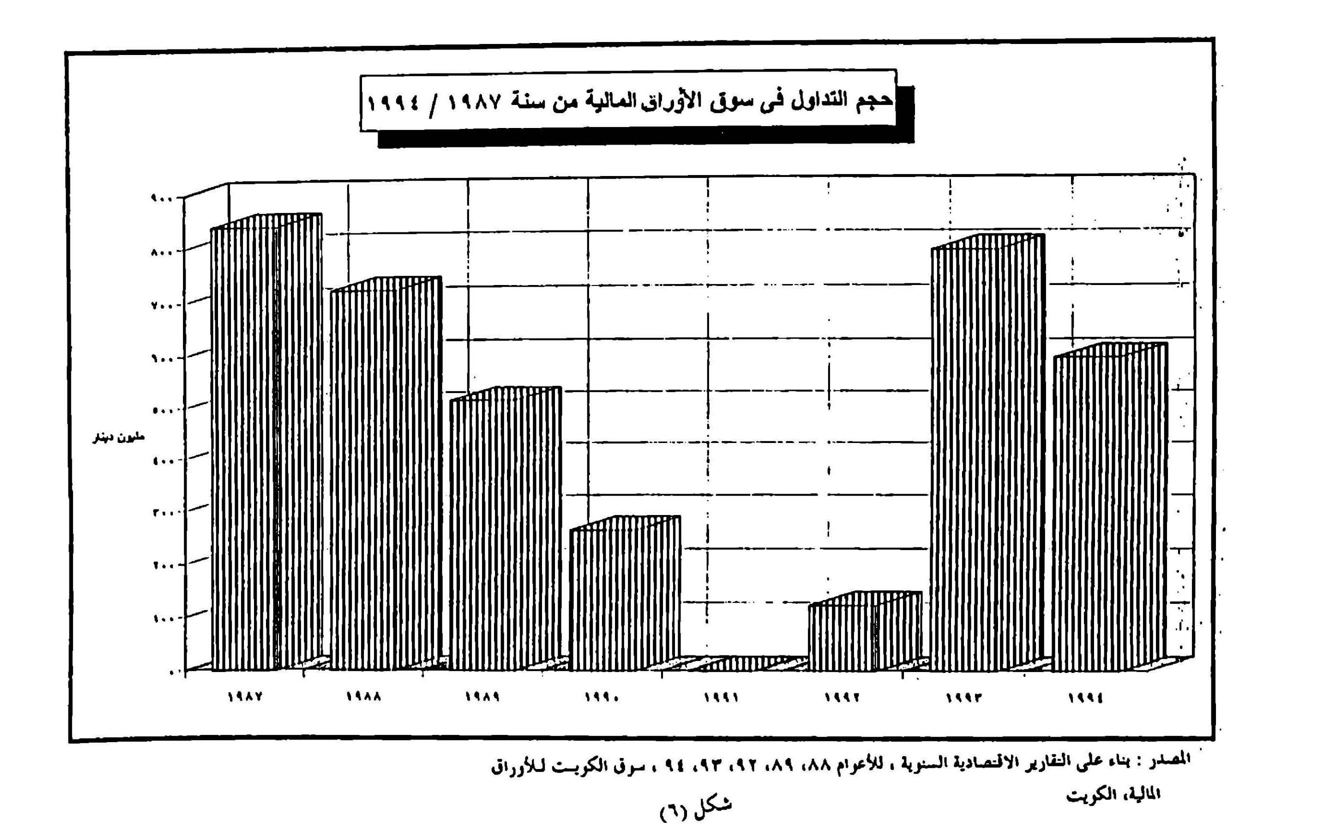
أولاً : أن البلوك (١) في المنطقة المدروسة تبلغ نسبة الاستخدام التجاري فيه ١٩ر٧٤٪ والباقي ساحات خالية لاستخدامات متصلة به كالمواقف المتعددة الأدوار وساحات الاستراحة .

ثانياً: إن البلوك (٢) في المنطقة المدروسة يصل نسبة الاستخدام فيها إلى ٩٥ر٩٦٪ والباقي ساحات خالية لاستخدامات تجارية مخصصة للمستقبل .

ثالثاً:البلوك (٣) من المنطقة المدروسة ينخفض الاستخدام فيها ٤٨٪ ومرجع ذلك إلى سببين الأول إننا درسنا فقط جزءها المطل على شارع مبارك الكبير وثانيها إن هذا البلوك شاسع المساحة وفيه ساحات كبيرة خالية في منطقة " شرق " .

رابعاً : تنخفض نسبة الاستخدام التجاري إلى ٢٢ر٣٠٪ في البنوك (٤) أيضاً لنفس الأسباب وهي إننا درسنا الشريط المطل على شارع مبارك الكبير اضافة إلى وجود الساحات الخالية وبعض الاستعمالات غير التجارية كالمساجد والمخافر .

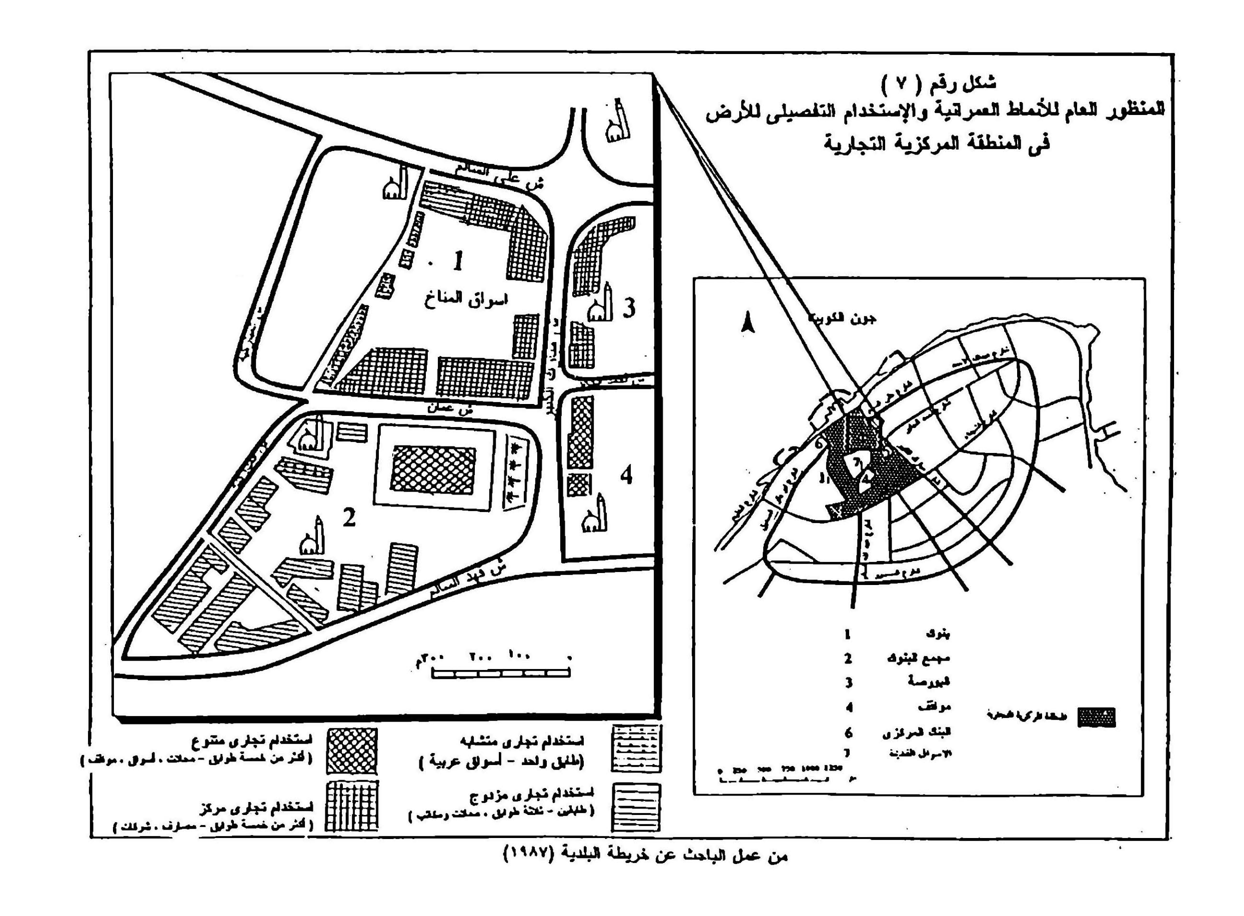
الخلاصة أنه رغم صعوبة الحصر الدقيق للإستخدام التجاري نظراً لاختلاف الإرتفاعات وأنماط الاستخدام إلا أن الإستخدام التجاري هو المهيمن رغم تعداد أشكاله غير إننا ركزنا على الإستخدامات الرئيسية من واقع الدراسة والمتابعة وعموماً فإن هذه المنطقة كما شاهدناها تخلو تماماً تقريباً من أي استخدامات غير تجارية كالمساكن أو المدارس أو الحدائق العامة أو نحوها بل إن الإستخدام التجاري بأشكاله هو المهيمن مما يؤكد إن هذه المنطقة هي البؤرة بلا منازع رغم إنها لاتشكل سوى حوالي أقل من ثلث مساحة المنطقة التجارية داخل المدينة التي أشير إليها في الشكل (٣) والشكل (٧) .



المصدر : بناء على التقارير الاقتصادية السنوية ، للأعوام ٨٨، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤ ، سوق الكويت للأوراق المالية، الكويت

شكل (٦)

شكل رقم (٧)
المنظور العام للأنماط العمرانية والإستخدام التفصيلى للأرض فى المنطقة المركزية التجارية



من عمل الباحث عن خريطة البلدية (١٩٨٧)

الخاتمة :

لقد أبرزت الدراسة إن هذه المنطقة التجارية وبؤرتها المركزية محددة بشكل واضح حيث تضم المنطقة التي تحدد بامتداد شارع عبد الله السالم جنوباً وبين شارعي عبد الله المبارك ومبارك الكبير ، وعند تقاطع شارع جابر المبارك وأحمد الجابر وهذه تمثل البؤرة المركزية أما ما يحيط بها من امتدادات باتجاه البحر أو شرقاً أو غرباً فهي من توابعها المكونة لاركانها وحوافها . وكان للمؤشرات التي اعتبرتها الدراسة أساساً للتعرف على المنطقة المركزية دوراً أساسياً وهي :

١- الأهمية التجارية للمنطقة المركزية وأركانها .
٢- دور المخططات الهيكلية في تأكيد المركزية التجارية لهذه المنطقة .
٣- أسعار الأراضي من وإلى المنطقة المركزية .
٤- التحرك الحضري بين المركز وخارج المركز كمحدد للمنطقة التجارية .
٥- نمط المشاريع الإسكانية في المنطقة المركزية .
٦- حركة الأموال في المنطقة التجارية .

وهناك مؤشرات أخرى كأنماط النشاط التجاري المتوسط كتجارة البضائع والملابس ونحوها المتصلة بالمنطقة وقد أشرنا إلى حيز امتدادها المكاني وهي حول المركز في هذه المنطقة متمثلة في المحلات والقيصريات (الأسواق القديمة المغطاة) والأسواق المتعددة الطوابق . كما أبرزت الدراسة إن هذه المنطقة تعد امتداداً تاريخياً لما كانت عليه المدينة حيث حافظت منطقة الأسواق على قوتها واستمرت في استقطاب الأعمال التجارية والمالية باتجاهها ولم تنجح الخطط الهيكلية في تحويل الجذب إلى مناطق أخرى كحولي والسالمية والفحيحيل بالمقارنة مع المركز رغم أهمية هذه الأسواق الجديدة في امتصاص الجذب السكاني . وقد ساعدت الجهات الرسمية ممثلة بالحكومة والبلدية في تأكيد أهمية هذه المنطقة وذلك من خلال تبني المشروعات المؤكدة على نزعتها التجارية مثل مشروع نزع الملكية ، ومشروعات الاسكان التي تركز على أنظمة الشقق أو الوحدات الصغيرة ذات الارتباط التجاري ، والتوسع المتزايد للاستعمال التجاري . ويتصل بذلك

المنظور العام للتحرك الحضري المتمثل بنموذج كلاسين الذي أكد على قوة النزعة نحو الاطراف في بادئ الأمر ثم ضعفت في الآونة الأخيرة . غير أن الدلائل تشير إلى عودة السكان الكويتيين خاصة إلى مركز المدينة وذلك من خلال خطط إسكانية جديدة لملء الأراضي الفسيحة الخالية داخل المدينة ولاشغال العاصمة بالسكان . وأرى أن الدولة في مشاريعها القادمة لدعوة السكان نحو القلب يجب أن تضع في اعتبارها أن المنطقة التجارية لابد وأن تنمو وتتسع مع الوقت بحيث لابد وأن تدفع مشاريع الاسكان بعيدا عنها لاختلاف الطبيعتين نسبيا . ويظهر ذلك في شارع أحمد الجابر الذي سيشهد في السنوات القادمة عدد من المشاريع التجارية التي ستجعل للمنطقة التجارية جناحين ، جناح شرقي على امتداد شارع أحمد الجابر ، وجناح غربي باتجاه البنك المركزي على امتداد شارع الخليج بمواجهة الساحل . أضف إلى ذلك أن نظام الدخول والخروج من وإلى المدينة القديمة التي تقع المنطقة التجارية ضمنها خاصة مع وجود مشاريع جديدة ستقيد من نظام الحركة قرب المركز مثل مشروع القرية التراثية الكويتية قرب قصر السيف ، ومشاريع الواجهة البحرية ، وقصر سمو الأمير الجديد الذي يضم مجلس الوزراء ووزارة الخارجية الجديدين يجعل طابع هذه المنطقة تجاريا وإداريا مركزيا أكثر من كونه سكنيا . ولهذا فإعادة توطين السكان بنظام الوحدات السكنية مهما صغرت لابد وأن تستفيد من التاريخ الحضري للمنطقة خاصة وأنها كانت مركبة من احياء كل حي تشغله عوائل متقاربة ومتناسبة هو معروف في المدينة العربية الإسلامية الذي لابد وأن يراعي طبيعتها الخاصة . وعموما فان المستقبل المنظور وربما البعيد يوحي بان هذه المنطقة ستظل هي المنطقة التجارية المركزية لأنه ليس في الافق ما يدل على خلال ذلك مع الأخذ في الاعتبار الجذب المتنامي من كل من السالمية والفحيحيل وحولي كمراكز تجارية غير أنه لا يقارن بالقلب الذي تشغله المؤسسات المالية الرئيسة والعناصر التجارية الأساسية المكملة لها .

الهوامش

(١) Allonso, W. " A Theory of Land Market " , in L. Bourne (ed.) 1971, "Internal Suructure of The City " pp. 154-159.

(٢) إسماعيل ، أحمد ، " دراسات في جغرافية المدن " ، ١٩٩٣ ، دار الثقافة : القاهرة ، ص ٢٢٢، انظر ، حمدان ، جمال " جغرافية المدن " ، ١٩٦٦ ، عالم الكتب : القاهرة ، الفصل الحادي عشر للتعرف على طبيعة التنافس بين المدينة واقليمها عبر عصور النشاط البشري .

(٣) Rondinelli, D. " Cities as Agricultural Markets", in "Geographical Review", Vol. 77, no.4, Oct. 1988, pp.408-420, see P.409.

(٤) C.B.D = Central Business District.

(٥) إسماعيل ، أحمد ، ١٩٩٣ ، " دراسات في جغرافية المدن " ، ص ١٩٩ .

(٦) عباس ، عبد الرزاق حسين ، ١٩٧٧ ، " جغرافية المدن " ، مطبعة أسد : بغداد ، ص ٧٣ .

(٧) وهيبة ، عبد الفتاح ، " جغرافية المدن " ، السنة غ م ، منشأة المعارف : الاسكندرية ، ص ١٠٠ .

(٨) Smith, L. " Space for the CBD's Functions" , in Larry Bourne (ed.) 1971, Oxford University, Urbanan Commercial Structure, in Ibid., pp.352-360, See Also, Berry, B. "General Features of CBD, in Larry Bourne (ed.) 1971, Oxford University Press, London, pp. 361-367.

(٩) عباس ، عبد الرزاق ، ١٩٧٧ ، " جغرافية المدن " ، ص ٧٤ ، مرجع سابق .

(١٠) Carter, H. 1975, The Study of Urban Geography "Edward & Arnold P.204, see also, Haggett, 1979 "Geography : Amodern Synthesis, Harper & Row, P.379.

(١١) Briggs, K. 1982, " Human Geography : Concepts & Applications", Hodder & Stouton : London , P. 169.

(١٢) Carey , G " The New York Metropolitan Region " , In Pacione , M.(ed.) , " Urban Problems and Planning in the Developed World " , 1981 , Croom Helm : London , PP. 32-70 , see P.32-33 .

(١٣) Witherick, M. " Tokyo ", in Ibid, PP. 120-156, see P. 121 .

(١٤) إسماعيل ، أحمد " دراسات في جغرافية المدن " ، مرجع سابق ، ص ٣٠٤ .

(١٥) Smith, L. " Space for the CBD's Functions ",in Larry Bourne (ed.), 1971 " Internal Structure of the City ", PP. 352-360 . see, P. 356 .

(١٦) عباس ، عبد الرزاق ، ١٩٧٧ ، مرجع سابق ، ص ٨٦-٩٢ .

(١٧) Carter, H. 1975 " The Study of Urban Geopgraphy", Arnold : London, P.209.

(١٨) أبو حاكمة ، أحمد ، " تاريخ الكويت الحديث ١١٦٣ - ١٣٨٥هـ / ١٧٥٠-١٩٦٥م " ، ١٩٨٤ ، منشورات ذات السلاسل : الكويت ، ص ٢٨٩ .

(١٩) المرجع السابق ، ص ٢٩٥ ، أما " البغلة " و "| البتيل " فهي من أنواع السفن التجارية الكبيرة ، واسماؤها شائعة ومعروفة .

(٢٠) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٦ ، ٣٢٩٧ .

(٢١) بلدية الكويت ، " التطور والعمران " ، ١٩٨٠ ، بلدية الكويت : الكويت ، ص ١٠ .

(٢٢) Lorimer, J.G. 1909, " Gazetteer of the Gulf" Vol. 8, Archive (ed), London P. 1064.

وانظر أيضا : Dickson, H. 1956 : Kuwait and Her Neighbours " , Allen & Unwin : London P.35.

(٢٣) Hall, P. 1993, "Urban and Regional Planning " Routlege : London, P.74.

(٢٤) Goodman, W. (ed) 1968 "Principle and Practice of Urban Planning" P.377.

(٢٥) بلدية الكويت ، ١٩٨٠ ، " التطور والعمران في الكويت " ، مطابع فهد المرزوقي : الكويت، ص ٢٤ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢٧) المرجع السابق ، ص ٣٠ ، ٣٢ .

(٢٨) انظر مثلا Buchanan, C. Studies for National Physical Plan & Master Plan For Urban Areas, "Kuxait", First Report, March 1970, Mumicipality, Kuwait, P.48.

(٢٩) بلدية الكويت ، " التطور والعمران في الكويت " ، ١٩٨٠ ، مرجع سابق ، ص ٥٠ .

(٣٠) شانكلاند كوكس ، المخطط الهيكلي ، الجزء الأول : التخطيط والسياسة ، التقرير النهائي ، إعادة التطوير الأولى ، ١٩٧٧ ، بلدية الكويت ، ص ٥٥ .

(٣١) كولن بيو كانن ، المخطط الهيكلي لدولة الكويت ، التقرير النهائي ، التخطيط والسياسة ، إعادة التطوير الثانية ، ١٩٨٣ - ٢٠٠٥ ، بلدية الكويت ، ص ١٠٤ ، جدول ١٥-١ .

(٣٢) انظر مثلا ، Cook, P. "Modern Urban Theory in Question", in Institute of Geographers, Vol. 15 No. 3, 1990, pp.331-341, see P.332-339.

(٣٣) Giuliano, G.& Small, K. "Is Journery to work Explained by Urban Structure", in Urban Studies, Vol. 30, no.,9, 1993, pp.1485-1500, see P.1485.

(٣٤) Simposon, W. "Workplace, Location, Residential Location and

Urban Commuting " in Urban Studies, Vol. 24, No.2, April 1987, pp.119-129, See P.120.
(٣٥) Lever, W., "Reurbanization - The Policy Implication", in Urban Studies, Vol. 30, No,2 , 1993, pp.267-284.
(٣٦) Erickson, R. & Gentry, M. " Suburban Nucleations", in Urban Studies, Vol. 75, No. 1, Jan, 1985, pp.19-31.
(٣٧) Ibid, P. 268 - 269.
(٣٨) أحمد حسن إبراهيم ، ١٩٨٢ " مدينة الكويت : دراسة في جغرافية المدن " ، ص ١٢١ .
(٣٩) كولن بو كانن ، " المخطط الهيكلي لدولة الكويت " إعادة التطوير الثانية ١٩٨٣ - ٢٠٠٥، التقرير النهائي - التخطيط والسياسة ، الجزء الأول ، ص ١٦٦ .
(٤٠) وليد المنيس " التركيب الداخلي لمدينة الكويت بالمقارنة مع نماذج تراكيب المدن : دراسة في جغرافية الحضر " ، مجلة دراسات الخليج ، العدد ٧٣ ، السنة ١٩ ، ذو القعدة ١٤١٤هـ / ابريل ١٩٩٤ ، ص ٤٣ .
(٤١) Dickson, H. 1965, " Kuwait and her Nieghbours", p.40.
(٤٢) شانكلاند كوكس ، المخطط الهيكلي ، اعادة التطوير الأولى ١٩٧٧ - ٢٠٠٠ ، التقرير النهائي ، الجزء الأول ، التخطيط والسياسة ، ص ٩٥ .
(٤٣) أحمد حسن إبراهيم ، ١٩٨٢ ، " مدينة الكويت : دراسة في جغرافية المدن " ، منشورات مجلة دراسات الخليج رقم ٧ ، ص ٢٢٨ ، ٢٣٧ .
(٤٤) بو كانن ، اعادة التطوير الثانية ١٩٨٣ - ٢٠٠٥ ، التخطيط والسياسة ، الجزء الأول ، ص ٨ .
(٤٥) بنك الكويت المركزي ، " النشرة النقدية الشهرية " يونيو ، ٩٥ ، مجلد رقم ١٦ ، إدارة البحوث الاقتصادية ، ص ٨ .
(٤٦) التقارير الاقتصادية السنوية ، " سوق الكويت للأوراق المالية " ، الأعوام ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

المراجع

المراجع العربية :

١- إبراهيم ، أحمد حسن ، " الكويت : دراسة في جغرافية المدن " ، ١٩٨٢ ، منشورات مجلة دراسات الخليج ، رقم ٧ .
٢- أبو حاكمة ، أحمد ، ١٩٨٤ ، " تاريخ الكويت الحديث : ١١٦٣ - ١٣٨٥هـ/ ١٧٥٠ - ١٩٦٥ " ، ذات السلاسل : الكويت .
٣- إسماعيل ، أحمد ، ١٩٩٣ " دراسات في جغرافية المدن " ، دار الثقافة : القاهرة.
٤- حمدان ، جمال ، ١٩٦٦ " جغرافية المدن " ، مكتبة أسد : بغداد .
٥- عباس ، عبد الرزاق ، ١٩٧٧ ، " جغرافية المدن " ، مكتبة أسد : بغداد .
٦- المنيس ، وليد ، " التركيب الداخلي لمدينة الكويت بالمقارنة مع نماذج تراكيب المدن"، مجلة دراسات الخليج ، ١٩٩٤ ، العدد ٧٣ ، السنة ١٩ ، ذو القعدة ١٤١٤هـ/ ابريل ١٩٩٤م ، ص ١٩ - ٥٧ .
٧- وهيبة ، عبد الفتاح ، السنة غ م ، " جغرافية العمران " ، منشأة المعارف : الاسكندرية .

المراجع الحكومية :

١- المجموعة الإحصائية ، ١٩٩٣ ، العدد ٣٠ ، وزارة التخطيط ، الكويت .
٢- كولن بيو كانن ، " المخطط الهيكلي لدولة الكويت " ، التقرير النهائي ، ١٩٧٠، بلدية الكويت.
٣- كولن بيو كانن ، " المخطط الهيكلي لدولة الكويت " ، التقرير النهائي ، ١٩٨٣ ، بلدية الكويت .
٤- شانكلاند كوكس ، " المخطط الهيكلي لدولة الكويت " ، التقرير النهائي ، ١٩٧٧، بلدية الكويت .
٥- بلدية الكويت ، التطور العمراني في الكويت ، ١٩٨٠ ، بلدية الكويت .
٦- البنك المركزي ، إدارة البحوث الاقتصادية ، النشرة الدورية رقم ٥ ، يونيو ١٩٩٥، الكويت .
٧- سوق الكويت للأوراق المالية ، التقارير الاقتصادية السنوية ، للاعوام ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ " ، الكويت .

المراجع الأجنبية :

1 - Bourne, L. 1971 "Internal Structure of Cities", Oxford University Press : N. Y.
2 - Briggs. K. 1982, " Human Geography", Hodder & Stouton : London .
3 - Clark, B. & Gleave (ed.) 1973 "Social Patterns in Cities",

No.5. Institute of British Geographers.

4 - Carter, H. 1975 "Urban Geography", Edwared & Amold : London.

5 - Dickson, H. 1956, "Kuwait and Her Nighbours", Allen & Unwin : London.

6 - Fifrench G. & Hill, A. 1971, "Kuwair : Urban and Medical Ecolegy " Spring Veriag : Berlin - N.Y.

7 - Goodmain, W. (ed.) 1968 "Principle and Practice of Urban Planning "MIT: Chicago.

8 - Hall, P. 1993, "Urban and Regeional Planning " Routlege : London,.

9 - Haggett, P. 1979. "Geography : Amodern Synthesis ", Haper & Row : N./Y.

10 - Lorimer, J.G. " Gazctteer of the Gulf, Vol. 8, Archive (ed.) 1908, London .

11 - Pacione. M. (ed.) Urban Problems and Planning in the Developed World" 1981, Croom Helm : London.

الدوريات الأجنبية :

1 - Cook. P. Modern Urban Theory, in Question, Institute of British Geographers, Vol. 15, No. 3, 1990, pp.331-341.

2 - Erickson, R. & Gentry, M. "Suburban Nucleations", in Urban Studies, Vol. 75, No. 1 Jan. 1985, pp.19-31.

3 - Giuliano, G. & Small, K. "Is Journery to work Explained by Urban Structure", in Urban Studies, Vol. 30, no.9, 1993, pp.1485-1500.

4 - Rondinelli, D. "Cities as Agricultural Markets", in Geographical Review", Vol. 77, No. 4, Oct. 1988 .

5 - Lever, W., "Reurbanization-The Policy Implication", in Urban Studies, Vol. 30, No. 2 1993, PP. 267-284 .

6 - Simposon, W. "Workplace, Location, Residential Location and Urban Commuting "in Urban Studies, Vol. 24, No. 2, April 1987, PP. 119-129 .

العلاقات المغربية - العثمانية
١٨٣٠ - ١٩١٢

د. محمد علي داهش

كلية الآداب - جامعة الموصل

الجمهورية العراقية

مقدمة :

سادت بين السلطنة المغربية والدولة العثمانية علاقات سياسية وعسكرية سلبية أمتدت منذ مطلع القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان ذلك بسبب محاولات العثمانيين لضم المغرب إلى دائرة نفوذهم في الوطن العربي . قاوم المغاربة في عهد السعديين (١٥٠٩ - ١٦٥٨) والعلويين (١٦٣١ ــــ) السياسة التوسعية العثمانية مرتكزين في ذلك على أسس قومية ودينية ، وعلى الدور التاريخي للمغرب ، ولم تقتصر طموحاتهم في ذلك على الدفاع عن استقلال المغرب ، بل تعدت إلى الدفاع عن الاستقلال الإقليمي للمغرب العربي وكذلك الوطن العربي [(١)] .

شهدت العلاقات المغربية - العثمانية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر خفوتاً لحالة التوتر السياسي والعسكري لأسباب " موضوعية " أملتها طبيعة التحديات التي واجهتها الدولة العثمانية على المستوى الدولي (أوربا) أو الإقليمي (الجزائر) لذا فقد بدأت منذ تلك الفترة أجواء طيبة من السلم والود بين الجانبين وانتقلت بعدها العلاقة من المصالحة والسلم إلى التعاون ضمن إطار " التضامن الإسلامي " لمواجهة التحديات الأوربية المشتركة .

تعرضت الدولة العثمانية طوال القرن الثامن عشر لهزائم متعددة أمام القوى الأوروبية أدت إلى انحسار نفوذها تدريجياً من أوربا فجلت عن المجر وبلغراد وشبه جزيرة المورة وكريت ، وعانت من ثورات متعددة في البلقان ، فيما استرد الروس مقاطعة القفقاس . كما عانت السلطة العثمانية من تدخل المؤسسة العسكرية "الانكشارية" في الشئون السياسية . كل ذلك جعلها تجتهد للمحافظة على ما لديها وتكف عن التطلع إلى توسع جديد والعمل على ايجاد حليف إسلامي لمواجهة اعدائها الأوربيين .

وفي غربي البحر المتوسط ومنذ القرن الثامن عشر حدثت تطورات دولية مضادة للجزائر الخاضعة للمياه العثمانية ، إذ تكتلت القوى الأوربية (بريطانيا - فرنسا - هولندا - أسبانيا - سردينيا) ضد الجزائر وهزمتها عام ١٨١٦ في حملة "اكسماوث" وفرضت عليها شروطا قاسية . وفي أثناء ذلك برز التضامن العربي الإسلامي في الوقوف إلى جانب الجزائر "العثمانية" من خلال المغرب وتونس "العثمانيتين" حيث قدمتا للجزائر مساعدات جددت أسطولها المدمر ، وأعادت بناء العاصمة بعد سنة واحدة حتى أصبحت " كما لو لم تصب بقنبلة واحدة "(٢) .

كان التضامن الإسلامي آنذاك خير وسيلة لدرء مخاطر العدوان الأوربي على الدول الإسلامية اذلك سعى العثمانيون طوال القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين إلى تقوية العلاقة مع المغرب والانتقال بها من إطار التضامن إلى إطار التعاون والتحالف بالعمل على إقامة علاقات دبلوماسية وسياسية وعسكرية مستغلين في ذلك الظروف المشابهة التي عانى منها المغرب في الفترة ذاتها .

العلاقات المغربية - العثمانية ، من التضامن إلى التعاون :

شهد القرن التاسع عشر تطلعا فرنسيا لاحتلال الجزائر الخاضعة للسيادة العثمانية. وفي عام ١٨٣٠ تمكن الفرنسيون من احتلال الجزائر ، وترتب على ذلك تطورا في العلاقات المغربية - العثمانية على المستوى الإقليمي والدولي . فقد بادر علماء وأكابر مدينة تلمسان الجزائرية المجاورة للمغرب ، بالوفود على السلطان المغربي

عبد الرحمن بن هشام (١٨٢٢ - ١٨٥٩) معلنين طاعتهم ويستعجلون في ضم بلادهم للمغرب بعد أن انتهت سيطرة الأتراك العثمانيين وخرجت البلاد من السيادة العثمانية بعد أن خلعت بيعتها للسلطان العثماني لأنه في رأي الوفد « مشتغل لنفسه ومقره ، عاجز عن الدفاع عن ايالته القريبة من محله .. فكيف يمكنه الدفاع عن قطرنا وناحيتنا وبلدنا ... »[٣] . وقد قبل سلطان المغرب بيعة الوفد الجزائري بعد ثبوت شرعيتها ، وتأكيد الدور التاريخي للمغرب وأحقية السلاطين المغاربة بلقب "الخلافة" بدلا من السلطان العثماني ، وقد كان ذلك موقفا ثابتا للسلطنة المغربية في العصر الحديث لانتمائها إلى الدوحة النبوية الشريفة واحقيتها في القيادة الروحية للمسلمين . وقد عين السلطان المغربي ابن عمه علي ابن السلطان سليمان خليفة له على المغرب الأوسط " الجزائر " ودعمه بالجيش والأطر (الكوادر) الإدارية والعسكرية التي كان لها مكانة أدبية واجتماعية مهمة[٤] .

لجأت باريس منذ بداية عام ١٨٣١ إلى كل الوسائل الدبلوماسية والسياسية والعسكرية لارغام المغرب على التخلي عن تلمسان ، وقد استخدمت العناصر التركية والكرغلية التي مالت إلى الفرنسيين وبقيت في الجزائر ، وحاولت الضغط على السلطان المغربي للانسحاب . ولما كان المغرب آنذاك يعاني من ضعف في جهازه العسكري والإداري والاقتصادي ، فقد مال السلطان إلى الانسحاب تحت ضغط التهديد الفرنسي . إذ أرسلت حكومة باريس السفير " دومورناي " إلى المغرب ووصل مكناس في ١٥ آذار - مارس ١٨٣٢ ، وسلم رسالة الملك فيليب إلى السلطان وجاء في شروطها « ضرورة تخلي المغرب عن تلمسان وسحب خليفته والتزام الحياد تجاه الجزائر » إلى جانب شروط أخرى تتعلق بالعلاقات المغربية الفرنسية[٥] . ونتيجة لوضعية المغرب عسكريا واقتصاديا ، إلى جانب ثورة القوة العثمانية المتبقية ضد الحكم المغربي في تلمسان ، فقد فضل السلطان المغربي الانسحاب[٦] . لم يكن الانسحاب المغربي أمام الاحتلال الفرنسي للجزائر انسحابا نهائيا ، فقد كان الواجب القومي ، وخلفية الدور التاريخي المعروف للمغرب تدفعه باتجاه الوقوف إلى جانب اشقائه في الجزائر ، وعليه فقد ساند المغرب كفاح الشعب الجزائري بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري منذ

عام (١٨٣٢ وحتى عام ١٨٤٤) بيد أنه هزم في معركة " ايسلي " أمام القوات الفرنسية المتفوقة تقنيا ، ففرضت عليه شروط قاسية ، ثم أجبر السلطان على التخلي عن مساندة الأمير عبد القادر الجزائري في معاهدة " لالا مغنيه " في (١٨ آذار - مارس ١٨٤٥)[٧] .

وخلال تلك الفترة استمرت العلاقات الطيبة بين فاس واسطنبول ، حيث أرسل السلطان عبد الرحمن عددا من الشخصيات إلى العاصمة العثمانية خلال الفترة (١٨٤١ - ١٨٤٥) وكان الهدف من هذه الزيارة أداء التعزية لوفاة السلطان العثماني محمود الثالث ، وتهنئة السلطان عبد المجيد الأول ، والتذكير بالصلاة المتينة التي جمعت بين البلدين في العقود الأخيرة[٨] . ومن جهة أخرى ، سعت الدولة العثمانية إلى حل المشكلة الجزائرية مع الفرنسيين حلاً دبلوماسيا إلا أنها فشلت في رد فرنسا عن احتلالها . أما عن موقف العثمانيين في الجزائر فقد تبدل خلال مرحلة الأربعينيات لسوء السياسة الفرنسية وعلى أثر هزيمة المغرب في معركة "ايسلي" إذ هاجر عدد من الأتراك والعرب من ضباط وجنود البحرية والمدفعية إلى المغرب وقد حفظت اسمائهم في وثائق الخزانة الملكية بالرباط[٩] . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، بدا أن ميزان القوى الدولي يشير إلى أن أكبر قوتين دوليتين آنذاك هما (بريطانيا وفرنسا) وأن هناك تضاد وتوتر بين القوتين العظميين آنذاك . وفيما يخص الأوضاع في غربي البحر المتوسط ، فقد كانت بريطانيا قد احتلت جبل طارق منذ عام ١٧٠٣ لتأمين طرق مواصلاتها البحرية عبر المضيق إلى العالم ، وقد استمرت في سياستها الرامية إلى الحيلولة دون قيام دولة مسيطرة على المضيق ، وعليه ، فقد استثمر السلطان المغربي عبد الرحمن بن هشام ذلك وبدأ يوطد علاقاته مع بريطانيا التي وقفت ضد الأطماع الفرنسية بالرغم من إعلانها أنها « قبلت بالوضع الراهن في احتلال الجزائر ولكن بشرط ألا تتخذ قاعدة لغزو تونس أو المغرب[١٠] .

وخلال الفترة ذاتها ، أي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تصاعدت الهجمات الروسية ضد الدولة العثمانية في محاولة للسيطرة على المضائق ، وعلى الرغم من العداء بين بريطانيا وفرنسا ، إلا أنهما كانتا لا تسمحان بتنامي قوة روسيا

وسيطرتها على مضيقي البسفور والدردنيل وفرض الهيمنة في البلقان ، ومن هنا وقفت بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية في حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) التي انتهت باندحار روسيا واحترام أملاك الدولة العثمانية واستقلالها بموجب معاهدة باريس[١١] . وفيما يخص الموقف المغربي من الدولة العثمانية في تلك الحرب ، فقد أبدى السلطان المغربي عبد الرحمن بن هشام روحا ودية وتعاونا مع بريطانيا وفرنسا لموقفهما من الدولة العثمانية ، إذ وافق في (٢ آذار - مارس ١٨٥٤) على طلب الحكومة البريطانية بإبعاد السفن الروسية عن موانئ المغرب وأية سفينة عسكرية تابعة لروسيا تكون مشاركة في الحرب بين الدولة العثمانية وحلفائها من جهة وبين روسيا وحلفائها من جهة أخرى .. والتعبير الآخر عن الموقف المتعاون مع الدولة العثمانية تمثل في موافقة السلطان المغربي على تصدير ألف رأس من العجول إلى جبل طارق وبالرسوم المخفضة « وكان هذا الامتياز ذا أهمية بالغة بالنسبة لبريطانيا وحلفائها في حرب القرم وذلك لسد حاجة الأعداد الكبيرة من القوات التي كانت تمر جبل طارق في طريقها إلى ميدان القتال »[١٢] .. وقد سجلت الوثائق أن السلطان عبد الرحمن هنأ الباب العالي بانتصاره على روسيا[١٣] .. ومنذ بداية سبعينيات القرن التاسع عشر - ولاحقا - شهدت منطقة البلقان ثورات متعددة ضد الحكم العثماني ، حيث كانت سمة عدم الاستقرار ظاهرة بارزة هناك ، وقاد ذلك إلى تدخلات أوربية ، وبدأت الدبلوماسية الألمانية خلال عهد المستشار بسمارك تحاول حل المشاكل الأوربية على حساب الدولة العثمانية وممتلكاتها ، وهكذا واجه السلطان العثماني عبد العزيز (١٨٧٦) ومن بعده عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) الهجمة السياسية والعسكرية والاقتصادية للقوى الأوربية (روسيا - النمسا - بريطانيا - فرنسا) في معزل عن مساندة أي من القوى الدولية[١٤] .

قادت الظروف الداخلية والخارجية (هزيمته أمام روسيا وعقد معاهدة سان ستيفانو ومعاهدة برلين ١٨٧٨) السلطان عبد الحميد للدعوة إلى الجامعة الإسلامية وذلك باستصراخ الأمم الإسلامية في كل بقاع العالم الإسلامي لتمد يد العون إليه وتشد عضده في مواجهة القوى الأوربية وغدت اسطنبول موئل الزعماء العرب والمسلمين

المشهورين بالأعمال المعادية للدول الأوربية ، حيث جمع السلطان إليه « كثيرا من مقدمي العرب وزعمائهم ومشايخ الطرق فيهم من الحجاز والشام والعراق ونجد واليمن ومصر وطرابلس وتونس والمغرب وآخرين من زعماء الأكراد ، وآخرين من زعماء الأرناؤوط . .) كما أرسل الوفود والرسائل إلى الأقطار الإسلامية حاملة رسائل الأمل في الوقوف إلى جانبه[١٥] . ومن جانب آخر شهد المغرب خلال حكم السلطان محمد بن عبد الرحمن (١٨٥٩ - ١٨٧٣) وخلفه السلطان الحسن بن محمد (١٨٧٣-١٨٩٤) محاولات للإصلاح في مختلف الجوانب وخاصة في الجيش للوقوف بوجه تصاعد الأطماع الأوربية من خلال الامتيازات الممنوحة لهم ، إلا أن المغرب كانت تتجاذبه آنذاك القوى القديمة والجديدة ، وكان يعاني من ضعف اقتصادي وثورات داخلية ، وقاد ذلك إلى عدم وصول الإصلاح إلى نهايته كما حدث مع الدولة العثمانية في مشاريعها الإصلاحية .

العلاقات المغربية - العثمانية ، من التعاون إلى محاولة التحالف :

قادت الأوضاع الداخلية والخارجية لكلا الدولتين المغربية والعثمانية إلى العمل للتقارب وبشكل أكبر مما يعزز التضامن والاتحاد الإسلامي لمواجهة التحديات المشتركة. والجدير بالذكر ، أن سيادة حالة الود والسلم بين الجانبين منذ نهاية القرن الثامن عشر لم يؤد إلى إقامة علاقات دبلوماسية بين الجانبين على الرغم من وجود علاقات عثمانية - أوربية ، ومغربية أوربية وعليه فقد شهدت فترة حكم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني والسلطان المغربي الحسن بن محمد (الحسن الأول) بداية طيبة في هذا المجال حيث بدأت المراسلات بين السلطانين بشأن إقامة علاقات دبلوماسية وتقوية أواصر التعاون بما يخدم « الاتحاد الإسلامي » . ففي عام ١٩٨٦ بدأت بين الجانبين الرسائل والوفود ، وعلق إسماعيل سرهنك في كتابه "حقائق الأخبار" على موضوع زيارة الوفد المغربي بقوله « وقد كان الوالي حسن لما رأى ضعف حكومته أمام دول أوربا الساعية على الدوام في الحصول على المنافع التجارية والسياسية في بلاده والبحث على ما يكون به زعزعة أركان هذه الدولة - المغرب - أشار رؤساء دولته عليه بتجديد العلاقات الودادية بينه وبين الدولة العثمانية ليكون في اتحاد هماماً من

له ولقومه .. فأرسل من طرفه عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م - السيد إبراهيم السنوسي إلى الأستانة العليه للمخابرة بهذا الشأن وعقد اتفاقية بين الطرفين ، فسافر هذا المأمور السياسي ، وبينما كان يتخابر مع الحكومة العثمانية ظهرت علامات الحرب الروسية العثمانية التي سبقتها قيام بعض الايالات التابعة للدولة بالثورة فكان ذلك من الأسباب التي حالت دون بلوغ المرام وعاد المأمور إلى بلاده »(١٦) . وبعدها بسنة وصلت رسالة من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني إلى السلطان المغربي الحسن الأول وأجاب عنها برسالة مماثلة ، كما وردت رسالة بإذن من السلطان العثماني من شيخ الإسلام المفتي الأول بالدولة العثمانية حسن خير الله ، خاطب فيها الوزير الأول المغربي الحاجب موسى بن أحمد ، وتحمل الرسالة الأولى غرة ربيع النبوي عام ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) وقد حملهما معا إلى المغرب الشيخ إبراهيم السنوسي . بدأت رسالة السلطان العثماني بحمد الله سبحانه والصلاة والسلام على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ثم بالاشادة بالسلطان المغربي الحسن الأول سليل الدوحة النبوية الشريفة ثم تناول الهدف الحقيقي للمراسلة بقوله : « ... هذا وأن كانت المراسلة بيننا مقطوعة ومالكة المودة ممنوعة إلا أن عهد المودة التي بين أسلافنا دعا إلى تجديد عهدها بين أخلافنا .. فالاتحاد بالدين .. يوجب كمال الألفة والتشابك في قهر الأعداء بسل الأسنة ، فإن ما يزري بطائفة من ذوي التوحيد فقد يزرى بالأخرى بلا مرية ولا ترديد .. فيجب علينا نحن معاشر المسلمين كافة ، الاتحاد والتعاضد والتناصر لدفع كيد المشركين وابقاء شعائر الإسلام بين المؤمنين والا فعاقبة الأمر تؤول إلى محذور عظيم لا ينجو منه أحد من المسلمين ولو كان في اقصى البلاد ، ولا يجدي التباعد والسكوت في دفع ما لأعداء الدين من المراد .. »(١٧) .

إن هذه الرسالة العثمانية تكشف حقيقة الموقف العثماني الثابت في العمل على ايجاد حليف إسلامي ، فكان المغرب موضع اهتمامهم الابرز ، واخراج الدعوة إلى (الجامعة الإسلامية) إلى حير التنفيذ والواقع لمواجهة التحديات الأوربية المشتركة .. وقد جاءت الرسالة الجوابية من السلطان المغربي الحسن الأول تؤكد هذه الرغبة والدعوة للعمل بموجبها ، فبعد أن حمد الله سبحانه وصلى وسلم على الرسول الكريم وآله

وصحبه أجمعين ثم الاشادة بالسلطان العثماني ، وصل إلى بيت القصيد وقال « .. فأما ما شرحتم - عن - أهل الاشراك ونصبهم للمسلمين الغوائل والاشراك ، ودعوتم إليه من الاتحاد على دفاعهم والاشتباك ، فما خلت بحمد الله ضمائرنا من تلك النية والتناصر في ذات الله عندنا غاية الأمنية والسعي في جمع الكلمة متعين على جميع أهل التوحيد والدعاء إليه من خصال الموفق الرشيد وما نصر الله منا ومنكم ببعيد .. »[18] .

وكما هو واضح من الرسالتين اللتين أكدتا العمل على ضرورة الاتحاد الإسلامي إلا أن الرسالتين لم توضحا آلية العمل بهذا الاتجاه ولم تحدد طبيعة الاتحاد بشكل عملي ملموس وبما يخدم مصالح الطرفين . ومع ذلك فقد بقيت مشاعر الود والتأييد قائمة من قبل المغرب تجاه العثمانيين ، يؤيد ذلك الرسالة التي وجهها الوزير المغربي الأول موسى بن أحمد بتاريخ ١٥ آب - أغسطس - ١٨٧٧ ، والتي أعرب فيها عن سرور المغرب بانتصار العثمانيين على الروس في بيبفنه Pievina وأعقبتها رسائل أخرى لتأكيد هذا الموقف ، ومع ذلك فقد ظل (التحفظ المغربي) على إقامة علاقات رسمية على الصعيد الدبلوماسي ، ويعزي التازي ، أسباب ذلك إلى مشاكل الحدود بين الجانبين خلال القرون الثلاثة الماضية وعدم رغبة المغرب في إقامة علاقات مع دوله (ضعيفة) تضيف إليه أعباء أخرى ، إلى جانب ما تسببه مشكلة الحماية الأجنبية في المغرب من ضغوطات أكثر وكذلك ضغوطات البعثات الدبلوماسية الأوربية في عدم السماح للمغرب بإقامة علاقات دبلوماسية مع اسطنبول[19] . وعلى الرغم من وجاهة الأسباب الواردة آنفا إلا أن الواقع يؤكد أن مشكلة الحدود بين الجانبين انتهت مع الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ ، كما أن مسألة (ضعف) الدولة العثمانية آنذاك (على أثر هزيمتها أمام الروس عام ١٨٧٨ وخضوعها لشروط الدول الأوربية في العام نفسه) مسألة نسبية ، لأن واقع الحال يؤكد أنها لازالت أقوى الدول الإسلامية آنذاك ، وعليه يمكن القول أن الخوف من ضغوطات أكبر من قبل الدول الأوربية على المغرب حال دون ذلك ، ويبدو أيضاً أن الانجرار وراء دعوة السلطان العثماني لإقامة (الجامعة الإسلامية) معناه التسليم بقيادة السلطان العثماني للعالم الإسلامي ، وهو

ما كان يرفضه سلاطين المغرب منذ مطلع القرن السادس عشر ..

ومع بدايات الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، بدأ المغرب يجتهد للحد من إيغال الدول الأوربية في تجاوزاتها على المعاهدات ، فدعا إلى عقد مؤتمر دولي لتحديد الامتيازات وإقامة نوع من التوازن الدولي يحول دون تفرد أي من الدول داخل المغرب ، الذي كان يعني السلطان الحسن الأول به (عدم تفضيل أجنبي على آخر في المغرب) فكان مؤتمر مدريد عام ١٨٨٠ الذي صدرت عنه عدة قرارات لم تحل دون استمرار الامتيازات الأجنبية السياسية والاقتصادية والعسكرية بشكل كان يهدد المغرب واستقلاله[٢٠] . أدرك السلطان المغربي الحسن الأول ، أن تدويل القضية المغربية لم يجد نفعا في المحافظة على استقلال البلاد فقد تصاعدت حدة التدخلات الأوربية بشكل عام ، والفرنسية والاسبانية بشكل خاص . وجاء فرض الحماية - الاحتلال - الفرنسية على تونس عام ١٨٨١ ، ليكون مؤشرا على عزم فرنسا على احتلال المغرب العربي ككل ، وأزاء ذلك التفت إلى الدولة العثمانية . وبدأ السلطان الحسن الأول وفود ، ورسائله إلى العاصمة العثمانية اسطنبول حيث كانت سفارة الحاج العربي بريشة التطواني عام ١٨٨٢ ، الذي استقبل بحفاوة بالغة من قبل السلطان عبد الحميد الثاني، وقد كان موضوع السفارة المغربية (الاتحاد الإسلامي) كما كان موضوع السفارة الثانية إلى العاصمة العثمانية برئاسة الشيخ إبراهيم السنوسي ، والعمل على تبادل التمثيل الدبلوماسي بين الدولتين . وقد رشح المغرب الشيخ السنوسي ليكون سفيره في اسطنبول ، كما رشح العثمانيون الأمير محيي الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري ليكون سفيرهم في المغرب إلا أن ذلك لم يتم بسبب تدخل القناصل الدبلوماسيين الأجانب ، وبدفع فرنسي ، واضطر السلطان الحسن الأول إلى تأجيل تبادل التمثيل الدبلوماسي حتى تسنح الفرصة[٢١] .

وخلال منتصف العام ١٨٨٢ التقى المبعوث المغربي عبد الكريم بريشه بالسفير العثماني في مدريد بتكليف من عاهل المغرب ، وقد أكد ديوسدادو Diosdado سفير أسبانيا في المغرب الذي حضر المقابلة أنه سيبذل كل الجهود حتى يحمل سلطان المغرب على الاقتناع بالتخلي عن المدربين الفرنسيين للجيش المغربي[٢٢] . وقد جاء

هذا التأكيد المغربي انعكاسا لرغبة عثمانية وألمانية للحد من النفوذ الفرنسي في المغرب وخاصة في أن الجيش ومحاولة احلال بعثة عسكرية عثمانية ذات تدريب ألماني محل البعثة الفرنسية ، وجاء التأكيد المغربي على ذلك من أجل الايضاح للعثمانيين بأنهم لازالوا مؤمنين بضرورة الاتحاد الإسلامي وتقوية أواصر العلاقة بين الجانبين على الرغم من الضغوط والمعارضة الأوربية والفرنسية بشكل خاص . لقد كان الموقف الأوربي بشكل عام والفرنسي بشكل خاص في ضرورة عدم تحقيق التقارب بين المغرب والدولة العثمانية مبنيا على أساس منع تغلغل دعوة الجامعة الإسلامية في المغرب ، ومن ثم حصر النفوذ الفرنسي في الجزائر وتونس بين طرابلس الغرب الخاضعة للسيادة العثمانية وبين المغرب الساعي للتخلص من النفوذ الأجنبي . ومع ذلك فقد استمر العثمانيون في الدعوة إلى ضرورة التمثيل الدبلوماسي والعمل ضمن الاتحاد الإسلامي، ولم يتخلوا عن هذا الاتجاه طيلة ثلاثة عقود لاحقة . وليس دقيقا ما قبل بأن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني لم يلح على استمرار العلاقات السياسية بين المغرب والدولة العثمانية ، لأن المغرب " لم يحتل مكانا في سياسته الخاصة بالجامعة الإسلامية "(٢٣) ، وقد جاءت تطورات الأحداث لتؤكد بطلان هذا الرأي كما سيتضح.

في منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر ظهر واضحا أن تنافسا دوليا قويا سيشهده المغرب حيث ظهرت ألمانيا منافسا قويا ، إلى جانب القوى الأوربية الأخرى ، وبالأخص فرنسا وبريطانيا وأسبانيا . فقد بدأ المستشار بسمارك يتطلع إلى سياسة عالمية ، والبحث عن المستعمرات ، وقد اختار بسمارك أحد العارفين بالعالم الإسلامي وهو المدعو تستكا الذي كان يعمل في السفارة الألمانية في اسطنبول ليكون قنصلا لألمانيا في المغرب . ولما كانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية لازالت مبدأ أساسيا ورغبة ملحة لها أصدقاؤها ومريدوها وتحظى بتأييد كبير في العالم الإسلامي ، ولما كان هذا العالم الإسلامي قد سقط بمعظمه أسير السيطرة البريطانية والفرنسية ، فإن ألمانيا ارادت أن تلعب بهذه الورقة " الإسلامية" لمواجهة النفوذ الفرنسي والبريطاني من أجل فسح المجال لها وسط مستعمراتهم في العالم ، ومن هنا بدأت تشهد العلاقات العثمانية الألمانية تطورات في مختلف المجالات وانعكس ذلك على العلاقات المغربية -

العثمانية . لقد نصح تستكا حكومته بتأييد سياسة التقارب بين الدولتين المغربية والعثمانية ويمكن لألمانيا أن تقوم بادخال " الاصلاحات" في المغرب وعن طريق خبراء من الدولة العثمانية ، وأن يكون هؤلاء الخبراء قد " تكونوا " على أيدي الألمان ، لأن المخزن المغربي (الحكومة) على حد قوله كانوا يخشون من ازدياد نفوذ الأوربيين في البلاد وخاصة في الجيش ، وأن من السهل عليهم قبول ممرنين عرب وأتراك أكثر من قبولهم لبعثات أوربية عسكرية ، وكان ذلك يعني ابعاد الفرنسيين عن المراكز والمسؤوليات المهمة في البلاد وخاصة من الجيش المغربي[٢٤] .

اعتمد القنصل الألماني تستكا على دعم أسبانيا وبريطانيا لتقليم أظافر الفرنسيين في المغرب[٢٥] . فقد كانت ألمانيا تدرك مخاوف أسبانيا من أن تقوم فرنسا بضم المغرب إلى دائرة نفوذها في المغرب العربي أسوة بالجزائر وتونس ، وكانت تسعى هي إلى ذلك وخاصة أن لها مناطق نفوذ محتلة منذ القرن الخامس عشر في المغرب (مليله - سبته) . أما بريطانيا فلم تكن تسمح بأن تسيطر دولة قوية على مضيق جبل طارق ، وكانت لها آنذاك مواقف (مؤيدة) للدولة العثمانية ضد روسيا القيصرية والتي تحظى بتأييد فرنسي ، ومن هنا بدأت الدبلوماسية الألمانية تتحرك لتحقيق التقارب بين المغرب والدولة العثمانية .

في عام ١٨٨٦ ، حضر علي بك ، وهو مندوب خاص من السلطان العثماني عبدالحميد الثاني إلى طنجة (مقر البعثات الدبلوماسية في المغرب) وكان مكلفا بمهمة (سرية وشخصية) إلى السلطان الحسن الأول . وكانت مهمته تهدف إلى اقتراح بعثة عسكرية عثمانية لاعادة تنظيم وتدريب الجيش المغربي تمهيدا لاخراج البعثة العسكرية الفرنسية التي فرضتها قرارات مؤتمر مدريد والتي اجبر السلطان المغربي على اعتمادها تحت ضغط الدول الأوربية لتنفيذ ما سمي ببرنامج (الاصلاحات) !! كما تضمنت مهمة علي بك العمل على إقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين الإسلاميين[٢٦] . ومن هناك ندرك أهمية المغرب بالنسبة للدولة العثمانية لتحقيق هدف الجامعة الإسلامية للوقوف المشترك بوجه التجاوزات الأوربية . ويؤكد هذه الأهمية أيضا قيام محمد سعيد وزير الخارجية العثمانية في مطلع عام ١٨٨٧ بارسال

رسالة تحمل تاريخ ١٥ ربيع الآخر ١٣٠٤هـ الموافق (كانون الثاني - يناير) ١٨٨٧ ، إلى وزير الخارجية المغربية يطالب فيها بانشاء علاقات سياسية[٢٧] . وقد تم ابلاغ الرسالة إلى نائب السلطان في طنجة الطريس بتاريخ ١٥ شباط - فبراير ١٨٨٧ ، من قبل القنصل الألماني سالديرن Saldern الذي حل محل تستكا . ويقول التازي ، بان جواب الحكومة المغربية تأخر طويلا ، ومن هنا جاء ارسال الحكومة العثمانية لاحقا لشخصية بارزة من ولاية طرابلس وهو الشيخ عبد الله السنوسي لإقامة التمثيل الدبلوماسي ، واقناع السلطان المغربي الحسن الأول بأن (الأخوة) الثابتة بين الدولتين تقتضي بان يكون هناك تمثيل دبلوماسي وقد عثر على برقية ضمن تقارير مدريد تحمل تاريخ ١٣ أيلول - سبتمبر ١٨٨٧ حول الموضوع ذاته ، وقد وردت رسائل أخرى في هذا المجال في الفترات اللاحقة[٢٨] .

وخلال تلك الفترة عينت الدولة العثمانية قنصلا لها في جبل طارق لكن فرنسا هبت للدفاع عن مصالحها وقام وزيرها المفوض في المغرب بـ (تنبيه) السلطان المغربي للاخطار التي ستواجه دولته إذا ما تم التقارب من العثمانيين ، فقد أشار بدسيسته إلى الطرق الصوفية بشكل عام ، والسنوسية بشكل محدد . وقد كان السنوسيون مؤيدين للجامعة الإسلامية وكان لهم وزنهم في المغرب إلى جانب ليبيا ، وعليه فقد "خشى المولى الحسن بن سلطان الآستانة ، وأخذ بوصفه عربيا علويا ومن الاشراف يعتز بحسبه ونسبه ومن جديد وأكثر من سلطان الاستانة العثماني " كما واصل الألمان مساعيهم في هذا الاتجاه الذي يتلاءم مع السياسة العثمانية ، ولكن حين حضر الشيخ عبدالله السنوسي إلى القصر السلطاني بالمغرب كانت مقابلته فاترة وظهر أن السلطان المغربي كان يخشى على نفوذه من السنوسيين أكثر من خشيته من السلطان عبدالحميد نفسه ، إذ أنهم كانوا من المغاربة ومن الأشراف كذلك ، ومع ذلك فقد استمرت ألمانيا في سياسة التقريب بين الدولتين طوال العقد الثامن من القرن التاسع عشر وكذلك سعت الدولة العثمانية في رسائلها وموفديها إلا أنها لم تسفر عن نتيجة[٢٩] . وبالرغم من استمرار علاقات الود بين المغرب والدولة العثمانية إلا أن تحقيق التمثيل الدبلوماسي لم يتم وتوفي الحسن الأول سلطان المغرب عام ١٨٩٤ ولم

يتحقق هدف العثمانيين والألمان في هذا المجال حتى مطلع القرن العشرين ، حيث شهدت العلاقات المغربية العثمانية تطورات أكثر ايجابية .

في مطلع القرن العشرين بدأت الدبلوماسية الفرنسية والأسبانية تتحركان في المجال الدولي للانفراد باحتلال المغرب . وقد تمت تسوية المشاكل بين فرنسا وايطاليا بموجب اتفاق عام ١٩٠٢ حيث اعترفت ايطاليا بمصالح فرنسا بالمغرب لقاء اعتراف الأخيرة بمصالح ايطاليا في ليبيا . وخلال فترة عامين ، دخلت فرنسا في مفاوضات مع بريطانيا لتسوية المشاكل الاستعمارية بينهما في العالم ، وفيما يخص المغرب فقد اعترفت بريطانيا بمصالح فرنسا في المغرب ، لقاء الاعتراف الفرنسي بمصالح بريطانيا في مصر وقبرص ، وجاء ذلك بموجب الاتفاق الودي المعقود بين الجانبين عام ١٩٠٤ . وقد انضمت اسبانيا للاتفاق بعد ضمان مصالحها في الشمال المغربي ولم تبق إلا ألمانيا عقبة كأداء في وجه الاطماع الفرنسية في المغرب ، وقد جاءت زيارة القيصر الألماني إلى طنجة عام ١٩٠٥ وتأكيده على استقلال المغرب وسيادته ردا على ابعاد المانيا من الاتفاق الودي ، وعليه فقد أصبحت ألمانيا ركيزة استند إليها المغرب للحد من غلواء فرنسا وأسبانيا في المغرب .

استند السلطان المغربي عبد العزيز بن الحسن الأول (١٨٩٤ - ١٩٠٨) إلى ألمانيا عندما دعا إلى تدويل القضية المغربية ثانية للحد من اطماع فرنسا وأسبانيا ، فكان مؤتمر الجزيرة الخضراء في أسبانيا عام ١٩٠٦ . وقد حاولت الحكومة العثمانية أن تحضر المؤتمر ، ورشحت شمس الدين بك لحضور المؤتمر ، وقد سلم لشمس الدين بك ما يشبه أن يكون اعتماد مشفوعا بمنح وسام عثماني ، وذلك في محاولة لايجاد أرضية لتمثيل دبلوماسي عثماني في المغرب ، إلا أنه « عيل صبر الحكومة العثمانية وهي تحاول أن تجد لها ممثليه في المملكة المغربية لتحقيق أغراضها »[٣٠] . وقد كان لحدة النفوذ الفرنسي والأسباني المدعوم دوليا أثره في عدم قدرة سلطان المغرب على إقامة هذا التمثيل الدبلوماسي .

خرجت فرنسا وأسبانيا من مؤتمر الجزيرة الخضراء ١٩٠٦ بامتيازات أكبر على

الصعيدين الاقتصادي والعسكري ، وتجاوزت الدولتان بفرض السيطرة العسكرية على المغرب عام ١٩٠٧ ، مما أدى إلى ثورة شعبية اطاحت بالسلطان عبد العزيز وأعلنت البيعة للأمير عبد الحفيظ بن الحسن الأول)١٩٠٨ - ١٩١٢) ليكون سلطان المغرب في مطلع عام ١٩٠٨ . وقد ورد في بنود البيعة للسلطان عبد الحفيظ " دعوة للاتصال بتركيا " فكانت السفارة التي بعث بها إلى اسطنبول برئاسة العربي بريشة التطواني لايجاد صيغة لوحدة إسلامية ، ولضمان عدم الاعتراف بـ " الإصلاحات " التي تحاول فرنسا فرضها على المغرب[٣١] .

وفي مطلع القرن العشرين أيضا ، شهد المغرب بروز حركة دستورية منذ عام ١٩٠٦ ولم تكن تلك الحركة إلا تتويجا لجهود المغاربة منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لتقوية بنية الدولة ومواجهة التحديات . فلقد فهم بعض علماء المغرب "عمق الأزمة" المغربية ، وقدموا الكثير من الحلول والمقترحات لاصلاح البلاد في مختلف المجالات ، وكانت تلك الحلول « منبثقة من الداخل وليست مفروضة من الخارج.. كانت تفكر في معالجة الجذور وتنطلق من المعطيات المحلية ، حيث أخذت بالتفكير في وجوب الإصلاح الفردي والجماعي وفي وجوب الإصلاح النفسي والفكري.. أن الحلول المقترحة كانت ارهاصات بثورة فكرية استمدت جذورها من قواعد سبق أن اثبتت من الناحية العملية سلامتها وفاعليتها في انقاذ المجتمعات وتكوين الدول .. »[٣٢] . وقد نضجت الأفكار وبدأت الدعوة لها منذ مطلع القرن العشرين حيث تفاقمت على المغرب الهجمة الأوربية وخاصة الفرنسية والأسبانية بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء .

انتشرت الأفكار الدستورية بشكل واسع بين البرجوازية التجارية في فاس وطنجة، إلى جانب العناصر المثقفة ، وأخذت تلك الأفكار طريقها عبر تنظيم شعبي ، ومن خلال جمعية سرية عرفت باسم " جمعية الترقي " ، وعلى يد أعضاء تلك الجمعية المغربية وضع الدستور وكان متأثرا في بنوده بالدستور العثماني لعام ١٨٧٦ في العديد من بنوده ، ويأتي ذلك لاشتراك عدد من اللبنانيين في صياغة مواده[٣٣] . ومن هنا ندرك أن التأثير لم يتأتى عن طريق جماعة الاتحاد والترقي بعد الانقلاب

العثماني في تموز - يوليو ١٩٠٨ ، كما حاول البعض الإشارة إلى ذلك[٣٤] . ذلك أن التحسس بضرورة التغيير والإصلاح السياسي والإداري والاجتماعي والاقتصادي كان موجودا حتى قبل صدور الدستور العثماني عام ١٨٧٦ ، وهو الدستور الذي اعلنته جماعة الانقلاب في اسطنبول . وقد تم نشر الدستور المغربي في جريدة (لسان المغرب) في تشرين الأول وتشرين الثاني عام ١٩٠٨ .

وإذا كان ثمة تطابق أو تلاقي في الأفكار الدستورية بين المغرب والدولة العثمانية، فإن واقع الحال كان يؤشر محاولات للتقارب على الصعيدين السياسي والعسكري وبشكل يؤكد الموقف العثماني تجاه المغرب ، ومحاولة الوصول إلى صيغ عملية للتعاون ، وبما يخدم أهداف الدولتين . جرت اتصالات بين نخبات مغربية وجماعة الاتحاد والترقي وذلك من خلال الزيارة التي قام بها محمد خير الدين نجل المصلح الشهير خير الدين باشا التونسي حيث قدم إلى المغرب موفدا من قبل جماعة الاتحاد والترقي ، وأقام في مدينة مراكش وكان على اتصال بالمصلح المغربي محمد بن عبد الكبير الكتاني[٣٥] .

كان للانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ صداه في الوطن العربي وعند القوميات الخاضعة للسيادة العثمانية ، وفي المغرب كان له أثره في دفع الشباب المغربي إلى مطلبة السلطان المغربي عبد الحيظ بن الحسن الأول ، بتنفيذ الوعود التي قطعها للشعب في ثورته ضد أخيه السلطان عبد العزيز ، وانقاذ البلاد والعباد من براثن النفوذ الأجنبي المستفحل ، ومنح الشعب " نعمة الدستور ومجلس النواب " والاقتداء بعودة العمل بالدستور كما فعل السلطان العثماني عبد الحميد حين أمر باجتماع (مجلس المبعوثان) من جديد[٣٦] .

وشهدت االعلاقات المغربية - العثمانية منذ تلك الفترة تطورات ايجابية وعملية ، فقد استطاع السلطان المغربي أن يقيم علاقات سياسية وعسكرية مع الدولة العثمانية، واستقدم بعثة عسكرية أواخر عام ١٩٠٩ وكان عدد أعضائها (١١) ضابطا برئاسة جمال بك الغزي . وقد بذلت البعثة العسكرية العثمانية جهودا كبيرة لحث المغاربة ضد

الوجود الأوربي وفي الوقت نفسه كانت البلاد تغلي وتطالب السلطان عبد الحفيظ بالحد من النفوذ الأجنبي وطرده . وكان الشريف أحمد الرسوني في الشمال المغربي من أبرز الشخصيات المغربية التي قادت الكفاح ضد النفوذ الأجنبي في مطلع القرن العشرين . وقد استطاعت البعثة أن تكتل عدداً من الشباب المغربي المؤيد للجماعة الإسلامية ، وهناك إشارات على وجود تنظيم في المغرب يؤيد هذا الاتجاه ، حيث ذكر المراسلون الصحفيون الألمان ، أن أفراد ذلك التنظيم وصل إلى حد (عشرة آلاف) عضو عام ١٩١١ ، ولكن الرقم لا يخلو من مبالغة[٣٧] . إن رجال البعثة العسكرية العثمانية ، لم يقوموا بالمهمات الموكلة لهم بتدريب الجيش المغربي وحلولهم محل البعثة العسكرية الفرنسية ، بل كلفوا بقيادة حملات ضد بعض التمردات الداخلية ، وقد كانوا بحاجة إلى معرفة أحوال البلاد والتكيف مع الوضع الجديد ، وكان ذلك سبب فشلهم ، إلى جانب أنهم لم يلقوا تعاونا من القواد المغاربة حيث لعبت المصالح والخيانات الداخلية للمسئولين الحكوميين دورها في هذا الفشل ، وفي عدم اقرار الأمن والانضباط داخل الجيش[٣٨] .

لقد أوكلت البعثة العسكرية العثمانية عدة مهمات تتم على ثلاث مراحل حسب الأوامر العثمانية ، الأولى ، تتمثل في ارسال البعثة ، والثانية ، ارسال وكلاء للحث على الجهاد بين القبائل المغربية وتأسيس صحيفة عربية ألمانية في المغرب ، والتحضير لانتفاضة واسعة ضد الفرنسيين الذين طغى نفوذهم في البلاد عام ١٩١١ ، قبل أن يتمكنوا من فرض سيطرتهم على المغرب . وكانت المرحلة الثالثة ، وتتمثل باثارة مقاومة واسعة ضد القوات الفرنسية التي طوقت العاصمة فاس منذ آيار - مايو ١٩١١ ، وحدد موعد المقاومة في حزيران - يونيو ١٩١١[٣٩] ، إلا أن مهمة البعثة العسكرية العثمانية - كما ذكر - فشلت للأسباب الواردة آنفا لذلك فقد سرح الضباط الأتراك العثمانيون وأعيدت البعثة العسكرية ولم تؤد مهمتها الموكلة إليها[٤٠] . وقد كان لقوة النفوذ العسكري الفرنسي ، إلى جانب النفوذ الاقتصادي والسياسي أثره في ذلك أيضاً . ومن هنا ندرك أن الأزمة الداخلية للمغرب قادت المغاربة إلى الثورة على النفوذ الأجنبي والفرنسي بشكل خاص ، وادانت السلطان عبد الحفيظ وعدته (سلطان

الفرنسيين) وليس (سلطان الجهاد) كما لقبوه عام ١٩٠٨ .

ومع ذلك فان محاولات العثمانيين في ضعضعة النفوذ الفرنسي في المغرب ومحاولة طرده لم تتوقف ، وجاء ذلك بشكل غير مباشر ومن خلال مصر الخاضعة أسميا للسيادة العثمانية . ففي أواخر عام ١٩١١ كشفت الاستخبارات الفرنسية عن وجود تنظيم سري مغربي بمشاركة عدد من المصريين ، يقوده عارف طه الوكيل ، والمدعوم من قبل خديوي مصر ، وكان هدف التنظيم العمل على تحرير المغرب العربي ككل ، وقد دعم التنظيم السري ماليا من خلال مصرف الشرق الأوسط الألماني في مصر ، ومن خلال رئيسه سنجر Singer وكان لهذا التنظيم السري اتصالات وثيقة مع الطلبة المغاربة الدارسين في الأزهر الذين كانوا يتنقلون بين المغرب ومصر [٤١] .

إن واقع الحال ، كان يؤشر أن مجريات الأحداث وتطوراتها كانت تسير ضد الطموحات المغربية أو العثمانية ، فقد شهد المغرب منذ عام ١٩١١ حضورا عسكريا مكثفا للفرنسيين والأسبان ، كما استطاعت فرنسا أن تزيح آخر عقبة كأداء - ألمانيا - أمامها لاحتلال المغرب ، وتحت غطاء حماية السلطان عبد الحفيظ من ثورة الشعب ضده ، دخلت فاس وأحكمت قبضتها وأعلنت حمايتها - احتلالها - على المغرب بموجب معاهدة فاس المبرمة في ٣٠ آذار - مارس ١٩١٢ ، وبعدها بشهور اتفقت مع أسبانيا على تقسيم المغرب إلى منطقتي نفوذ بموجب اتفاق ٢٧ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٢ حيث خضع المغرب منذ تلك الفترة لحماية ثنائية وعزل كغيره من أقطار المغرب العربي عن الوطن العربي والدولة العثمانية .

الخاتمة :

يوضع البحث ، أن مسار العلاقات المغربية - العثمانية منذ القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين كان يؤشر ميلا عثمانيا يشكل أساسا للتقارب مع المغرب على الصعيدين السياسي والعسكري ، وقد دفعت إلى ذلك التحديات الأوربية المشتركة التي واجهت كلا الدولتين ، لكن الطابع العام لهذه العلاقات بقي طوال قرن من الزمان ضمن إطار الود والسلام والتأييد في المشاعر ، ومحاولات الدعم الاقتصادي

الذي يصب في مجال الدعم العسكري بشكل غير مباشر كما تبين من حرب القرم . ومع ذلك بقي التمثيل الدبلوماسي بين الدولتين بعيدا عن تفكير المغرب لأسباب ورد ذكرها . وأهمها الضغوطات الأوربية بشكل عام والفرنسية بشكل خاص لابعاد الدولتين الإسلاميتين عن الاتحاد والتضامن لمواجهة التحديات الأوربية المشتركة .

وجاء القرن العشرين ليؤشر تقاربا سياسيا وعسكريا ولكن بعد فوات الأوان ، حيث كانت فرنسا (وأسبانيا) قد استمكنت في البلاد عسكريا واقتصاديا وسياسيا ولم تجد محاولات التقارب المغربي العثماني في الحد من ذلك النفوذ .

وأخيراً لابد من الإشارة ، إلى أن العلاقات المغربية - العثمانية في المجالين الاقتصادي والثقافي [٤٢] . بقيت قائمة على صعيد الوطن العربي الخاضع للسيادة العثمانية كما هو الحال منذ مطلع القرن السادس عشر بشكل خاص مع الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر والسودان وشبه الجزيرة العربية ، لكن البحث ركز على العلاقات المغربية - العثمانية في الجوانب السياسية والعسكرية .

هوامش البحث

(١) انظر بالتفصيل : د. محمد علي داهش : العلاقات المغربية العثمانية في العصر الحديث ١٦٥٠ - ١٨٣٠ ، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد ١٨ ، السنة ١٩٩٥ ، ص ١٦١ - ١٧٥ .

(٢) محمد بن العربي الزبيري ، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ١٩٧٥ ، ص ٨١ - ٩٥ .

(٣) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٥ ، ج ٩ ، ص ٢٧ .

(٤) انظر :
- الناصري ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٨ ، داهش ، المصدر السابق ، ص ١٧١ .
- أحمد العماري ، خلفيات الحدود الجيوسياسية للاتراك والفرنسيين تجاه وحدة المغرب الكبير ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، العدد (٢) السنة ١٩٨٥ ، ص ١٧٩ - ١٨٢ .
- اليوبي الحسن : المغرب والجزائر في مواجهة الزحف الاستعماري في عهد المولى عبدالرحمن العلوي والأمير عبد القادر الجزائري في القرن الثامن عشر ، مجلة دعوة الحق ، العدد ٢٨٩ ، السنة ٣٣ ، نيسان - ابريل ١٩٩٢ ، ص ٥٩ - ٧٣ .

(٥) العماري ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٥ .

(٦) الزبيري ، المصدر السابق ، ص ٨٣ - ١١٧ ، الحسن ، المصدر السابق ، ص ٦٢ - ٦٩ .

(٧) يحيى بو عزيز ، من تاريخ كفاح الجزائر في القرن التاسع عشر ، أربعة أحداث في ثلاث وثائق ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد (٢) تموز - يوليو ١٩٧٤ ، تونس ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٨) عبد الرحمن بن زيدان ، اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، المطبعة الوطنية ، الرباط ١٩٣٣ ، ج ٥ ، ص ١٥٤ - ١٥٦ . انظر ، عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم ، أكاديمية المملكة المغربية ، بلا ، ١٩٨٦ ، ج١٠ ، ص ١٦٩ .

(٩) إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ١٩٨٥ ، ج٣ ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(١٠) صلاح العقاد ، المغرب العربي ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٢٦ .

(١١) للتفاصيل انظر :
- جرانت ، تمبرلي ، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ١٧٨٩ - ١٩٥٠ ، ترجمة بهاء فهمي ، دار الحمامي للطباعة ، القاهرة ، بلا ، ج ١ ص ٤١٧ - ٤٣٤ .
- محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة ، القاهرة

١٩٧٦، ص ٩٨ - ١١٥ ، ١٣٦ - ١٤٨ .

(١٢) ب . ج . روجرز ، تاريخ العلاقات الانكليزية - المغربية حتى عام ١٩٠٠ ، ترجمة يونان لبيب رزق ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨١ ، ص ٢١٧ ، مع الهامش .

(١٣) التازي ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٧٠ .

(١٤) أورخان محمد علي ، السلطان عبد الحميد ، حياته وأحداث عصره ، دار الانبار ، الانبار ، ١٩٨٧ ، ص ٣٠ - ٣١ ، ٩٨ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٣٥ ، ٢٢٨ . الدسوقي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

(١٥) لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عجاج نويهض ، تعليق الأمير ، شكيب أرسلان ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(١٦) إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، بلا ، ج١ ، ص ٣٥٠ .

(١٧) محمد المنوني ، مظاهر يقظة المغرب الحديث ، مطبعة الأمنية ، الرباط ، ١٩٧٣ ، ج١ ، ص ٥١ - ٥٢ .

(١٨) المنوني ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥٢ - ٥٤ .

(١٩) التازي ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٢٠) انظر بالتفصيل :

- شوقي الجمل ، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .
- الصديق بن العربي ، كتاب المغرب ، مطبعة الامنية ، الرباط ، ١٩٥٦ ، ص ١٨ .
- عبد الله بن عبود ، مركز الأجانب في مراكش ، مطبعة الرسالة ، (لا . ت) ص ٥١ .
- عبد الله عبود ، تاريخ المغرب ، دار الطباعة المغربية ، تطوان ، ١٩٥٧ ، ج٢ ، ص ٩٤ .
- مكتب المغرب العربي ، الحماية الفرنسية في مراكش بعد ٣٦ عاما ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٦-٧ .

(٢١) المنوني ، المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٢٢) التازي ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٨ .

(٢٣) العقاد ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

(٢٤) جلال يحيى ، المغرب العربي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ج٣ ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٢٥) يحيى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧٤ .

(٢٦) يحيى ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤٧٥ .

(٢٧) ابن زيدان ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٦٠ . علال الفاسي ، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، نشر عبد السلام جسوس ، (تطوان ، ١٩٤٨ ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢٨) التازي ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢٩) يحيى ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧٥ .

(٣٠) التازي ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٧٣ .

(٣١) التازي ، المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٧٥ .
(٣٢) لطيفة سميرس بناني ، جوانب من مواقف علماء المغرب في القرن التاسع عشر من أزمة وأحداث الفترة ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد ٢ ، فاس ، ١٩٨٥ ، ص ٢٠٣ - ٢١٧ .
(٣٣) - محمد الفاسي ، أول جمعية وطنية في المغرب قبل الحماية في أوائل القرن العشرين ، مجلة دعوة الحق ، العدد ٢٧٠ ، ايلول - سبتمبر ، الرباط ، ١٩٨٨ ، ص ٣٤ - ٣٩.
- عبد الرحيم بن سلامة ، كفاح المغرب من أجل الحرية والديمقراطية ، (بلا) ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٥٠ - ٥١ .
(٣٤) عصمت برهان الدين عبد القادر ، العرب والمسألة الدستورية في الدولة العثمانية ١٨٧٦ - ١٩١٤ ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، الموصل ١٩٩٥ ، ص ٢٢٤ .
(٣٥) محمد المنوني ، الطابع الإسلامي للوطنية المغربية في مطالع القرن العشرين ، مجلة حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد ٢ ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥ ، ص ٤٩ - ٥٠ . عبدالقادر ، المصدر السابق ، ٢٢٥ .
(٣٦) الفاسي ، الحركات الاستقلالية ، ص ٩٨ - ٩٩ .
(٣٧) ذكر البعض خطأ أن قائد البعثة العسكرية العثمانية كان اسمه عارف طه الوكيل ، وهو آحد الضباط الاتراك الذين خدموا في مصر ، انظر :
- جمال هاشم أحمد الذوب ، التطورات السياسية الداخلية في المغرب الأقصى ١٨٩٤ - ١٩١٢ ، أطروحة ماجستير غير منشورة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، بغداد ١٩٨٩ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .
- التازي ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٧٦ .
(٣٨) حركات المصدر السابق ، ص ٣٨٧ .
(٣٩) الذويب ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .
(٤٠) حركات ، المصدر السابق ، ص ٣٨٨ .
(٤١) الذويب ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .
(٤٢) انظر بالتفصيل :
- ابن زيدان ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ .
- الناصري ، المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٧٢ - ٧٣ .
- التازي ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٧٧ - ١٨٩ .
- حركات ، المصدر السابق ، ص ٥٠٩ .

الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية في مدينة الدوحة

د. عدنان هزاع البياتي

مقدمة :

يعد تكييف الهواء من بين العوامل المهمة التي إذا ما توافرت للمشتغلين في القطاعات الإنتاجية كانت الحافز المناسب لخلق بيئة محفزة للخلق والإبداع ، لذا اهتمت جميع المؤسسات والمرافق الإنتاجية على توفير الظروف المناسبة لمضاعفة النشاط الإنتاجي كما ونوعا .

فلا غرابة أن ينال هذا الموضوع عناية مهندسي تكييف الهواء ، فلقد أجريت الكثير من التجارب لغرض حصر أو جمع كافة عناصر المناخ التي تؤثر على راحة الإنسان ، ودراسة تأثير المجموعات التركيبية المختلفة لهذه العناصر على راحته ، والتوصل إلى عدد من المعادلات والأشكال البيانية التي تقيس العلاقة بين عناصر المناخ المختلفة وراحة الإنسان ، (ريمشا ، ١٩٧٧ ، ص ٤٨) .

ونظراً لتباين عناصر المناخ التي تؤثر في إحساس الإنسان بالراحة ، أو شعوره بالضيق ، فإن الوسائل التي يمكن بواسطتها قياس الشعور بالراحة أو الضيق تتباين أيضاً .

وتعد الحرارة الفعالة (The Effective Temperature) من بين أكثر هذه الوسائل شهرة ، (شحاذة ، ١٩٨٣ ، ص ١٨٢) إذ استخدمها الكثير من الباحثين ، منهم (١٩٧٧ و Tout) ، (١٩٩٧ و Thornes) ، (١٩٨٤ و Elsom) و (١٩٨٨ و Mcgain) ، كما تم تطبيقها على المعطيات المناخية في

بعض مدن الخليج العربي كالبحرين ١٩٧٨ و Turner) ، والشارقة (شحاذة ، ١٩٨٥) ، ويرجع استخدام هذه الأسلوب لقياس إحساس الإنسان بالراحة إلى أن إحسان الإنسان بالحرارة ، ثم بالراحة والانزعاج ، لا يرجع إلى معدلات حرارة الهواء فقط كما يتصور الكثيرون ، بل أن عناصر المناخ ، وخاصة الحرارة والرطوبة وسرعة الرياح مجتمعة في آن واحد تصنع هذا الإحساس ، لذا فان الحكم على حالة الطقس من خلال معدلات الحرارة فقط يعد مضللا ولابد من الربط بين معدلات حرارة الهواء وبعض عناصر الطقس الأخرى لإعطاء الدرجة الحقيقية التي يحس بها الإنسان ، فعند اقتران معدلات الحرارة العالمية مع الرطوبة المرتفعة يزداد توصيل الحرارة من الجو المحيط إلى جسم الإنسان ، كما أن عملية التبريد التي يتعرض لها جسم الإنسان بسبب تبخر العرق الذي يفرزه جسم الإنسان يلطف من حرارة الجلد ، ويتوقف ذلك على معدلات حرارة الهواء ورطوبته وسرعة الرياح ، (صفر ، ١٩٨٤ ، ص ١٤٣) ، فكلما زادت رطوبة الجو عن ٥٠ بالمائة ، قل إحسان الإنسان بالراحة ، خصوصا إذا ما وصلت إلى ٨٥ بالمائة ، حتى في الأجواء الباردة ، وليس معنى ذلك إن الجو الجاف باستمرار هو الأفضل حالا ، صحيح أن الفترات القصيرة من الجو الجاف تنشط الإنسان، ولكن دوام التعرض للأجواء الجافة يجلب الصداع ، ويقلل القدرة على العمل (الفندي ، ١٩٧٥ ، ص ٢١٦ - ٢١٧) .

ولابد أن نشير هنا إلى أن إحساس الإنسان بالراحة لا يتوقف على عناصر المناخ المختلفة فحسب ، بل يختلف من شخص لآخر ومن وقت لآخر حسب طبيعة العمل والعمر والحالة الصحية ونوع الملابس التي يرتديها الإنسان ، وغيرها من العوامل الأخرى .

أهداف البحث :

الحرارة المؤثرة هي مقياس للإحساس بالراحة ، وهي توضح العلاقة بين درجة حرارة الهواء ورطوبته عندما تكون الرياح في حالة حركة خفيفة ، (١٩٦٦ و Terjung ص ١٤٧) ، أما إقليم الراحة للحرارة المؤثرة ، فهو الإقليم الذي يكون

فيه غالبية الناس قادرين على العمل بقدرة عالية جدا ، (Stephenson ، ١٩٦٣، ص ٣٣٨) ، وبهذا فان الحرارة المؤثرة لا تدل على درجة فعلية ، بل إنها درجة الحرارة التي يشعر بها الجسم نتيجة للتأثير المشترك للحرارة والرطوبة ، على أن يأخذ بنظر الاعتبار إن سرعة الرياح كلما زادت ساعدت على تقبل درجة حرارة مؤثرة أعلى منها في حالة السكون .

لذا فان هذا البحث يهدف إلى :

١- تطبيق قرينة الحرارة المؤثرة على معدلات الحرارة والرطوبة لكل أشهر السنة وذلك لتحليل التباين الزماني للحرارة المؤثرة ، وصولا لتحديد إحساس الإنسان بالحالة المناخية دون استخدام وسائل التكييف الاصطناعي .

٢- تطبيق قرينة الحرارة المؤثرة على المعدلات الساعية للحرارة والرطوبة لجميع أشهر السنة ، وتحليل التباين الساعي لأقاليم الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية دون استخدام وسائل التكييف الاصطناعي .

ولتحقيق أهداف البحث استخدم الباحث المعدلات الشهرية لدرجات حرارة الهواء والمعدلات الشهرية للرطوبة النسبية لمحطة مطار الدوحة الدولي للفترة (١٩٦٢ - ١٩٩٥) ، (جدول ١) ، والمعدلات الساعية لدرجات حرارة الهواء (جدول ٢) ، والمعدلات الساعية للرطوبة النسبية (جدول ٣)

ولتحقيق أهداف البحث استخدم الباحث المعادلة الآتية ، ,Gregorczuk) : Cena, 1967, 145)

$$ET = T - 0,4 (T-10) (1 - RH/100)$$

حيث أن :

ET = درجة الحرارة المؤثرة

T = معدل حرارة الهواء بالمئوية

RH = الرطوبة النسبية

جدول (١)

معدلات حرارة الهواء و الرطوبة النسبية في محطة مطار الدوحة الدولي

١٩٦٢ - ١٩٩٥

	يناير	فبراير	مارس	ابريل	مايو	يونيو	يوليو	اغسطس	سبتمبر	اكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
الحرارة	١٧,١	١٨,٠	٢١,٢	٢٥,٨	٣١,١	٣٣,٩	٣٤,٧	٣٤,٣	٣٢,٣	٢٩	٢٤,٢	١٩,٢
الرطوبة	٧١	٧٠	٦٤	٥٣	٤٤	٤٢	٤٩	٥٥	٦٢	٦٣	٦٦	٧١

جدول رقم (٢)

المسار الساعي لمعدلات حرارة الهواء في جميع اشهر السنة في محطة مطار الدوحة الدولي بالتوقيت المحلي

الساعة / الشهر	٠	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
يناير	١٥,٢	١٤,٩	١٤,٦	١٤,٤	١٤,٢	١٤,٠	١٣,٩	١٣,٩	١٥,٢	١٧,٠	١٨,٦	١٩,٨	٢٠,٥	٢٠,٩	٢٠,٨	٢٠,٥	١٩,٧	١٨,٧	١٧,٨	١٧,٢	١٦,٧	١٦,٣	١٦,٠	١٥,٦
فبراير	١٦,١	١٥,٧	١٥,٤	١٥,١	١٤,٩	١٤,٧	١٤,٧	١٤,٦	١٦,٥	١٨,٢	١٩,٨	٢٠,٨	٢١,٦	٢١,٩	٢١,٨	٢١,٤	٢٠,٦	١٩,٧	١٨,٧	١٨,١	١٧,٦	١٧,٢	١٦,٨	١٦,٤
مارس	١٩,٠	١٨,٧	١٨,٤	١٨,٠	١٧,٧	١٧,٦	١٧,٦	١٨,٥	٢٠,٠	٢٢,٠	٢٣,٥	٢٤,٦	٢٥,٢	٢٥,٤	٢٥,٢	٢٤,٧	٢٣,٩	٢٣,٠	٢١,٩	٢١,١	٢٠,٥	٢٠,٠	١٩,٧	١٩,٣
ابريل	٢٣,٤	٢٣,٠	٢٢,٧	٢٢,٢	٢٢,٠	٢١,٧	٢٢,٠	٢٣,٧	٢٥,٩	٢٧,٩	٢٩,٥	٣٠,٧	٣١,١	٣١,١	٣٠,٦	٣٠,٠	٢٩,٢	٢٨,١	٢٦,٩	٢٦,١	٢٥,٣	٢٤,٧	٢٤,٣	٢٣,٩
مايو	٢٨,٥	٢٧,٩	٢٧,٦	٢٧,١	٢٦,٩	٢٦,٧	٢٧,١	٢٩,٣	٣١,٩	٣٤,٥	٣٥,٩	٣٦,٨	٣٦,٨	٣٦,٩	٣٦,٤	٣٥,٨	٣٤,٩	٣٣,٨	٣٢,٥	٣١,١	٣٠,٦	٣٠,٠	٢٩,٤	٢٩,١
يوليو	٣٠,٦	٣٠,١	٢٩,٧	٢٩,٤	٢٩,٢	٢٩,٠	٢٩,٦	٣١,٦	٣٤,١	٣٦,٦	٣٨,١	٣٩,٤	٣٩,٦	٣٩,٧	٣٩,٢	٣٨,٣	٣٧,٩	٣٦,٩	٣٥,٣	٣٣,٩	٣٢,٩	٣٢,٢	٣١,٧	٣١,١
يوليو	٣١,٨	٣١,٣	٣٠,٩	٣٠,٧	٣٠,٥	٣٠,٣	٣٠,٨	٣٢,٧	٣٥,١	٣٧,٣	٣٩,٠	٤٠,٠	٤٠,٣	٤٠,١	٣٩,٥	٣٨,٦	٣٨,١	٣٧,٠	٣٥,٧	٣٤,٥	٣٣,٨	٣٣,٣	٣٢,٨	٣٢,٢
اغسطس	٣١,٧	٣١,٣	٣٠,٩	٣٠,٦	٣٠,٥	٣٠,٣	٣٠,٥	٣٢,٣	٣٤,٣	٣٦,٤	٣٨,١	٣٩,١	٣٩,٤	٣٩,٣	٣٨,٨	٣٨,٣	٣٧,٦	٣٦,٧	٣٥,٤	٣٤,٥	٣٣,٨	٣٣,٢	٣٢,٨	٣٢,٣
سبتمبر	٢٩,٧	٢٩,١	٢٨,٦	٢٨,٤	٢٨,١	٢٧,٨	٢٧,٧	٣١,٢	٣١,٩	٣٤,١	٣٦,٠	٣٧,٢	٣٧,٥	٣٧,٤	٣٧,٠	٣٦,٤	٣٥,٥	٣٤,٥	٣٣,٤	٣٢,٧	٣١,١	٣١,٥	٣٠,٩	٣٠,٣
اكتوبر	٢٦,٥	٢٦,٠	٢٥,٥	٢٥,٧	٢٤,٩	٢٤,٥	٢٤,٦	٢٥,١	٢٨,٦	٣٠,٨	٣٢,٥	٣٣,٦	٣٤,٠	٣٤,٠	٣٣,٦	٣٣,٠	٣٢,١	٣٠,٩	٢٩,٩	٢٩,١	٢٨,٨	٢٨,٣	٢٧,٧	٢٧,١
نوفمبر	٢٢,٠	٢١,٥	٢١,٢	٢٠,٩	٢٠,٨	٢٠,٦	٢٠,٥	٢١,٣	٢٣,٣	٢٥,٣	٢٦,٩	٢٨,٠	٢٨,٦	٢٨,٧	٢٨,٤	٢٧,٩	٢٦,٩	٢٥,٨	٢٤,٩	٢٤,٣	٢٣,٩	٢٣,٤	٢٢,٩	٢٢,٥
ديسمبر	١٧,٢	١٦,٨	١٦,٥	١٦,٣	١٦,٢	١٥,٧	١٥,٦	١٦,١	١٧,٧	١٩,٦	٢١,٦	٢٢,٣	٢٣	٢٣,٢	٢٣,١	٢٢,٧	٢١,٨	٢٠,٨	١٩,٩	١٩,٣	١٨,٩	١٨,٤	١٨,٠	١٧,٦

جدول (٣)

المسار الساعي لمعدلات الرطوبة النسبية لجميع اشهر السنة في محطة مطار الدوحة الدولي بالتوقيت المحلي

الشهر / الساعة	٠	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
يناير	٧٩	٨٠	٨٠	٨١	٨١	٨٢	٨٢	٨٢	٧٨	٧١	٦٤	٥٧	٥٣	٥١	٥٢	٥٤	٥٧	٦٣	٦٧	٧١	٧٤	٧٥	٧٧	٧٧
فبراير	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٣	٨٢	٧٧	٧٠	٧٢	٥٥	٥٢	٥١	٥١	٥٣	٥٧	٦٢	٦٥	٧٠	٧٢	٧٥	٧٦	٧٩
مارس	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٧	٧٨	٧٥	٦٩	٥٩	٥٢	٤٧	٤٥	٤٤	٤٥	٤٧	٥٠	٥٥	٦١	٦٥	٦٧	٦٩	٧١	٧٢
ابريل	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٨	٦٢	٥٢	٤٣	٤٧	٣٤	٣٣	٣٤	٣٦	٣٨	٤٢	٤٥	٥١	٥٥	٥٧	٥٩	٦٠	٦١
مايو	٥٤	٥٥	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٧	٥٠	٤٠	٣٣	٢٨	٢٧	٢٧	٢٨	٣٠	٣٢	٣٤	٣٩	٤٣	٤٨	٤٩	٥٠	٥٢	٥٣
يونيو	٥١	٥٢	٥٢	٥٣	٥٣	٥٤	٥٣	٤٧	٣٨	٣٠	٢٦	٢٥	٢٥	٢٦	٢٨	٣٠	٣٢	٣٥	٣٥	٤٠	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠
يوليو	٦١	٦١	٦٢	٧١	٦١	٦٢	٧١	٥٤	٤٥	٣٧	٣٢	٣٠	٣١	٣٢	٣٤	٣٧	٤١	٤٤	٥٠	٥٥	٥٧	٥٥	٥٩	٦٠
اغسطس	٦٦	٦٧	٦٨	٦٤	٦٩	٧٠	٦٩	٦٤	٥٤	٤٥	٣٩	٣٦	٣٦	٣٨	٤٠	٤٣	٤٥	٤٩	٥٤	٥٨	٦٠	٦٢	٦٤	٦٥
سبتمبر	٧٣	٧٥	٧٥	٧٦	٧٧	٧٩	٧٨	٧٣	٦٤	٥٤	٤٥	٤٠	٤٠	٤١	٤٣	٤٦	٥١	٥٥	٦٠	٦٣	٦٦	٦٨	٧٠	٧٠
اكتوبر	٧٣	٧٥	٧٦	٧٦	٧٨	٧٨	٧٩	٧٥	٦٦	٥٧	٤٧	٤٢	٤٠	٤٠	٤٢	٤٥	٤٩	٥٥	٦٠	٦٣	٦٥	٦٨	٧٠	٧٢
نوفمبر	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨٠	٧٧	٧٠	٦٣	٥٥	٤٩	٤٦	٤٦	٤٨	٥٠	٥٤	٥٩	٦٤	٦٧	٦٩	٧١	٧٢	٧٤
ديسمبر	٧٨	٨٠	٨٠	٧٩	٨١	٨٢	٨٢	٨١	٧٩	٧٠	٦٢	٥٦	٥٣	٥٢	٥٢	٥٤	٥٨	٦٤	٦٨	٧١	٧٣	٧٥	٧٦	٧٧

ويتم ايجاد مقياس إحساس الإنسان بالحرارة المؤثرة بمقارنة النتائج التي يتم التوصل إليها بتطبيق المعادلة أعلاه بالجدول رقم (٤) .

جدول (٤)

درجة الحرارة المؤثرة واحساس الإنسان بالحالة المناخية

حدود الحرارة المؤثرة	شعور الإنسان بالحالة المناخية
أقل من ١٥	بارد مزعج
١٥ -	انتقالي بارد غير مريح
١٧ -	مريح
٢٥ -	انتقالي دافئ غير مريح
٢٧ -	حار مزعج
٢٩ -	حار مرهق
٣٢ فأكثر	مرهق جدا وقد يتسبب في تأثيرات ضارة جدا بصحة العاملين وربما يؤدي إلى حدوث وفيات

نتائج البحث :

لقد تم استخراج معدلات الحرارة المؤثرة لجميع أشهر السنة ، كما تم استخراج قيم الحرارة المؤثرة لجميع ساعات الرصد اليومية ولجميع أشهر السنة ، وربط ذلك بإحساس الإنسان بالحالة المناخية ، إذ أن ذلك يعطي نتائج تطبيقية دقيقة في الكثير من المجالات الحيوية ، وأهم النتائج التي توصل إليها الباحث هي :

أولاً : الاختلاف الشهري لمعدلات الحرارة المؤثرة :

لقد تم تطبيق المعادلة السابقة على المعدلات الشهرية لحرارة الهواء والمعدلات الشهرية للرطوبة النسبية ، وتم استخراج المعدلات الشهرية للحرارة المؤثرة (جدول ٥) ، تمكن الباحث من الوصول إلى إحساس الإنسان بالحالة المناخية، وهي :

جدول (٥)

درجة الحرارة المؤثرة و احساس الانسان بالحالة المناخية في مدينة الدوحة

	يناير	فبراير	مارس	ابريل	مايو	يونيو	يوليو	اغسطس	سبتمبر	اكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
الحرارة المؤثرة	١٦,٣	١٧,٠	١٩,٥	٢٢,٨	٢٦,٤	٢٨,٤	٢٩,٧	٢٩,٩	٢٨,٩	٢٦,٢	٢٢,٣	١٨,١
احساس الانسان بالحالة المناخية	انتقالي بارد غير مريح	مريح	مريح	مريح	انتقالي دافيء غير مريح	حار مزعج	حار مرهق	حار مرهق	حار مزعج	انتقالي دافيء غير مريح	مريح	مريح

١- شهر يناير : يكون المناخ انتقاليا باردا غير مريح، وتصل درجة الحرارة المؤثرة ١٦٫٣ .

٢- أشهر فبراير ومارس وإبريل وديسمبر : يكون إحساس الإنسان بالحالة المناخية في هذه الأشهر مريحاً، وتتراوح درجة الحرارة المؤثرة في هذه الأشهر بين ١٧ في شهر فبراير و ٢٢٫٨ في شهر إبريل .

٣- شهرا مايو وأكتوبر : يكون الإحساس بالمناخ فيهما انتقاليا دافئا غير مريح، وتصل فيهما درجات الحرارة المؤثرة ٢٦٫٤ و ٢٦٫٢ على التوالي .

٤- شهرا يونيو وسبتمبر : يكون الإحساس بالمناخ فيهما حارا مزعجا، وتصل فيهما درجات الحرارة المؤثرة ٢٨٫٤ و ٢٨٫٩ علي التوالي .

٥- شهرا يوليو وأغسطس : يكون الإحساس بالمناخ فيهما حارا مرهقا، وتصل فيهما درجات الحرارة المؤثرة ٢٩٫٧ و ٢٩٫٩ على التوالي .

ثانياً : الاختلاف الساعي لمعدلات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية :

بالإضافة إلى التباين الشهري لمعدلات الحرارة المؤثرة ، تتباين معدلات الحرارة المؤثرة من ساعة لأخرى أثناء اليوم في جميع أشهر السنة ، ويتباين تبعا لذلك إحساس الإنسان بالحالة المناخية وذلك لاختلاف معدلات حرارة الهواء ورطوبته .

ولما كانت قيم الحرارة والرطوبة النسبية قد استخلصت استنادا إلى معدلات القراءات الساعية ، لذا فإننا سنحاول هنا تطبيق المعادلة آنفة الذكر على المعطيات المناخية الساعية لجميع أشهر السنة في محطة مطار الدوحة الدولي للفترة ١٩٦٢ - ١٩٩٥ ، وذلك لتوضيح أثر التغيير اليومي في معدلات حرارة الهواء ورطوبته على تغيير معدلات الحرارة المؤثرة وانعكاس ذلك على إحساس الإنسان بالحالة المناخية لكل ساعة من ساعات اليوم لجميع أشهر السنة .

بنظرة سريعة على الجدول (٦) ، والشكل (١) ، يمكن استنتاج ما يأتي :

جدول (٦)

المسار الساعي للدرجة الحرارة المؤلرة لجميع اشهر السنة في محطة مطار الدوحة الدولي بالتوقيت المحلي

الساعة / الشهر	٠	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
يناير	١٤,٨	١٤,٥	١٤,٢	١٤,١	١٣,٩	١٣,٧	١٣,٦	١٣,٦	١٤,٧	١٦,٢	١٧,٤	١٨,١	١٨,٥	١٨,٨	١٨,٧	١٨,٦	١٨,٠	١٧,٤	١٦,٨	١٦,٤	١٦,٠	١٥,٧	١٥,٤	١٥,١
فبراير	١٥,٦	١٥,٢	١٥,٠	١٤,٧	١٤,٦	١٤,٤	١٤,١	١٤,٦	١٥,٩	١٧,٢	١٨,٣	١٨,٩	١٩,٤	١٩,٦	١٩,٥	١٩,٣	١٨,٨	١٨,٢	١٧,٥	١٧,١	١٦,٧	١٦,٥	١٦,١	١٥,٩
مارس	١٨,٠	١٧,٨	١٧,٦	١٧,٢	١٧,٠	١٦,٩	١٦,٩	١٧,٨	١٨,٨	٢٠,٠	٢٠,٩	٢١,٥	٢١,٩	٢٢,٠	٢١,٩	٢١,٦	٢١,١	٢٠,١	٢٠,٠	١٩,٥	١٩,١	١٨,٨	١٨,٦	١٨,٣
ابريل	٢١,٤	٢١,١	٢٠,٩	٢٠,٥	٢٠,٤	٢٠,٢	٢٠,٤	٢١,٦	٢٢,٨	٢٣,٨	٢٤,٦	٢٥,٢	٢٥,٤	٢٥,٥	٢٥,٣	٢٥,٠	٢٤,٧	٢٤,١	٢٣,٦	٢٣,٢	٢٢,٧	٢٢,٣	٢٢,٠	٢١,٢
مايو	٢٥,١	٢٤,٧	٢٤,٤	٢٤,١	٢٤,٠	٢٣,٩	٢٤,٢	٢٥,٤	٢٦,٦	٢٧,٩	٢٨,٤	٢٩,٠	٢٩,٠	٢٩,٢	٢٩,٠	٢٨,٨	٢٨,٣	٢٨,٠	٢٧,٤	٢٦,٩	٢٦,٤	٢٦,٠	٢٥,٧	٢٥,٥
يونيو	٢٦,٦	٢٦,٢	٢٥,٩	٢٥,٦	٢٥,٦	٢٥,٥	٢٥,٩	٢٧,٠	٢٨,١	٢٩,٢	٢٩,٨	٣٠,١	٣٠,٧	٣٠,٨	٣٠,٨	٣٠,٤	٣٠,٣	٢٩,٩	٢٨,٧	٢٨,٢	٢٠,٨	٢٧,٦	٢٧,٣	٢٦,٩
يوليو	٢٨,٤	٢٨,٠	٢٧,٧	٢٨,٣	٢٧,٣	٢٧,٢	٢٧,٦	٢٨,٥	٢٩,٦	٣٠,٤	٣١,١	٣١,٦	٣١,٩	٣١,٩	٣١,٧	٣١,٤	٣١,٥	٣٠,٩	٣٠,٦	٣٠,١	٢٩,٧	٢٩,٤	٢٩,١	٢٨,٦
اغسطس	٢٨,٧	٢٨,٣	٢٨,٢	٢٧,٦	٢٨,٠	٢٧,٩	٢٨,٠	٢٩,١	٢٩,٨	٣٠,٦	٣١,٢	٣١,٧	٣١,٩	٣٢,٠	٣١,٩	٣١,٨	٣١,٥	٣١,٢	٣٠,٧	٣٠,٤	٣٠,٠	٢٩,٧	٢٩,٥	٢٩,٢
سبتمبر	٢٧,٦	٢٧,٢	٢٦,٧	٢٦,٦	٢٦,٤	٢٦,٣	٢٦,١	٢٧,١	٢٨,٧	٢٩,٧	٣٠,٣	٣٠,٧	٣٠,٩	٣٠,٩	٣٠,٨	٣٠,٧	٣٠,٥	٣٠,١	٢٩,٧	٢٩,٣	٢٩,١	٢٨,٧	٢٨,٤	٢٧,٩
اكتوبر	٢٤,٧	٢٤,٤	٢٤,٠	٢٤,٢	٢٣,٦	٢٣,٢	٢٣,٤	٢٣,٦	٢٦,١	٢٧,٢	٢٧,٧	٢٨,١	٢٨,٢	٢٨,٢	٢٨,١	٢٧,٩	٢٧,٦	٢٧,١	٢٦,٧	٢٦,٣	٢٦,٢	٢٦,٠	٢٥,٦	٢٥,٢
نوفمبر	٢٠,٨	٢٠,٤	٢٠,١	١٩,٩	١٩,٩	١٩,٨	١٩,٧	٢٠,٣	٢١,٧	٢٣,٠	٢٣,٩	٢٤,٣	٢٤,٦	٢٤,٧	٢٤,٦	٢٤,٣	٢٣,٤	٢٣,٢	٢٢,٨	٢٢,٤	٢٢,٢	٢١,٨	٢١,٥	٢١,٢
ديسمبر	١٦,٦	١٦,٣	١٦,٠	١٥,٨	١٥,٦	١٥,٣	١٥,٢	١٥,٦	١٧,٠	١٨,٤	١٩,٨	٢٠,١	٢٠,٦	٢٠,٧	٢٠,٦	٢٠,٤	١٩,٨	١٩,٢	١٨,٦	١٨,٢	١٧,٩	١٧,٦	١٧,٢	١٦,٩

شكل "١"

التباين الساعي لاحساس الانسان بالحالة المناخية بمدينة الدوحة

للفترة ١٩٦٢ - ١٩٩٥

Mth/Hr	00	01	02	03	04	05	06	07	08	09	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23
Jan																								
Feb																								
Mar																								
Apr																								
May																								
Jun																								
Jul																								
Aug																								
Sep																								
Oct																								
Nov																								
Dec																								

١- شهر يناير :

ويقسم اليوم إلى ثلاث فترات من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية ، وهي :

١-١ مناخ بارد مزعج : يمتد من الساعة ٠٠ - ٠٨ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تقل درجة الحرارة المؤثرة عن ١٥ .

١-٢ مناخ انتقالي بارد غير مريح : ويلاحظ في فترتين ، صباحية عند الساعة التاسعة صباحا حسب التوقيت المحلي ، ومسائية بين الساعة ١٨ - ٢٣ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٥ - ١٧ .

١-٣ مناخ مريح : ويمتد بين الساعة ١٠ - ١٧ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٧ - ٢٥ .

٢- شهر فبراير :

ويقسم اليوم إلى ثلاث فترات من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية ، وهي :

٢-١ مناخ بارد مزعج يمتد بين الساعة ٠٣ - ٠٧ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تقل درجة الحرارة المؤثرة عن ١٥ .

٢-٢ مناخ انتقالي بارد غير مريح : ويلاحظ في فترتين ، صباحية عند الساعة الثامنة صباحا حسب التوقيت المحلي ، ومسائية بين الساعة ٢٠ - ٠٢ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٥ - ١٧ .

٢-٣ مناخ مريح : ويمتد بين الساعة ٠٩ - ١٩ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٧ - ٢٥ .

٣- شهر مارس :

ويقسم اليوم من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية إلى فترتين هما :

٣-١ مناخ انتقالي بارد غير مريح : ويمتد بين الساعة ٠٥ - ٠٦ صباحا حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٥ - ١٧ .

٣-٢ مناخ مريح : ويمتد بين الساعة ٠٧ - ٠٤ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٧ - ٢٥ .

٤- شهر إبريل :

ويقسم اليوم من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية إلى فترتين هما :

٤-١ مناخ مريح : ويمتد بين الساعة ١٦ - ١٠ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٧ - ٢٥ .

٤-٢ مناخ انتقالي دافئ غير مريح : ويمتد بين الساعة ١١ - ١٥ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٥ - ٢٧ .

٥- شهر مايو :

ويقسم اليوم إلى أربع فترات من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحسان الإنسان بالحالة المناخية ، وهي :

٥-١ مناخ مريح : ويمتد بين الساعة ٠١ - ٠٦ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٧ - ٢٥ .

٥-٢ مناخ انتقالي دافئ غير مريح : ويلاحظ في فترتين صباحية بين الساعة ٠٧ - ٠٨ حسب التوقيت المحلي ، ومسائية بين الساعة ١٩ - ٠٠ ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٥ - ٢٧ .

٥-٣ مناخ حار مزعج : ويلاحظ في فترتين ، صباحية بين الساعة ٠٩ - ١٠ حسب التوقيت المحلي ، ومسائية بين الساعة ١٥ - ١٨ ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٧ - ٢٩ .

٥-٤ مناخ حار مرهق : ويمتد بين الساعة ١١ - ١٤ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٩ - ٣٢ .

٦- شهر يونيو :

ويقسم اليوم إلى ثلاث فترات من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية ، وهي :

٦-١ مناخ انتقالي دافئ غير مريح : ويمتد بين الساعة ٢٣ - ٠٦ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٥ - ٢٧ .

٦-٢ مناخ حار مزعج : ويلاحظ في فترتين ، صباحية بين الساعة ٠٧ - ٠٨ حسب التوقيت المحلي ، ومسائية بين الساعة ١٧ - ٢٢ ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٧ - ٢٩ .

٦-٣ مناخ حار مرهق : ويمتد بين الساعة ٠٩ - ١٧ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٩ - ٣٢ .

٧- شهر يوليو :

ويقسم اليوم من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية إلى فترتين هما :

٧-١ مناخ حار مزعج : ويمتد بين الساعة ٢٣ - ٠٧ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٧ - ٢٩ .

٧-٢ مناخ حار مرهق : ويمتد بين الساعة ٠٨ - ٢٢ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٩ - ٣٢ .

٨- شهر أغسطس :

ويقسم اليوم إلى ثلاث فترات من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية ، وهي :

٨-١ مناخ حار مزعج : ويمتد بين الساعة ٠٠ - ٠٦ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٧ - ٢٩ .

٨-٢ مناخ حار مرهق : ويلاحظ في فترتين ، صباحية بين الساعة ٠٧ - ١٢ حسب

التوقيت المحلي ، ومسائية بين الساعة ١٤ - ٢٣ ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٩ - ٣٢ .

٨-٣ مناخ حار مرهق جدا : ويلاحظ عند الساعة ١٣ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تزيد درجة الحرارة المؤثرة عن ٣٢ .

٩- شهر سبتمبر :

ويقسم اليوم إلى ثلاث فترات من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية ، وهي :

٩-١ مناخ انتقالي دافئ غير مريح : ويمتد بين الساعة ٠٢-٠٦ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٥ - ٢٧ .

٩-٢ مناخ حار مزعج : ويلاحظ في فترتين ، صباحية بين الساعة ٠٧ - ٠٨ حسب التوقيت المحلي ، ومسائية بين الساعة ٢١ - ٠١ ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٧ - ٢٩ .

٩-٣ مناخ حار مرهق : ويمتد بين الساعة ٠٩ - ٢٠ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٩ - ٣٢ .

١٠- شهر أكتوبر :

ويقسم اليوم إلى ثلاث فترات من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية ، وهي :

١٠-١ مناخ مريح : ويمتد بين الساعة ٠٠ - ٠٧ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٧ - ٢٥ .

١٠-٢ مناخ انتقالي دافئ غير مريح : ويلاحظ في فترتين صباحية عند الساعة ٠٨ حسب التوقيت المحلي ، ومسائية بين الساعة ١٨ - ٢٣ ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٥ - ٢٧ .

١٠-٣ مناخ حار مزعج : ويمتد بين الساعة ٠٩ - ١٧ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ٢٧ - ٢٩ .

١١- شهر نوفمبر :

ويكون مريحا في جميع ساعات اليوم من حيث إحساس الإنسان بالحالة المناخية ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٧ - ٢٥ .

١٢- شهر ديسمبر :

ويقسم اليوم من حيث درجات الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية إلى فترتين هما :

١٢-١ مناخ انتقالي بارد غير مريح : ويمتد بين الساعة ٢٣ - ٠٧ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٥ - ١٧ .

١٢-٢ مناخ مريح : ويمتد بين الساعة ٠٨ - ٢٢ حسب التوقيت المحلي ، وفيه تتراوح درجة الحرارة المؤثرة بين ١٧ - ٢٥ .

الاستنتاجات :

تعد الحرارة المؤثرة من بين أبرز مقاييس شعور الإنسان بالحالة المناخية لأنها توضح علاقة المناخ التفصيلي بالحالة النفسية للإنسان وشعوره بالراحة أو الانزعاج ، إلا أن أبرز عيوبها إهمالها للظروف الجوية خارج المباني واعتمادها على تمثيل شعور الناس داخل المباني ، ذلك أن لسرعة الرياح دوراً في خفض معدلات الحرارة المؤثرة ، وأن وجود الرياح يساعد على تقبل درجة حرارة مؤثرة أعلى منها في حالة السكون .

لقد استطعنا تقسيم الوقت الكلي لمدينة الدوحة وفق إحساس الإنسان بالحالة المناخية إلى :

١- المناخ المرهق جدا : يشكل هذا المناخ ٤ر٠ بالمائة من الوقت الكلي ، إذ لا يظهر إلا في الساعة ١٣ حسب التوقيت المحلي في شهر أغسطس .

٢- المناخ المرهق : يصل مجموع عدد الساعات التي يظهر فيها هذا المناخ ٥٦ ساعة ، تشكل ٤ر١٩ بالمائة من إجمالي الوقت الكلي ، إذ يلاحظ هذا المناخ في ٤ ساعات في شهر مايو ، و ٩ ساعات في شهر يونيو ، و ١٥ ساعة في شهر يوليو،

و ١٦ ساعة في شهر أغسطس ، و ١٢ ساعة في شهر سبتمبر .

٣- المناخ الحار المزعج : يصل مجموع عدد الساعات التي يظهر فيها هذا المناخ ٤٥ ساعة ، تشكل ٦ر١٥ بالمائة من إجمالي الوقت الكلي ، إذ يلاحظ هذا المناخ في ٦ ساعات في شهر مايو ، و ٧ ساعات في شهر يونيو ، و ٩ ساعات في شهر يوليو ، و ٧ ساعات في شهر أغسطس ، و ٧ ساعات في شهر سبتمبر ، و ٩ ساعات في شهر أكتوبر .

٤- المناخ الانتقالي الدافئ غير المريح : يصل مجموع عدد الساعات التي يظهر فيها هذا المناخ ٣٣ ساعة ، تشكل ٥ر١١ بالمائة من إجمالي الوقت الكلي ، إذ يلاحظ هذا المناخ في ٥ ساعات في شهر إبريل ، و٨ ساعات في شهر مايو ، و٨ ساعات في شهر يونيو ، و٥ ساعات في شهر سبتمبر ، و٧ ساعات في شهر أكتوبر .

٥- المناخ المريح : يصل مجموع عدد الساعات التي يظهر فيها هذا المناخ ١١٣ ساعة، تشكل ٢ر٣٩ بالمائة من إجمــالي الوقت الكلي ، إذ يلاحظ هذا المناخ في ٨ ساعات في شهر يناير ، و١١ ساعة في شهر فبراير ، و٢٢ ساعة في شهر مارس ، و١٩ ساعة في شهر إبريل ، و٦ ساعات في شهر مايو ، و٨ ساعات في شهر أكتوبر ، وطول ساعات اليوم في شهر نوفمبر ، و١٥ ساعة من ساعات اليوم في شهر ديسمبر .

٦- المناخ الانتقالي البارد غير المريح : ويصل مجموع عدد الساعات التي يظهر فيها هذا المناخ ٢٦ ساعة ، تشكل ٩ بالمائة من الوقت الكلي في مدينة الدوحة ، إذ يلاحظ هذا المناخ في ٧ ساعات في شهر يناير ، و٨ ساعات في شهر فبراير ، وساعتان في شهر مارس ، و٩ ساعات في شهر ديسمبر .

٧- المناخ البارد المزعج : ويصل مجموع عدد الساعات التي يلاحظ فيها هذا المناخ ١٤ ساعة ، تشكل ٩ر٤ بالمائة من إجمــالي الوقت الكلي لمدينة الدوحة ، إذ يلاحظ هذا المناخ في ٩ ساعات في شهر يناير ، و٥ ساعات في شهر فبراير .

وبهذا يحتل المناخ المريح المرتبة الأولى من حيث الوقت في مدينة الدوحة بنسبة تصل إلى ٢ر٣٩ بالمائة من إجمالي الوقت الكلي ، يليه المناخ الحار المرهق والذي يحتل

١٩٫٤ بالمائة من الوقت الكلي ، ثم المناخ الحار المزعج بنسبة ١٥٫٦ بالمائة من الوقت الكلي ، ثم المناخ الانتقالي الدافئ غير المريح بنسبة ١١٫٥ بالمائة من الوقت الكلي ، فالمناخ الانتقالي البارد غير المريح بنسبة ٩ بالمائة من الوقت الكلي ، والمناخ البارد المزعج بنسبة ٤٫٩ بالمائة من الوقت الكلي ، ويشكل المناخ المرهق جداً أقصر الأوقات في مدينة الدوحة إذ لا يحتل سوى ٠٫٤ بالمائة من إجمالي الوقت الكلي لمدينة الدوحة.

ولابد أن نشير إلى أن نتائج هذا البحث مبنية على معدلات درجة حرارة الهواء والرطوبة النسبية للفترة ١٩٦٢- ١٩٩٥ ، لذا فان درجة الحرارة المؤثرة وإحساس الإنسان بالحالة المناخية قد يختلف قليلاً من سنة لأخرى تبعاً لمعدلات حرارة الهواء والرطوبة النسبية .

إن النتائج التي توصل إليها الباحث تعد مهمة في الكثير من المجالات التطبيقية، كتحديد أفضل الأوقات للسياحة وتقليل التخمين في هذا المجال ، ولمعرفة أفضل الأوقات لتكييف الهواء .

مصادر البحث :

أولاً : العربية :

١- أناتولي رعشا ، ١٩٧٧ ، تخطيط وبناء المدن في المناطق الحارة ، ترجمة داود سليمان المنير ، دار مير للطباعة والنشر ، موسكو .

٢- محمد جمال الفندي ، ١٩٧٥ ، الأرصاد الجوية، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة .

٣- محمد عزو صفر ، ١٩٨٤، المناخ والحياة ، مطابع الوطن ، الكويت .

٤- نعمان شحاذة ، ١٩٨٣ ، المناخ العملي ، دار النور النموذجية ، عمان .

٥- نعمان شحاذة ، ١٩٨٥ ، التقلبات قصيرة المدة لدرجة الحرارة الفعالة في مدينة الشارقة ، مجلة دراسات ، الجامعة الأردنية ، المجلد ١٤ ، العدد ١ .

ثانياً : الأجنبية :

1 - Elsom, D. M., 1984, LOS ANGELES SMOG THREATENS 1984 OLYMPIC GAMES, Weather, Vol. 39, No. PP. 200-207 .

2 - Gregorczuk, M., K., 1967, Distribution of effective temperature over the surfasce of the earth . International Journal of Biometeorology, Vol. 11, PP. 145-149 .

3 - Mcgain, E.S., 1988, Summer index-Isle of man , Weather, Vol. 43, No. 5, PP. 182-186 .

4 - Stephenson, P. M., 1963, An index of comfort for Singapore, Magazine, Vol. 92, PP. 338-345 .

5 - Terjung, W. H., Phvsiologic climates of the conterminous United States : A bioclimatic classification based on man, Annals association of American Geographers, Vol. 56 .

6 - Thornes, J. E., 1977, The effect of weather on sport, Weather, Vol. 32, No. 7, PP. 258-267 .

7 - Tout, D. G., 1977, Effective temperature and the hot spell of Junne-July 1976, Weather, Vol. 32.

8 - Turner, A. E., 1978, Discomfort in Bahrain, Weather, Vol. 33, No. 9, PP. 334-338 .

نظرة إلى مؤشرات التخلف في البلدان النامية والوطن العربي

أ.د. محمد عبد الحميد الحمادي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

مقدمــة :

ينقسم عـالم اليوم إلى معـسكرين : يضم الأول البلدان المتقدمـة المحدودة الرقعة والسكان والتي تهيمن على مقدرات العالم السياسية والاقتصادية والتقنية ، بينما يضم المعسكر الثاني البلدان النامية التي يعيش فيها أكثر من ٨٠٪ من سكان العالم، ولكنها مازالت تئن تحت وطأة التخلف والتبعية .

يشغل موضوع التخلف اهتمامات أعداد متزايدة من المفكرين والباحثين في كلا المعسكرين ، بحثاً عن أسباب هذه الظاهرة ، وإجتهاداً في رسم الخطط وتبيان سبل الخلاص منها .

يعد هذا البحث مساهمة متواضعة ، يلقي نظرة فاحصة على ظاهرة التخلف في البلدان النامية ، بما فيها البلدان العربية ، في وقت تتسع فيه الهوة بين الأغنياء والفقراء . ويرمي هذا البحث ، من بين أهدافه ، إلى تفنيد بعض الآراء المضللة التي ترجع أسباب التخلف إلى عوامل ذاتية في البلدان النامية ، وكأن التخلف سمة طبيعية في هذه البلدان لا مفر منها .

إن التخلف ظاهرة مركبة ، متعددة الوجوه ، متنوعة الأسباب ، وذات نتائج خطيرة متفاوتة التأثير . لذلك فالمنهج الجيوبوليتكي المتبع في هذا البحث هو خير ما

يساعد على إبراز العلاقات الموجودة بين العوامل الجغرافية والظاهرات السياسية ، لأن القرارات السياسية لا يمكن فهمها إلا في إطارها المكاني . وهذا يعني أنه ينبغي على الجغرافي في مواجهة هذه الظاهرة المركبة أن يهتم بصورة أساسية بالحقائق التاريخية والاقتصادية والسياسية في واقعها المكاني الذي نمت فيه . ولاشك أن هذا المنهج يحتاج إلى الملاحظة العلمية الفاحصة ، والتحليل الدقيق ، والاستقراء الواعي من أجل التوصل إلى التشخيص السليم للظاهرة ومن ثم محاولة وصف العلاج المناسب للخروج من دوامة الفقر والتبعية .

ويستعرض هذا البحث ، من خلال الدلالات الإحصائية ، بعض التباينات بين البلدان النامية والبلدان العربية من جهة والبلدان المتقدمة من جهة ، في مجالات متعددة ، توضح الفروق والإنجازات وخاصة في النواحي الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية . مع النظر إلى عناصر الموضوع كوحدة مترابطة متبادلة التأثير في جوانبها الإيجابية والسلبية .

مفهوم التخلف :

في عالم اليوم ، عالم المدنية والحضارة ، نلاحظ إنقسام دول العالم إلى فئتين متجاورتين جغرافياً ، مفترقتين مادياً وحضارياً . فدول المجموعة الأولى وصلت إلى مرحلة الاستهلاك الضخم والوفرة المطلقة والهيمنة العسكرية والسياسية ، مع أن مساحتها لا تزيد عن ٢٨٫٣٪ من مساحة القارات المعمورة من الكرة الأرضية ، وعدد سكانها لا يتجاوز ١٧٪ من سكان هذا العالم في عام ١٩٩٤م .

أما دول المجموعة الثانية هي عبارة عن مساحات واسعة من الفقر والجوع وسوء التغذية (٧١٫٧٪ من مساحات القارات المعمورة) ، بل أنها تمثل حالة البؤس التي يعيش عليها نحو ٨٣٪ من سكان هذا العالم .

لقد أصبح التخلف منذ نحو نصف قرن ، حقيقة يومية صارخة ، ومتسلطة ومهيمنة . وقد ظهر تعبير " التخلف Sous-developpement " لأول مرة مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، ولكنه ما لبث أن برز بوضوح على المسرح الدولي ،

فخصصت له الأمم المتحدة مؤتمرات وبيانات في سنتي ١٩٤٨م ، و ١٩٤٩م ، في الوقت الذي أعلن الرئيس الأمريكي ترومان في خطاب ترشيحه في ٢٠ يناير ١٩٤٩م عن برنامج عام لمساعدة الدول الفقيرة ، في الوقت الذي دمرت فيه الحرب الاستعمارية الكبرى مساحات كبيرة من العالم ، وقتلت الملايين من المدنيين والعسكريين ، وصودرت فيها خيرات ومنتجات الدول المستعمرة المغلوبة على أمرها .

وهكذا بدأت فكرة تنمية الدول الفقيرة تنتشر على صعيدين مختلفين ولكنهما متكاملان : فمن الناحية الأولى أصبحت المشكلة أكثر تحديداً ووضوحاً وتفسيراً عن طريق عدد من الدراسات والمؤلفات في مجالات علمية مختلفة ، اقتصادية وجغرافية واجتماعية وسياسية ، إلى الحد الذي يمكن معه التأكيد على أن التنمية هي دون شك الموضوع الخصب الذي تولدت عنه الكتابات الأكثر وفرة . فقد نوقشت مسألة التخلف والتنمية بواسطة أبرز باحثي العصر مثل : روستو ، وميردال ، وسوفي ، وبتلهايم ، ودي كاسترو ، وديمون ... إلخ) .

وبفضل كتابات هؤلاء وآخرين غيرهم شاع استخدام كثير من المفاهيم الأساسية حتى أوشكت على أن تصبح جزءاً من الثقافة العالمية والضمير الجماعي . ومن هذه المفاهيم مثلاً : شيوع المجاعة والبؤس ، أخطار التضخم الديموغرافي ، الأمية والتأخر التقني ، مدن الصفيح ، مستقبل الطفولة المظلم .

ومن ناحية أخرى فقد حذرت المحافل الدولية من زيادة خطورة الموقف الذي تمخض عن قوة متزايدة لجبهة الدول الفقيرة الذي بدأ تكوينها في عام ١٩٥٥ في مؤتمر باندونغ . وقد أوصت منظمة الأمم المتحدة ومكاتبها (Cnuced, Pnud, Unicef, Fao)[١] بتخصيص الفترة الممتدة من عام ١٩٦٠م إلى عام ١٩٧٠م كعقد للتنمية ، وأن تخصص الدول الغنية كل عام ١٪ على الأقل من مجموع دخولها القومية لمساعدة الدول الفقيرة .

لكن الدول الغنية لم تف بوعودها إلا خلال فترة قصيرة امتدت من عام ١٩٦٠م إلى عام ١٩٦٤م . ومع هذه المساعدة المتواضعة لم يحصل تخفيف لمشاكل الفقر

والجوع ، ومظاهر التخلف الأخرى ، بل تراجعت الدول الغنية عن تقديم مساعداتها دون أن يكون هناك من يحاسبها ، فهي تعطي وتمنع ، وهي الآمر والناهي ، ومتى كانت القوة الغاشمة المتسلطة عوناً للضعفاء والجياع ؟!

يتفق العالم على تسمية مجموعة من الدول تضم دول أمريكا الشمالية غير اللاتينية ودول أوربا واليابان وأستراليا ونيوزلندة بالعالم الصناعي أو المتقدم أو الغني. ومن هذا التعبير تم إيجاد تعابير مختلفة تميز بقية أنحاء العالم مثل : العالم الثالث ، أو المتخلف ، أو النامي أو اللاصناعي ، أو الفقير ... إلخ[٢] . وقد تعرض مفهوم العالم الثالث ، لنقد شديد من كل الباحثين سواء من الناحية النظرية أو تبعاً لصعوبة استخدامه . وقد أبتكر هذا المفهوم في عام ١٩٥٦م (الفرد سوفي A.Sauvy) في أعقاب مؤتمر باندونغ ليعبر عن التجانس الظاهري بين الدول المتخلفة، وذلك من زاويتين لازالتا مبهمتين وغير مؤكدتين : أولاهما مقارنة العالم النامي بالكتلتين الكبيرتين : الرأسمالية والشيوعية ، وثانيهما التشبيه بتعبير "الدولة الثالثة " الذي كان مستخدماً في عام ١٧٨٩م لتأكيد الأهمية الكمية والنوعية لسكان الدولة في مقابل طبقتي النبلاء والكهنة .

أما تعبير العالم المتخلف فيتفق مع عدم الاستغلال الأمثل لكل الموارد الاقتصادية والبشرية المتاحة في الدولة أو مع حالة تراكم غير كاف لرأس المال . غير أن هذا التعريف يواجه صعوبات في استخدامه ذلك لأن المثالية والنموذجية في الاستغلال ليست حقيقة علمية مجردة ، بل ينبغي مقارنتها بحالات استغلال أخرى ، وبالتحديد مقارنتها باستغلال الموارد في العالم الصناعي المتقدم ، ومن هنا فإن ما يميز هذا المفهوم إن هو إلا اختلاف في درجة التطور[٣] .

وقد أراد كثير من الباحثين أن يتعمقوا إلى أبعد من هذا المفهوم المبسط بعد أن انتقدوه بشدة . فالنظرة إلى دول العالم المختلفة على اعتبار أن كلا منها يشغل مرتبة متقدمة أو متأخرة في سباق التنمية الاقتصادية والاجتماعية هي في الواقع نظرة اصطناعية للأمور . وعلى ذلك فإن المعايير الإحصائية كمتوسط دخل الفرد لا تكفي

والاقتصادي ، والكيفية التي تنتشر بها هذه الظاهرة في كل المجتمع ، أو في بعض أجزائه ، والتقنين أو التخطيط اللذين تلقاهما هذه الظاهرة من أجل الإشباع الجماعي للحاجيات الأساسية . والواقع أن الاستخدام الصحيح لتعبير " التنمية Development " يفترض توصيف نتائج " التوسع Expansion " أو " النمو Croissance " في البحث عن إعادة توزيع أفضل وعن المساواة الاجتماعية في ضوء هدف نهائي هو " التقدم الشامل Avancement global "[٥] .

ويرى العالم الاقتصادي الشهير " سيمون كوزنيتس Simon Kuznets " أن مفهوم التخلف يحمل ثلاثة معان :

فالمعنى الأول يدل على قلة الاستفادة من القدرة الانتاجية التي يتيحها استخدام الطرق الفنية والتكنولوجية الحديثة ، بسبب المقاومة الشديدة التي تبديها المؤسسات الاجتماعية في وجه مثل هذا الاستخدام .

والمعنى الثاني يفيد بأن التخلف يحمل معنى ضعف الأداء الاقتصادي في الدولة المتخلفة مقارنة بأكثر الدول تقدماً في فترة معينة .

أما المعنى الثالث للتخلف فهو حالة الفقر التي يعيشها البلد المتخلف والمتمثلة بعدم قدرته على ضمان الحد الأدنى من الرفاهية المادية لمعظم السكان[٦] .

وهكذا فأن التخلف في رأي (كوزنيتس) يمثل حالة فقر مادي بالمعنى المطلق والنسبي، وعجز المؤسسات الإجتماعية عن إستخدام الطرق والأساليب الفنية والتكنولوجية الحديثة . أي إن هذا العالم يضيف حالة راهنة دون البحث عن الأسباب البعيدة والقريبة لظاهرة التخلف ، وإنما أكتفى بإلقاء اللوم على البنية الإجتماعية في البلدان المتخلفة والتي ترفض التحديث ، فهي المسئولة عما هي عليه من التردي والفقر.

ويرى باحثون آخرون عرفوا بإهتمامهم بمفهوم التبعية الإقتصادية (La dependence economique) أنه من غير الممكن تعريف التخلف بمعزل عن أسبابه التاريخية المتعلقة بدور الاستعمار الغربي الذي خلق حالة التبعية التي تعيشها

والاقتصادي ، والكيفية التي تنتشر بها هذه الظاهرة في كل المجتمع ، أو في بعض أجزائه ، والتقنين أو التخطيط اللذين تلقاهما هذه الظاهرة من أجل الإشباع الجماعي للحاجيات الأساسية . والواقع أن الاستخدام الصحيح لتعبير " التنمية Development " يفترض توصيف نتائج " التوسع Expansion " أو " النمو Croissance " في البحث عن إعادة توزيع أفضل وعن المساواة الاجتماعية في ضوء هدف نهائي هو " التقدم الشامل Avancement global "[٥] .

ويرى العالم الاقتصادي الشهير " سيمون كوزنيتس Simon Kuznets " أن مفهوم التخلف يحمل ثلاثة معان :

فالمعنى الأول يدل على قلة الاستفادة من القدرة الانتاجية التي يتيحها استخدام الطرق الفنية والتكنولوجية الحديثة ، بسبب المقاومة الشديدة التي تبديها المؤسسات الاجتماعية في وجه مثل هذا الاستخدام .

والمعنى الثاني يفيد بأن التخلف يحمل معنى ضعف الأداء الاقتصادي في الدولة المتخلفة مقارنة بأكثر الدول تقدماً في فترة معينة .

أما المعنى الثالث للتخلف فهو حالة الفقر التي يعيشها البلد المتخلف والمتمثلة بعدم قدرته على ضمان الحد الأدنى من الرفاهية المادية لمعظم السكان[٦] .

وهكذا فأن التخلف في رأي (كوزنيتس) يمثل حالة فقر مادي بالمعنى المطلق والنسبي، وعجز المؤسسات الإجتماعية عن إستخدام الطرق والأساليب الفنية والتكنولوجية الحديثة . أي إن هذا العالم يضيف حالة راهنة دون البحث عن الأسباب البعيدة والقريبة لظاهرة التخلف ، وإنما أكتفى بإلقاء اللوم على البنية الإجتماعية في البلدان المتخلفة والتي ترفض التحديث ، فهي المسئولة عما هي عليه من التردي والفقر.

ويرى باحثون آخرون عرفوا بإهتمامهم بمفهوم التبعية الإقتصادية (La dependence economique) أنه من غير الممكن تعريف التخلف بمعزل عن أسبابه التاريخية المتعلقة بدور الاستعمار الغربي الذي خلق حالة التبعية التي تعيشها

طويلة ، دون أن يترك وراءه سوى الجهل والتخلف والتبعية التي تغذي أشكالاً من الاستعمار .

لقد أصبح العالم يعي أكثر من الماضي إن معظم الحروب والثورات في عصرنا هذا ترجع إلى وجود فجوة التخلف السحيقة التي تفصل بين (الذين يملكون) و(الذين لا يملكون) . كما أدركت شعوب الدول النامية مدى عمق فجوة التخلف هذه ، وساعدها على هذا الإدراك وسائل الإعلام والاتصالات الحديثة وعليه فقد أتضح إنه لا يمكن بناء سلام عالمي ، واستقرار دولي ، ما لم تردم أو على الأقل تقلص هذه الفجوة وبشكل متدرج .

وأخيراً فأن ظهور النظام الإشتراكي في العالم ، وما حققه من إنجازات إقتصادية ضخمة وسريعة نسبياً ، وخاصة خلال فترة الخمسينات والستينات وإحتدام الحرب الباردة وحملات التوعية التي قادها النظام الإشتراكي لتأليب البلدان النامية ضد النظام الرأسمالي والاستعماري المستغل ، أوجد تحديات كبيرة للنظام الرأسمالي الذي فشلت قوانينه ونظرياته في تعميم الرخاء والتقدم على شعوب العالم ، كما تتنبأ بذلك الكثيرون من منظريه . وهذا التحدي الجديد دفع بالكثير من علماء الاقتصاد الغربيين لمراجعة نظرياتهم التقليدية أملاً في إكتشاف مواطن الضعف فيها وتصحيحها ، أو باستبدالها بنظريات أكثر ملائمة لظروف الدول المتخلفة ، ولطبيعة علاقاتها بالدول المتقدمة[٩] .

وبعد إنهيار الاتحاد السوفيتي والأنظمة الإشتراكية الدائرة في فلكه انزاح عن صدر النظام الرأسمالي المستغل أثقل حمل صادفه في تاريخه ، فبدأ في تأسيس أسس إستغلال العالم . ومن أهم الأسلحة التي شهرتها الولايات المتحدة وحليفاتها من دول الغرب هو سلاح الحصار الاقتصادي الجزئي أو الكلي ، الذي يستخدم ضد أي نظام أو أي دولة من الدول النامية لا تسير عقائدياً أو عملياً حسب ما تتطلبه مصلحة الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين ، كما هو الحال في حصار العراق وإيران والسودان وليبيا وكوبا ونيجيريا عدا الحصار غير المعلن والذي تمارسه على بعض دول عربية وإسلامية

عديدة . كما أصبحت دول الغرب هذه وشركاتها تتحكم بصورة وقحة وشبه مطلقة في أسعار منتجات الدول النامية الداخلة في التجارة الدولية كالبترول وخامات المعادن والمنتجات الزراعية ، بينما أطلقت العنان لأسعار المنتجات الغذائية ومنتجات الصناعات المعدنية والكهربائية وغيرها ، التي تنتجها مصانعها وتغرق بها أسواق العالم.

أسباب التخلف :

ليس من اليسير تقديم عرض واضح للتفسيرات المختلفة لظاهرة التطور غير المتوازن بين دول متقدمة ودول متخلفة ، وذلك لثلاثة أسباب رئيسية :

أولها : صعوبة توضيح المشكلة عند كثير من الباحثين أو على الأقل صعوبة تمييزها تميزاً محدداً حتى في حالة وجود مفهوم شخصي للمشكلة .

وثانيها : تقويم الموضوع خاصة عند الاقتصاديين بمنهج ثنائي متعمد تظهر فيه الإيجابيات بنفس القدر الذي تظهر به السلبيات ، وذلك في سبيل إعطاء المزيد من القيمة للآراء المهمة .

وثالثها : احتواء معظم الدراسات على جرعة مركبة وعلاقات إرتباطية معقدة لمختلف الآراء التي تعتبر محتوياتها متراكبة ومتكاملة في الواقع العملي . ومن أجل تسهيل عرض الموضوع يمكن أن ندرج أسباب التخلف في المجموعات التالية :

١- دور الجغرافيا والبيئة :

حاول بعض علماء الجغرافيا والبئية أن يربط بين التقدم والتخلف وعوامل البيئة والمناخ والموارد الطبيعية ويكفي أن نتذكر هنا تعبير (القدرية المدارية) التي كتب عنها الجغرافيون الأوائل أمثال همبولدت وراتزل أو بطريقة أكثر وضوحاً في التعبير (سوء الحظ الجغرافي) على حد تعبير (غورو P. Gourou) .

ويقول علماء الجغرافيا من أنه ليس على سبيل الصدفة أن تحتل الدول المتخلفة الجنوب الحار من الكرة الأرضية ، في حين أن الدول الصناعية المتقدمة تحتل الشمال

عديدة . كما أصبحت دول الغرب هذه وشركاتها تتحكم بصورة وقحة وشبه مطلقة في أسعار منتجات الدول النامية الداخلة في التجارة الدولية كالبترول وخامات المعادن والمنتجات الزراعية ، بينما أطلقت العنان لأسعار المنتجات الغذائية ومنتجات الصناعات المعدنية والكهربائية وغيرها ، التي تنتجها مصانعها وتغرق بها أسواق العالم.

أسباب التخلف :

ليس من اليسير تقديم عرض واضح للتفسيرات المختلفة لظاهرة التطور غير المتوازن بين دول متقدمة ودول متخلفة ، وذلك لثلاثة أسباب رئيسية :

أولها : صعوبة توضيح المشكلة عند كثير من الباحثين أو على الأقل صعوبة تمييزها تميزاً محدداً حتى في حالة وجود مفهوم شخصي للمشكلة .

وثانيها : تقويم الموضوع خاصة عند الاقتصاديين بمنهج ثنائي متعمد تظهر فيه الإيجابيات بنفس القدر الذي تظهر به السلبيات ، وذلك في سبيل إعطاء المزيد من القيمة للآراء المهمة .

وثالثها : احتواء معظم الدراسات على جرعة مركبة وعلاقات إرتباطية معقدة لمختلف الآراء التي تعتبر محتوياتها متراكبة ومتكاملة في الواقع العملي . ومن أجل تسهيل عرض الموضوع يمكن أن ندرج أسباب التخلف في المجموعات التالية :

١- دور الجغرافيا والبيئة :

حاول بعض علماء الجغرافيا والبئية أن يربط بين التقدم والتخلف وعوامل البيئة والمناخ والموارد الطبيعية ويكفي أن نتذكر هنا تعبير (القدرية المدارية) التي كتب عنها الجغرافيون الأوائل أمثال همبولدت وراتزل أو بطريقة أكثر وضوحاً في التعبير (سوء الحظ الجغرافي) على حد تعبير (غورو P. Gourou) .

ويقول علماء الجغرافيا من أنه ليس على سبيل الصدفة أن تحتل الدول المتخلفة الجنوب الحار من الكرة الأرضية ، في حين أن الدول الصناعية المتقدمة تحتل الشمال

المعتدل المناخ ٠ إذ لا بد أن توجد علاقة سببية بين طبيعة المناخ ودرجة التخلف أو التقدم الإقتصادي والاجتماعي ويمكن أن نسوق هنا مقارنات (هنتنجتون) التي تثير الجدل بين المناخ (المنشط للطاقة) في المناطق المعتدلة والمناخ (المبدد للطاقة) في المناطق الجنوبية الذي تغذيه الحرارة الشديدة والمستمرة والرطوبة العالية مما يؤدي إلى إنتشار الأمراض المدارية المستوطنة بالإضافة إلى الأمطار الفجائية التي تؤدي إلى تعرية التربية وتجريدها من المواد العضوية والمعدنية ، وتغطيها باللاتريت ٠ ويعتبر (ب ٠ غورو) إن الكثافة المنخفضة والندرة في السكان التي تميز المناطق المدارية إلى حد كبير هي نتيجة لإرتباط بين المستوى الحضاري والتربة ، وخاصة بعد القطع العشوائي للغابات وعلى الرغم من احتواء الآراء الجغرافية على بعض الحقائق المفيدة فهناك كثير من الإستثناءات المتناقضة مثل وجود بلدان متخلفة تتمتع بمناخات معتدلة ساعدتها في وقت من الأوقات في أن تكون مهداً للحضارة والتقدم ، كما هو الحال في بلاد الرافدين والشام ، ووادي النيل واليونان وأحواض الأنهار الصينية الوسطى والشمالية وبلاد إيران ٠٠٠ إلخ ٠

ويذهب بعض الجغرافيين إلى القول بأن الدول المتخلفة ليست فقط ذات مناخ حار رطب بل تفتقر أيضاً في معظم الأحيان إلى الموارد الطبيعية التي تتطلبها عملية التنمية الإقتصادية ٠ ويعطون الولايات المتحدة كمثال لعبت ثرواتها الطبيعية الهائلة العامل الرئيسي والمحرك لتنميتها السريعة ٠

أن هذا القول يحوى كثير من المغالطة فإلى جانب وجود دول متخلفة فقيرة بمواردها الطبيعية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية يوجد الكثير من البلدان النامية التي تمتلك موارد طبيعية هائلة تستغلها شركات أجنبية ، أو لا تزال بدون إستغلال كما هو الحال في البرازيل والأرجنتين والصين والهند والجزائر والعراق وزائير ونيجيريا والسعودية ٠٠٠ وبالمقابل توجد دول متقدمة لا تملك إلا القليل من الموارد الطبيعية مثل سويسرا وهولندا وإنجلترا واليابان ٠

وأخيراً نقول ، أن للمناخ والموارد الطبيعية دوراً هاماً في عملية التنمية

الإقتصادية . ولكن بعض الإقتصاديين وعلماء البيئة قد غالوا في آرائهم حينما نسبوا إلى هذا العامل دوراً محورياً في تفسير أسباب التقدم والتخلف بين دول العالم [١١] .

٢- الدور التاريخي :

تمكنت مجتمعات عديدة خلال واحدة من فترات تاريخها الطويل من أن تظهر كنماذج رائدة في القدرة على التكيف مع الظروف المكانية حيث أقامت تنظيمات إقتصادية واجتماعية وسياسية تتوافق فيها الموارد الطبيعية مع الإمكانيات البشرية ، مثل الصين ودول الأنديز والوطن العربي في مشرقه ومغربه وشبه القارة الهندية ثم ما لبثت شعوب هذه المناطق أن أصابها الجمود والضعف مما مهد لنجاح الغزو الغربي الإستعماري المتوثب للسيطرة وللاستقلال . ففرض نظمه وأساليبه في إستغلال موارد البلدان المحتلة الزراعية والمعدنية ، وبنى الموانئ والمصانع وكل ما يساعد على توجيه إقتصاد هذه البلدان نحو التجارة العالمية وتيارات الحركة النقدية العالمية ، وتقوية لوضع الطبقات المؤسرة المحلية ، وزيادة التبعية الإقتصادية والسياسية للدول الأوروبية مما قاد إلى إزدواجية إقتصادية محلية تتمثل من جهة في أساليب الإنتاج القديمة الحرفية والصناعية وأساليب الإنتاج المعايشة والإقليمية في الزراعة ، اعتماداً على مصادر الطاقة الحيوية للإنسان بينما المؤسسات الإقتصادية التي أقامها الأوربيون تعتمد الإنتاج الكبير واستغلال مصادر الطاقة الميكانيكية والمزارع العلمية واستثمار الجهد البشري إلى الحد الأقصى بأقل التكاليف .

٣- الدور الأنتربوليجي :

من ذلك التفسيرات السلالية التي تقارن بين الرجل الأبيض الصناعي الماهر في مقابل الأسود أو الأصفر المتخلفان إلى حد كبير . كما توجد آراء أخرى تنسب إلى شعوب الدول المتخلفة الخنوع والروح المحافظة ، وعدم المهارة في العمل والابتكار ، والإتكالية والغيبية . . . إلخ .

أن هذه الآراء في مجملها ساذجة مضللة ، خاصة ، حين فصلها عن أي سياق تاريخي أو اجتماعي أو سياسي محدد . فاللون لا قيمة له ولا دلالة له على الإبداع

والمهارة أو الإتكالية والخنوع ، ولا توجد دولة أو أمة خلقت للسيادة أو الريادة علمياً وإقتصادياً وسياسياً في اللامحدود من الزمان أو المكان .

وفي دول عالم اليوم غالباً ما يظهر بطلان هذه الآراء ، فنهوض عمالقة آسيا الصفر من اليابان إلى الصين ومن كوريا إلى تايلاند ، برهان شديد الوضوح على سطحية مقولات كالسوبرمان الأبيض ، والرق النقي ، وشعب الله المختار ، والقوى العظمى ، والأمة المتحضرة ... إلخ .

لذلك من الضروري عند النظر إلى عوامل الركود في مجتمع معين ، التسلح بالملاحظة الفاحصة والواعية للوصول إلى تحليل محكم للمعايير الإقتصادية والإجتماعية والسياسية .

٤- دور التسلط والهيمنة :

كان لتطور وسائل النقل والتبادل التجاري الدولي آثاره في مضاعفة فرص الاتصال بين الشعوب وبين المجموعات الإقتصادية . ونتج عن ذلك حدوث تعديلات أو اضطرابات في التوازنات التقليدية . حيث ارتبط التخبط الذي نتج في البلدان الضعيفة بالتسلط الخارجي الذي ألقى بثقله على الإقتصاد وعلى المجتمع وهكذا يمكن الحديث عن البلدان التابعة والمستغلة بواسطة النظام الإستعماري والتركيز على ظاهرات التبعية والتوجيه نحو الخارج للإقتصاد المتخلف ، الذي يوصف بكونه مجموعة من قطاعات ومن شركات متجاورة لا تتكامل في ما بينها ، ولكنها تتكامل بطريقة منفصلة مع مراكز الجاذبية التي توجد عادة في العالم الرأسمالي .

وينبثق عن هذه المفاهيم النتائج الرئيسية التالية :[١٢]

أ - يعتبر التخلف حقيقة ناتجة عن ظاهرة التسلط العالمية . فهو النتيجة المقابلة للعالم المتقدم ، أو ظاهرة مكافئة لغنى الدول الصناعية ، فقد أدى ميلاد وتقدم وفعل النظام الرأسمالي إلى وجود قطبي التقدم والتخلف في نفس الوقت .

ب - أدت استمرارية آثار وظروف النظام العالمي إلى تكديس الثروات العالمية في البلاد الأقدم في الغنى ، وأن المركز يتقوى دائماً على حساب الأطراف التي

يستغلها حيث يهيئ لها وظائف تابعة ولكنها أساسية مثل إمداده بالمواد الأولية ونصف المصنعة ، وأيضاً بالبشر (هجرة العقول) وبالأرباح الوفيرة .

ج - إذا أخذنا بعين الاعتبار الأشكال الحديثة التي يتخذها التسلط الاستعماري الجديد ، وخاصة تعدد جنسيات الشركات فأن الدائرة الجهنمية للتخلف لا يمكن تحطيمها إلا بالقطعية التامة مع النظام الرأسمالي ، من خلال جبهة دولية واعية يجمعها وحدة الهدف والإخلاص للمبدأ ووضوح الرؤية والقدرة على المقاومة .

مؤشرات التخلف :

أدى إفتقاد التعريف المقبول من الجميع ، وعدم وجود تصنيف شافي للتخلف ، إلى أن تجمع الدراسات المختلفة على قائمة تختلف في كاملها وفي تفصيلها للخصائص المشتركة في معظم بلدان العالم الثالث . (الفرد سوفى A. Sauvy) مثلاً عشرة إختيارات تصلح تقريباً للتطبيق على البلدان المتخلفة في عام ١٩٥٢م ، وعلى البلدان المتقدمة قبل تطورها . بينما يعدد (ايف لاكوست Y. Lacoste) في كتبه المختلفة خمسة عشر مؤشراً رئيسياً . أما (كريستيان كاستيران C. Casteran) فيذكر ثمانية مثالب كبرى . ويجمع (جان مير البيرتينى J. M. Albertini) في كتابه " العالم الثالث مواجهة البلدان الغنية " عشرة مؤشرات حول ثلاثة عناوين متتابعة ديموغرافي واجتماعي واقتصادي .

ويمكن القول أن معظم العناصر المكونة للتخلف تتكرر وتترابط أو تتكامل من مؤلف إلى آخر ، ويمكن تلخيصها في ثمانية مستويات أساسية هي[١٣] .

١- **المستوى السكاني :**

ويشمل القيم المرتفعة في معدلات المواليد والخصوبة ووفيات الأطفال ، قصر أمد الحياة ، شباب السكان ، نسبة عالية من البطالة .

٢- **مستوى الإستهلاك :**

غذاء غير كافي كماً ونوعاً ، ضعف في مستوى إستهلاك الفرد من الطاقة ومن الصلب والأسمنت . . .

٣- المستوى الإجتماعي :

ضعف متوسط الدخل ومستويات المعيشة ، وضوح الطبقية الإجتماعية ، والبنيات الإجتماعية القديمة . غياب أو محدودية الطبقات المتوسطة ، إتساع البطالة ونقص فرص العمل ، نسبة مرتفعة من الأميين ، تخلف وخنوع المرأة ، نقص في كفاءة التجهيزات الصحية ، ضآلة المعونات الإجتماعية .

٤- مستوى الإنتاج والتنظيم الاقتصادي :

سيادة القطاع الأول وخاصة الزراعة والتعدين ، ضآلة القطاع الصناعي ، تضخم نسبي في القطاع الثالث (تجارة ، نقل ، خدمات عامة ، أعمال حرة) ضعف الإنتاجية العامة ، التكنولوجية العتيقة ، العائد المنخفض ، صادرات كبيرة من المواد الخام ، ضعف تراكم رؤوس الأموال في الإستثمار الإنتاجي .

٥- المستوى السياسي :

تتابع الأنظمة السياسية السلطوية ، التبعية الإقتصادية والدبلوماسية ، الوعي العام بحالة الفقر الإقتصادي ، الطموح إلى التنمية .

٦- المستوى المكاني :

ضعف الإندماج المكاني على المستوى الوطني تبعاً لنقص مرافق الإتصال والتكامل الإقتصادي ، وضع هامشي لبعض الأقاليم ، تناقضات حادة بين الأقاليم ، تركز إقتصادي وبشري مفرط في التجمعات الحضرية الكبرى .

٧- المستوى المالي :

ويتجلى ذلك في الركود المالي والذي تتضاعف آثاره تبعاً للإضطرابات النقدية العالمية التي تعاني منها البلدان النامية معاناة شديدة تبعاً للنص التقليدي في المدخرات الداخلة والاستثمار تسرب رؤوس الأموال الوطنية إلى الخارج ، الإعتماد على المعونات والاستثمارات الأجنبية وما يترتب عليها من ديون ثقيلة .

٨- المستوى التقني :

إتباع التقنية البدائية وعدم القدرة أو صعوبة الحصول على المخترعات الجيدة ، ضعف الإنتاجية ، التبعية المتزايدة في هذا المجال للدول المتقدمة . فقد أضطرت الدول النامية أن تستورد التقنية والآلات المعقدة لكي تهيئ لنفسها التجهيزات الضرورية للنهضة الصناعية ، مما أدى إلى زيادة اتساع الهوة إزاء الأنشطة التقليدية ، يضاف إلى ذلك صعوبة التكيف مع التقنية المتقدمة وصعوبة فهمها أو إخضاعها في البلدان المستقبلة لها ، كما تزداد تكاليف استيرادها زيادة مستمرة حيث بلغت قيمة التحولات الفنية للبلدان النامية (البراءات - الماركات - الأمور الهندسية - الآلات) حوالي ٩ مليارات دولار عام ١٩٩٠ في مقابل ٥ر١ مليار دولار في عام ١٩٦٨م[١٤] .

ولابد من القول أن هذه المعايير العامة ترمي إلى إعطاء البلدان النامية صورة من التجانس يجب أن لا تقودنا إلى الوقوع في الخطأ . فالواقع أن التباين السائد في الحضارات ، وفي الموارد ، وفي الخيارات الاقتصادية والسياسية ، تجعل من كل دولة من الدول مشتركة في بعض الخصائص الأخرى .

ويعتبر « التطور المتفاوت » كما يعبر عنه بمؤشرات مثل الدخل الفردي ، والاستهلاك الفردي من بعض المنتجات كالطاقة الميكانيكية ، والصلب والأسمنت واحداً من أهم معايير تحليل الأحوال العالمية الراهنة حسب رأي (بيير جورج) ، ومعنى ذلك أن الإحساس بالتفاوت العالمي يتم عادة وفق مستويات الدخل والاستهلاك . فالعالم الثالث الفقير في إنتاجه وفي دخوله ، يعد من ناحية أخرى غنياً جداً بموارده المستغلة أو الكامنة ، ويعبر (ايف لاكوست) عن هذا التناقض بمقولته المجازية قائلاً : " أن خزانة حفظ الطعام في العالم الثالث ليست فارغة على الإطلاق ، ولكن أبوابها مغلقة بالمفاتيح "[١٥] .

لا بد لنا لإيضاح الجوانب النظرية السابقة الذكر من تتبع بعض الإحصاءات السكانية والاقتصادية المتاحة . كذلك فان استخدام الأرقام يشكل وسيلة موضوعية إلى حد كبير لقياس الفروقات بين الدول النامية والدول المتقدمة ، وبين الدول المختلفة

ضمن كل مجموعة من المجموعتين السابقتين كما تتيح الأرقام إمكانية قياس معدلات النمو في مجالات معبرة ، ضمن مدة محدودة .

في الجدول رقم (١) نلاحظ مجموعة من المؤشرات نستخلص منها الملاحظات التالية :

١- أن مجموعة الدول النامية تضم ما يزيد على ثلثي مساحة الكرة الأرضية وما يزيد عن ثلثي أرباع سكان العالم . لكن نصيبها من الدخل العالمي كان أقل من خمس الدخل العالمي في عام ١٩٧٥م ، ثم تناقص إلى أقل من سدس الدخل العالمي في عام ١٩٩٠ . وبعبارة أخرى ، فان أقل من ربع سكان العالم في البلدان المتقدمة يستحوذون على خمسة أسداس الدخل العالمي ، مما يدل بضرورة واضحة على استئثار هذه البلدان بمقدرات العالم الاقتصادية .

الجدول رقم (١)

بعض المؤشرات الإحصائية الهامة للمقارنة

بين الدول المتقدمة والدول النامية

مجالات المقارنة	مجموعة الدول المتقدمة		مجموعة الدول النامية	
	١٩٧٥	١٩٩٠	١٩٧٥	١٩٩٠
حصة المجموعة من مساحة الأرض ٪	٢٨ر٣	٢٨ر٣	٧١ر٧	٧١ر٧
حصة المجموعة من سكان العالم ٪	٢٩ر٣	٢٣	٧٠ر٧	٧٧
حصة المجموعة من الدخل القومي ٪	٨١ر٣	٨٤ر٨	١٨ر٧	١٥ر٢
متوسط دخل الفرد (دولار)	٤٣٥٥	١٧٠١٨	٤١٧	٧٧٠
العاملون في الزراعة ٪	١٦ر٦	١١	٦٤ر٢	٦١
العاملون في الصناعة ٪	٢٤	٢٧	٨	١٣
العمر المتوقع	٦٨ر٩	٧٥	٥١ر٩	٦٣
نسبة المتعلمين ٪	٩٦	٩٩	٥٢	٦٤
نسبة التحضر ٪	٧٠	٧٣	٣٧ر٣	٤٥

المصدر : تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٢م . برنامج الأمم المتحدة ، وموارد العالم ١٩٨٨ - ١٩٨٩م ، المعهد الدولي لشؤون البيئة والإنماء ومعهد الموارد العالمية ، برنامج الأمم المتحدة للبيئة صفحة ٢٩٤ - ٣٠٣ .

٢- بلغ الفرق في الدخل الفردي بين الدول النامية والدول المتقدمة ما يعادل ١-١٠ في عام ١٩٧٥م ، ثم أصبح بعدل ١-٢٠ في عام ١٩٩٠م ، أي أن دخل الفردي في الدول المتقدمة كان يعادل عشرة أضعاف دخل الفرد في الدول النامية في عام ١٩٧٥م ، ثم أصبح يعادل عشرين ضعفا في عام ١٩٩٠م ، ذلك أن دخل الفرد في الدول المتقدمة ازداد بحوالي أربع مرات خلال خمسة عشر عاما ، بينما ازداد دخل الفرد في الدول النامية بمقدار ٨ر١ مرة خلال نفس الفترة . وهذا يدل على مدى السعة التي يعيشها الفرد في الدول النامية على حافة الجوع .

الجدول رقم (٢)

مؤشرات سكانية وحيوية للفترة ١٩٦٥م - ١٩٩٥م

المنطقة أو الدولة	عدد السكان بالمليون ١٩٩٤	متوسط معدل النمو		العمر المتوقع		معدل الخصوبة	نسبة التحضر ٪		نمو التحضر
		٦٥-١٩٧٠	٩٠-١٩٩٥	٦٥-١٩٧٠	٩٠-١٩٩٥	٩٠-١٩٩٥	١٩٦٠	٩٠-١٩٩٥	٩٠-١٩٩٥
العالم	٦٦٦٥	٤ر٢	٧ر١	٨ر٥٤	٦٥	٣ر٣	٢ر٣٤	٤٤	٧ر٢
الدول المتقدمة	١٢٣٦	٥ر١	٧٥	٩ر٦٨	٧٥	٩ر١	٧ر٦١	٧٣	٩ر٠
الدول النامية	٤٤٢٧	٣٥ر٢	٠ر٢	٩ر٥١	٦٢	٦ر٣	٥ر٣٢	٣٥	٦ر٣
أفريقيا	٧ر٦٨١	٦٢ر٢	٩ر٢	٩ر٤٣	٥٣	٦	٨ر١٨	٣٣	٦ر٤
آسيا	٣٢٣٣	٤٣ر٢	٨ر١	٣ر٥٣	٦٥	٢ر٣	٥ر٢١	٣٢	٥ر٣
أوربا	٥١٢	٦٤ر٠	٣ر٠	٦ر٧٠	٧٥	٧ر١	٩ر٦٠	٧٤	٧ر٠
أمريكا اللاتينية	٧ر٤٥٧	٠٢ر٢	٨ر١	٧ر٥٨	٦٨	١ر٣	٤ر٥٧	٧٣	٦ر٢
أمريكا الشمالية	٧ر٢٨٢	٤ر١	٨ر١	٢ر٧١	٧٦	٢	٤ر٦٩	٧٦	٣ر١
أوقيانوسيا	٥ر٢٧	٩٧ر١	٥ر١	٢ر٦٤	٧٣	٥ر٢	٣ر٦٦	٧١	٦ر١
الاتحاد السوفيتي	٥ر٢٨٤	٩١ر٠	٥ر٠	٦ر٦٩	٧٠	٣ر٢	٨ر٤٨	٦٧	٣ر٢
عدا دول البلطيق									

المصدر : World Population 1994 - UNFPA.P 55-65 + موارد العالم ٨٨-١٩٨٩م - معهد الموارد العالمية - المعهد الدولي لشؤون البيئة والإنماء ، بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة ، ص ٢٩٢ - ٢٩٥ .

٣- أن الاختلاف بين المجموعتين يبدو جلياً فيما يخص نسبة العاملين في الزراعة والصناعة ، وهما مؤشران يدلان على مدى التقدم في وسائل الإنتاج وتحسين الإنتاجية وتنوع مصادر الدخل في الدول المتقدمة واعتماد البلدان النامية على النتاج الأولي وخاصة الزراعة ، مع ملاحظة بعض التحسن في مجال استخدام الأيدي العاملة في الصناعة حيث ارتفعت النسبة من ٨٪ عام ١٩٧٥م إلى ١٣٪ عام ١٩٩٠م .

٤- أما المجالات الثلاثة الأخرى : العمر المتوقع / ونسبة المتعلمين / ونسبة التحضر فهي انعكاس للتطور في مجالات الدخل والتطور الصناعي والزراعي والخدمي . وتبين الأرقام أن الدول المتقدمة قد وصلت إلى أعلى المراحل المرجوة تقريباً ، بينما لا يزال هناك قصور واضح في البلدان النامية وخاصة في مجال التعليم والتحضر.

أما الجدول رقم (٢) والذي يضم مؤشرات سكانية وحيوية واتجاهات تطورها خلال فترة تمتد على نحو ثلاثين عاما ، فيمكننا من استخلاص التنائج التالية :

١- تناقص معدل النمو السكاني العلمي بشكل كبير ، حيث بلغ ٧ر١٪ في المتوسط خلال الفترة ٩٠- ١٩٩٥م ، بينما بلغ نحو ٤ر٢٪ في المتوسط خلال الفترة ٦٥-١٩٧٠م وقد كان التناقص اكثر وضوحا في البلدان المتقدمة (من ٢٦ر١- ٥ر.)بينما نلاحظ إرتفاع نسبة النمو في أفريقية (٦٢ر٢ - ٩ر٢) ، وهبوطه في قارة آسيا (٤٣ر٢ - ٨ر١) . ويلاحظ أن نسبة النمو السكاني مازالت مرتفعة في أمريكا الشمالية واوقيانوسيا بسبب كثرة المهاجرين إلى هاتين القارتين.

٢- يلاحظ تحسن كبير في مقدار العمر المتوقع على مستوى العالم وخاصة في البلدان النامية بين عامي١٩٦٥م - ١٩٩٠م . فقد زاد العمر المتوقع على مستوى العالم من ٨ر٥٤ إلى ٦٥سنة خلال الفترة المذكورة ، وقد ارتفع العمر المتوقع في البدان المتقدمة من ٩ر٦٨ إلى ٧٥ سنة بينما ارتفع العمر المتوقع في الدول النامية من ٩ر٥١ إلى ٦٢ سنة ، وهذا الارتفاع يتجلى بصورة اكثر وضوحا في قارة آسيا وأمريكا اللاتينية وأقل وضوحاً في القارة الأفريقية . وهذا

مؤشر واضح على التحسن الذي طرأ على الوعي الصحي ، وتحسن مستوى الحياة في آسيا وأمريكا اللاتينية ، وما تعانيه القارة الأفريقية من فقر وتخلف وكثرة وفيات الأطفال ، وقلة الخدمات الصحية .

٣- يلاحظ أن معدل الخصوبة في البلدان النامية يعادل تقريباً ضعف معدل الخصوبة في البدان المتقدمة ، ويرفع هذا المعدل بشكل كبير في القارة الأفريقية .

فالخصوبة هنا ناتجة عن التخلف الذي تعاني منه القارة ، وكثرة الوفيات وقلة سكان هذه القارة بصورة عامة ، وهناك نظرية تقول أن ارتفاع نسبة النمو السكاني وبالتالي ارتفاع معدل خصوبة هو نتيجة من نتائج التخلف . وكلما ازداد النمو الاقتصادي وارتفاع دخل الفرد كلما تناقصت معدلات الزيادة السكانية وخصوبة المرأة .

٤- مازالت نسبة التحضر منخفضة على مستوى العالم بشكل إجمالي (٤٤٪ في ٩٠- ١٩٩٥م)ولكنها ترتفع في الدول المتقدمة إلى ٧٣٪ في نفس الفترة ، ولم تزد هذه النسبة عن ٣٥٪ في الدول النامية ، ومع ذلك فإن معدل نمو التحضر خلال الفترة ٩٠-١٩٩٥م يتزايد بشكل كبير في البلدان النامية وذلك بسبب الهجرة من الريف إلى المدن الرئيسية في هذه البدان ، بشكل خاص ، إذا بلغ هذا المعدل ٦ر٣٪، ووصل إلى ٦ر٤٪ في أفريقيا ، مقابل ٩ر٠ ٪ في البلدان المتقدمة ، ٧ر٠٪ في أوروبا و٣ر١٪ في أمريكا الشمالية .

وإذا انتقلنا إلى الجدول رقم (٣) الذي يبين مقدار الدخل الفردي في بعض الدول المتقدمة والنامية في مختلف القارات ، وتطور هذا الدخل خلال الفترة من عام ١٩٨٣م إلى عام ١٩٩١م ، نستطيع استخلاص النتائج التالية :

١- ارتفاع مقدار الدخل الفردي بشكل كبير في الدول المتقدمة ، وتطوره بشكل واضح خلال الفترة المبينة ، باستثناء دولة بلغاريا التي تناقص دخلها الأكثر انخفاضا من ٢٢٨٨دولار عام ١٩٨٣م إلى ٨٢١ دولار عام ١٩٩١م . وهذا حال كل الدول التي كانت تتبنى النظام الشيوعي ، ثم ابتعدت عنه بعد سقوط الاتحاد السوفيتي . وتحتل الولايات المرتبة الأولى في دخل الفرد مثلما هي الأولى في

الاقتصاد والصناعة والقوة العسكرية والمهيمنة السياسية في وقتنا الحاضر . وتأتي كندا واليابان في المرتبتين الثانية والثالثة من حيث الدخل الفردي . وقد حققت اليابان أكبر زيادة في الدخل الفردي بين عامي ١٩٨٣م - ١٩٩١م (١٠٤٦١-١٩٠٤٢ دولار) .

٢- يلاحظ تحسن كبير في دخل الفرد في البلدان الواردة في الجدول ، خاصة وأنها من البلدان الكثيفة السكان ، وتشير الدراسات إلى أن هذه البلدان تشهد نموا اقتصاديا سنويا غير مسبوق ، مما انعكس إيجابياعلى مستويات الحياة المختلفة في هذه البلدان . أما في بلدان أمريكا اللاتينية الواردة في الجدول ، وخاصة الدول الأربع الأولى ، فان مستوى دخل الفرد فيها يقترب من مستوى الدخل الفردي من مستوى الدخل عند النمور الآسيوية أما الدخل الفردي في نيكاراغوا فيشابه الدخل في أفقر الدول الأفريقية وهي تمثل بقية دول أمريكا الوسطى التي دمرت الحروب الأهلية والتبدلات السياسية العنيفة ، كل مقومات النماء والانتعاش الاقتصادي .

٣- إن الدول الأفريقية الواردة في الجدول ، هي من افضل الدول الأفريقية من حيث إمكاناتها الطبيعية الزراعة والمعدنية والسكانية ، إن التسلط الاستعماري الطويل الأمد على هذه الدول ، وما ابتليت به من حروب أهلية ، وأنظمة سياسية غي مستقرة ، بدد ثروتها ، ومزق طموحاتها ، واحكم الجوع رقاب سكانها ، لذلك فان دخل الفرد فيها لا يساعد على الحياة الكريمة وان الفرق بين دخل الفرد في إثيوبيا والولايات المتحدة يساوي (١-٥ر٥٥) والفرق بين نيجيريا الدولة الأفريقية الغنية جدا بثرواتها الزراعية والمائية والنفطية وغيرها ، وبين الولايات المتحدة يساوي (١-٢٥)، بل يلاحظ من الجدول إن دخل الفرد في نيجيريا قد تراجع من ٩٨٧ دولار عام ١٩٨٣م إلى ٨٥٨ مليون دولار ، ويصل الفرق بين دخل الفرد في الولايات المتحدة وزائير ١-١١٤.

الجدول رقم (٣)

تطور دخل الفرد حسب القوة الشرائية (بالدولار)

القارة أو الدولة	١٩٨٣	١٩٨٧	١٩٩٠	١٩٩١
دول متقدمة :				
١- الولايات المتحدة	١٤٤٩٢	١٨٥١٣	٢١٨٦١	٢٢٢١٩
٢- كندا	١٣٢٠٣	١٦٠٤١	٢١٢٧٣	٢١٥٦٢
٣- المملكة المتحدة	١٠٠١٠	١٢٨٠٣	١٥٣٥٤	١٥٥٤٨
٤- فرنسا	١١٣١٨	١٣٧١٠	١٦٦١٩	١٧٣٨٦
٥- بلغاريا	٢٢٨٨	٣٢٠١	٢٣٠٥	٨٢١
٦- استراليا	١١٤٨٨	١٢٨٤٨	١٧٣٤٣	١٧٣٥١
٧- اليابان	١٠٤٦١	١٣٩١٣	١٧٧٢٧	١٩٠٤٢
دول آسيا :				
١- كوريا الجنوبية	٣٥٨٠	٥٥٣٦	٧٨٠٦	٨٧٩٠
٢- ماليزيا	٤٠١٤	٣٧٨٩	٥٦٤٣	٦٢١٢
٣- اندونيسيا	١٤٢٧	١٦٩٠	٢١٥٢	٢٣١١
٤- تايلاند	٢٢٨٥	٢٩٨٨	٤٥٣١	٥٠١١
٥- الصين	١٣٨٩	٢١٦٠	٢٧٣٥	٢٩٨٢
٦- الهند	٨٠٨	١٠٠٤	١٣٠٨	١٣٥٠
٧- بنجلاديش	١٠٧٤	١٢٥٨	١٤٥٧	١٥٣٦
دول أمريكا اللاتينية :				
١- البرازيل	٣٣٦١	٤٤٧١	٤٦٣٠	٤٨٦٤
٢- الارجنتين	٦٢٦٦	٥٨٢١	٥٤٨٢	٦١٢٧
٣- المكسيك	٥٠٦٢	٥٢٧٤	٦٦١٥	٦٩١٧
٤- تشيلي	٢٨٢٥	٣٧٢٠	٤٧٨٢	٥١٨٠
٥- بوليفيا	٢٠٧٣	١٩٠٦	٢٢٢٠	٢٣٤٤
٦- نيكاراغوا	٣٢٠	٣٣٢	٣٠١	٣٠٠
دول أفريقيا :				
١- نيجيريا	٩٨٧	٧١٠	٨١٤	٨٥٨
٢- زائير	١٧٣	١٩٦	١٩٩	١٩٥
٣- موزمبيق	٧٩٠	٧٨٠	٩٨٢	١٠٤٥
٤- تنزانيا	٣٨٥	٥١١	٥٤٧	٥٩٣
٥- السنغال	١٠٥٧	١١٨٠	١٢٠٨	١٢٥٢
٦- أثيوبيا	٣١٨	٣٦٣	٤١٢	٣٩٨

المصدر : Annuaire statistique, 39 edition, Nayions Unies. PP 193-215

ويمكن القول أن البلدان المتقدمة باستعمارها لقارات العالم وتمزيقها إلى دول متناحرة تتآمر عليها ، وتثير فيها المشاكل القبلية أو العرقية أو الدينية ، وتغرقها بأسلحة الدمار ، وتثقلها بالديون ، وتستنزف ثرواتها الطبيعية ، وتفرض عليها التبعية التجارية والثقافية والمالية - قد زاد من عمق الهوة بينها مما سيكون له آثار مدمرة على استقرار العالم في المستقبل غير البعيد .

ويعبر الجدول رقم (٤) عن مؤشرات تبعية الدول النامية للدول المتقدمة والناتجة عن الخلل في هيكلية انتاجها وصادراتها ، وازدياد مطرد وخطير في ديون هذه الدول للخارج . وتجسد البرازيل والمكسيك والارجنتين وهي أكبر دول أمريكا اللاتينية وأكثرها غنى بثرواتها الطبيعية - الوضع السيء والخطير الذي وصلت إليه بعض الدول النامية . ويربط بعض المحللين العالميين بين تفاقم ديون كثير من الدول النامية والانقلابات العسكرية ، أو التغييرات الدرامتيكية والحروب الأهلية والحروب مع دول الجوار ، وهذا يعني أنه إذا لم تستطع صادرات الدول النامية أن تنمو بمعدلات أسرع من معدلات نمو عبء خدمة ديونها الخارجية[١٦] ، فإن هذه الدول ستعجز عن سداد ديونها ، وستضطر إلى استجداء الدول العربية ، وكذلك الولايات المتحدة ، والمؤسسات الدولية كصندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي[١٧] لإعادة جدولة هذه الديون . ولن يتم ذلك إلا إذا فرضت الدول والمؤسسات السابقة شروطا اقتصادية قاسية (كإتباع سياسة نقدية تقشفية في الداخل) على الدول النامية ، وكانت راضية على النظام السياسي القائم فيها ، مع ما يعني كل ذلك من إنقاص في السيادة الوطنية ، وحتى لو حصلت الدول النامية على إعادة جدولة ديونها ، فإن ذلك لن يحل المشكلة ، لأن الديون ستتزايد وأعباؤها ستتضاعف ، وكل ما في الأمر أن المشكلة تكون قد تأجلت إلى وقت لاحق ، وزادت تبعية الدولة المدينة لفترة أطول .

ويمكن القول إن الدول الأفريقية ذات الاقتصاديات المتخلفة ليست أسوأ حظاً من دول أمريكا اللاتينية ، إذ بلغ حجم الديون في عام ١٩٩٢ نحو ٢٨٤٥٧ مليون دولار، أي بزيادة ٢٫٤ مرة عن ديونها في عام ١٩٨٣ ، أما زائير ، التي يبلغ فيها

دخل الفرد أدناه بين الدول الأفريقية فقد بلغت ديونها عام ١٩٩٢ نحو ٨٨٩٥ مليون دولار وهذا ما يعادل ضعف ديونها عام ١٩٨٣م ·

جدول رقم (٤)

الديون طويلة الأجل في بعض البلدان النامية (مليون دولار)

القارة أو الدولة	١٩٨٣	١٩٨٧	١٩٩٢
دول آسيا :			
إيران	٢٩٦٧ر٦	٢٢٧٩ر٩	٣٠٦٤ر٩
كوريا الجنوبية	٢٢١٧٥ر٥	٢٣٨٨٩ر٧	٢٣٩١٩ر٦
ماليزيا	١١٤٦١ر٨	١٧٨٨٤ر٤	١٣٣٤٦ر١
اندونيسيا	٢١٤٩٣ر١	٤٠٨٢٣ر١	٤٩٢٨٩ر٣
تايلاند	٦٩٠١ر٦	١٣٨٣١ر٨	١٣٢٣٨ر٣
الصين	٥٣٠١ر٣	٢٥٩٢ر١	٥٨٤٧٥
الهند	٢٣٤٧٠ر٧	٤٦٥٥٩	٦٧٧٢١ر٢
دول امريكا اللاتينية :			
البرازيل	٥٩٨٢٩ر٤	٩١٧٢٦٥ر٢	٨٦٢٥٠ر٩
الارجنتين	٢٥٤٣٩	٤٩٢٢١	٤٦٨٣٥
المكسيك	٦٦٧٦٦ر٦	٨٤٣٤٩ر٣	٧٢٢١٨ر٧
شيلي	٦٥٩٨	١٥٥٤١ر٨	٩٥٧٧ر٧
كولمبيا	٦٨٧٤ر٤	١٣٨٢٧ر٧	١٣٢٤٥١ر١
بوليفيا	٣٢٥٤ر٨	٤٦٢١ر٣	٣٦٩٣ر٦
نيكاراغوا	٣٤٠٦ر٤	٦٤٤٧ر٣	٨٩٩٣ر٧
كوبا	٢٢٦٨٢	٢٤٥٣٧	٢٧٤٣٣
دول أفريقية :			
نيجيريا	١٢١٨٠ر٦	٢٨٤٦٤ر١	٢٨٤٥٧ر٥
زائير	٤٤٣٣ر٤	٧٢٠٥ر٢	٨٨٩٥ر٣
موزمبيق	٨١ر٩	٣٦٨٤ر٣	٤١٣٥ر٧
تنزانيا	٢١٥١ر٨	٤٥٢٧ر٣	٦٠٤٧ر٧
السنغال	١٦٤٣ر٨	٣٣٢٨ر٩	٢٩٣٢ر٢
أثيوبيا	١٢٢٩ر٩	٢٧٣٥ر٢	٤١٦٨ر١
مالي	٩٠٢	١٩٠٥ر٩	٢٤٧٢ر٤
جنوب افريقيا	١٣٣٥٦	١١١٦٤ر٧	١٠٤٢٢ر٢
الكاميرون	١٨٤٣ر١	٢٧٧٣ر٥	٥٤٦٤ر٥
غانا	١٢٠٥ر١	٢٢٤٦ر٥	٣٠٩٦ر٥

المصدر : Annuuaire Statistique

إن كل الدول الأفريقية الواردة في الجدول قد ازدادت ديونها بشكل كبير في عام ١٩٩٢ بالمقارنة مع عام ١٩٨٣ . فقد زادت مقدار ٥ر٢ مرة في غانا ، و ٣ مرات في الكاميرون ونحو ذلك في تنزانيا وبلغت الزيادة أقصاها في موزمبيق حيث زادت ديونها بشكل غير عادي من ٩ر٨١ مليون عام ١٩٨٣م إلى نحو ٤١٣٥ مليون دولار عام ١٩٩٢م . أما جمهورية جنوب أفريقيا ، وهي الدولة الأكثر تطوراً في جنوب الصحراء، فقد تراجعت مديونتها من ١٣٣٥٦مليون دولار عام ١٩٨٣م إلى ١٠٤٢٢ مليون عام ١٩٩٢م .

أما الدول الآسيوية في الجدول ، فقد ازدادت ديونها بشكل كبير بين عامي ١٩٨٣م - ١٩٩٢م باستثناء إيران ، وكوريا الجنوبية ، وماليزيا ، واندونيسيا . ومع ذلك فان هذه الدول تخطو خطوات كبيرة باتجاه تحديث اقتصادها وزيادة صادراتها ، مما يساعد على لجم التصاعد المستمر للديون التي ترهق كاهل هذه الدول وتضعف مدخراتها، وتحد من تحسين مستوى مواطنيها .

مؤشرات التخلف في الوطن العربي :

يعد الوطن العربي في وضعه الحالي ، إلى حد كبير ، هو نتاج الإرث الاستعماري الغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين . لقد سيطر العثمانيون على الوطن العربي منذ بداية القرن السادس عشر ، وخاضوا صراعاً مريراً مع أوروبا ، جرت خلاله مئات المعارك الضارية ، في أعماق القارة الأوروبية وبدأالأمر على انه انتقام من الغارات الأوروبية الصليبية على الوطن العربي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

مع إستمرار الحروب في البر والبحر مع الدول الأوروبية تسرب الضعف إلى جسم الدولة العثمانية المترامية الأطراف ، وعمت الفوضى ولاياتها وساد فيها الجهل وإنتشر الفساد والقمع ، وأنصرف السلاطين إلى جمع المال قهراً لبناء القصور ، والإنصراف إلى التمتع بمباهج الحياة ، بدل الإستعداد لصد الأعداء المتربصين ، ونشر العدل والعلم بين الناس، والأخذ بأساليب الثورة الصناعية التي عمت القارة الأوروبية في القرن التاسع عشر .

جاءت الفرصة المواتية مرة أخرى ، الأباطرة وملوك الاستعمار الأوربيين ، الذين سيطروا على القارة الأمريكية ومعظم القارة الآسيوية والأفريقية ، أن ينقضوا على الامبراطورية العثمانية المتداعية ، ليطلقوا عليها طلقة الخلاص ، ويحققوا الحلم القديم المتجدد بالاستيلاء على الأرض العربية بلاد الشرق الساحرة المقابلة لشواطئهم ، ذات الخيرات الكثيرة ، وصاحبة الموقع الفريد والحساس والمتحكم بطرق التجارة مع جنوب القارة الآسيوية والشرق الأقصى ، وقد حاك الأوروبيون الكثير من الدسائس ، وتذرعوا بأوهى الذارئع للتدخل في شئون تركة (الرجل المريض) حتى إطمأنوا على ضعفه وتشرذم أهله ، وتذمر أتباعه وانتشار الفساد في أرضه ، فطالبوا بتركته وكأنهم ورثته الشرعيون !

تسابقت الدول الأوروبية لإحلال الأراضي العربية ، بادئة بالشمال الأفريقي البعيد عن مركز الخلافة العثمانية في الآستانة . فاحتل الفرنسيون والأسبان والإيطاليون منطقة المغرب العربي ، وأحتل الإنجليز مصر والسودان ، ثم منطقة جنوب وشرق شبه الجزيرة العربية . ثم تم الإجهاز على كامل الوطن العربي في أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م-١٩١٨م) بالسيطرة على بلاد الشام والعراق .

وهكذا انتقل الشعب العربي من مرارة ظلم التحكم العثماني وفساد إدارته ، إلى عسف المستعمر الأوروبي وقمعه وإستغلاله . ولعل أخطر مانجم عن التحكم الاستعماري الأوروبي المباشر ثلاث نتائج شكلت عقبات كبرى أخرت وما زالت تؤخر انطلاقة الوطن العربي نحو التنمية الشاملة والأنعتاق من نير التخلف وهذه النتائج هي:

١- التجزئة .

٢- التبعية الإقتصادية والثقافية .

٣- زرع الكيان الصهيوني والاستعماري في قلب الوطن العربي .

إن تجزئة الوطن العربي كأرض وكأمة تعتبر حالة نادرة في التاريخ المعاصر . وببساطة إن وطننا العربي قد قسم إلى (٢٢) كياناً سياسياً مستقلاً ، زرعت على

حدودها الألغام ، وبذرت في داخها الفتن وأقيمت حولها الحواجز المانعة ، مما أضاع بصورة مفجعة إستخدام إمكاناته الشاملة بشرية أو طبيعية أو إ قتصادية من اجل بناء دولته القوية القادرة على حماية نفسها وصنع مستقبلها بمعزل عن تدخلات الأعداء ومؤامراتهم .

لقد نشر المستعمرون الأوروبيون ثقافاتهم ولغاتهم ، وأقاموا مدارسهم التبشيرية وأصبح المواطن العربي يعرف عن تاريخ فرنسا وإنجلترا اكثر مما يعرف عن تاريخ الخلفاء الراشدين . كما تراجعت اللغة العربية ، لغة قرآننا ومثار عزتنا القومية إلى المرتبة الثانية ، بل كادت أن تزول من بعض جهات هذا الوطن . وربط المستعمرون مناطق استعمارهم من الناحية الإقتصادية والمالية بعملاتهم كالفرنك الفرنسي والجنيه الإسترليني ، ونشطت شركاتهم في مد الخطوط الحديدية والبحث عن الثروات المعدنية كالبترول والحديد والفوسفات ، وبعضها الآخر أقام المزارع الواسعة بعد مصادرة الأراضي، لإنتاج ما تحتاجه الدولة المستعمرة من المواد الخام لصناعاتها ، كما أغرقت الأسواق الداخلية بالمنتجات الأوروبية ، وسخر اقتصاد الوطن العربي بكاملة لخدمة التجارة مع الدول المستعمرة وإنعاش اقتصادها وترميم خسائرها في الحربين العالميتين الأولى والثانية . وقد دافع المستعمرون عن مصالحهم في الوطن العربي بشراسة وهمجية ليس لها مثيل ويكفي أن نذكر العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م عندما أممت مصر شركة قناة السويس العالمية ، على الرغم من أن القناة مصرية بدماء من حفروها على أرضهم ومن أجل منفعة بلدهم . وآخر غزوة شنها المستعمرون على العراق بعد احتلاله الكويت تهدف بالدرجة الأولى للحفاظ على مصالحهم الحيوية في منطقة الخليج العربي ، وما نجم من الحرب من خسائر اقتصادية باهظة للوطن العربي ، وما أحدثت من شرخ عميق في نفسية المواطن العربي .

أما إقامة الكيان الإسرائيلي في فلسطين ، أرض المقدسات ، فهي أكبر كارثة صدمت كيانات الوطن العربي الناشئة ، وعطلت مسيرة النهوض الاقتصادي والاجتماعي للدول العربية المحيطة بهذا الكيان من خلال الحروب المحدودة والكبيرة مع هذا الكيان المدعوم من الاستعمار الأوربي الأمريكي ، وما سببت من دمار ونفقات

عسكرية باهظة تتجاوز قدرات تلك الدول .

نتنقل بعد هذه التذكرة التاريخية بمآسي الاستعمار الغربي ، ماضياً وحاضراً تجاه الوطن العربي ، إلى استعراض دلائل بعض الإحصاءات في المجالات الديموغرافية والحيوية والاقتصادية لنبين مقدار المسافة التي اجتازتها أقطار الوطن العربي للوصول إلى أهدافها المنشودة في التنمية وقهر التخلف .

إذا نظرنا إلى الجدول رقم (٥) نجد أن معدل النمو السكاني العام في الوطن العربي يتجاوز نسبة النمو على مستوى العالم (٢ر٩ - ١ر٧٪) . وهناك تسعة بلدان عربية تزيد فيها نسبة نمو السكان عن ٣٪ . وبقية الأقطار العربية تتراوح فيها نسبة نمو السكان بين (٢ - ٢ر٩٪) . كما يرتفع معدل الولادات عن المعدل العالمي (٣٦ر١ - ٢٦ بالألف) . وهناك ثماني بلدان عربية تبلغ نسبة الولادات فيها (٤٠ بالألف مما فوق) ألف فما فوق ، ويبلغ هذا المعدل في الصومال أقصاه (٥٠ بالألف) ألف تأتي بعده اليمن وموريتانيا ، وهذه البلدان هي من أكثر البلدان العربية فقراً أما بالنسبة للوفيات فمعدلها منخفض بصورة عامة ، وهو أدنى من المعدل العالمي ، (٣٥ر٨ - ٩ بالألف) مما يدل على تحسن في المستوى الثقافي والصحي والغذائي . ومع ذلك توجد خمسة أقطار عربية يتراوح معدل الوفيات فيها بين (١٤ - ١٩ بالألف) وهي جيبوتي والسودان والصومال وموريتانيا واليمن وكلها تدخل تحت عنوان الأقطار العربية الأقل نمواً . ويتفق معدل الولادات المرتفع في الوطن العربي مع الخصوبة المرتفعة عند المرأة العربية . فمعدل الخصوبة في الوطن العربي أعلى من معدل الخصوبة العالمي (٤ر٥ - ٣ر٣) ويرتفع معدل الخصوبة إلى أكثر من (٥) في ١٢ بلداً عربياً .

أما بالنسبة للعمر المتوقع فيلاحظ أن أكثر الأقطار العربية قد حققت تقدماً ملحوظاً في هذا المجال بين متوسط (٦٥ - ١٩٧٠) ومتوسط (٩٠ - ١٩٩٥) . ولكن مازال المعدل العام لكامل الوطن العربي أقل من المتوسط العالمي (٦٢ر٨ - ٦٥) ، ويوجد (١٢) قطراً عربياً يتجاوز فيها العمر المتوقع المتوسط العالمي ، وتوجد

أعلى المعــدلات في دول الخليج ولبنان (٦٩ - ٧٥ سنة) ، مما يدلل على تحســن المستوى المعيشي والصحي في هذه الدول .

الجدول رقم (٥)

بعض المؤشرات الحيوية في الدول العربية

الدولة	عدد السكان بالمليون عام ١٩٩٤	معدل النمو السكاني	معدلات الولادات بالالف متوسط ١٩٩٠-١٩٩٥	معدل الوفيات بالألف متوسط ١٩٩٠-١٩٩٥	العمر المتوقع		معدل الخصوبة عند المرأة
					متوسط ١٩٦٠-١٩٧٠	متوسط ١٩٩٠-١٩٩٥	
١- الأردن	٤,٤	٣,٤	٤٠	٥	٥١,٧	٦٨	٥,٧
٢- الأمارات	١,٧	٢,٨	٢١	٤	٥٩	٧١	٤,٥
٣- البحرين	٠,٤٩٠	٢,٤	٢٧	٤	٦٠	٧٠	٣,٨
٤- تونس	٨,٦	٢,١	٢٧	٦	٥٢,١	٦٨	٣,٤
٥- الجزائر	٢٧,١	٢,٧	٣٤	٧	٥١,٤	٦٦	٤,٩
٦ جزر القمر	٠,٥٢٠	٣,٥	-	-	٤٥	٥٢	٦
٧- جيبوتي	٠,٥٧٠	٢,٩	٤٧	١٧	-	٥٢	٦,٥
٨- السعودية	١٦,٥	٣,٤	٣٦	٥	٤٩,٩	٦٩	٦,٤
٩- السودان	٢٧,٤	٢,٨	٤٢	١٤	٤٠,٩	٥٢	٦
١٠- سوريا	١٣,٨	٣,٦	٤٢	٦	٥٤	٦٧	٦,١
١١ الصومال	٩,٤	٣,٢	٥٠	١٩	٣٨,٩	٤٧	٧
١٢- العراق	١٩,٩	٣,٢	٣٩	٧	٥٣	٦٦	٥,٧
١٣- عمان	١,٧	٣,٦	٤٠	٥	٤٣,٨	٧٠	٦,٧
١٤- قطر	٠,٥٣٠	٢,٥	٢٤	٤	٥٩	٧٠	٤,٥
١٥- الكويت	١,٨	٢,٦	٢٨	٢	٦٤,٤	٧٥	٣,٧
١٦- لبنان	٢,٩	٢,٠	٢٧	٧	٦٢,٩	٦٩	٣,١
١٧- ليبيا	٥,٥	٣,٥	٤٢	٨	٥٠,٤	٦٣	٦,٤
١٨- مصر	٥٦,١	٢,٢	٣١	٩	٤٩,٧	٦٢	٤,١
١٩- المغرب	٢٧	٢,٤	٣٢	٨	٥٠,٤	٦٣	٤,٤
٢٠ موريتانيا	٢,٢	٢,٩	٤٦	١٦	٣٩	٤٦	٦,٥
٢١- اليمن	١٣	٣,٥	٤٨	١٤	٤٠,٩	٥٣	٧,٢
المجموع	٢٤١,٠١	٢,٩	٣٦,١	٨,٣٥	٥٠,٧٧	٦٢,٨	٥,٤
العالم	٥٦٦٤	١,٧	٢٦	٩	٥٤,٨	٦٥	٣,٣

المصدر : World population 1994 - UNFPA pp. 55-64 وموارد العالم ٨٨-١٩٨٩م - معهد الموارد العالمية - المعهد الدولي لشؤون البيئة والإنماء - بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة صفحة ٢٩٢-٢٩٤ .

الجدول رقم (٦)

بعض المؤشرات الإجتماعية والإقتصادية في الدول العربية

الدولة	نسبة التحضر ١٩٩٢	نسبة المتعلمين ١٩٧٠	نسبة المتعلمين ١٩٩٠	نسبة العاملين في الزراعة ١٩٩٢	دخل الفرد حسب القوة الشرائية	الديون الخارجية طويلة الأجل
١- الأردن	٦٩	٤٦,٥	٧٩,٥	٤,٦	٣١٣٩	٦٩١٣,٨
٢- الأمارات	٨٢	١٦	٧٠	-	١٥٣٠١	-
٣- البحرين	٨٣	-	٧٧	١,٤	١١٤٢٨	٢١٢٥,٧
٤- تونس	٥٧	٣٠,٥	٦٥	٢٠,٦	٣٤١٤	٧٤١٨,٢
٥- الجزائر	٥٣	٢٥	٥٨	٢٢,٣	٢٦١٥	٢٥٦٨٤,٢
٦- جزر القمر	٢٨	-	٦١	٧٧,٢	٥٢٤	١٦٥,٢
٧- جيبوتي	٨٠	-	٢٠	-	١٥٥٦	١٧٥,٥
٨- السعودية	٨٧	٨,٥	٥١	٣٥,٨	٩٣٤٠	٤٥٩٧,١
٩- السودان	٢٣	١٧	٢٧,٥	٥٥,٥	٧٩٩	٨٩٨٣,٦
١٠- سوريا	٥١	٤٠	٦٤,٥	٢١,٨	٥٠٦٨	١٤٣٤١
١١- الصومال	٢٥	٣	٢٠	٦٧,٨	٧٢٤	١٨٩٧,٩
١٢- العراق	٧٣	٣٤	٥٩,٥	١٧,٧	١١٦٨	١١١٤٠,٣
١٣- عمان	٤٠	-	٣٠	٣٦,٣	٧٩٦٧	٢٣٣٩,٩
١٤- قطر	٩٠	-	٧٢	٣	١٥١٧٨	-
١٥- الكويت	٩٣	٥٣,٥	٧٢	٢,٩	١٤٢٣٥	-
١٦- لبنان	٨٦	٦٨,٥	٨٠,٥	٧	-	٣٠٣,٩
١٧- ليبيا	٨٤	٣٦	٦٢	٢,٦	٩٥٥١	٢٥٩١,٧
١٨- مصر	٤٤	٣٥	٤٨,٥	٣٨,٦	٢٣٩٨	٣٥٧٢٤,١
١٩- المغرب	٤٧	٢٢	٤٩,٥	٣٣,١	٢٦٣٤	٢٠٣٣١,٧
٢٠- موريتانيا	٤٩	-	٣٤	٦٢,٧	١٠٨٤	٤٨٥٤,٧
٢١- اليمن	٣١	٢٥	٣٩,٥	٥٣,٢	١٤٠١	٥٣٤١,٣

المصدر : عدة مصادر إحصائية منها :

Annuaire statistique, 39 edition, Nayions Unies
, 31/9/1993 , pp. 911-928, 994-998

وموارد العالم ٨٨-١٩٨٩م - معهد الموارد العالمية - المعهد الدولي لشؤون البيئة والإنماء - بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة صفحة ٣٠٢-٣٠٣ .

وعلى الرغم من أن سكان الوطن العربي قد وصلوا إلى ٢٤١ مليون نسمة ، فأن الكثافة العامة هي في حدود ١٧ نسمة / كم وهي كثافة منخفضة ، وتزداد هذه الكثافة انخفاضاً في الأقطار العربية ذات المساحات الواسعة كالسعودية والسودان والجزائر وليبيا والصومال . وليس هناك من خطر بارتفاع معدل الولادات إذا أحسن استغلال ثروات الوطن العربي ، وتم توفير الأموال اللازمة لذلك مع وجود الاستقرار السياسي والأمني .

في الجدول رقم (٦) نلاحظ مؤشرات ذات دلالات هامة على طريق التنمية وتحسن مستوى الفرد ، وتطور التعليم ، ومساهمة القطاعات الاقتصادية في الانتاج القومي ، وانتشار ظاهرة التحضر ، إضافة إلى مديونية الدول العربية التي تعد من أخطر ظواهر التبعية ، وتخلف الانتاج المحلي ، وضعف الصادرات .

يبدي الوطن العربي تغيرات كبيرة في مجال التوزيع السكاني بين المدن والأرياف وخاصة في أقطار الخليج العربي ، حيث نمت بشكل سريع مدن العواصم والموانئ حيث تقل الأمطار ويقل النشاط الزراعي والرعوي . وتشذ دولة عمان عن باقي دول الخليج نظراً لوجود الإمكانيات الزراعية والرعوية فيها .

وقد تحسن مستوى التعليم في الوطن العربي بشكل متسارع بعد حصول الأقطار العربية على استقلالها السياسي . وقد تحققت أعلى المعدلات في دول الخليج العربي، وقدم دخول التعليم في لبنان والأردن مع قلة السكان ، ومع ذلك يلاحظ أن ثمانية أقطار عربية تقل نسبة المتعلمين فيها عن ٥٠٪ بل إن هذه النسبة تهبط إلى أقل من ٢٠٪ في كل من جيبوتي والصومال و ٣٠٪ في عمان و ٣٤٪ في موريتانيا و ٣٩ر٥٪ في اليمن و ٢٧ر٥٪ في السودان .

أما بالنسبة للأهمية الزراعية من ناحية العمالة ، فأن دور الزراعة تراجع كثيراً لحساب قطاع الخدمات والتجارة ، وجزئيا لقطاع الصناعة . فهناك سبعة أقطار عربية تقل فيها نسبة العاملين الزراعيين عن ٢٠٪ وخاصة في البحرين وقطر والكويت وليبيا ولبنان ، بينما ترتفع نسبة العاملين في الزراعة في خمسة أقطار عربية عن

٥٠٪ وتبلغ هذه النسبة إلى ٢ر٧٧٪ في جزر القمر و ٨ر٦٧٪ في الصومال و ٨ر٦٧ في موريتانيا و ٢ر٥٣٪ في اليمن ·

من حيث الدخل الفردي فإن الدول ذات الانتاج النفطي الكبير والقليلة السكان قد حققت أعلى ارتفاع في الدخل الفردي ، حتى وصلت إلى مستوى الدخل الفردي في الدول المتقدمة ، وهي دول الخليج وليبيا · بينما توجد أخفض الدخول في الدول العربية في البلدان العربية التي تعتمد بصورة أساسية على الرعي والزراعة بالأساليب المتخلفة وهي جزر القمر والصومال والسودان وموريتانيا واليمن (٥٢٤ - ٤٠١ دولار) ·

تئن غالبية أقطار الوطن العربي من وطأة الديون التي تثقل كاهل الاقتصاد الوطني في هذه الأقطار وخاصة مصر والمغرب العربي وتونس والجزائر وسوريا والأردن واليمن · وتقل هذه الديون أو تتلاشى في دول الخليج العربي وجزر القمر وجيبوتي ونأمل أن تزداد وتيرة النمو الاقتصادي في كل قطر عربي من خلال الاعتماد على الشراكة العربية والتعاون الذي يحقق المصلحة المشتركة ، إضافة إلى الحاجة الماسة إلى استقرار الأنظمة السياسية في كل الأقطار العربية ، وإطلاق العنان للمبادرات الفردية ورعايتها ، وزيادة التعاون مع اليابان ودول الشرق الأقصى الأخرى لتحديث الانتاج ونقل التكنولوجيا بدل الاعتماد الكلي على الغرب ·

خلاصة واستنتاجات :

إن الاختلاف في توزيع الثروات ، والفوارق الكبيرة بين البلاد التي يزداد فيها الدخل ، وبين تلك التي تزداد فيها الحاجة ، لا تعود إلى العوامل الطبيعية أو العوامل العرقية أو الانفجار السكاني ، كما يزعم كثير من منظري الدول المتقدمة ، بل تعود إلى عوامل ترتبط بالحركة الاستعمارية القديمة ، والهيمنة الاقتصادية والسياسية الحديثة ، وأهم هذه العوامل هي :

١- الحركة الاستعمارية التوسعية التي سيطر فيها الأوربيون على قارات العالم وأمعنوا فيها سلباً ونهباً بالقوة الغاشمة ، منذ القرن السادس عشر حتى الحرب

العالمية الثانية .

٢- بعد الاستقلال السياسي الظاهري للبلدان النامية ، استنزفت الدول الأوربية الاستعمارية ، خيرات تلك البلدان بطرق أخرى ، وذلك بربطها بعجلة اقتصادها وجعلها سوقاً للمنتجات الصناعية الأوربية ذات الأسعار المجزية ، واستيراد المواد الخام المعدنية والزراعية بأسعار زهيدة .

٣- اغراق الدول النامية بالديون التي تستخدم لتغطية أثمان الصادرات من الدول الأوربية ، وقيمة رواتب الخبراء والمستشارين . وأصبحت مبالغ خدمة الديون تزيد عن قيمة المساعدات والقروض .

٤- تصدير الخبرة الفنية والتكنولوجية إلى البلدان النامية بأسعار باهظة وبمواصفات مقننة تؤدي إلى زيادة التكلفة وقلة الفائدة .

٥- سيطرة الشركات متعددة الجنسيات على القدر الأكبر من الثروات المعدنية والزراعية في كثير من البلدان النامية وجني الأرباح الطائلة من خلال عمليات البحث والانتاج والنقل والتسويق .

٦- التدخل في الشؤون الداخلية للدول النامية إلى حد فرض بعض أنظمة الحكم الموالية للمعسكر الغربي المهيمن ، أو إسقاط بعض الأنظمة المعادية لها ، يسبب بعض الحروب الداخلية أو الإقليمية وغياب الأمن والاستقرار في تلك البلدان مما يعيق بشكل كبير عمليات التنمية .

ولابد من القول أن الدول النامية بحاجة إلى مزيد من الوعي بالمصالح الوطنية ، والعمل بجد ودون كلل على إقامة تحالفات فيما بينها في مجالات البحث العلمي والتقني ، والتكتل الاقتصادي ، والتعاون السياسي من أجل الدفاع عن مصالحها الحيوية حيال الدول التي تهيمن وتتحكم بمقدرات العالم الاقتصادية والسياسية .

أما البلدان العربية ، فعلى الرغم مما حققته من إنجازات على طريق التنمية الشاملة ، فإنها مؤهلة أكثر من غيرها من البلدان النامية ، لإقامة تعاون اقتصادي وسياسي فعال يؤدي إلى تعزيز مسيرة التنمية ، ويحقق النهوض الاقتصادي والاجتماعي المتكامل القوي .

الهوامش

١- هذه المنظمات هي :
الفاو : منظمة الأغذية العالمية FAO
اليونيسيف : صندوق الأمم المتحدة للطفولة UNICEF
البنود : برنامج الأمم المتحدة الإنمائي PNUD
الكنوسيد : لجنة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية CNUCED

٢- محمد علي بهجت الفاضلي ، محمد عبد الحميد الحمادي : دراسات في جغرافيا التنمية ، تعريب منشأة المعارف بالاسكندرية ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ ، ص ٢٠ - ٢١ .

٣- المصدر السابق ، ص ٢٢ .

٤- المصدر السابق ، ص ٢٣ - ٢٤ .

٥- Yves Lacoste, Geographie du Sous - Deue Lopp Eme nt, Developpement Magellan PUF. 1965. pp. 18-19-5.

٦- انطونيوس كرم : اقتصاديات التخلف والتنمية - منشورات مركز الإنماء العربي ، ١٩٨٠ ، ص ١٥ - ١٦ .

٧- المصدر السابق ص ١٥ - ١٦ .

٨- معين حداد ، الشرق الأوسط ، بيروت ، ص ١٣٣ .

٩- انطونيوس كرم ، مصدر سابق ، ص ١٨ .

١٠- محمد علي بهجت الفاضلي ، محمد عبد الحميد الحمادي ، مصدر سابق ، ص ٤٣ - ٤٥ .

١١- انطونيوس كرم : مصدر سابق ، ص ١٠٦ .

١٢- محمد علي بهجت الفاضلي ، محمد عبد الحميد الحمادي ، مصدر سابق ، ص ٤٦ .

١٣- المصدر السابق ، ص ٢٧ - ٢٨ .

١٤- المصدر السابق ، ص ٢٨ .

١٥- Yves Lacoste , Les Pays Sous - Deveoppes. Quesais - Je N. 953. p.22.

١٦- عبء خدمة الديون : $\frac{\text{أقساط إستهلاك الديون + الفوائد}}{\text{قيمة الصادرات}}$

١٧- انطونيوس كرم : مصدر سابق ، ص ٧٢ - ٧٣ .

المراجع العربية :

١- اوريليوبيشي : ساعة الحقيقة ، ترجمة صافي فلوح منشورات وزارة الثقافة والارشاد ، دمشق، ١٩٨٠ .
٢- أ ي. ليفكو فسكي : أين العالم الثالث من العالم المعاصر ترجمة مطانيوس حبيب ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٢ .
٣- ألن درننج : الفقر والبيئة ، الحد من دوامة الفقر ، ترجمة محمد صابر ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ .
٤- أنطونيوس كرم : اقتصاديات التخلف والتنمية ، منشورات مراكز الاتحاد القومي ، بيروت ، ١٩٨٠ .
٥- روبيرت لافون : الانفجار السكاني ، ترجمة نبيه الأصفهاني ، المطبعة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
٦- معين حداد ، الشرق الأوسط ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٩٦ .
٧- محمد علي بهجة الفاضلي ومحمد عبد الحميد حمادي ، دراسات في جغرافية التنمية ، تعريب، منشأة المعارف بالاسكندرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٦ .
٨- تقرير التنمية السكانية الصادر عن صندوق الأمم المتحدة للإسكان لعام ٩٢ - ١٩٩٤ .
٩- موارد العالم في عام ٨٨ - ١٩٨٩ ، معهد الموارد العالمية ، ترجمة الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي ، طبعة مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت .
١٠- صندوق الأمم المتحدة للإسكان ، وضع السكان عام ١٩٩٠ .

المراجع الأجنبية :

1 - Angelos Angelopolos : Letiers-Monde Face aux pays riches. PUF 1975.
2 - Alfred Sauvy : La Population . Que-Sais-Je. N. 148.
3 - Denis - Clair Lambert : Leseconomies du Tiers-Monde A. Collin. 1974.
4 - J. Beaujeu - Garnier : L'economie de L'Amerique Latine. Que Sais-Je ? N. 957.
5 - Hubert D'Herouville : L'economie Mondial. Quesis-Je N. 343.
6 - Jean-Maire Albertini : Les Mecanismes du Sous-Developpement Edit. Ouvrierers. 40 ed. 1967.
7 - Paul Bairoch : Le Tiers Monde dans L'impasse Idee NRF.
8 - Pierre George : Geographie agricole du Monde. Quesais - Je N. 212.

9 - Pierre George : Geographie Sociale du Monde. Que Sais - Je, N.197.
10 - Samir Anin, I : L'accumulation a'1' Echelle Mondial. 1971.
11 - Samir Amin, I : Le Developpement Inegal. Ed. de Minuit. 1973.
12 - Yves Lacoste : Geographie du Sous - Developpement. Magellan, PUF, 1965.
13 - Yves Lacoste : Les Pays sous - Developpement. que sais-je?
14 - Yves Benot : Qu'est-ceque Le Developpement. Maspero, 1973.

البرامج الإرشادية في السجون ودورها في الحد من العود إلى الجريمة

د. سعود بن ضحيان الضحيان

أستاذ الخدمة الإجتماعية المشارك

كلية الآداب - جامعة الملك سعود

مقدمة :

تعدّ العقوبة من أهم الوسائل القديمة التي استخدمتها المجتمعات أداة للضبط الاجتماعي. وبمرور الزمن وتطور المجتمعات - خاصة بعد نزول الديانات الثلاث - وتطور الفكر التشريعي ، اتخذت العقوبة أشكالاً مختلفة ، فتغيرت من كونها عقوبة جسدية للمجرمين تلازمها أنواع من التعذيب - تحقيقاً للردع من ناحية، ووسيلة للانتقام أو الاقتصاص من المجرم من ناحية أخرى - إلى أن أصبحت فى بعض المجتمعات نوع من التهذيب والإصلاح والتقويم ، انطلاقاً من القيم الدينية والإنسانية التي تدعو إليها حركة الدفاع الاجتماعي، لإصلاح المجرم وتقويمه، وإعادة اندماجه في المجتمع مواطناً صالحاً .

لقد هدفت حركة إصلاح السجون إلى تحويل السجون من معاقل للتعذيب إلى إصلاحيات تهدف إلى تعديل سلوك النزلاء وتأهيلهم مهنيا ، وبذلك تساعدهم لكي يصبحوا مواطنين أسوياء. ويرتبط نجاح تلك الإصلاحيات بوجود مختصين فى تنفيذ البرامج الإصلاحية، حيث يتولون الإشراف عليها، وتشجيع النزلاء على الالتحاق بهذه البرامج ، ويشكلون حلقة الاتصال بين النزلاء وإدارة السجن . ويمثل هؤلاء الإخصائيون الاجتماعيون الذين يبذلون جهوداً داخل السجن وخارجه لتسهيل عودة النزيل إلى الحياة الخارجية، وضمان استقراره وتكيفه الاجتماعي والنفسي.

وتتجه التيارات الإصلاحية في مجال الجريمة إلى الإقرار بأهمية الجانب الديني أداة رئيسية فى إعداد البرامج الإصلاحية ، فالسجن لم يعد مؤسسة عقاب فحسب ، بل

وسيلة لإعادة توجيه السلوك وتقويمه . وعلى هذا الأساس أخذت عمليات تعديل السلوك بعداً تطبيقياً ، حيث اهتمت تلك البرامج بتعديل سلوك النزلاء ، على افتراض أن من تم تعديل سلوكه تكون فرصته فى الاستقامة أكثر من غيره . لذا يجب العمل على معالجة الجرائم التي تشكل البداية لارتكاب جرائم أكثر خطورة . فالسرقة مثلا تعتبر جريمة اعتداء على أموال الآخرين وممتلكاتهم، غير أن هذا النوع من الجرائم البسيطة قد يدفع إلى ارتكاب جرائم أكثر عنفاً، وذلك عندما يحدث الاعتداء على الأفراد من أجل سرقة أموالهم، وبالتالي يجد المجرم نفسه فى سلسلة متتابعة من الأعمال الإجرامية[1] .

وقد ظهر العديد من الحركات الإصلاحية فى مجال السجون ، غير أن هناك اختلافات بينها ، ويرجع ذلك لاختلاف المجتمعات التي ظهرت فيها تلك الحركات ، ولعلّ أهم تلك الاختلافات تدور حول نوعية البرامج الهادفة إلى الإصلاح . حيث يعكس البرنامج الإصلاحي عقيدة المجتمع بذاته ، ومن بين تلك العقائد التي تدعو إلى معاملة السجناء وإصلاحهم العقيدة الإسلامية ، وهي العقيدة التي ترتكز على تقويم السلوك بوصفه عاملاً فعّالاً في إصلاح السجين ، بالإضافة إلى ذلك، يعد هدف تأهيل النزيل على أداء مهنة معينة هدفاً رئيساً للبرامج الإصلاحية حتى تساعده على بداية حياة جديدة ، غير أن بعض تلك البرامج يتجاهل حقيقة مهمة تتمثل في أن ظاهرة العود ترتبط بظاهرة تأقلم النزيل وتكيفه مع بيئته الجديدة أثناء وجوده فى السجن . ففى خلال هذه الفترة يستمد النزيل قيماً جديدة ويدخل فى اتساق حياتي موحد مع باقي السجناء . ويعايش ثقافة فرعية يمكن تسميتها بثقافة السجن الفرعية، وتختلف هذه الثقافة عن الثقافة الأم (ثقافة المجتمع الذي أتى منه) ، بل يمكن أن تأخذ تلك الثقافة الفرعية أشكالا متمايزة عن الثقافة الأم[2] . وتكمن خطورة هذه الأنواع من الثقافات الفرعية في أنّ من يلتزم بها قبل خروجه من السجن يعني ذلك أنه قد أعلن تمرده على ثقافة المجتمع ، مما يصعب تأقلمه مع المجتمع الخارجي ، وبالتالي فلا مفرّ من عودته مرة أخرى إلى السجن أو الإصلاحية؛ لأنه بعد الإفراج عنه سوف يكون فى عزلة عن المجتمع الكبير باعتبار أن ثقافته الفرعية تختلف عن ثقافة

المجتمع . ويأخذ ذلك أبعاداً مختلفة تبعاً لطول مدة العقوبة التي يمضيها النزيل فى السجن، و مدى اكتسابه الثقافة الفرعية للسجن ، على اعتبار أن طول مدة البقاء في السجن تزيد من تأثير الثقافة الفرعية على السجين . ونظراً لطبيعة العلاقة بين الدين وظاهرة الانحراف، لما للتمسك بالقيم الدينية من تأثير على سلوك الأفراد ، فإن البرامج الإرشادية داخل الإصلاحيات تساعد على الإقلال من النسبة العامة لحدوث الجرائم ، وهذا الرأي ينسجم مع رأي أغلبية المشرعين وعلماء الدين والمصلحين الاجتماعيين ورجال التربية[٣] .

مسألة الدراسة :

يؤمن بعضهم بأن التمسك بالقيم الدينية هو السبيل إلى تعديل السلوك والأخلاق . ولما بين القيم الدينية والقيم الاجتماعية من تساند وتداخل وترابط .فقد أولت معظم المؤسسات العقابية خاصة فى الدول الإسلامية اهتماماً بضرورة تمسك نزلاء المؤسسات العقابية بالقيم الدينية . ولتحقيق ذلك تم تنظيم المحاضرات الدينية وبرامج الوعظ والإرشاد وحلقات تحفيظ القرآن الكريم ، إضافة إلى تأمين أماكن العبادة والصلاة[٤] .

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على البعدين التاليين :

- التعرف على دور البرامج الإرشادية في تغيير السلوك .
- التعرف على ارتباط ذلك التغيير في الحد من العود إلى الجريمة .

أي أن محور هذه الدراسة يدور حول معرفة تقبل النزيل الملتحق لبرامج الوعظ والإرشاد وتحفيظ القران الكريم ومدى انعكاس ذلك على سلوكه ، وبالتالي كشف الأثر الذي تحدثه تلك البرامج في منع عودته لاقتراف جريمة أخرى .

واستناداً إلى ذلك تسعى الدراسة إلى الإجابة عن مجموعة التساؤلات التالية :

- إلى أي مدى ترتبط العوامل الذاتية والأسرية والبيئية للنزلاء بالعود إلى الجريمة ؟
- إلى أي مدى ترتبط العوامل التي ساهمت في اقتراف الجريمة في المرة الأولى في

العود إلى الجريمة مرة أخرى ؟

- إلى أي مدى ترتبط قناعة النزيل ببرامج الإرشاد الديني التي التحق بها وعودته إلى الجريمة مرة أخرى ؟

الإجراءات المنهجية

منهج الدراسة :

نظرا لصعوبة الوصول إلى جميع المفرج عنهم منذ سنة؛ الذين لم يعودوا إلى الجريمة مرة أخرى، لأنهم لا يرغبون في تذكر ذلك الماضي؛ أو حتى الحديث عنه، الأمر الذي أجبرنا إلى التعامل مع من وافق منهم أن يحدثنا عن ذلك الماضي. لذا فإن الدراسة ستنحصر على أولئك الذين أبدوا استعدادهم للتعاون؛ ولهذا اضطر الباحث إلى استخدام منهج دراسة الحالة، للتكيف مع تلك المعطيات، حيث يقوم هذا المنهج على إجراء مقابلات حرة تليها مقابلات موجهة ومحددة، وذلك للحصول على أكبر قدرممكن من المعلومات، والتأكد فى الوقت نفسه من مصداقيتها؛ ويعد هذا الأسلوب مرنا فى طريقته للحصول على المعلومات[٥].

وعلى الرغم من النقد الموجه إلى هذا النوع من البحوث حيث يرى بعضهم أن درجة التحيز فيه عالية ، وأنه لا يمكن تعميم نتائجه لأن العينة غير ممثلة لمجتمع الدراسة كما أن المفردات التي يتعامل معها قليلة جداً . إلا أن هناك نظرة أخرى لهذا النوع من المناهج ، حيث تعد دراسة الحالة إحدى الوسائل الامبيريقية التي تبحث فى الظاهرة ومصادرها من خلال محتوياتها الحقيقية، خاصة عندما تكون الفواصل بين الظاهرة وبين تلك المصادر واضحة، والتي يمكن من خلالها التحقق من الإثباتات فى الدراسة الواحدة[٦].

ونظراً لكون منهج دراسة الحالة يعتمد على الجانب المعرفي للحالة تبعاً لتسلسل الأحداث وعلى فترات زمنية تطول أو تقصر تبعاً لطبيعة الدراسة . وبذا فإن ذلك المنهج يقدم للباحث كماً كبيراً من المعرفة عن الحالة أو الحالات التي يتم دراستها .

ويقوم الباحث بعملية استقراء لتلك المعرفة وتطويعها لتقديم فهم علمي للحالات المدروسة .

ومن هذا المنطلق قام الباحث بتطبيق ذلك المنهج على النحو التالي:

أولا : اعتبار المرحلة الراهنة هي المرحلة الأولى التي انطلق منها الباحث .

ثانياً : تم الانتقال من مرحلة إلى مرحلة تالية تنازلياً فيما يتعلق بالزمن، حيث شلكت مرحلة السجن المرحلة الثانية، في حين أن ما قبل دخول السجن شكل المرحلة الثالثة، وهي المرحلة التي تمّ فيها اقتراف الجريمة. تلي ذلك مرحلة رابعة تمثل الدوافع والأسباب التي كانت وراء ارتكاب الجريمة، أما المرحلة الأخيرة فإنها متعلقة بحياة الحالة بصورة عامة وهي مرحلة الطفولة والمراهقة.

ثالثاً : تحديد أهم الأحداث التي ذكرها الباحث وذلك للاستفادة منها في رسم صورة متكاملة عن الحالة.

مجتمع الدراسة :

لكون الدراسة تعتمد على نوعية خاصة من النزلاء(الذين سبق لهم الالتحاق بالبرامج الإرشادية) فإن مجتمع الدراسة ينقسم إلى التالي :

أ ـ النزلاء الذين التحقوا بالبرامج الإرشادية وتم الإفراج عنهم ،إلا أنهم عادوا إلى الجريمة.

ب ـ النزلاء الذين التحقوا بالبرامج الإرشادية وتم الإفراج عنهم ، غير أنهم لم يعودوا إلى الجريمة .

ولقد تم تطبيق الدراسة على النزلاء الذين سبق لهم دخول إصلاحية الحائر وسجن العود. وتشكل إصلاحية الحائر المحور الإصلاحي في المؤسسات العقابية بمدينة الرياض، حيث يوجد برنامج مهني وإرشادي وتعليمي لمن يرغب من النزلاء. ويوضح الجدول رقم ٢ البرامج المنفذة بالإصلاحيات بسجون المملكة، ويلاحظ مدي الأقبال على البرامج الإرشادية .ونظراً لأن طبيعة الدراسة تقتصر على أولئك الذين التحقوا ببرامج إرشادية وخرجوا من السجن فإن باقي البرامج (المهنية والتعليمية) لن تحظى بتوسع في الدراسة .

عينة الدراسة :

فى مثل هذا النوع من الدراسات، التى يجب أن يتوخى الباحث فيها الحرص ، يتم اختيار مفردات العينة بواسطة استخدام عينة كرة الثلج ، حيث تعد أنسب أنواع العينات غير الاحتمالية، نظرا لحساسية الموضوع، ورفض الكثير في أن يكونوا ضمن العينة. ويقوم هذا النوع من العينات على أساس تحديد المفردة الأولى ثم يتعرف على باقي وحدات الدراسة من خلال مساعدة الوحدة الأولى، أو أي مفردة لاحقة، وهكذا حتى الانتهاء من مقابلة جميع مفردات العينة، وهذا النوع يضمن تجانس مفردات العينة سواء فى المجموعة الأولى التي عاد أفرادها إلى الجريمة بعد الإفراج عنهم ، أو المجموعة الثانية التي لم يعد أفرادها إلى الجريمة مرة أخر ، علماً بأن مفردات الدراسة بلغ عددها عشر مفردات كل مجموعة مكونة من خمس مفردات . هذا وقد اعتمد الباحث على العاملين في تقديم البرامج الإرشادية في الإصلاحيات وذلك في المساعدة للتعرف على أماكن تواجد بعض الحالات (التي استقرت ولم تعد إلى الجريمة) وذلك لطمأنتهم بأن هناك سرية تامة فيما يتعلق بالمعلومات التي سوف تطلب منهم.

البعد المكاني :

أجريت هذه الدراسة على مجموعتين من نزلاء إصلاحية الحائر وسجن العود ، وتقع كلتا المؤسستين بمدينة الرياض ، حيث يتم تقديم برامج للوعظ والإرشاد وحفظ القرآن الكريم لجميع النزلاء .

إصلاحية الحائر :

تقع إصلاحية الحائر جنوب مدينة الرياض وتعد أول ما أسس من الإصلاحيات. وتقدم في هذه الإصلاحية عدد من الخدمات الاجتماعية والصحية والثقافية والتأهيلة. ويتولى الإشرف على تلك الخدمات إدارتا الإصلاح والتأهيل، وإدارة الشئون الدينية والثقافية بالتعاون والتنسيق مع عدد من المؤسسات العامة خارج السجن. ومن أهم تلك الخدمات ما يلي :

الخدمات الصحية : حيث يوجد مستوصف في الإصلاحية لتقديم العلاج والإسعافات الضرورية . يوجد في ذلك المستوصف أربعة أطباء وعدد من الممرضين. ويشترك في الإشراف على تلك الخدمة إدارة الخدمات الطبية في وزارة الداخلية، كما أن هناك تنسيقاً مع وزارة الصحة عند الحاجة إلى طبيب استشاري .

التعليم : توجد مدرسة إبتدائية وأخرى متوسطة تحت إشراف وزارة المعارف وتمنح الشهادات دون أي إشارة إلى أنها من الإصلاحية، كما تتاح الفرصة لمن يرغبون في مواصلة تعليمهم .

التوعية والإرشاد الديني : يتولى تقديم هذه الخدمة مجموعة من المشائخ والعلماء والأئمة ، وتتعاون وزارة الشئون الإسلامية بتوفير احتياجات الإصلاحية .

ومن تلك الأنشطة ما يلي :

- بث الوعي الديني بين النزلاء.
- تدريس العلوم الدينية عن طريق إلقاء المحاضرات وتعليم النزلاء فرائض دينهم.
- تشجيع النزلاء على حفض القرآن الكريم.
- عمل مسابقات في حفظ القرآن الكريم بين النزلاء.
- صرف حوافز مادية للملتحقين بحلقات حفظ القرآن الكريم.
- ربط حفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه بتخفيض مدة المحكومية (هناك شرح مفصل لذلك تحت عنوان البرامج الإرشادية).

الرعاية الاجتماعية والنفسية : ومن أهم تلك الخدمات :

- بحث حالة النزيل بمجرد دخول الإصلاحية.
- يتم دراسة أسرته (لأرباب الأسر) .
- تكوين علاقة مهنية بين النزيل والأخصائي الاجتماعي.
- متابعة حالة النزيل ومدى اندماجه مع جو الإصلاحية.
- القيام بعدد من الدراسات على مستوى الفرد والجماعة.
- تدريب النزلاء على الأعمال الريادية.

- تهيئة النزيل قبل خروجه من المستشفى
- يتولى الأخصائي النفسي مساعدة النزيل لمواجهة المشكلات النفسية .

تأهيل النزلاء : ويتم ذلك عن طريق التدريب المهني وذلك بالتنسيق مع المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، حيث تقوم المؤسسة بتوفير المدربين ومنحهم شهادات تؤهلهم العمل بعد الإفراج عنهم. وتتنوع مجالات التدريب من حيث نوع المهن، فهناك ميكانيكا السيارات وسمكرتها ولحام الكهرباء والنجارة والسباكة والتفصيل وطباعة الاوفست والآلة الكاتبة والتبريد وا لإلكترونيات والحدادة .

الرعاية اللاحقة : يتم من خلالها مساعدة النزيل على التغلب على العقبات التي يمكن أن تصادفه والتنسيق مع الجمعيات الخيرية في ذلك الشأن .

الإنشطة الثقافية والرياضية : وهي كثيرة منها المكتبة والإذاعة الداخلية وشبكة التلفاز المغلقة (الفيديو) والصحف الحائطية. أما فيما يتعلق بالأنشطة الرياضية فيتم التنسيق مع الرئاسة العامة لرعاية الشباب لتوفير الحكام والإشراف على المباريات .

كما أن هناك بعض البرامج الأخرى مثل رعاية المعوقين من النزلاء، وذلك بتوفير أماكن مختصة منفصلة عن باقي العنابر، بالإضافة إلى توفير عامل (خادم) لكل ثلاثة أو أربعة معاقين خلال الأربع والعشرين ساعة. كما أن هناك برنامج لمكافحة التدخين وبرامج شغل وقت الفراغ. وتقوم إدارة الإصلاحية بتشغيل من يرغب من النزلاء مقابل عائد مادي تبعاً للوائح العامة للإدارة العامة للسجون[٧] .

سجن العود :

يقع سجن العود في داخل مدينة الرياض وبالقرب من مركز المدينة ، وهو معد لاستقبال فئة الشباب والذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٥ سنة. غير أن هذا السجن لم يعد قائما في الوقت الراهن حيث تم نقل جميع النزلاء إلى إصلاحية الحائر وذلك راجع لطبيعة الموقع. ونظرا لأن ذلك السجن يختص بفئات محددة لا تمكث فترة طويلة فيه فلم تكن هناك أي برامج تأهيلية ولكن كانت هناك برامج إرشادية وحلقات تحفيظ القرآن الكريم بجانب باقي الخدمات التي أشير إليها سابقاً (الاجتماعية والصحية

والثقافية والرياضية .. الخ) .

أداة جمع البيانات :

نظراً لطبيعة الدراسة، حيث اعتمدت التعرف على مفردات العينة خلال فترة زمنية ابتداءً من مرحلة الإدراك للنزيل حتى مرحلة إجراء الدراسة ، فقد تم تحديد مجموعة من المحاور التي ساعدت في التعرف على النزيل بصورة جيدة. واستخدم الباحث المقابلة المباشرة والموجهة من قبل الباحث مع الحالات، حيث قام الباحث بتهيئة الحالة عن طريق إعطاء شرح واف لها عن طبيعة الدراسة وأهمية تعاونه ومدى فاعلية المعلومات التي سوف يدلي بها .

اسلوب المقابلة :

أولا : تم تحديد عدد من المحاور والتي حرص الباحث على التعرف على رأي الحالة فيها ومن أهم تلك المحاور ما يلي:

- الوضع الاجتماعي والاقتصادي والمهني لمفردة الدراسة وأسرته في الوقت الراهن .
- أهم التغيرات التى حدثت بعد الخروج من السجن .
- العوامل التي ساهمت في تقبل المجتمع له أو عدم تقبله.
- مدى تأقلمه داخل الإصلاحية والاستفادة من البرامج الإرشادية.
- أهم التغيرات التي حدثت بعد دخوله السجن .
- قناعته بالبرامج الإرشادية
- أهم المشكلات التي واجهته قبل اقتراف الجريمة لأول مرة .
- المرحلة العمرية عند ارتكاب الجريمة لأول مرة، والوضع الأسري والدراسي، وطبيعة البيئة التي يعيش فيها، وخصائص الرفاق الذين يرتبط بهم .
- تفسير العود إلى الجريمة مرة أخرى (للعائدين) أو للاستقامة (لغير العائدين) .

ثانياً : تمتعت الحالات المدروسة بحرية تامة في الحديث عن المحور الذي يطرح عليها، وقد تدخل الباحث في بعض الحالات خاصة عندما تحول الحديث إلى مواضيع جانبية أوغير ذات أهمية بالنسبة للدراسة، وعلى الرغم من تلك التدخلات التي تمت فإنها كانت تتم بصورة سلسلة لا يظهر فيها أي تعال على الحالة أو إحراجها، فقد كان الهدف منصباً على توجيه الحوار.

ثالثاً : نظراً لرفض أغلبية الحالات استخدام آلة التسجيل لتسجيل المقابلة (لحساسية الموقف)، فقد اعتمد الباحث في تسجيل المعلومات التي أدلى بها مفردات العينة وذلك عن طريق تدوين تلك المعلومات (السجل القصصي) .

التحليل الإحصائي :

نظراً لأن أسلوب جمع البيانات يعتمد على المقابلات المفتوحة مع مفردات العينة وبسبب محدودية العينة فسوف يعتمد الباحث علي عرض نتائج المقابلات ومن ثم تحليلها .

ثانياً : مفاهيم الدراسة :

يعتبر تحديد المفاهيم من الأليات الرئيسة التي تزيد من وضوح اللغة العلمية . وذلك باعتبار أن العلوم الإنسانية علوم حديثة لم تستقر بعد . لذلك فإن من الضروري عند التصدي لتحليل أي ظاهرة اجتماعية ، أن يتم تحديد المفاهيم تحديداً واضحاً ، حتى يسهل التواصل العلمي بين مجموعة الباحثين الذين ينتمون إلى ذات التخصص. وفي هذه الدراسة نحاول تحديد المفاهيم التالية :

أ - البرامج الإرشادية :

هي عملية تهذيب ديني وخلقي تهدف إلى إيقاظ ضمير النزيل، وتغيّر نمط تفكيره واتجاهاته وسلوكه، وذلك لمساعدته على إنكار الأفكار الإجرامية والعدوانية. وغرس مختلف القيم الدينية السمحة[٨] . ويتحقق ذلك عن طريق تشجيع النزيل على حفظ القرآن الكريم وحضور المحاضرات الدينية والقيام بأداء الفرائض بانتظام وفي هذه الدراسة يقتصر مفهوم البرامج الإرشادية على حلقات تحفيظ القران الكريم .

ب - العود :

يعرف العود على أنه تكرار الاتهام أو تكرار الإدانة ، بعد دخول السجن لمرة واحدة أو أكثر . والعود يشمل أيضاً تعدد الجرائم إذ أن التعدد إنما هو ارتكاب المجرم لعدد من الجرائم حتى ولو لم يتم الحكم عليه في أية جريمة سابقة[٩] .

الدراسات السابقة :

على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت ظاهرة العود إلى الجريمة إلا أن تلك الدراسات لم تسلط الضوء على مدى مساهمة البرامج الإرشادية في الحد من العودة إلى الجريمة، والدراسات التي تناولت ذلك الموضوع كان تناولها من الزاوية النظرية فقط ومنها ما يلي :

- **بحث عبدالعال الموسوم (١٠) بـ : أثر التربية الإسلامية في الحد من الجريمة (١٩٨٥م).**

عمد الباحث إلى عدد من الاتجاهات في تفسير أسباب الجريمة، ومنها الاتجاه الجغرافي وأثر البيئة الجغرافية في تشكيل طبيعة الإنسان، بعد ذلك تناول الاتجاه الأنثروبولوجي لتفسير أسباب الجريمة والذي يقوم على فرضية أن هناك علاقة بين خصائص الجسم وملامح الهيئة . وأخيراً تناول الاتجاه البيولوجي لتفسير أسباب الجريمة ويفترض ذلك الاتجاه أن السلوك ينتقل إلى الإنسان بالوراثة .

ثم تناول الباحث عناية التربية الإسلامية بالتكوين الأساسي للفرد كذلك عرض إلى عملية التنشئة الإسلامية والسلوك الإجرامي . ولقد خلص الباحث إلى أن التربية الإسلامية تمثل الجانب الوقائي في الحد من الجريمة .

- **دراسة الشيباني الموسومة (١١) بـ : الاتجاه الإسلامي لرعاية السجناء وتطبيقاته في الميدان الإصلاحي (١٩٩٥م).**

تناول الباحث عدداً من المواضيع من أهمها :

- مفهوم الاتجاه الإسلامي في رعاية السجناء من منظور إسلامي .

- مفهوم السجن ورعاية السجناء من منظور إسلامي .
- دواعي رعاية السجناء والأسباب الدافعة إليها في الشريعة الإسلامية .
- التطبيقات العملية للاتجاه الإسلامي في الميدان الإصلاحي .

وفيما يتعلق بالمحور الأخير أبرز الباحث عدداً من الأمور التي يجب الأخذ بها، ومنها :

- تطبيق مبدأ الرعاية الشاملة .
- نشر الوعي بأهمية رعاية السجناء .
- تشجيع إنشاء جمعيات الدفاع الاجتماعي وجمعيات رعاية السجناء.
- تطوير إدارات السجون لتكون في مستوى القيام بتحمل مسئولية رعاية السجناء وتأهيلهم .
- تصنيف السجناء حسب مهنهم ومستوى صحتهم النفسية أو العقلية، حسب الجريمة وخطورتها، ومراعاة الفروق بين النزلاء، ونوع البرامج التعليمية والتدريبية والعلاجية والتأهيلية التي توجه إليهم .

وقد خلص الباحث إلى أهمية البرامج الإصلاحية بشكل عام والبرامج التثقيفية والتعليمية بشكل خاص في المساعدة علي تقويم السجناء بعد الإفراج عنهم .

أهمية الدراسة :

لعل البيانات الإحصائية التي تشير إلى الأعداد الكبيرة للسجناء في السعودية حيث بلغ عدد السجناء السعوديين (١٢) (موقف ومحكوم) في عام ١٤١٣هـ، ٩٥٤٧، في حين أن عددهم في عام ١٤١٤هـ أصبح ٩٧٩٩ (انظر جدول رقم ١) ، لا يتناسب مع عدد الملتحقين بمختلف البرامج الإصلاحية أو الإرشادية ، حيث يتضح أن عدد الملتحقين في جميع البرامج التعليمة ١٤٦١ نزيلاً ، في حين أن عدد الملتحقين بالبرامج التأهيلية ٦٥٨ نزيلاً ، أما فيما يتعلق بالذين التحقوا بحلقات تحفيظ القران بلغ ٣٢٩٢ نزيلاً (انظر جدول رقم ٢). لعل تلك الأرقام توضح مدى تقبل النزلاء للبرامج الإرشادية . وعلى الرغم من أن بعضهم يقبل على تلك البرامج

نظراً لما يصاحب ذلك من تخفيف لمدة المحكومية فإن الاستثمار الجيد لتلك الرغبة يمكن أن يساهم في زيادة تقليل معدل العود إلى الجريمة ٠من ذلك المنطلق يمكن أن تسهم هذه الدراسة مع ما سبقها من تراكم علمي في وضع تصور للاستفادة من البرامج الإرشادية في السجون ٠

جدول رقم (١)

أعداد النزلاء في السجون السعودية (الموقوفون والمحكومون)

السنة	موقوفون		المجموع	محكومون		المجموع	المجموع الكلي
	سعودي	أجنبي		سعودي	أجنبي		
١٤١٣	٥٧٤٩	٦٠٢١	١١٧٧٠	٣٦٩٨	٢٧٣٨	٦٤٣٦	١٨٢٠٦
١٤١٤	٥٨٩٥	٧٣٠٠	١٣١٩٥	٣٩٠٤	٣٥٥٣	٧٤٥٧	٢٠٦٥٢
الفرق+أو –	+١٤٦	+١٢٧٩	+١٤٢٥	+٢٠٦	+ ٨١٥	+ ١٠٢١	+ ٢٤٤٦
النسبة المئوية	٢٠٥٪	١٧,٥٪	١٠٠٨٪	٥٠٣٪	٢٢٠٩٪	١٣٠٧٪	١١٠٨٪

المصدر : الكتاب الإحصائي لوزارة الداخلية ١٤١٤ هـ

جدول رقم (٢)

أعداد الملتحقين بالبرامج الإصلاحية بالسجون السعودية (البرامج التعليمية - البرامج المهنية - حلقات تحفيظ القرآن) ونسبتهم إلى مجموع السجناء السعوديين

البرنامج	العدد	النسبة ٪
البرامج المهنية	٦٥٨	٧٪
تحفيظ القرآن	٣٢٩٢	٣٣٪
البرامج التعليمية	١٤١٦	٥ر١٤٪

المصدر: الكتاب الإحصائي لوزارة الداخلية، ١٤١٤هـ

رابعاً : الإطار النظرى للدراسة :

على الرغم من تعدد أنواع السلوك إلا أنها جميعها انعكاس للمواقف التي يمر بها الأفراد خلال إقامتهم بالإصلاحية أو حتى بعد الإفراج عنهم . حيث إن معظم أنماط السلوك الإرادى للفرد هي سلوكيات مكتسبة نتيجة التدريب أو التعليم أو المحاكاة أو التقليد . وينطبق هذا المفهوم على ما نطلق عليه بالسلوك السوي ، كما ينطبق أيضا على السلوك المنحرف (غير السوي)، فجميع أنماط السلوك تكتسب عن طريق التعلم. ويمكن إرجاع كل سلوك إلى ثقافة المجتمع فهي التي تحدد إن كان ذلك السلوك سوياً أو غير سوي. فالسلوك السوي فى مجتمع ما، قد يعد غير سوي فى مجتمع آخر والعكس أيضا صحيح[١٣] . ونظراً لأن للثقافة تأثيرها الجلي على السلوك بوجه عام ، فإن التغير السريع فى أي مجتمع عادة ما يصاحبه مشكلات لدى بعضهم لعجزهم عن مواكبته والتكيف معه .

فإن مساهمة التغير الثقافى السريع في نقل الأشكال السلوكية الجامدة دون وضوح مضمونها أمر غير مقنع للأجيال الجديدة ، خاصة إذا عجزت تلك الأشكال السلوكية عن التعامل مع المواقف الحياتية المستجدة من أجل تحقيق الاحتياجات أو الأهداف[١٤] . وعلى ذلك يستلزم نجاح البرامج الإصلاحية أن تقوم على أساس فهم الفرد وقناعته بها، وإذا كان الفرد كثير الاحتياجات ، متقلب النزعات، فإن البرامج يجب أن تتسم بالمرونة حتى تكون كفيلة بإشباع تلك الاحتياجات المتغيرة[١٥] . وبالتالى فإن التعامل مع الأفراد على أساس أن كلاً منهم هو عبارة عن وحدة مستقلة، سوف يساهم وبشكل ملحوظ فى إنجاح أي برنامج إصلاحي وهذا ما يؤكده كسار بيكريا (Cesar Becceria) ، حيث يرى أن إنسانية العقاب تخدم أهداف العدالة أكثر مما تخدمها قسوة العقاب بعنفه . وقد برزت فكرة الإصلاح هدفًا للعقاب بعد صراع مع الاتجاه التقليدى، حيث رأى أتباع الاتجاه الإصلاحى أن العقوبة تهدف إلي إصلاح الجانحين وتقويمهم ، وأنه يمكن الوصول إلى هذا الهدف عن طريق بعث الخوف من تكرار العقوبة وخلق الاعتقاد بأن الجريمة لا تؤدي منفعة ما، بل إن بعضهم قد رأى أن الهدف الأساسى من العقاب يتمثل في تعديل نسق القيم لدى

المنحرف[١٦].

وعلى الرغم من اهتمام علماء الغرب بالإصلاح فإن هذا لا يعني أن علماء المسلمين بعيدون عن هذا المجال. بل إنهم أدركوا ذلك من زمن طويل حيث فسر ذلك الشاعر المسلم محمد إقبال أهمية السلوك أساساً للاستقامة حيث قال: "إن التربية والتعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل جناية عظيمة إذ اعتنى بتربية عقله وتثقيف لسانه، ولم يفعل شيئا بتغذية قلبه وإشعال عاطفته ، وتقويم أخلاقه، وتهذيب نفسه ، فنشأ جيل غير متوازن القوى، غير متناسب النشأة، قد تضخم وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه، وعقله وقلبه وعمله، وعقيدته ، مسافة شاسعة ، ومن رأيه أن نظام التعليم الغربي قد أضعف الروح المعنوية فى الشباب المسلم وجنى على رجولته جناية عظيمة ، فأصبح شاباً رخواً رقيقاً مائعاً لا يستطيع الجهاد ولا يتحمل المكروه"[١٧].

فعلى الرغم من أن كل مولود يولد على الفطرة، إلا أن التغيرات تحدث نتيجة لعمليات التربية والتنشئة. لذلك برزت أهمية التوجيه عند تكوين الأسرة، فهي يجب أن تقوم فى الأساس على المودة والاحترام ، كما تتحدد مسئوليتها في عمليات الضبط والتوجيه السليم ، وتهيئة النشء للتكيف مع المجتمع الكبير ، كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته[١٨].

من هذه القاعدة فإن البرامج الإصلاحية عليها أن تهدف إلى تعديل سلوك السجناء فى المقام الأول، ومن ثم تأهيلهم لكى نضمن أن يسلك النزيل ، بعد الإفراج عنه، سلوكاً سوّياً نتيجة للتعديل الذى طرأ عليه . ولعل هذا الأمر يبدو ضروريا ، خصوصا إذا عرفنا أن ارتفاع نسبة العود إلى الجريمة تشكل هاجساً لجميع المهتمين بقضية الإصلاح ؛ فعلى الرغم من أن النزلاء يتم تأهيلهم إلا أنهم يعودون إلى ارتكاب الجريمة، وهو العود الذي يمكن أن يُرجع إلى غياب تدخل الأخصائى الاجتماعى في توجيه النزلاء للبرامج الإصلاحية بشقيها التأهيلي والإرشادي .

ونظراً لما للتربية الإسلامية من فعالية فى معالجة مشكلة الجريمة ، فهي أداة

تشكيل الإنسان وفي الوقت نفسه تعمل على رعايته منذ لحظة ولادته حتى هرمه، فى مختلف جوانب حياته ، سواء كانت جسمية أو عقلية أو نفسية أو اقتصادية. كما أنها تعمل على تكيفه تكيفاً سليماً خالياً من كل أشكال الصراع والقلق والتوتر. ولا تقتصر التربية الإسلامية على الجانب الوقائى بل تتعداه إلى التقويم والإصلاح لأولئك الذين ضلّوا الطريق وانحرفوا[١٩].

البرامج الإرشادية في السجون السعودية :

تعمل التربية الإسلامية فى جانبها العلاجى من خلال برامج الإرشاد الديني الموجه إلى نزلاء السجون ، حيث تهتم بدروس الوعظ والإرشاد بتطوير إدراك السجين المجالات التالية :

أ - العقيدة : وذلك من خلال إدراك النزلاء لمعرفة الله والتذكير بسنته فى خلقه ، كذلك التعرف على سير الأنبياء والعبرة الماثلة فى دعوتهم إلى هداية الأمم والشعوب .

ب - العبادات : ويتم تعريف النزلاء بأصول الطهارة والنظافة والوضوء والغسل والتيمم، والصلاة وحكمة مشروعيتها، وصوم رمضان وحكمة مشروعيته، بالإضافة إلى بقية أركان الإسلام .

جـ - فى مجال التفسير والحديث يتم اختيار ما هو مناسب فى مجال المحاضرة وزمانها .

د - دروس فى الأخلاق : حيث يقوم الوعاظ بإلقاء الدروس والمحاضرات ذات الموضوعات الهادفة لمحاولة تعديل أخلاقهم وسلوكهم .

هـ - دروس فى المعاملات : ويتم في إطارها توضيح الأحكام المتعلقة بالمعاملات السائدة كالبيع والرهن والدين وتوضيح الربا وأضراره .

و - تحفيظ القرآن الكريم : حيث تولي الإدارة عناية خاصة بتحفيظ القرآن الكريم أو أجزاء منه مع الإجادة والتجويد[٢٠].

ولتشجيع نزلاء السجون بالمملكة العربية السعودية تم وضع برنامج لحفظ القرآن

الكريم وربط ذلك بمدة العقوبة التى يقضيها النزيل . ويرتكز هذا البرنامج على القواعد التالية :

١- من يحفظ القرآن الكريم كاملا يخفض عنه نصف مدة العقوبة .

٢- وحتى لا ييأس بعضهم لعدم قدرتهم على حفظ القرآن الكريم كاملا ثم وضع تعديل للبرنامج بحيث يتيح الفرصة للاستفادة من حفظ أى عدد من أجزاء القرآن الكريم فى تخفيض مدة العقوبة وتحسب على النحو التالى: (عدد الأجزاء المحفوظة مقسومة على عدد أجزاء القرآن الكريم مضروبة فى نصف المدة) حسب المعادلة التالية :

المدة المخفضة = أ x جـ / ب

حيث أ = عدد الأجزاء المحفوظة .

ب = معامل ثابت ويساوى ٣٠ وهو عدد أجزاء القرآن الكريم .

جـ = معامل ثابت مقداره ١/٢ [٢١].

معوقات العمل الإصلاحي في السجون :

نظرا لأن العمل على تعديل النزلاء وميولهم وسلوكهم وإبدالها باتجاهات اجتماعية سليمة يتطلب عنصراً بشرياً مؤهلاً لهذا العمل، إلا أن هذا الأمر غير متوفر فى أغلب الدور الإصلاحية ، وحتى ما هو متوفر فإنه يفتقر إلى الاستعداد والفاعلية، وقلة الخبرة. ولقد أدى ذلك إلى ازدحام تلك الدور بالمنحرفين والمجرمين، وبالتالي إتاحة الفرصة أمام الكثيرين منهم لكي يتعلّموا سلوكاً إجرامياً جديداً وبدلا من التأهيل يخرج الحدث أو البالغ أكثر إجراماً من ذي قبل ، كذلك تهتم برامج التأهيل في العادة بمهن عفا عليها الدهر، ولم تعد ذات فائدة فى مجتمع يعتمد على أحدث وسائل التقنية[٢٢] .

ويعتقد الباحث أن الآية الكريمة ، { وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى } (هامش ١) ، تشكل الأساس لأي برنامج إصلاحي وذلك لأن العامل الرئيس لضمان نجاح إي برنامج إصلاحي هوالنجاح في تغيير سلوك النزيل ، لذلك فإن التوبة

تعد المقياس الحقيقي لتحديد نجاح هذا البرنامج . وللتوبة في الإسلام وظيفة إصلاحية بالدرجة الأولى فلا يكفي لكي يعتبر الفرد تائباً أن يأسف على ما اقترفه من جرم بحق نفسه أو مجتمعه ويعقد العزم على ألا يعود إليه، إذ لا يكفي ذلك بداهة لرفع أثر الفعل الذي اقترفه . وإنما يُقْصَد بالتوبة ، في الواقع ، موقفاً للإرادة أكثر تعقيداً ينظر إلى الماضي والحاضر والمستقبل ويتجلى في الأفعال لا في تبني خط سلوكي جديد فحسب ، ولكن أيضاً في إعادة تجديد البناء الذي تهدم بصورة مؤثرة[٢٣] . ويمكن قياس التوبة بالسلوكيات الجديدة للنزيل والمتمثلة في الممارسة الصادقة للفرائض الدينية ، وبذلك يعد العمل الصالح هو التأكيد لتلك الممارسة الصادقة. فإذا تحقق ذلك فإن الهداية تكون قد تحققت . ونخلص من ذلك إلى أن نجاح أي برنامج إصلاحي يستند أساساً على قناعة النزيل بالبرنامج في المقام الأول ، كما أن طريقة تنفيذه لأهداف ذلك البرنامج وأغراضه تحدد مدى صدق قناعة النزيل بالبرنامج ، وأخيراً فإن نوعية العمل الذي سوف يقوم به النزيل بعد الإفراج عنه يعتبر المؤشر الحقيقي لنجاح البرنامج الإصلاحي ، بغض النظر عن نوعيته .

والخدمة الاجتماعية تمارس دورها في المؤسسات العقابية والإصلاحية كأداة مساندة للإصلاح الاجتماعي، وذلك بتقديم الدعم والعون للنزلاء وللعاملين بتلك المؤسسات لتحقيق أكبر قدر من النجاح للبرامج الإصلاحية. فإن الأخصائى الاجتماعى يعد العامل المؤثر فى تحقيق ذلك النجاح، إذا قام بأدواره المتعددة داخل تلك المؤسسات. وهذه الأدوار تختلف حسب العمل الذى يقوم به. كما أن ذلك الدور يجب أن يتواصل خارج السجن للحد من عودة النزيل إلى الجريمة مرة أخرى. ويتفق أغلب العلماء والباحثون فى ميدان علم الجريمة على أن الشهور الأولى التي تلي الإفراج عن النزيل من أصعب الفترات التي تواجه النزيل، حيث يتحدد مصيره فيها . فهو لديه الاستعداد الطيب للاستقامة، غير أن فقدان الدعم والتوجيه (الرعاية اللاحقة) قد يساعد فى سوء التصرف خاصة إذا عجز عن مواجهة المشكلات التي قد تطرأ على حياته[٢٤] .

الخدمات الاجتماعية والنفسية في السجون :

تتولى الإدارة العامة للسجون تقديم عدد من الخدمات منها :

- الرعاية الصحية حيث تتوفر مستوصفات داخل السجون الرئيسية تتوفر فيها أهم متطلبات العلاج. ويعين في كل سجن طبيب أو أكثر يعهد إليه مسئولية الإجراءات الصحية خاصة فيما يتعلق بالوقاية من الأمراض الوبائية ونظافة العنابر والمهاجع.
- الرعاية الاجتماعية حيث يتم دراسة حالة النزيل عند دخوله السجن، ومتابعة الحالة الاقتصادية للأسرة خاصة إذا كان رب الأسرة هو النزيل وذلك عن طريق الكتابة لمكتب الضمان الاجتماعي لصرف معاش لأسرة النزيل. ويتولى الأخصائي الاجتماعي تكوين علاقة منهية لتقويم وضع النزيل من جميع الجوانب الاجتماعية. كما أن هناك رعاية نفسية وطبية لنزلاء السجون من مدمني المخدرات.
- رعاية أرباب السوابق وذلك من لجنة مشتركة مكونة من وزارة الداخلية ووزارة الصحة ووزارة العمل والشئون الاجتماعية لدراسة كل حالة على انفراد.
- البرامج الإرشادية حيث يتم الاستعانة بالأئمة والمؤذنين من قبل وزارة الحج والأوقاف.
- الخدمات التعليمية ويتم تقديمها من خلال التنسيق المشترك بين كل من وزارة الداخلية ووزارة المعارف.
- البرامج التأهيلية حيث تتعاون المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني في توفير برامج تدريبية في السجون.
- البرامج الثقافية والرياضية.
- تشغيل النزلاء في السجون ، وتعد مطبعة إصلاحية الحائر من أهم البرامج التشغيلية، حيث تأمن تلك المطبعة احتياجات الإدارة العامة للسجون من جميع المطبوعات.
- خدمات الإعاشة والنظافة وتأمين الملبوسات.

وتعد الرعاية اللاحقة (After Care) من أهم عـوامل نجاح برامج الإصـلاح فى السجـون. ويعـتبرالأخـصائي الاجتـمـاعي المختص هو الوحـيد الذي تتيح له مـهاراته وقدراته تولي مهـمـة إعداد النزيل للعودة إلى المجتمع مرة أخرى ومتابعتـه حتى لا يعود إلى الجريمة . وإذا كانت الرعاية اللاحقة من العوامل المساندة والفعالة فى الحد من العودة إلى الجريمة ، فالإسلام كان سباقاً إلى الرعاية الأولية للفرد وقبل أن يتعلم السلوك الإجـرامى. فلقـد ضـرب كل من عـمـر بن الخطاب ثم من بعـده عـمـر ابن عـبدالعـزيز أروع أمـثلة البـرامج الوقـائيـة لمنع الجريمة؛ ابتداء من رعـايـة المحـتـاج (عـام الرمادة) ورعـاية المعاق بدنياً ونفسياً والعناية باللقطاء وصرف معاش لكل مولود يولد فى الإسلام وانتـهـاء بمنع السـخرة والعناية بالمساجين وتصنيـفهم[٢٥]. ولعل خصـائص تلك الفـئـات التي شُملت بالرعـاية هي من أهم العـوامل (عـوامل نـفـسـيـة، وعـوامل عضوية، واقتصادية. . . الخ) التي تساعد على الانحراف ما لم تقدم لها الرعاية .

وعـادة ما تتولى الجمعيات الخيرية رعاية المسجونين والمفرج عنهم ، وتأخذ تلك الرعاية مظاهر متنوعة منها :

أ- تقديم مساعدات مادية وعينية للنزيل أو أسرته أثناء وجوده في السجن، كما تعمل على توفير العمل الشريف لضمان دخل ثابت متواز مع احتياجاته ، وذلك بعد الإفراج عنه .

ب - توفـير الرعـاية النفـسـيـة والاجـتـمـاعـيـة لمساعدة النزيل المفرج عنه فـي مواجـهـة المشاكل التي قد تقف حجر عثرة في طريقه[٢٦].

الخدمة الاجتماعية في السجون :

تعد ممارسة الخدمة الاجتماعية في السجون من أكثر البرامج نجاحًا حيث يجد الأخصائي الاجتماعي مجالاً رحبًا في العمل مع النزلاء نظرا لما يتميز به السجن من استقرار للسجناء داخل السجن، وكبر أعمارهم التي تساعد في سهولة التعامل معهم، بالإضافة إلى حاجتهم لخدمات ورعاية اجتماعية تنطلق من عند الأخصائي الاجتماعي، كل ذلك يساهم بلا أدنى شك في تكوين علاقة مهنية بين الأخصائي الاجتـمـاعي

والنزيل، كما أن تطبيق البرامج الإصلاحية والتعليمية والإرشادية يحتاج إلى من يتولى الإشراف عليها وتنفيذها بصورة تحقق الهدف إلا أن العقبات التي تظهر داخل تلك السجون قد تحول دون تحقيق الأهداف المرجوة من تقديم البرامج الإصلاحية والاجتماعية داخل السجن، ولعل ما أشار إليه القحطاني (٢٧) حول الدراسة الموسومة بـ"دور الخدمة الاجتماعية في تحقيق الوظيفة الاجتماعية للسجون" والتي تم تطبيقها على بعض سجون المملكة العربية السعودية توصل الباحث إلى أن كثرة عدد النزلاء مع قلة عدد الأخصائيين الاجتماعيين تحول دون استفادة معظم النزلاء من برامج الرعاية الاجتماعية والنفسية كما أشارت الدوسري في دراسة أخرى حول أساليب العلاج الذاتي التي تستخدمها الأخصائية مع المسجونات والتي تم تطبيقها في سجن النساء بمدينة الرياض إلا أن عوامل القصور في تقديم الرعاية الاجتماعية والنفسية يرجع إلى عدم وجود الأخصائي الاجتماعي والنفسي باستمرار، وعدم توفر الوقت الكافي لكثرة الأعمال التي تكلف بها الأخصائية الاجتماعية واختصار دورها على الأعمال الإدارية بالإضافة إلى كثرة عدد النزيلات(٢٨) .

لعل ماتوصلت إليه الدراستان حول عدم تناسب أعداد الأخصائيين الاجتماعيين في السجون وعدد النزلاء يظهر وبكل وضوح أن محاولة دراسة دور الاخصائي الاجتماعي داخل السجن ليست بالمثمرة وفيما يتعلق بالسجنين المذكورين في هذه الدراسة لم يبرز دور الأخصائي الاجتماعي في أي من البرامج الإصلاحية والإرشادية، نظرا لتكليفه القيام بأعمال في أغلبها لا تمس دوره الحقيقي كأخصائياً اجتماعياً . ومن خلال زيارة الباحث لكلتا الإصلاحيتين إتضح وجود نقص في عدد الإخصائيين الاجتماعين والنفسيين حيث أن نسبتهم قليلة جداً (١ : ٥٠) مقارنة مع الخدمات التي يقومون بها . (وقد زادت هذه النسبة نتيجة ضم الأخصائيين الاجتماعيين الذين يعملون بسجن العود إلى قوة إصلاحية الحائر) .

أما فيما يتعلق بالمرشدين الدينيين فإنهم كثيرون نظراً لطبيعة دورهم حيث إنهم يقومون بالقاء المحاضرة أو الندوة لفترة زمنية محددة، بالإضافة إلى وجود عدد من المتطوعين بينهم .

نتائج الدراسة :

أولاً : خصائص مفردات الدراسة :

- معظم الذين تمت مقابلتهم هم من الشباب حيث كان متوسط أعمارهم مساويا لـ٢٢ سنة تقريبا .
- بلغ عدد الذين لم يسبق لهم الزواج ثمانية. وعدّت تلك النتيجة أمرا طبيعيا خاصة إذا كان متوسط العمر هو ٢٢ سنة.
- مستواهم التعليمي منخفض ، فالأغلبية أنهوا المرحلة الابتدائية (سبعة)، والبقية التالية لم تتجاوز المرحلة الثانوية (ثلاثة) .
- بلغ عدد من ينتمون إلى أسر كبيرة ثمانية ، وأما الذين ينتمون إلى أسر صغيرة بلغ عددهم اثنان.
- تسعة من أرباب الأسر متزوج بزوجة واحدة .
- ثمان من مفردات العينة يسكنون في أحياء شعبية ، (اثنان منهم غير ا المسكن بعد خروجهما من الإصلاحية لمتطلبات العمل) .
- جماعات الرفاق اتصفت بالتجانس بشكل عام ، فمعظمهم إما زملاء في المدرسة نفسها أو مقيمون في الحي نفسه .

ثانياً : أسباب العود إلى الجريمة :

- ضعف الروابط الأسرية، وخاصة أثناء فترة السجن حيث تكاد تنعدم الزيارات الأسرية حيث بلغت عدد الأسر التي لم تقم بزيارات مستمرة لأفرادها في السجن سبعة .
- تسعة من مفردات الدراسة دخلوا السجن أول مرة بسبب بسيط مثل الذهاب إلى بيت مشبوه، أو مضاربة أو مشكلة مع أحد والديه، أو حادث مروري .
- أكد الجميع بعد الإفراج عنهم أول مرة ، أنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من وصمة العار التي لاحقتهم في كل مكان ذهبوا إليه ، وهذه الوصمة كانت الدافع القوي وراء عودة معظمهم مرة أخرى إلى السجن.

- اختلفت الأسباب التي أدت إلى دخولهم إلى السجن مرة أخرى عن السبب الأول لدخولهم السجن ، كما اتسمت الجريمة التالية بالفظاعة متمثلة بترويج أو استعمال المخدرات أو السكر أو السرقة أو القتل.
- أكد من استقاموا بعد الإفراج عنهم أن الرغبة فى التوبة كانت سابقة لالتحاقهم بالبرامج الإرشادية كمؤشر للندم على ما اقترفوه من فعل، إلا أن تلك البرامج نمت الرغبة في التوبة وساعدت على تطوير العلاقة مع المشرفين على تلك البرامج، أولئك الذين بدورهم ساعدوهم فى توفير فرص العمل سواء فى جماعات تحفيظ القرآن الكريم أو العمل فى المساجد أو غيرها من الأعمال الشريفة .
- محدودية الإمكانيات الاقتصادية هي السمة الغالبة على عينة الدراسة ، نتيجة لعدم توفر عمل مناسب أو لعدم قدرتهم على الاستمرارية فيه ، أربعة منهم نجحوا بعد خروجهم من الإصلاحية فى الحصول على عمل عن طريق المشرفين على البرامج الإرشادية وليس عن طريق الأخصائيين الاجتماعيين كما كان متوقعاً.
- أفاد جميع أفراد العينة (باستثناء حالة واحدة، أودعه والده السجن لتهديده إياه بالسلاح) إنهم بدأوا مسلسل الإدمان بشرب الدخان ثم المسكرات ، ثم الحبوب المنبهة وانتهوا باستعمال الحشيش والهيروين .
- أفاد معظم الذين تمت مقابلتهم أنهم لم يقابلوا الأخصائي الاجتماعي أثناء فترة محكوميتهم كما أن الذين ذكروا أنهم قابلوا الأخصائي الاجتماعي كانت مقابلته لهم عابرة ومتعلقة بإدارة السجن.
- ذكر جميع من التحقوا بحلقات تحفيظ القرآن داخل السجن أنهم لم يروا الأخصائي الاجتماعي أو لم يتعاملوا معه عند التحاقهم بتلك البرامج كما أن علاقتهم الوحيدة كانت مع من كان يتولى مساعدتهم في تحفيظ القرآن .

مناقشة النتائج :

على الرغم من محدودية عينة الدراسة (عشر مفردات) ، فإن النتائج تكاد تكون متماثلة ، عدا بعض الاستثناءات ، مما يعطيها دعماً قوياً فى التفسير . ولعل من أهم ما يمكن استخلاصه من تلك النتائج هو :

أ- هناك تشابه بين النزلاء فى بعض خصائصهم العامة ، والتي كانت الدافع وراء ارتكابهم للجريمة أول مرة ، وتتفق تلك الخصائص مع ما توصلت إليه كثير من الدراسات[٢٩-٤٣] حول خصائص أولئك الذين ارتكبوا جرائمهم لأول مرة أو لأكثر من مرة. وهذا يعني أن ثبات تلك الخصائص لدى من يفرج عنه يزيد من احتمالية عودته إلى لجريمة أكثر من استقامته، ولعلّ المعدلات العالية للعود إلى الجريمة[٤٤-٤٨] تؤيد انخفاض معدل التغيّر الذي يحدث للنزلاء قبل الإفراج عنهم. وقد اتضح من هذه الدراسة أن عدد الذين عادوا إلى الجريمة ستة . وبالتعرف على خصائص الذين لم يعودوا إلى الجريمة بعد الإفراج عنهم، اتضح أن بعض خصائصهم قد تغيّرت، ومن تلك التغيرات، التغيرات التي طرأت على بيئتهم فقد انتقلوا إلى أحياء أخرى أو حصلوا على وظائف تتصف بالثبات والأجر المنتظم المناسب. في حين ساعد صغر عمر النزيل (متوسط العمر للعينة ٢٢ سنة) أولئك الذين عادوا إلى الجريمة بعد الإفراج فى زيادة حجم التأثر بثقافة السجن، وتعلم أساليب أكثر تعقيداً فى فن ارتكاب الجريمة، خاصة أن الانحراف أخذ شكلاً بسيطاً في بدايته، وازداد تعقيداً في المرات التالية، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى .

مما سبق ، يمكننا القول بأن ثبات العوامل التي أدت إلى دخول السجن، ساعدت بما لا يدع مجالاً للشك على العودة إلى الجريمة والعكس صحيح .وبذا تمت الإجابة عن التساؤل الثاني.

ب - على الرغم من أن أسباب دخول السجن للمرة الأولى كانت فى معظم حالاتها خارجة عن إرادة النزلاء (عينة الدراسة)، حيث ساهم التعثر الدراسى - نتيجة لانخفاض مستوى الذكاء[٤٩] - فى عدم القدرة على مواصلة التعليم[٥٠- ٥٥] ، مما أدى إلى ظهورصراع بين النزيل وأسرته[٥٦] ، الأمر الذي أدى إلى حدوث بعض المشكلات[٥٧] ، مما دفعهم إلى البحث عن عمل ، غير أن مستواهم التعليمي لم يؤهلهم في الحصول على عمل .مما اضطرهم للبحث عن وسيلة لقضاء أوقات الفراغ الناجمة عن ترك الدراسة وعدم وجود عمل مناسب. هذا من جهة، ومن جهة

أخرى عدم قدرة معظم أرباب أسرهم على تفهم الواقع الجديد لأبنائهم [٥٨-٥٩]، بالإضافة إلى عدم وجود من يساعد تلك الأسر (الأخصائى الاجتماعى) على تقبل الموقف الجديد والتكيف معه كإجراء وقائي لعدم انحرافهم . الأمر الذى زاد من مساهمة تلك المشكلات فى تقوية روح الخلاف بين النزيل وأسرته، آخذين في الاعتبار أن رفض الأسرة لانحراف أحد أفرادها انحرافاً بسيطاً لا يحل القضية، كما أن عدم معالجة المشكلات البسيطة وتجاهلها لايعني إلغاء تأثيرها [٦٠] . بل على العكس تماما ، حيث يمكن إرجاع اقتراف النزيل لجريمة أكبر بعد الإفراج عنه إلى رد فعل لذلك الرفض [٦١] . ومن الأمور التى يجب مراعاتها هو اتفاقهم على حقيقة مهمة ، هي أنهم تعلموا فن ارتكاب الجريمة من خلال الجماعات التي انتموا إليها سواء داخل السجن أوبعد الإفراج عنهم ، وهذا يؤكد حقيقة أن السلوك الإجرامي نتاج لعملية التعلم . كما أنهم أكدوا أن عملية التعلم حدثت بعد دخولهم السجن للمرة الأولى [٦٢] . وبالتالي يمكن اعتبار السجن المدرسة الحقيقية للانحراف حيث تلتقى فئات كثيرة ذات خبرات متنوعة فى فن ارتكاب الجريمة . فإذا ما تجاهلت إدارة السجن تلك الحقيقة فإنه يصعب بالتالي على مؤسسة واحدة أن تقوم بدور الإصلاح ، بينما هي تقوم فى الوقت نفسه بوظيفة تفريخ مرتكبي الجرائم. من هنا يتضح أن الأسباب التي دخل بسببها ٦٠٪ من مفردات العينة تختلف تماما عن سبب ارتكاب الجريمة للمرة الأولى وهذا يعني أن طول مدة بقاء النزيل في السجن واختلاطه بالآخرين مع افتقار تدخل الأخصائي الاجتماعي للمساعدة في إعادة تكيف من يفرج عنهم دون أدنى شك في اكتساب خبرات جديدة ساعدت على عدم استقامة من يفرج عنهم والعودة من جديد إلى الجريمة وبذا نصل إلى أنه لا توجد علاقة بين سبب ارتكاب الجريمة للمرة الأولى وسبب الجريمة في المرات اللاحقة وبذا نكون قد أجبنا عن السؤال الثاني.

وتعد البرامج الإرشادية من أكثر البرامج الإصلاحية مشاركة نظراً لإلزاميتها على جميع النزلاء (انظر جدول رقم ٢) . إذ يعتقد المشرفون عليها أن مجرد الالتحاق بها سوف يساهم فى تغير سلوك النزلاء إلا أن ارتفاع نسبة العود إلى الجريمة

يلغى ثبات فكرة الجزم بتأثير البرامج الإرشادية. فالتأثير عملية نسبية تعتمد اعتماداً مباشراً على النزيل ذاته ، ونظراً لحقيقة أهمية اختلاف الأفراد في قدراتهم فإن التأثير عليهم مرتبط بتلك القدرات، ومدى تصورهم لتلك البرامج الإرشادية. ولعل تأكيد من استقام منهم، بعد الإفراج عنه، يرجع إلى أن الرغبة في التوبة كانت سابقة للالتحاق بالبرامج الإرشادية ، مما يدعم القول بأن من التحق بتلك البرامج وعاد إلى الإصلاحية بعد الإفراج يثبت أنها - البرامج الإرشادية - لم تساعده على الاستقامة (هامش ٢). أي أن التأثير الذي حدث لبعضم - الذين توفرت لديهم الرغبة في التوبة - ساعد علي زيادة قناعتهم بتلك البرامج. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى» (هامش ١) حيث الهداية تأتي بعد التوبة والإيمان والعمل الصالح . ويمكننا القول بأن قناعة النزيل بالبرامج الإصلاحية كانت الدافع القوي وراء الاستقامة، ولعل حرص المشرفين على رعاية من توفرت لديه تلك القناعة ليعتبر مؤشراً واضحاً على أهميتها. وبالتالى يمكن اعتبار أن القناعة بجدوى البرنامج - بغض النظر عن نوعه - أمر يزيد من فرص نجاحه. وبذا تمت الإجابة عن التساؤل الثالث .

كما لاحظ الباحث من خلال زياراته للإصلاحيتين افتقارالعمل الاجتماعي للعلاقات التنظيمية داخل الإصلاحيتين ويعد ذلك مؤشراً قوياً لافتقار الإصلاحيات لأساسيات العمل المهني ، فمن المفروض أن تتعدى العلاقة بين النزلاء وإدارة السجن التحقيقات الجنائية متخذة نوعاً من العلاقة المبنية على تأهيل النزيل ومساعدته على التكيف في المجتمع الكبير بعد الإفراج عنه. هذا من جانب إدارة السجن، أما فيما يتعلق بدورالأخصائي الاجتماعي، فإنه يؤدي دوراً مزدوجًا واحداً مع إدارة السجن، والآخر مع النزلاء. إلا أن الواقع يختلف كثيراً حسبما أفاد به المبحوثون. فنتائج المقابلات مع النزلاء حول العمل التنظيمي من جهة، ورأي الأخصائيين الاجتماعيين في الأعمال التي يقومون بها (عددهم أثنان في كل سجن) تعكس الحقائق التالية :

١- عدم القدرة على إدراك الدورالمطلوب من الأخصائيين الاجتماعيين سواء كان ذلك ما يتعلق بالعملية التأهيلية أو إعداداً للنزيل للخروج إلى المجتمع الكبير

ورعايته بعد الإفراج عنه، وقد يمكن إرجاع ذلك إلى أن العاملين بإدارة السجن - العسكريين - لم يعدوا إعداداً خاصاً لتنفيذ البرامج الإصلاحية فجميعهم تلقوا علوما يغلب عليها الطابع العسكري[٦٢].

٢- كبر أعداد النزلاء وعدم مواكبة ذلك لعدد الأخصائيين الاجتماعيين حيث إن نسبة عدد الأخصائيين الاجتماعيين إلى عددالنزلاء صغيرة جداً. وهذا يعني أنه لو افترضنا رغبة الأخصائي في تنفيذ ما تدرب عليه لن يقدر على ذلك لضخامة الأعداد. هذا بالإضافة إلي ما أفاد به الأخصائيون من قيامهم بأعمال لاتتعلق بالعمل المهني مثل الأعمال الكتابية الأمر الذي يزيد من تعقيد الأمور.

٣- من خلال المقابلات التي أجريت مع الأخصائيين اتضح أنهم لا يدركون دورهم الحقيقي بالشكل المطلوب، وذلك راجع إلى تأهيلهم العلمي، الذي يتصف بالشمولية، حيث يتخرج الأخصائي الاجتماعي من الجامعة ، وفي أغلب الأحيان لم يتدرب بالسجن ، بل لم يسبق له زيارته للتعرف عليه في مرحلة الدراسة ، كما أن حصيلته العلمية عبارة عن معلومات نظرية تناولت دور الأخصائي الاجتماعي في مجال الدفاع الاجتماعى. أي أن عليه الاعتماد على عامل الخبرة لكي يقوم بأدواره .

٤- عدم إدراك إدارة السجن للدور الحقيقي للأخصائي الاجتماعي من جهة ، وفي الوقت نفسه عدم ممارسة الأخصائي الاجتماعي لدوره المطلوب منه من جهة أخرى، الأمر الذي أدى إلى تهميش دوره، بل إن الأمر تجاوز ذلك والمتمثل بتكليفه ببعض الأعمال الإدارية البعيدة كل البعد عما هو متوقع منه القيام به ولو نظرياً.

مما سبق نخلص إلى أن العلاقة بين النزلاء وكل من إدارة السجن والأخصائي الاجتماعي محدودة (باستثناء التحقيقات الجنائية) .

وبذا تخلص الدراسة إلى الحقائق التالية التي يجب مراعاتها لتزيد من فعالية البرامج الإصلاحية فى السجون وهي على النحو التالي :

أ - إن تحقيق الهدف من تنفيذ البرامج الإصلاحية والإرشادية لا يعني أن ذلك سوف يحقق فائدة مضمونة، فافتقار تنفيذ تلك البرامج للأخصائي الاجتماعي الذي

يستطيع بخبراته ومهاراته وتدخله المهني في التعرّف على الاختلافات الفردية والقدرات الذاتية للنزلاء، للمساعدة في اختيار البرنامج التأهيلي المناسب لهم وإقناعهم بالانتساب إلى البرامج الإرشادية العامة وإمكانيات المؤسسة في تنفيذ البرامج وإيجاد البديل في حالة عدم قدرة المؤسسة على تنفيذ بعض البرامج عن طريق استغلال برامج البيئة لتحقيق ذلك، وحاجة المجتمع إلى نوعية معينة من البرامج، والعمل على تهيئة من يفرج عنه ورعايته رعاية لاحقة. إن القصور في جانب أو أكثر مما تم الإشارة إليه يعني أن من يفرج عنه قد لا يستطيع التكيف مع الحياة الجديدة وبالتالي يعود إلى الجريمة مرة أخرى، ولعل ما توصلت إليه هذه الدراسة من ارتفاع معدل العود يعكس النقص في العوامل السابقة الذكر.

ب - تعتبر عملية التأهيل جهداً ضائعاً إذا لم يتبع ذلك ضمان الحصول على العمل المناسب للنزيل المفرج عنه، ومساعدته على مواجهة ما يطرأ من عقبات أو مشكلات يصعب عليه مواجهتها بمفرده، ويتحقق ذلك من خلال قدرة الأخصائي الاجتماعي وعن طريق اتصالاته بمؤسسات المجتمع الأهلية والحكومية على توفير العمل لمن يفرج عنه وذلك للمساهمة في تكيف النزيل وتحقيق الاستفادة من البرامج التأهيلية.

جـ - حيث إن مسببات الجريمة تتعدد وتتفاعل بصور مختلفة وتؤثر بدرجات متفاوتة على الأفراد فإن المواجهة السليمة تتطلب الشمولية. ويتمثل ذلك في مشاركة الأسرة والمؤسسات الحكومية(الإصلاحيات، الضمان الاجتماعى، التأمينات الاجتماعية، مؤسسات الرعاية اللاحقة ...الخ) والأهلية (جمعيات البر، الجمعيات الخيرية، الجمعيات الأهلية، المبرات الخيرية ...الخ) منذ دخول الفرد السجن، وحتى التأكد من تكيفه في حياته الجديدة بعد الإفراج عنه، وذلك من خلال إشراف علمي من قبل الأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين، لضمان عدم العود إلى الجريمة مرة أخرى.

الهوامش

(١) السعد، صالح. الخطط الوطنية للسياسات الجنائية والتصدى للجريمة : رؤية حاضرة ونظرة مستقبلية ، الفكر الشرطي، شرطة الشارقة، الامارات العربية المتحدة، مج ٢ ع ٤، ١٩٩٤، ص ص ٣٧ - ٦٨ .

(٢) كاره، مصطفى عبيد المجيد . مقدمة فى الانحراف الاجتماعى، بيروت، معهد الإنماء العربى، ١٩٩٢م .

(٣) خلف، محمد .مبادئ علم الإجرام ، دمشق ، دار منهل المعارف، ١٩٨٥.

(٤) ------، مبادئ علم العقاب ، بنغازى ، مطابع الثورة للطباعة والنشر ، ١٩٧٨.

(٥) الخولي، حسن. تطور المنهج في البحوث الانثروبولوجية "منهج دراسة الحالة "، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٢، ص ٢١- ٢٨.

(٦) in Robert K. , Case Study Research : Desiegn 1984 and Methods , Sage Publication, Newburgy Par U.S.A. 1989. p. 23.

(٧) المرشدي، علوش راشد و البارعلي أحمد ، الإيضاح لبرامج الرعاية والإصلاح بالسجون ، مطبعة اصلاحية الحائر ١٤١٧هـ)

(٨) العبيدي، الآسعد . دور الخصائص النفسية والاجتماعية لنزلاء المؤسسات الإصلاحية ومضامينها في تشكيل وتوجيه العملية التعليمية والتربوية بها، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار، ١٩٩٥، ص ٤٢ .

(٩) كارة، مرجع سابق، ص ٣٧.

(١٠) عبدالعال ، علي بن محمد . أثر التربية الاسلامية في الحد من الجريمة . رسالة الخليج العربي ، العددالرابع عشر ١٩٨٥، ص ٣٧ .

(١١) الشيباني، عمر التومي، الاتجاه الإسلامي لرعاية السجناء وتطبيقاته في الميدان الإصلاحي، المجلة العربية للدرسات الأمنية والتدريب، مجلد ١٠، عدد ٢٠، ص ٧-٣٨، (تصدر عن أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية. الرياض، السعودية)

(١٢) وزارة الداخلية، الكتاب الإحصاذي السنوي، المملكة العربية السعودية، الرياض ، مطابع وزارة الداخلية، ١٤١٤هـ.

(١٣) أحمد ، على فؤاد . التأهيل الاجتماعى والمهنى للأحداث الجانحين ، في أساليب معالجة الأحداث الجانحين فى المؤسسات الإصلاحية ، الرياض ، المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٠هـ .

(١٤) أحمد علي فؤاد، المرجع السابق، ص ٨٦.

(١٥) الصادى، أحمد فوزى. عملية وضع برنامج العمل مع جماعات الأحداث الجانحين، في: أساليب معالجة الأحداث الجانحين فى المؤسسات الإصلاحية ، الرياض: المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٠هـ.

(١٦) غانم ، عبدالله ، فكرة المؤسسات الإصلاحية ، في : برامج التدريب في المؤسسات الاصلاحية،

الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٢ .
(١٧) الجوير ، أبرهيم بن مبارك . التربية الإسلامية ودورها في علاج الأحداث الجانحين في : أساليب معالجة الأحداث الجانحين فى المؤسسات الإصلاحية ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٠هـ ، ص ٤٦ .
(١٨) الحامد، دور المؤسسات التربوية غير الرسمية في عملية الضبط الاجتماعي ، الكتاب السنوي لمركز أبحاث الجريمة (الرياض) العدد الثاني ،١٤١٥ ،ص ٨٢- ٨٥.
(١٩) عبدالعال، علي بن محمد. أثر التربية الاسلامية في الحد من الجريمة . رسالة الخليج العربي، العددالرابع عشر١٩٨٥، ص ٣٧ .
(٢٠) وهبه ، توفيق . محاضرات فى إدارة المؤسسات العقابية : دور الاصلاح والتهذيب الرياض ، مطابع الأمن العام ، ١٤٠١ .
(٢١) وهبه ، توفيق و العمري ،غرمان صالح . نظام السجن والتوقيف ولوائحه التنفيذية والأوامر والتعليمات المستديمة . الرياض ، مطابع الأمن العام ، ب ت ، ٥٨ .
(٢٢) مقبل ، فهمي توفيق . العمل الاجتماعي ودوره العلاجي داخل المؤسسات الإصلاحية في المجتمع العربي ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٤ .
(٢٣) رضوان ، زينب . النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي " أصولها وبناؤها من القُرآن والسُنّة " ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٢، ١٩٥ .
(٢٤) السنبل، عبدالعزيز . التجارب العلمية في استخدام البرامج التعليمية والتربوية داخل المؤسسات الإصلاحية، تونس، الندوة العلمية " التعليم داخل المؤسسات الإصلاحية " المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض و المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الجهاز العربي لمحو الأمية " تعليم الكبار " ، ١٩٩٥ ، ص ١٠.
(٢٥) شمس ، محمد محمود و عقاد ، عدنان عبدالحميد . تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية على معدلات الجريمة مع التركيز على السرقات ، الكتاب السنوي لمركز ابحاث الجريمة (الرياض) العدد الثاني ،١٤١٥، ص٣.
(٢٦) رمضان ، السيد . اسهامات الخدمة الاجتماعية في ميدان السجون وأجهزة الرعاية الاحقة ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٥، ص١٧٣ .
(٢٧) القحطاني ، عبدالله محمد صالح ، دور الخدمة الاجتماعية في تحقيق الوظيفة الاجتماعية للسجون رسالة ماجستير ، جامة الملك سعود كلية الآداب قسم الدراسات الاجتماعية ١٤١١هـ.
(٢٨) الدوسري، مها بنت فلاح، مدى ارتباط العوامل الاجتماعية والاقتصادية والذاتية وبيئة السجن بالعودة للجريمة، ١٤١٦، ص ٢٢.
(٢٩) الملك، شرف الدين. طبيعة التعرض لحوادث السرقة في المملكة العربية السعودية . في الكتاب السنوي العدد الثاني، الرياض، مركز آبحاث الجريمة ،١٩٩٥، ص٤٠.
(٣٠) الزغل ، عبدالقادر . البناء الاجتماعي وتفسير السلوك الاجرامي ، في : النظريات الحديثة في تفسير السلوك الاجرامي ، الرياض : المركز العزبى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٧هـ، ١٣٨- ١٣٩ .
(٣١) شمس ، محمد محمود و عقاد ، المرجع السابق، ص ١٩- ٢٥ .

(٣٢) العشماوي ، السيد متولي . الجوانب الاجتماعية لظاهرة الادمان (ج ٢) ، ا الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٤هـ ، ٨١- ٩١ .
(٣٣) شفيق، محمد. الجريمة والمجتمع " محاضرات في الاجتماع الجنائي والدفاع الاجتماعي ، الاسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث، ب ت، ص ٢٠٢- ٢١٠ .
(٣٤) شمس وعقاد ، مرجع سابق، ص ١٣٨- ١٤٢.
(٣٥) الملك ، شرف الدين . طبيعة التعرض لحوادث السرقة في المملكة العربية السعودية . في الكتاب السنوي العدد الثاني ، الرياض ، مركز آبحاث الجريمة ،١٩٩٥، ص ٣٢٦.
(٣٦) الرباعية ، أحمد . اثر الثقافة والمجتمع في دفع الفرد الي ارتكاب الجريمة ،الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٤هـ، ص ١٥٧- ١٥٨، ١٧٩- ١٨١ .
(٣٧) صيرفي ، عبدالله عبدالغني ، وآخرون . نوع جريمة المخدرات المرتكبة بواسطة نزلاء السجون السعوديين ، الرياض ، مركز أبحاث الجريمة ، ١٤٠٨ ، ص ٦٣- ٥٦.
(٣٨) ابراهيم ، اكرم نشأت . عوامل جنوح الاحداث ، سلسلة الدفاع الاجتماعي (المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ، الرباط) ، العدد الثالث . ١٩٨١، ص ١٠٠ - ١٠١ .
(٣٩) عبدالسلام ، فاروق سيد . العود للجريمة من منظور نفسي اجتماعي ، الرياض ،الرياض ، المركز العربى للدراسات الأمنية ١٤٠٩ ،، ص ١٧٧- ١٨٢.
(٤٠) عبداللطيف ، رشاد أحمد . الآثار الاجتماعية لتعاطي المخدرات " تقدير المشكلة و سبل العلاج والوقاية "، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية، ١٤١٢هـ، ص ١٧٠- ١٧١ .
(٤١) الخليفة ، عبدالله بن حسين ، المحددات الاجتماعية لتوزيع الجريمة على أحياء مدينة الرياض، الكتاب السنوي لمركز أبحاث الجريمة (الرياض) العدد الثاني ،١٤١٥ ، ص ١٢٩.
(٤٢) الشهراني ، سعيد سياف زامل . دراسة عوامل العود للجريمة في سجون منطقة الرياض (رسالة ماجستير غير منشورة) ، الرياض ، قسم الدراسات الاجتماعية كلية الآداب ، جامعة الملك سعود، ١٤١٢، ٩٧- ١٠١ .
(٤٣) مركز أبحاث الجريمة . ظاهرة السرقات بالمملكة العربية السعودية " أبعادها وخصائصها " ، الرياض ،مركز أبحاث الجريمة ، ١٤١٣ ، ص ٣٢٦.
(٤٤) الحامد، دور المؤسسات التربوية غير الرسمية في عملية الضبط الاجتماعي ، الكتاب السنوي لمركز أبحاث الجريمة (الرياض) العدد الثاني ،١٤١٥ ،ص ٢١٤ .
(٤٥) مركز أبحاث الجريمة .العود إلي الإجرام" دراسة ميدانية عن ظاهرة إعتياد الإجرام " (بحث غير منشور)، الرياض ،مركز أبحاث الجريمة ، ١٤١٢، ص ٥٧ .
(٤٦) المرزوقى، حمد عبدالكريم وآخرون . الخصائص الاجتماعية والاسرية والتعليمية والاقتصادية وعلاقتها بنوع الجريمة لنزلاء السجون من غير مرتكبي جرائم المخدرات بالمملكة العربية السعودية ،الرياض ،مركز أبحاث الجريمة ، ١٤٠٧، ص ١٣٥.
(٤٧) صيرفي ، عبدالله عبدالغني ، وآخرون . نوع جريمة المخدرات المرتكبة بواسطة نزلاء السجون السعوديين ، الرياض ، مركز أبحاث الجريمة ، ١٤٠٨ ص ١٩٥.
(٤٨) كارة ، مصطفى عبد المجيد . السجن كمؤسسة اجتماعية : دراسة عن ظاهرة العود ، الرياض ، المركز العربى للدراسات الأمنية ١٤٠٨ هـ ، ص ١٣٦- ١٣٧ .
(٤٩) الدسوقي ، كمال . تطور النظريات النفسية الخاصة بأسباب الانحراف الاجرامي ، في :

النظريات الحديثة في تفسير السلوك الاجرامي ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٧هـ . ص ٦٨.

(٥٠) مقبل ، فهمي توفيق . العمل الاجتماعي ودوره العلاجي داخل المؤسسات الإصلاحية في المجتمع العربي ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٤، ص ٣٩- ٤٩.

(٥١) السدحان ، عبدالله ناصر . معاملة الأحداث الجانحين في المملكة العربية السعودية " أمنياً وقضائياً واجتماعياً ". مجلة الأمن (وزارة الداخلية ، الرياض) العدد الثامن ص ٧٩ - ٨٧.

(٥٢) العيسوي ، عبدالرحمن . شخصية المجرم ودوافع الجريمة ، الرياض ، المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٠هـ، ص ١٧٦ .

(٥٣) الملك ، شرف الدين . جنوح الأحداث ، الرياض ، مركز أبحاث الجريمة ، ١٤١١، ص ٣٠٨- ٣٠٩.

(٥٤) منصور ، عبدالمجيد سيد أحمد . السلوك الإجرامي والتفسير الإسلامي ، الجزء الأول ، الرياض ، مركز أبحاث الجريمة ، ١٤١٠، ص ٨٨- ٨٩ .

(٥٥) شفيق ، محمد . الجريمة والمجتمع " محاضرات في الاجتماع الجنائي والدفاع الاجتماعي ، الاسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، ب ت ، ص ١٥٥- ١١٨

(٥٦) العصرة . منير . انحراف الأحداث ومشكلة العوامل ، القاهرة ، المكتب المصري الحديث ، ب ت، ص ٢٤٦- ٢٤٨.

(٥٧) صيرفي وآخرون، مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٥٨) علي، بدرالدين . عرض عام لتطور النظريات المتعلقة بسببية الجريمة ، في : النظريات الحديثة في تفسير السلوك الاجرامي ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٧هـ ص ٢٥ .

(٥٩) العشماوي، مرجع سابق، ص ١٧٢- ١٧٧.

(٦٠) العيسوي ، عبدالرحمن .مبحث الجريمة "دراسة في تفسير الجريمة والقاية منها " بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٢ص ١٨٢ .

(٦١) الأخرس ، محمد صفوح ، العوامل المؤدية لانحراف الأحداث في الوطن العربي ، في : النظريات الحديثة في تفسير السلوك الاجرامي ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٧هـ ، ص ١٤٠.

(٦٢) الدوري ، عدنان .اسباب الجريمة وطبيعة السلوك الاجرامي ،الكويت ، دار ذات السلاسل ، ١٩٧٦، ص ٢٩٤- ٢٩٥ .

(٦٣) الساعاتي، مرجع سابق، ص ١٢٩.

(٦٤) مركز أبحاث الجريمة، مرجع سابق، ص ٥٧.

(٦٥) الشهراني ، سعيد سياف زامل . دراسة عوامل العود للجريمة في سجون منطقة الرياض (رسالة ماجستير غير منشورة) ، الرياض ، قسم الدراسات الاجتماعية كلية الآداب ، جامعة الملك سعود، ١٤١٢، ص ٢٦٦ .

المصادر والمراجع

- ابراهيم ، اكرم نشأت . عوامل جنوح الاحداث ، سلسلة الدفاع الاجتماعي (المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ، الرباط) ، العدد الثالث . ١٩٨١، ص ١٠٠ - ١٠١ .
- ابو العزائم ، جمال ماضى . طرق وأساليب العلاج الطبى النفسى للأحداث الجانحين ، في أساليب معالجة الأحداث الجانحين فى المؤسسات الإصلاحية ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٠هـ .
- أحمد ، على فؤاد . التأهيل الاجتماعى والمهنى للأحداث الجانحين ، في أساليب معالجة الأحداث الجانحين فى المؤسسات الإصلاحية ، الرياض ، المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٠هـ .
- الأخرس ، محمد صفوح ، العوامل المؤدية لانحراف الأحداث في الوطن العربي ، في : النظريات الحديثة في تفسير السلوك الاجرامي ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٧هـ .
- الجوير ، أبرهيم بن مبارك . التربية الإسلامية ودورها في علاج الأحداث الجانحين في : أساليب معالجة الأحداث الجانحين فى المؤسسات الإصلاحية ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٠هـ .
- الحامد، دور المؤسسات التربوية غير الرسمية في عملية الضبط الاجتماعي ، الكتاب السنوي لمركز أبحاث الجريمة (الرياض) العدد الثاني ،١٤١٥ ،ص ٢١٤ .
- خلف، محمد .مبادئ علم الإجرام ، دمشق ، دار منهل المعارف ، ١٩٨٥ .
- خلف، محمد . مبادئ علم العقاب ، بنغازى ، مطابع الثورة للطباعة والنشر ، ١٩٧٨.
- الخليفة ، عبدالله بن حسين ، المحددات الاجتماعية لتوزيع الجريمة على أحياء مدينة الرياض، الكتاب السنوي لمركز أبحاث الجريمة (الرياض) العدد الثاني ،١٤١٥ ،ص ١٢٩.
- الخولي ، حسن . تطور المنهج في البحوث الانثروبولوجية " منهج دراسة الحالة " ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٢.
- الدسوقي ، كمال . تطور النظريات النفسية الخاصة بأسباب الانحراف الاجرامي ، في : النظريات الحديثة في تفسير السلوك الاجرامي ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٧هـ .
- الدوري ، عدنان .اسباب الجريمة وطبيعة السلوك الاجرامي ،الكويت ، دار ذات السلاسل ، ١٩٧٦ .
- الدوسري، مها بنت فلاح، مدى ارتباط العوامل الاجتماعية والاقتصادية والذاتية وبيئة السجن بالعودة للجريمة، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٤١٦هـ.
- الرباعية ، أحمد . اثر الثقافة والمجتمع في دفع الفرد الي ارتكاب الجريمة ،الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٤هـ .
- رضوان ، زينب . النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي " أصولها وبناؤها من القرآن

والسنّة" . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .
- رمضان ، السيد . اسهامات الخدمة الاجتماعية في ميدان السجون وأجهزة الرعاية الاحقة ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٥ .
- الزغل ، عبدالقادر . البناء الاجتماعي وتفسير السلوك الاجرامي ، في : النظريات الحديثة في تفسير السلوك الاجرامي ، الرياض : المركز العزبى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٧هـ . .
- الساعاتي ، سامية حسن . الجريمة و المجتمع " بحوث في علم الاجتماع الجنائي " ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣ .
- السدحان ، عبدالله ناصر . معاملة الأحداث الجانحين في المملكة العربية السعودية " أمنياً وقضائياً واجتماعياً " . مجلة الأمن (وزارة الداخلية ، الرياض) العدد الثامن ص ٧٩ - ٨٧ .
- السعد ، صالح . الخطط الوطنية للسياسات الجنائية والتصدى للجريمة : رؤية حاضرة ونظرة مستقبلية ، الفكر الشرطى ،شرطة الشارقة ، الامارات العربية المتحدة ، مج ٢ ع ٤، ١٩٩٤، ص ص ٣٧ - ٦٨ .
- السمالوطى ، نبيل . علم اجتماع العقاب (ج ١) . جده : دار الشروق ، ١٤٠٣ .
- السنبل، عبدالعزيز . التجارب العلمية في استخدام البرامج التعليمية والتربوية داخل المؤسسات الإصلاحية، تونس، الندوة العلمية " التعليم داخل المؤسسات الإصلاحية " المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض و المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الجهاز العربي لمحو الأمية " تعليم الكبار " ، ١٩٩٥ .
- شفيق، محمد . الجريمة والمجتمع " محاضرات في الاجتماع الجنائي والدفاع الاجتماعي ، الاسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، ب ت .
- شمس ، محمد محمود و عقاد ، عدنان عبدالحميد . تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية على معدلات الجريمة مع التركيز على السرقات ، الرياض مركز ابحاث الجريمة ، ١٤١٢ .
- شمس ، محمد محمود و عقاد ، عدنان عبدالحميد . تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية على معدلات الجريمة مع التركيز على السرقات ، الكتاب السنوي لمركز ابحاث الجريمة (الرياض) العدد الثاني ،١٤١٥ .
- شمس الدين ، محمد علي . التجربة المصرية في التعليم والتدريب المهني لنزلاء المؤسسات الإصلاحية وبعض الدول العربية ، تونس ، الندوة العلمية " التعليم داخل المؤسسات الإصلاحية " المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض و المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الجهاز العربي لمحو الأمية " تعليم الكبار " ، ١٩٩٥ .
- الشهراني ، سعيد سياف زامل . دراسة عوامل العود للجريمة في سجون منطقة الرياض (رسالة ماجستير غير منشورة) ، الرياض، قسم الدراسات الاجتماعية كلية الآداب ، جامعة الملك سعود، ١٤١٢ .
- الصادى، أحمد فوزى. عملية وضع برنامج العمل مع جماعات الأحداث الجانحين ، في : آساليب معالجة الأحداث الجانحين فى المؤسسات الإصلاحية، الرياض: المركز العربى للدراسات الأمنية، ١٤١٠هـ .
- صيرفي ، عبدالله عبدالغني ، وآخرون . نوع جريمة المخدرات المرتكبة بواسطة نزلاء السجون

السعوديين ، الرياض ، مركز أبحاث الجريمة ، ١٤٠٨ .
- كارة ، مصطفى عبد المجيد . السجن كمؤسسة اجتماعية : دراسة عن ظاهرة العود ، الرياض، المركز العربى للدراسات الأمنية ١٤٠٨ هـ .
- كاره ، مصطفى عبيد المجيد . مقدمة فى الانحراف الاجتماعى ، بيروت ، معهد الإنماء العربى ، ١٩٩٢ م .
- عبدالسلام ، فاروق سيد . العود للجريمة من منظور نفسي اجتماعي ، الرياض ،الرياض ، المركز العربى للدراسات الأمنية ١٤٠٩ هـ
- عبدالعال ، علي بن محمد . أثر التربية الاسلامية في الحد من الجريمة . رسالة الخليج العربي ، العددالرابع عشر ١٩٨٥، ص ٣٧ .
- عبداللطيف ، رشاد أحمد . الآثار الاجتماعية لتعاطي المخدرات " تقدير المشكلة و سبل العلاج والوقاية " ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٢هـ .
- العبيدي ، الآسعد . دور الخصائص النفسية والاجتماعية لنزلاء المؤسسات الإصلاحية ومضامينها في تشكيل وتوجيه العملية التعليمية والتربوية بها ، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار، ١٩٩٥م .
- عسوس ، عمر . معوقات العملية التعليمة والتربوية داخل المؤسسات الإصلاحية والعقابية في الدول العربية ، تونس ، الندوة العلمية " التعليم داخل المؤسسات الإصلاحية " المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض و المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الجهاز العربي لمحو الأمية " تعليم الكبار " ، ١٩٩٥ .
- العشماوي ، السيد متولي . الجوانب الاجتماعية لظاهرة الادمان (ج ٢) ، ا الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٤هـ .
- العصرة . منير. انحراف الأحداث ومشكلة العوامل، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ب ت.
- علي، بدرالدين . عرض عام لتطور النظريات المتعلقة بسببية الجريمة ، في : النظريات الحديثة في تفسير السلوك الاجرامي ، الرياض : المركز العزبى للدراسات الأمنية ، ١٤٠٧هـ .
- العوجي ، مصطفى . التأهيل الاجتماعى فى المؤسسات العقابية ، بيروت ، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع ١٩٩٣م .
- العيسوي ، عبدالرحمن . شخصية المجرم ودوافع الجريمة ، الرياض ، المركز العزبى للدراسات الأمنية ، ١٤١٠هـ .
- العيسوي ، عبدالرحمن .مبحث الجريمة " دراسة في تفسير الجريمة والقاية منها " بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٩٢ .
- غانم ، عبدالله ، فكرة المؤسسات الإصلاحية ، في : برامج التدريب في المؤسسات الاصلاحية، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٢.
- متولي ، مصطفى محمد ، نموذج مقترح لبرامج تعليمية تربوية داخل المؤسسات الإصلاحية والعقابية في الدول العربية ، تونس ، الندوة العلمية " التعليم داخل المؤسسات الإصلاحية " المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض و المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الجهاز العربي لمحو الأمية " تعليم الكبار " ، ١٩٩٥ .
- المرزوقى، حمد عبدالكريم وآخرون . الخصائص الاجتماعية والاسرية والتعليمية والاقتصادية

وعلاقتها بنوع الجريمة لنزلاء السجون من غير مرتكبي جرائم المخدرات بالمملكة العربية السعودية ،الرياض ،مركز أبحاث الجريمة ، ١٤٠٧.

- مركز أبحاث الجريمة .العود إلى الإجرام" دراسة ميدانية عن ظاهرة إعتياد الإجرام " (بحث غير منشور)، الرياض ،مركز أبحاث الجريمة ، ١٤١٢
- مركز أبحاث الجريمة . ظاهرة السرقات بالمملكة العربية السعودية " أبعادها وخصائصها " ، الرياض ،مركز أبحاث الجريمة ، ١٤١٣ .
- مرعي ، ابراهيم بيومي . دور التدريب المهني والعمل بالمؤسسات الاصلاحية . في : برامج التدريب في المؤسسات الاصلاحية ، الرياض : المركز العربى للدراسات الأمنية ، ١٤١٢.
- مقبل ، فهمي توفيق . العمل الاجتماعي ودوره العلاجي داخل المؤسسات الإصلاحية في المجتمع العربي ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٤ .
- الملك ، شرف الدين . الجنوح والترويح في الأوقات الحرة لدى الشباب في المملكة العربية السعودية ، الرياض ، مركز أبحاث الجريمة ، ١٤٠٥ .
- الملك ، شرف الدين . جنوح الأحداث ، الرياض ، مركز أبحاث الجريمة ، ١٤١١ .
- الملك ، شرف الدين . طبيعة التعرض لحوادث السرقة في المملكة العربية السعودية . في الكتاب السنوي العدد الثاني ، الرياض ، مركز آبحاث الجريمة ،١٩٩٥.
- منصور ، عبدالمجيد سيد أحمد . الإدمان ، آسبابه ومظاهره الوقاية رالعلاج ، الرياض ، مركز أبحاث الجريمة ، ١٤٠٦ .
- منصور ،عبدالمجيد سيد أحمد . السلوك الإجرامي والتفسير الإسلامي ،الجزء الأول ، الرياض، مركز أبحاث الجريمة ، ١٤١٠ .
- وهبه ، توفيق . محاضرات فى إدارة المؤسسات العقابية : دور الاصلاح والتهذيب الرياض ، مطابع الأمن العام ، ١٤٠١ .
- وهبه ، توفيق و العمري ،غرمان صالح . نظام السجن والتوقيف ولوائحه التنفيذية والأوامر والتعليمات المستديمة . الرياض ، مطابع الأمن العام ، ب ت .

المراجع الأجنبية :

Yin Robert K. , Case Study Research : Desiegn 1984 and Methods, Sage Publication, Newburgy Par U.S.A. 1989

القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي

د. سلامة عبد الله السويدي

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

جامعة قطر

- ١ -

القوس سلاح خطير من أسلحة العرب كان له دوره في السلم والحرب ، حددت مصير كثير من الحروب ، وكانت أداة رئيسية من أدوات الصيد ، وإلى جانب هذا وذاك كانت سلاحا فتاكا في أيدي اللصوص والصعاليك ، وشهر من العرب رماة عرفوا بدقة إصابتهم للهدف أطلق عليهم « رماة الحدق » .

وغدت القوس في حياة العربي رمزاً لمعان كثيرة فاعتد بها العربي أيما اعتداد ، وعادلت عنده في بعض الأحيان الثروة والمال والنفس ، ولعلنا نلمح جانبا من ذلك في قصة حاجب بن زرارة التميمي ، ورهنه قوسه لدى كسرى ، وهي قصة تناقلتها كتب الأدب ، وأشار إليها أبو تمام في مدحته لأبي دلف العجلي إذ يقول[(١)] :

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها	وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم	عروش الذي استرهنوا قوس حاجب

كما نلمح جانباً آخر في قصة الكسعي « محارب بن قيس » الذي كسر قوسه عجلة وتسرعا ثم ندم فقيل « أندم من الكسعي »[(٢)] وسارت مثلاً .

وفي الإسلام نقع على غير قول يحث على تعلم الرماية فنقرأ قول الرسول ﷺ :

« إن الله ليدخل بالسهم الواحد الجنة ، صانعه يحتسب فيه الخير ، والرامي به ، والممد به »[٣] وهو قول من أقوال وحديث من أحاديث رويت له .

كذلك نقع على قول عمر - رضي الله عنه : « ارم فإن الرمي عدة وجلادة » وعلى ما كتبه لأمراء الشام يحثهم على تعلم الرمي والمشي بين الغرضين[٤] .

وإذا كان هذا اهتمام العربي بالقوس في واقع حياته ، فما اهتمامه بها في عالم الشعر والفن ؟ وهل حظيت القوس في أقوال الشعراء وأخيلتهم بمثل ما حظيت به في حيواتهم وأيامهم ؟

هذا ما سنحاول استجلاءه في هذا البحث .

- ٢ -

ولقد وقعنا بعد استقرائنا لدواوين الشعراء الجاهليين على ثلاث قصائد مطولة في وصف القوس عدا مقطوعات وأبيات متفرقة كثيرة تتفاوت في الإجمال والتفصيل ، وهو قدر كاف على أية حال وإن قلت فيه القصائد الطوال المفردة للقوس ، وربما كان هذا راجعا إلى أن الشاعر في وصفه للحرب كان معنيا بأسلحة المواجهة التي تبرز الشجاعة والإقدام ، وطبيعي - والأمر كذلك - أن تتأخر القوس في شعر الحرب رتبة ، كما أن الشاعر أيضا في وصف الصيد كان يستغرقه وصف الصيد لا الأداة فتأخرت القوس رتبة أيضا في شعر الصيد .

ونبدأ بالقصائد الثلاث المطولة وهي لشاعرين ، اثنتان منهما لأوس بن حجر الشاعر الجاهلي ، وواحدة للشماخ بن ضرار الشاعر المخضرم وطبيعي أن تكون وقفتنا الأولى مع أوس ، وقصيدتاه كلتاهما لاميتان إحداهما مفتوحة الروي والأخرى مضمومته .

وفي القصيدة المفتوحة الروي صورة واسعة للقوس وهي أحرى أن تكون نقطة البداية ويستهلها أوس بمقدمة غزلية يقول فيها[٥] :

صَحَا قلبُهُ عن سُكره فتأمّلا وكان بذكرى أم عمرو مُوكلا

يخلص بعدها إلى الفخر ، فلا يجد إلا قوسه يتتبع رحلتها منذ أن كانت عودا في شجرة نبع نمت في جبل عالٍ جلله السحاب[٦] :

ومبضوعةً من رأسِ فَرْعٍ شَظِيَّةً بطودٍ تَراهُ بالسَّحابِ مُجَلّلا
على ظهرِ صَفْوانٍ كأنَّ مُتُونَهُ عُلِلنَ بدُهنٍ يُزلِق المتنزلا

فالنبعة كما ترسمها صورة الشاعر في جبل عال ، صعب المرتقى كأن صخوره علت بدهن فلا تثبت عليها قدم ، وعلى ذلك يصبح الوصول إلى هذه الشجرة ضربا من المحال .

وإظهار صعوبة الوصول إلى الأشياء النادرة سنن سلكه الشعراء في موضوعات عدة ، نراه في وصف عملية الغوص على اللؤلؤ ، ونراه في اشتيار العسل وما يتفنن فيه الشعراء من تصوير مخاطره ، وعلى ذلك مضى أوس - كما رأينا - في تصوير نبعته فراح يكثف قيمة النبعة في صورة ذلك الراعي الذي وقعت عليها عينه ، فظل يطيف بها ، يملأ منها عينه ، ويتأملها وقد غلبه اليأس أن يصل إليها حتى يلقى هذا « الميدعاني » فيخبره بأمرها لقاء أن يذكره ببعض الغنم :

يُطيفُ بها راعٍ يجشّمُ نَفْسَهُ ليكلئ فيها طرْفَهُ مُتَأمّلا
فلاقى امرأً من مَيْدَعان وأسمحتْ قرُونَته باليَأسِ فيها فَعَجّلا[٧]
فقالَ لهُ : هَلْ تَذكُرَنَّ مُخَبّراً يَدُلّ على غُنْمٍ ويُقصرُ مُعجلا
على خيْرِ ما أبصرتَها من بضَاعةٍ لملتمس بَيْعاً بها أو تَبكلا[٨]
فويقَ جُبَيْلٍ شامخِ الرأس لم تكن لتبلغَهُ حتى تكل وتعْمَلا

ولقاء الراعي بهذا الميدعاني لم يكن إلا لقاء بمن يملك الخبرة ، فميدعان كما تحدثنا المصادر[٩] حي من أزد السراة وهم أهل جبال شجيرة ، ومنهم بنو ماسخة الذين تنسب إليهم القسي العربية ، إذن فهذا الميدعاني قواس خبير ، وكان دأب القواسين إذ ذاك أن يطلبوا العيدان العتق من مظانها ، ويستدلوا عليها الرعاء وقناصي الوعول ، ويجعلوا فيها الجعائل .

وربما يلفتنا في الأبيات السابقة غياب ما كنا نتوقعه من مساومة بين الراعي والميدعاني فلا نرى ثم إلا عرضا من الراعي ، وأملا منه في المكافأة :

فقال له : هل تذكرنَّ مُخبراً يَدُلُّ على غنمٍ ويُقْصِرُ معْملا

وغياب هذه المساومة يشي بتلهف الميدعاني لمعرفة النبعة ، وباستعداده أن يدفع في سبيل الظفر بها ما شاء الراعي ، وينقلنا أوس فجأة فنرى الميدعاني وقد وقعت عينه على النبعة ، ورأى ما دونها من مخاطر[١٠] :

فأبصرَ إلهاباً من الطودِ دُونَها تَرى بينَ رأسَيْ كل نِيقَيْن مَهبِلا
فأشْرَطَ فيها نفسَهُ وهوَ مُعصمٌ وألقى بأسبابٍ له وتوكــلا
وقد أكلت أظفارَهُ الصَخرُ كلما تَعَايا عليه طُولُ مَرْقى تَوَصلا
فما زَالَ حَتى نالها وهو مُعصمٌ على مَوطنٍ لوْزَلّ عنهُ تفصلا
فأقبل لا يرْجو التي صَعَدَ ت به ولا نفسَـهُ إلا رَجَاءً مُؤمــلا

لقد أبصر هذا الميدعاني ما يحول بينه وبين النبعة من مهالك تتجسد في هذا الجبل الشاهق غير أنه لا يأبه ويشرط نفسه للموت ويلقى بحباله على الجبل في رحلة لا يعرف نهايتها ، لقد غاب في الصورة صوت النفس المخدرة الذي نسمعه في مواقف مماثلة في صور الغوص والاشتيار ، وغياب هذا الصوت في صورة أوس دليل على القيمة المتناهية لعود النبع ، حيث نسي الميدعاني نفسه ، ولم يقم وزنا لوساوسها .

ويعرض أوس مشهد التسلق في لقطات سريعة موحية من مثل ما نرى في قوله : « وقد أكلت أظفاره الصخر » وفي قوله : « وهو معتصم على موطن لو زل عنه تفصلا » وربما استوقفنا في هذه الصورة أن « أوساً » لم يصف لنا فرحة القواس بغنمه، وربما بدا البيت الأخير من الأبيات السابقة لأول وهلة عجيبا في موضعه إذ نحس فيه بتهالك هذا الميدعاني ولكن قراءة متأنية للأبيات تبرز هذا البيت متمما للصورة فقد بذل الميدعاني كل طاقته في رحلة الصعود ، ولم يبق منه حين أقبل إلا ذماء بحيث أصبح لا يرجو نفسه إلا رجاء مؤملا ، ولعل أوسا قد أراد بذلك أن يعلي قيمة النبعة على الحياة ، فلتذهب حياة هذا الميدعاني إذا قدر لها أن تذهب فليس هذا

بشيء ذي بال إذا تم الظفر بهذا العود النفيس .

ويتابع أوس هذا الميدعاني بعد أن ظفر بغنمه ونجا من كربه ليعرض علينا صورة لإعداد هذه النبعة ، وتهيئتها لتكون قوسا ، فقد تركها الميدعاني مدة لتذبل وتشرب ماء لحائها ، ثم شرع في تثقيفها فاستعان في ذلك بخبير صيقل ، وذلك قوله :

فلما نجا من ذلك الكَرْبِ لم يَزَل   يمظعُها ماءَ اللحاءِ لتَذْبُلا
فأنحى عَلَيْها ذاتَ حَدٍّ دَعَا له   رَفيقاً بأخذٍ بالمَداوسِ صَيْقَلا
على فَخذَيْهِ من بُرايَة عُودِها   شَبيهُ سَفى البُهمَى إذا ما تفتلا

ولعلنا لحظنا أن أوسا في هذه الأبيات يعتمد على الصورة الموحية والتعبير الدال دون أن يهبط إلى المباشرة ، فقد أشعرنا بطول المدة التي استغرقتها النبعة لتذبل دون أن يحدد هذه المدة ، وإنما اكتفى بالقول ولم يزل يمظعها ، وهو قول يشي بالبعد الزمني وكأن هذا الميدعاني يسقي عوده ماء اللحاء جرعة جرعة ، كذلك وشت لفظتا « رفيق» و « صيقل » في البيت الثاني بالحذر ، والدربة ، وصعوبة المعالجة ، وتأتي الصورة في البيت الثالث لتبرز جهد الصيقل وحذرته وأناته في شكل البراية الدقيقة التي تجمعت على فخذيه والتي هي أشبه بسفا البهمي .

وتستوي العود قوسا ، فإذا هي قوس اكتملت لها كل صفات الجودة :

فجرَّدَها صَفْراءَ لا الطولُ عابهَا   ولا قِصَرٌ أزْرَى بها فَتَعَطّلا
كَتومٌ طِلاعُ الكف لا دون مَلْئها   ولا عَجْسُها عن موضع الكفّ أفضَلا[١١]
إذا مَا تعاطوْهَا سمعْتَ لصَوْتها   إذا انبضُوا عنها نَئيماً وأزْمَلا
وإن شدَّ فيها النزْعُ أدبَرَ سهمـا   إلى مُنتهىً من عَجْسها ثم أقبَلا

إنها صفراء وذاك آية صلابتها ، ثم هي لا يعيبها طول ولا يزري بها قصر ، كتوم لاشق فيها ، ملء كف راميها لا يقلق القابض عليها غلظ أو ضمور ، إذا جذب وترها سمعت له أنينا يدبر ويقبل مع حركة الوتر .

ويدلف أوس من القوس إلى سهامها فيشير إلى اختيار أعوادها من نوع معروف

من الشجر هو « الغرب » ويلمح إلى تأنق صانعها في صناعتها ، وكيف يركب لها نصالاً يتوهج بريقها كجمر الغضا حين يتطاير شرره مع الريح ، ثم كيف يكسوها الريش اللؤام أي الذي لازم بعضه بعضا ، ولا يفوت أوس أن يحدد لون الريش فهو أطحل تمتزج فيه الغبرة والبياض والسواد ، وقد بلغ من دقة نصول هذه السهام وشدة صقلها وشحذها أنها تصدر صوتا كالخوار إذا مررت على الأصابع في الندى فكيف بها إذا مررت على الأصابع في يوم مطير ، إن خوارها سيكون كخوار النوق المطافيل وأطلائها ، وقد وقعن على مرعى خصيب :

فَلما قَضَى مِمّا يُرِيدُ قضاءَهُ   وصَلّبَها حِرْصاً عَليها فأطولا
وَحَشْوَ جَفِيرٍ من فُرُوعٍ غَرائبٍ   تنطعَ فيها صَانعٌ وَتَنبلا
تُخيِّرْنَ أنضَاءً وركِبْنَ أنصُلاً   كجَمْرِ الغَضا في يوم ريحٍ تزيّلا
فلما قضى في الصنع منهن فهمه   فلم يبق إلا أن تسنّ وتصقلا
كَساهُنّ من ريشٍ يمانٍ ظواهِراً   سُخَاما لؤاما لينَ المس أطحلا
يخُرْن إذا أنقرنَ في ساقط الندى   وإن كان يوماً ذا أهاضيبَ مُخضلا
خُوَارَ المطافيلِ الملمعةِ الشّوَى   وأطْلائِها صادَفْنَ عِرنانَ مُبقلا

وبذلك يصل أوس إلى تمام القول في القوس ليدخل في الفخر معلنا أن هذه القوس هي عتاده في الحرب .

فذاك عتادي في الحروبِ إذا التظتْ   وأرْدَفَ بأسٌ من حروبٍ وأعجلا

وطبيعي أن هذه الصورة الواسعة التي رسمها أوس لقوسه ليست هي - أيضا - إلا جزء من الفخر ، فاستطراده إلى تتبع رحلة القوس منذ أن كانت عودا إلى أن استوت عدة في يده ليس إلا لونا من التهديد ، وخيراً صنع أوس بتهديده هذا فقد سجل لنا فيه صورة مفصلة حية لصناعة القوس لا نجدها في المصادر إلا نتفا ممزقة ، وأخباراً مبعثرة ، ومصنفات ميتة تخلو من الحياة .

* * *

أما لامية أوس الثانية[١٣] :

لليْلى بأعْلى ذي مَعَارِكَ مَنْزِلُ ... خَلاءٌ تَنَادى أهْلُهُ فتحملوا

فللقوس فيها تسعة أبيات ، فنرى أوساً في معرض فخره بسلاحه يفخر بقوسه الصفراء التي تأخذ الوحش من صوتها رعدة :

وصَفْراءَ من نَبْعٍ كأنّ نذيرَها ... إذا لم تُخفضُهُ عن الوَحشِ أفكَلُ

ثم يستطرد إلى قصة هذه القوس حيث وقعت عليها عين راعٍ وهي لم تزل بعد « حظوة » أي عوداً صغيراً فأخذ يتعهدها بين أشجار النبع والبان والظيان والرنف والشوحط :

تَعلمَها في غِيلها وهي حَظْوةٌ ... بوادٍ به نَبْعٌ طوال وحِثيَلُ

وبَانٌ وظيَانٌ ورَنْفٌ وشوْحَط ... ألفٌ أثيثٌ ناعِمٌ متغيَلُ

فإذا استوت العود في شجرتها قطعها الراعي ثم بدأ رحلة التجفيف التي استغرقت عامين ، يرفعها بالليل على ظهر العريش وينزلها بالنهار ، حتى لا تتعرض لأشعة الشمس فتتشقق وهو في كل ذلك حريص على أن يبقى لها من لحائها قشرة رقيقة كقشرة البيض التي تلي قشرته الخارجية الغليظة :

فَمظعَهَا حولين مــاءَ لِحائِهَا ... تُعَالى على ظَهْرِ العريشِ وتُنزَلُ

فَمَلكَ بالليطِ الذي تحت قشرها ... كغرقئ بيضٍ كنّه القيضُ من علُ

فإذا ظن الراعي أنه أحكم أمر العود ذهب به إلى السوق وهو يمني نفسه الأماني فيعرض له الشاعر مساوما عارضا له في مقابل عوده ثلاثة أبراد وخريطة من الأدم وزقا من العسل ، وحينما ينزعج الراعي لهذا الثمن البخس يقول له الشاعر شتان ما ترى وعودك هذا المعطل ، ويصر على ألا يزيد ، ويظفر في النهاية بالبيع .

وأزْعَجَهُ أنْ قيل شتّانَ ما ترى ... إليكَ ، وعُودٌ من سَرَاءٍ معَطلُ

ثلاثــة أبرادٍ جيادٍ وجُرْجَةٌ ... وأدكَنَ من أرْيِ الدَّبور مُعسلُ

فجئت ببيعي مُولياً لا أزيدُهُ　　　　عليه بها حتى يؤوبَ المنخلُ

ولعل من الملحوظ في الأبيات أن أوساً أغفل شخص الراعي فعبر عنه بضمير الغائب ، فلم يدر القارئ أي إنسان هو ، وهذا إغفال متعمد لأن المهم هنا ليس شخص الراعي أو غيره ، وإنما المهم قصة تلك القوس منذ أن كانت حظوة في غيل ملتف وهو ما ركز عليه أوس في صورته ، وفي هذا السياق تأتي صورة تجفيف العود وهي صورة واسعة نوعا ما فتبين لنا المشقة التي تكبدها الراعي في عملية التجفيف والمدى الزمني الذي استغرقته هذه العملية حيث حدده أوس بعامين . ولا ندري ما إذا كان ذلك من قبيل المبالغة أوانه يعبر فعلا عن المدى الزمني الذي تستغرقه عملية التجفيف . وعلى أي فالصورة تسجل جانبا مهما من عملية إعداد أعواد القسي . .

أما صورة المساومة فهي صورة حية ، نرى فيها ذلك الشاري المتمرس الذي يستطيع أن يشتري ما يريد بأقل الأثمان ، وانظر إلى كلمة « أزعجه » في هذا المشهد وما تمثله من إحساس البائع بنفاسة ما معه وخيبة أمله فيما يقدم إليه من ثمن ، ثم انظر إلى وصف الشاري للعود بأنه عود من سراء معطل وما فيه من إشعار للبائع بضآلة ما معه ، فهذا العود مازال محتاجا لعمليات أخرى من التثقيف والتقويم حتى يستوي قوسا ، وانظر إلى قول الشاعر « لا أزيده عليه بها حتى يؤوب المنخل » وما يوحي به من محاولات ذلك الراعي أن يحصل على ثمن أعلى ثم يأسه من ذلك . .

إن هذه الأبيات التسعة - على قصرها - عرضت لرحلة القوس في لقطات سريعة، وصحيح أنه قد غابت منها خطوط عرض لها الشاعر في قصيدته السابقة ، مثل صعود الجبل ومثل تثقيف العود وتقويمها غير أنها أضافت خطوطا جديدة مثل عملية التجفيف ، ومثل بيع أعواد السراء . . وبهذا تتكامل قصيدتا أوس في إعطاء صورة موسعة للقوس .

* * *

- ٣ -

ونترك « أوساً » إلى الشماخ بن ضرار الذبياني وطرديته المشهورة[١٤] :

عفا بطنُ قو من سُليمي فعالزُ فذات الغضا فالمشرفات النواشز

حيث نراه في معرض وصفه لحمر الوحش يستطرد إلى القوس في لوحة نابضة تستغرق أربعة وعشرين بيتا . والشماخ بهذه القصيدة عد أشهر الشعراء في وصف القوس إذ قدمه ابن قتيبة على أوس فقال : « هو أوصف الشعراء للقوس ، وكذلك أوس »[١٥] .

وأثارت قصيدة الشماخ إعجاب الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - فاستلهمها قصيدة شعرية فريدة في بابها وسماها بالقوس العذراء قال في مقدمتها : « إني لمحدثك الآن عن رجل من عرض البشر يتعيش بكد يديه ، صابر الفاقة عامين يعمل عملا يفلت نفساً من الغنى إليه ، أغواه ثراء يبهره فما كاد يسلمه للبيع حتى بكى عليه ، لم أعرفه لكن حدثني عنه رجل مثله عمله البيان ، ذاك فطرته في يديه ، وهذا فطرته في لسانه[١٦] :

وإنما نقلنا ما نقلنا من حديث الشيخ شاكر لنلفت إلى أن قصيدة الشماخ استطاعت أن تنقل صورة نابضة حية لبعض القواسين جعلت قارئا مثل الشيخ شاكر - وهو من هو - يؤثرها على ما سواها من شعر هذا الباب ، ويرى فيها عالما رحيبا من مشاعر الإنسان .

وينطلق الشماخ إلى تصوير القوس من مشهد ذلك الصائد الذي يذود مجموعة من الحمر الوحشية عن الماء ، إنه عامر أخو الخضر الذي لا يملك من الدنيا غير قوسه وأسهمه ، ولكن الوحوش تبدو أمام هذه القوس لسرعة سهامها وكأنها ثابتة ، فإذا رمت لا يداوى رميها :

وحلأها عن ذي الأراكة عامرٌ أخو الخُضْر يَرْمي حيثُ تكوى النَّواحزُ[١٧]
قليل التلادِ غيرَ قوسٍ وأسهُمٍ كأن الذي يَرْمي من الوحش تارزُ
مُطِلاً بزُرْقٍ ما يُداوى رميُها وصفراءَ من نبعٍ عليه الجلائزُ[١٨]

ثم يستطرد الشاعر إلى قصة القوس ، فقد تخيرها القواس من بين غابة كثيفة فمازال يشق طريقه إليها بين الأغصان المتشابكة ، ومازال يقطع كل ما يعوقه إليها من الرطب واليابس حتى بلغها بعد لأي فأنحى عليها فأسه الحادة :

نَمتْ في مكان كنَّها واستوتْ به فما دُونها من غيلها مُتَلاحِزُ[١٩]
فما زال ينجو كلَّ رطبٍ ويابس وينغلُّ حتى نالها وهو بارزُ
فأنحىَ إليها ذات حَدٍّ غُرابُها عدو لأوسَاطِ العِضَاهِ مُشارِزُ

ولعلنا لحظنا كيف جسدت اللغة التي اختارها الشماخ صعوبة بلوغ عود السراء فالفعل « كنّ » يوحي بخفاء العود وتتضافر معه كلمة « متلاحز » بإيقاعها الصوتي فنشعر بمدى كثافة هذا الغيل والتفاف أغصانه ، ثم يأتي الفعل ينغل بلامه المشددة ليجسد المعاناة التي عاناها هذا القواس في اختراق هذه الأشجار المتشابكة ، فإذا وصل القواس إلى ضالته لم نر إلا صورة لهذه الفأس الشرسة التي تهوي على العود في حدة وشدة كأن بين حدها وبين أوساط العضاه عداء ..

وما إن يظفر القواس بضالته حتى نراها تنتفض نابضة بالحياة ، ويستحيل العود من نبات إلى كائن حي ، فهو حينا يبدو في صورة معشوقة تطمئن في يدي عاشقها ، وهو حينا آخر يبدو فرسا شموسا تقوم ضغنها المهامز ، ومن ناحية مقابلة نرى القواس يرى في عوده هذا ما يراه العاشق في معشوقته فإذا به يفارق خلطاءه خالبا إليه ، واجدا فيه كل غنى الدنيا ، وإذا به يراقبه بعين المحب في رحلة تجفيفه على مدى عامين ، ويمد كفه الرفيقة إليه يتحسسه ليعرف أي أجزائه يحتاج التقويم .. وهكذا تنبض الصورة بدفء حميم :

فلما اطمأنتْ في يديه رأى غنىً أحاط به وازورّ عمنْ يُحَاوِزُ
فمظعها عامين ماءَ لحائِها وينظرُ منها أيها هُوَ غَامِزُ

أقامَ الثقافَ والطريدةُ دَرْأَها كما قوَّمت ضِغْنَ الشمُوسِ المهامِزُ

وتأتي ساعة الاختبار يعرضها الشاعر في تشكيل لغوي رائع ينم عن عمق إحساس بالموجودات ، فنرى القوس تعطي صاحبها جانبا من اللين ، وكأنها فتاة تلين بعد تمنع ولكنها لا تلين كل اللين ، ونرى الشاعر يعبر عن عملية الاختبار بالفعل « ذاق » وكأن لين القوس يذاق كما تذاق الأطعمة ، بل كما تذاق العواطف ، ونرى العاشق يرضى بما قوم من شموس معشوقته وبما أعطته أخيرا من بعض اللين :

وذاقَ فأعطته من اللينِ جانباً كَفَى ولها أنْ يغرقَ السهم حاجزُ[٢٠]

ويعرض الشاعر لجودة القوس ، ومدى إصابتها الهدف فيركز على جانب الصوت ، فإذا أنبض الرامون عن وترها سمع لها صوت أشبه بصوت الثكلى وقد أثارتها رؤية الجنائز ، ويتحول هذا الصوت النائح إلى صوت هتوف فرح حين يخالط السهم فريسته ، إن هذا الصوت العالي نواحا كان أو هتافا يشل الفريسة فحتى إذا نجت من السهم خذلتها قوائمها من الرعب :

إذا أنبضَ الرامون عنها ترنمتْ ترنمَ ثكلى أوْجَعَتْها الجنائزُ
قذوفٌ إذا ما خالط الظبي سَهْمها وإن ريغَ منها أسلمتهُ النواقزُ

وقد وردت في رواية الديوان (قذوف) بدلا من هتوف وقيل في تعليل ذلك : إن ترنمت تغني عن (هتوف) وفي (قذوف) إضافة جديدة إلى المعنى وهذا تعليل لا يكاد يتعدى ظاهر اللفظ ، ويغفل عن تلك العلاقة الحميمة التي أراد الشاعر أن يقيمها بين صاحب القوس وقوسه وأسهمه ، فالترنم ساعة انطلاق السهم يشي بحزن السهم وكأنه لا يريد أن يفارق صاحبه ، والهتاف يقترن بالظفر بالصيد ، وكأن السهم فرح بما أنجزه من رغبة صاحبه ، أما شدة القذف التي رأى بعض الرواة أنها مستفادة من قذوف فمن الممكن أن تستنبط من سائر الصورة التي رسمها الشاعر لمخالطة السهم صيده ، ومهما كان من أمر ، وعلى أي الروايات قرأنا الأبيات ، فلن تغيب عنا الحياة التي بثها الشاعر في صورته .

ويمضي بنا الشاعر فيوقفنا على القواس وقد رضي عن قوسه فأخذ ينظر إليها

بإعجاب متأملا محاسنها فإذا بها أجمل من كل شيء ، وإذا بها تبدو في لونها الأصفر وكأنها طليت بزعفران يمان من خير ما تخزن النساء وتكنز . وهكذا نرانا مرة أخرى أمام العاشق ومعشوقته :

كأن عليها زعفراناً تُميرُه   خوازنُ عَطارٍ يمانٍ كوانزُ

ويأتي البيت التالي فيتم صورة العشق ، ويبرز لنا خوف العاشق ، وصيانته لمعشوقته ، وبذله لها كل من يحفظها كريمة مصونة ، فهو يحميها من الأنداء بثوب ناعم حبير مترفعا بها عن خلق الثياب :

إذا سقط الأنداءُ صِينَتْ وأكرِمَت   حبيراً ولم تدرَج عليها المعَاوِزُ

وفي رواية أخرى[٢١] :

إذا سَقطَ الأنداءُ صينَت وأشعرت   حَبيراً ولم تُدرَجْ عليها المعاوِزُ

وهي رواية جيدة إذ تجعل الثوب الحبير شعارا أي ثوبا يلي الجسد وفي ذلك ما فيه من إضفاء النبض والحياة على القوس .

* * *

ثم نصل إلى مشهد بيع القوس ، وهو مشهد من أغنى المشاهد بالمشاعر الإنسانية، نرى فيه تمزق الإنسان بين مطالب القلب ومطالب الجسد ، ونرى فيه الحياة تقهر الإنسان أحيانا فتدفعه إلى التضحية بأعز ما يمتلك ويقتني في سبيل ما يدفع الفاقة ، هذا عامر أخو الخضر يضطر إلى بيع قوسه ، وينحني أمام عواصف الفقر ، لقاء بضع أوان من الذهب ، وبعض من الثياب والأدم ، يبيع قوسه ، مودعا بدمعه تنحدر من عينه معشوقته إلى الأبد .. إن أبيات هذا المشهد أبيات فذة ، تشهد للشماخ بالحس المرهف ، والنفاذ إلى عمق الأشياء ، والقدرة على صوغ ذلك في لغة شفافة موحية .. يقول الشماخ :

فَوافَى بها أهْلَ المواسم فانبرى   لها بَيّعٌ يُغْلي بها السَّومَ رائزُ
فقال له : هل تشتريها فإنها   تُباعُ بما بيعَ التلادُ الحَرائزُ

فقال : إزار شرعبي وأربَعٌ	من السِّيراءِ أو أواقٍ نواجــزُ
ثمانٍ من الكيري حُمرٌ كأنَّها	من الجمر ما ذكى على النارِ خابزُ
وبُردانِ من خالٍ وتسعون درهماً	ومع ذاكَ مقروظ من الجلد مَاعزُ
فظل يناجي نفســه وأميرها	أياتي الذي يُعطى بها أم يجاوزِ ؟
فقالوا له : بايع أخاك ولا يكن	لك اليومَ عن ربح من البيع لاهزُ
فلما شراهَا فاضت العينُ عبرةً	وفي الصدر حزازٌ من الوجدِ حَامزُ

ونقف عند البيت الأول لنرى كيف تآزر الصوت مع الكلمة في الإيحاء بالصورة ، ويلفتنا قول الشاعر : « فوافى بها أهل المواسم » حيث تتابعت في هذا التعبير أربعة أحرف للمد ، اثنان في « وافى » ومد « ها » الضمير ، والمد في كلمة المواسم ، وهذا المد المتتابع يشي - في حسنا - بتثاقل صاحب القوس وتباطئه وكأنه يريد أن يترك لنفسه فسحة من الوقت ، أو كأنه يريد ، وقد عرف ما هو مقدم عليه - أن يصاحب القوس أطول مدة ممكنة ، ولقائل أن يقول : ألا يتناقض ذلك مع استخدام الفاء العاطفة في أول الجملة وهي الفاء التي تدل على التعقيب ؟! وهذا قول دقيق من الوجهة النحوية ، غير أننا نرى أن هذا التناقض الذي أحدثته الفاء قد أعطى الصورة ثراء نفسيا عجيبا فهذا القادم رغم تثاقله ، ورغم تباطؤ خطوه يحس بالوقت يمضي سريعا كما يحس العشاق في صحبة معشوقاتهم ، ومن هنا كانت الدقة الشعرية في استخدام هذه الفاء[٢٢] .

ونمضي مع البيت فنقف وقفة أخرى عند كلمة « بيّع » إذ نحس في نطقها وكأن الباء تتشبث تشبثا بالياء المشددة ، ونشعر أن ذلك يعكس - على نحو من الأنحاء - تشبث هذا البائع المتمرس بالقوس ، ثم نأتي إلى آخر البيت فيستوقفنا المد في كلمة (رائز) فنشعر أن الراء فيه حائمة حول ما يلي المد من أحرف وهو حوم يعكس - في حسنا - حوم هذا البائع المتمرس حول القوس ..

ويستوقفنا في البيت الثاني الاستفهام : « هل تشتريها .. فإنها تباع بما بيع التلاد الحرائز » هذا قول صاحب القوس للبيّع .. وربما بدا الاستفهام عرضا ببيع يحس

صاحبه نفاسته ، لكننا - وقد تمثلت لنا حال صاحب القوس - نحس أنه عرض تعجيزي، فالرجل يريد أن يبيع ويريد ألا يبيع في الوقت نفسه ، يريد أن يبيع ربما لضغط من زوجه وأولاده ويريد ألا يبيع لأن القوس تمثل له حياة ، لذلك فهو يعرض هذا العرض المؤئس .. إنها قوس لا تباع بأي ثمن ، لكنها تباع بما بيع التلاد الحرائز..

ونأتي لثالث الأبيات فنرى تلقف (البيع) لهذا العرض وأول ما يشعرنا بهذا التلقف حذف ما تعلق بـ (قال) من الجار والمجرور فلم يقل (قال له) كما جاء في البيت السابق وإنما اكتفى بـ (قال) وحدها ، ثم تتوالى عروض هذا البيع أخباراً محذوفاً مبتدآتها .. ولا نريد أن نترك هذا البيت الثالث دون أن نقف عند (أو) .

فقال : إزار شرعبي وأربع   من السِّيراءِ أو أواقٍ نَواجزُ

فالنحاة يرون أن (أو) للتخيير ، والتخيير معناه تساوي الأشياء المخير بينها ، فهل هذا ما نحسه في البيت ، وهل الإزار الشرعي وأربع من السيراء تتساوى مع أواقي الذهب النواجز التي حددها البيت التالي (بثمان) وفي ظننا أن التخيير هنا لا يعني التساوي إنما هو تصاعد بالثمن فالأواقي النواجز أعلى قيمة من الإزار الشرعي وثياب السيراء .. وهذا التصاعد بالثمن نحسه مع كل حرف من حروف العطف فأواق نواجز ثمان .. وبردان من خال .. وتسعون درهما .. ومع ذاك مقروظ .

هكذا يتصاعد « البيع » بالثمن في سرعة متلاحقة لا تتوقف إلا لمزيد من الإغراء كما نرى التوقف في البيت الرابع للإغراء ببريق الذهب الكيري الذي يشبه الجمر:

ثمانٍ من الكيريِّ حُمرٌ كأنها   من الجمرِ ما ذكى على النارِ خابزُ

إن هذا البيع المتمرس لا يريد أن يترك لصاحبه فرصة ، وحينما يصل العرض إلى أقصاه ، ويحاول صاحب القوس أن يراجع نفسه تأتي قوة ضاغطة أخرى هي أصوات المتحلقين (بايع أخاك) (لا يكن لك اليوم عن ربح من البيع لا هز) . حينئذ يدفع الرجل بقوسه وقد تحدرت دمعة على عينه ، وفي صدره ما فيه من الوجد والغم ،

ولننظر مرة أخرى إلى اختيار الشاعر لكلمتي (حزاز) و (حامز) في قوله « وفي الصدر حزاز من الوجد حامز » وما فيهما من الإيحاء بالصوت .

لوحة غنية شديدة الغنى تجلت فيها عبقرية الشاعر ، ورأينا مقدرته الفذة على التشكيل باللفظ ، وعلى بعث الحركة والحياة فيما يصور وعلى الوقوف على أدق خلجات النفس .

وبعد فالشماخ جدير بهذه القصيدة الفريدة أن يكون شاعر القوس في الشعر العربي ، ففرق بعيد بين قصيدته هذه وما قرأنا من شعر أوس بين التصوير الحي وبين التسجيلية التي ربما لا تعيننا سوى على التوثيق .

ـ ٤ ـ

وبعد أوس بن حجر والشماخ بن ضرار لا نكاد نقع على صورة واسعة للقوس إنما هي لقطات سريعة ، وصور مقتضبة تتخلل مقاصد أخرى للشاعر ، غير أن تتبع هذه اللقطات والصور السريعة قد يكون مفيدا في استجلاء جوانب أخرى من صورة القوس وصناعتها ربما أغفلتها القصائد الطوال .

ولعمرو بن قميئة - وهو من أقدم الشعراء - بيتان في وصف القوس وسهامها وردا في إطار مشهد لحمر الوحش يقول فيها [٢٣]

له شريانة شغلتِ يديهِ وكان على تقلدها قويا
وزرق قد تنخلها لقضبٍ يشدُّ على مَنَاصبها النضيا

وما يلفت في البيتين أنه وصف القوس بأنها شريانه وفيه إشارة إلى أن القوس كانت تصنع من شجر الشريان ، ويقال عنه إنه شجر جبلي ، والقوس المتخذة منه جيدة .

أما امرؤ القيس فيضيف (النشم) إلى الأشجار التي تصنع منها القسي ، كما

يطلعنا على صفة من الصفات المستحبة في القوس فيقول : « إنها غير باناة » على لغة طيء أي غير بائنة أي أن وترها ملتصق بها وذلك ربما كان أشد على الرامي ، ولكنه أبعد لذهاب السهم ، وذلك قوله في وصف رامي بني ثعيل الذي يقال إنه عمرو ابن المسيح أحد المعمرين في الجاهلية[٢٤] :

رب رامٍ من بني ثُعَلٍ ... متلجٍ كفيهِ في قتره
عارضٍ زوْرَاءَ من نشمٍ ... غير باناةٍ على وَتَرهْ

ومرة أخرى يرد ذكر القوس وسهامها في معرض وصفه لبعض الصيادين في إشارة سريعة إلى لونها الأصفر الصافي وإلى حدة نصال سهامها[٢٥] .

وأدعَجُ العينِ فيها لاطئٌ طمرٌ ... ما إن له غيرُ ما يصطادُ مكتسب
في كفهِ نبعة صفراءُ صافيةٌ ... ومرهفاتٌ على أسناخها العَقَبُ

ونعود مرة أخرى فنذكر أوس بن حجر في أبيات ثلاثة تصور جانبا من صناعة السهام حيث تصور صائدا يغرو السهم ليلصق عليه الريش الذي أخذه من مناكب الطير، وكيف يضعه معكوساً فظهر ريشه إلى بطن أخرى ، وكيف يحاول الصائد كتمه حتى لا تسمع الوحش[٢٦] :

قصيُّ مبيت الليل للصَّيد مُطعمٌ ... لأسهمــه غَارٍ وبارٍ وراصفُ
فيسَّر سهماً راشـهُ بمناكبٍ ... ظُهارٍ لؤام فهو أعجف شارفُ
على ضالةٍ فرعٍ كأن نذيرها ... إذا لم تخفضه عن الوحش عَازِفُ

وفي شعر زهير بن أبي سلمى - وهو تلميذ أوس - نقع على صورة دقيقة لصناعة القوس تجلو بعض خفايا القوس ، فقد وصفها بأنها « متابعة » أي يتبع وترها السهم عند انطلاقه ، ويتأنى في صفة القوس فهي ملساء لا خشونة فيها ، قوست بوضعها كما توضع السبيكة وروعي أن يكون أعلاها أوسع من أسفلها ، كما يشير إلى عودها المأخوذ من شجر النبع ، ويتوقف زهير عند الوتر ليصف هيئته المشدودة بميل واحديداب وذلك أجود للرمي ، ولا يفوت زهيرا أن يصور لنا صوت السهم في انطلاقه فيشبهه بنائحة تبكي على كرام فارقوا الحياة[٢٧] . .

معه متابعةٌ إذا هو شدّها | بالشرع يستشزي له وتحدُّبُ
ملساءُ مُحْدَلَةٌ كأن عتادَها | نواحة نَعَت الكـرامَ مُشبّبُ
كاقواء خلقاء المقوس نبعةٌ | مثل السُّبيكة إذ تمل وتشسبُ
عرش كحاشية الإزار شريجة | صفراءُ لاسدِرٌ ولا هي تألبُ

ومن زهير إلى الشنفرى حيث نراه يركز على جانب الحركة والصوت كيف تأبى بعجسها ، وترمي بذرويها ، وكيف يكون لسهامها إرنان كإرنان الشجي ، وكيف يكون لسهمها حين يحتك بمقبضها حفيف كحفيف النحل تخطئ طريقها إلى غارها في الجبل :

وحمراءُ من نبـع أبيٍّ ظهيره | ترن كإرنان الشجي وتهتفُ[٢٨]
إذا آل فيها النزعُ تأبى بعجسها | وترمي بذرويها بهن فتقذفُ
كأن حفيف النبلِ من فوق عَجسها | عوازِبُ نحل أخطأ الغار مطنفُ

وفي أبيات أخرى بعد أن يستعرض شكل السهم ودقة صنعه يصف عملية النزع فيقدمها في صورة طريفة ، صورة ذلك الذي يحلج القطن ويخلصه من بذوره ثم يشبه الصوت الصادر من القوس بأنين مريض مشجج[٢٩] :

ومستبسلُ ضافي القميص ضممتُهُ | بأزرق لا نكس ولا متعـوّجِ
عليه نُساريّ على خوط نبعةٍ | وفوق كعرقوب القطاةِ مدحرجِ
وقاربتُ من كفيٌّ ثم نزعتهـا | بنزع إذا ما استكره النزع محلج
فصاحت بكفي صيحةً ثم راجعت | أنين المريض ذي الجراح المشجج

تبقى - بعد ذلك أبيات لبعض الشعراء ربما كانت ذات فائدة في التعريف ببعض أماكن صناعة القسي ، وبعض صناعها ، فيصف عنترة قوسه في بعض وشعره بأنها رضوية[٣٠] :

أبَينا فلا نُعطى السواء عدُونا | قياماً بأعضاد السَّراء المعَطفِ
بكل هتوفٍ عَجسها رضويةٍ | وسهم كسير الحميري المؤنفِ

ومعروف أن « رضوى » التي نسب إليها عنترة قسي قومه مكان قريب من المدينة، وربما كان القائمون على مثل هذه الصناعة هم اليهود الذين عرفوا بصناعة السلاح .

أما أبو ذؤيب الهذلي فيصف قسي قومه بأنها من الجعثميات[٣١] :

كأنَّ ارتِجاز الجعثميّاتِ وسطهُمْ نوائحُ يَشْفعنَ البُكى بالأزاملِ

والمنسوب إليهم في البيت بنو جعثمه وهم قبيلة يمنية تنسب إلى نصر ابن الأزد وعرفت بصناعة القسي .

ومرة أخرى نعود إلى الشماخ حيث نقع له في هذا السياق على بيت فرد يصف فيه القسي بأنها من الماسخيات[٣٢] :

فقربتُ مُبراةً تخَالُ ضلوعَها من الماسخيّاتِ القسيَّ الموتّرا

وذلك نسبة إلى ماسخة ويقال : إنه رجل من الأزد هو أول من برى القسي

* * *

ولاشك أن هذه المتفرقات - على قلتها - تكمل لنا صورة القوس ، وتعطينا بعض المعلومات الموثقة عن صناعتها وأماكن هذه الصناعة وبعض من عرف بها . وربما كان في اقتطاع هذه المتفرقات على الهيئة التي عرضناها بها إضعاف لقيمتها الفنية لأن قيمتها الفنية لا تبرز إلا إذا وضعت في سياقها من القصائد التي انتزعت منها ، ولكن لم يكن لنا بد من هذا الصنيع ، ونحن بصدد لم شعث صورة القوس المتناثرة في شعرنا القديم .

* * *

ومما يتم حديث القوس الحديث عن سهامها وربما ورد وصف السهام فيما عرضناه آنفا تابعا لوصف القوس ، وعنصرا من عناصر إبراز جودتها وقوتها لكن اللافت أن هناك عديدا من الشعراء خصوا السهام وحدها بعنايتهم فتحدثوا عن صناعتها واختيار

أعوادها ، وإحكام أفواقها ، وهذا ما سنعرض له في هذه الفقرة .

ونبدأ بأبيات لذي الإصبع العدواني يعرض فيها جانبا من صناعة السهام ، فيوضح كيف يحكم أفواقها - (موضع الوتر من السهم) وكيف ينتقي نصالها المجلوة ، وكيف يريشها بريش أسود لامع يتبع فيه الريشة ظهر الأخرى وذلك قوله[٣٣] :

إمَّا تري شكتي رُميحَ أبي سَعـ ... ـدٍ فقد أحملُ السِّلاح مَعَا
السيفُ والقوسُ والكنانةُ قد ... أكملتُ فيها مَعَابلاً صُنُعا
رَصَّع أفواقها وأترصها ... أنبلُ عدوان كلها صنَعَا
ثم كسَاها أحمَّ أسحمَ وبا ... صاً وكل الظواهر اتَّبَعَا

وفي بيت فرد يصور خداش بن زهير ذلك الصائد الذي يتعهد سهامه فيختبرها فإذا رأى فيها زيغا قومه بمبراته[٣٤] :

إذا رابَهُ من سهمه زيغ قدةٍ ... يعوذُ بمبراةٍ له فهو حاشِرُهْ

وفي بيت فرد أيضا يشير بشر بن أبي خازم إلى خفة ريش السهام وعرض نصالها[٣٥] :

رَمَوْهُمْ فلمَّا استمكنَتْ من نحُورِهِمْ ... قِطاعُ خِفَافٌ ريشُها والمعَابِل

أما امرؤ القيس السكوني فتنوع تصويره للسهم ، ملائما بين الصورة والموقف النفسي فسهام الصائد المتربص بحمر الوحش متوفرة بجعبة تلمع نصالها كأنها جمر مشتعل أو فتيل سراج متوهج ، تبدو في دقتها كالسيوف الدقيقة[٣٦] :

فلاقَى أبا بشرٍ على الماءِ راصداً ... به من زَمَاع الصَّيْد وردٌ وأفكَـلُ
يُقلبُ أشباهاً كأن نصَالهـا ... بعيجةُ جَمْرٍ أو ذُبَـالٌ مُفَتَّـلُ
فلما رضَى إغراضَها واغترارَها ... وواجَهَهُ من منْبِض القلب مقتـلُ
رماها بمذروب المكفَّ كأنَّـهُ ... سِوى عودهِ المحشوشِ في الرأسِ مغولُ

أما الصائد الذي أخفق في صيده فتبدو نصال سهامه وقد انضم بعضها إلى بعض كأنها خوافي حمام[٣٧] :

ولا قيْنَ جبّارَ بنَ حمزَة بعدَ ما   أطابَ بشَكَ أيّ أمَر يه أفعَلُ
يقلبُ أشباهــاً كأن نِصالها   خوافي حَمَامٍ ضمّها الصّيف منزِلُ

وتجسد الحركة في صورة أبي المثلم الهذلي جانبا من صفات السهم الجيد حين تمسه الأنامل ويدرج على الظفر كأنه ممدلة[٣٨] :

مُشمرٌ وله بالكف مُحْدَلَةٌ   وأصمَعٌ نصلهُ في القدحِ مُعتَدلُ
يكاد يَدْرُجُ دَرْجاً أن يقلبهُ   مسُّ الأنَامِلِ صاتٌ قِدحَهُ زَعِلُ

وأشار عدد من الشعراء إلى أماكن صناعة السهام الجيدة ، فذكروا يثرب وبلاد ، والرقم ، فأما يثرب وبلاد فقد ذكرهما الأعشى في قوله[٣٩] :

أنى تذكَر وُدَّهَا وصفاءَهَا   سَفَهَا رأيتَ بصُوَّةِ الأثمادِ
مَنَعتْ قياسُ الماسخيةِ رأسَه   بسهامِ يثربَ أو سهام بلادِ

و (يثرب وبلاد) قريتان في حجر اليمامة كما ذكر ياقوت في معجمه . أما (الرقم) وهي قريب من المدينة فينسب إليها لبيد سهامه في قوله[٤٠] :

رَقَمِيَّاتٍ عَلَيْهَا ناهِضٌ   تُكْلحُ الأروَقَ منهم والأيَل

وينسب أبو ذؤيب سهامه إلى صعدة وهي قرية باليمن[٤١] :

فَرَمىَ فألحقَ صاعدِيّاً مِطحراً   بالكشْحِ فاشتمَلتْ عليهِ الأضْلُعُ

- ٦ -

وكانت القوس وسهامها مادة استمد منها الشعراء عديدا من صورهم في موضوعات مختلفة ، ولعل وصف الحيوان من خيل وإبل ، وحمر وحشية وكلاب صيد كان له النصيب الأوفى من هذه المادة ، فنرى عامر بن الطفيل يشبه جياده الصابرة على الوجا بأقواس النبع والسأسم في يبسها[٤٢] :

ونحنُ الألى قُدْنا الجيادَ على الوَجا   كما لوّحَ القواسُ نبعاً وسأسَمَا

ويجد الأعشى شبها جامعا بين خيله السريعة والقسي المتخذة من الشوحط[٤٣] :

أزجي سراعيف كالقسي من الـ شوحطِ صَكَّ المسفع الجملا

ويصور امرؤ القيس أضلاع فرسه المنحنية بحنو القسي[٤٤] :

له أيطلان جنبا عن شراسف كحنو القسيّ أنعمت أن تُؤَطّرا

ووجد الشعراء في انطلاق السهام مادة غنية لتجسيد سرعة الخيل ، فنرى أبا دؤاد الإيادي يشبه انطلاق فرسه وراء بعض الفرسان بسهم لا يعرف من رماه[٤٥] :

وقد يسَّروا منهم فارساً حديدَ السنان كميشَ الطلب
فألحقه وهو ساط بها كما تلحق القوس سَهْمَ العَرَب

وقريب من ذلك ما صنعه بشر بن أبي خازم في تشبيه خيله في انطلاقها بخروج السهام من الغرض[٤٦] :

فلما أسْهلتْ من ذي صَبَاحٍ وسَالَ بها المدافع والإكامُ
أثرن عجاجةً فخرجن فيها كما خَرجت عن الغرضِ السّهام

ومن الخيل إلى الإبل حيث نرى زهير بن أبي سلمى يتخير قوس الشريان ليشبه به ناقته الظامرة[٤٧] :

تظل تمطى في الزمام كأنها إذا بَركت قوس من الشريان

ويصنع الصنيع نفسه عمرو بن شأس ولكنه يتخير قسي السراء[٤٨] :

وأضحتْ على أعجاز عوجٍ كأنها قسي سراءٍ قرمت لم تعطل

ولا يرى الشماخ بن ضرار شبها لناقته التي براها الظمأ ودلج الليل إلا شرائح براها القواس[٤٩] :

كَأنّها وقدَ بَرَاهَا الأخمَاس
ودلَجُ الليلِ وهَادٍ قَيَّاسْ

وَمَرجَ الضُّفْر وَماجَ الأخْلاسْ
شَرَائِجُ النَّبْعِ بَرَاها القَـوَاسْ

وفي صورة أخرى نراه يشبه أضلاع ناقته بالقسي الماسخية[٥٠] :

فقربت مبراةً تخال ضلوعها   من الماسخيَّات القسي المؤترا

وهي صورة أعجبت قدامة بن جعفر ولعلها تذكر بصورة لطرفة بن العبد يشبه فيها أضلاع ناقته في صلابتها وانحنائها بالقسي[٥١] :

وطي محالٍ كالحني خلوفة   وأجرنة لزت بدأيٍ منضد
كأن كناسي ضالةٍ يكنفانها   وأطرُ قِسيٍ تحت صُلبٍ مؤيدِ

على أن للشماخ صورة متفردة إذ يشبه صوت بغام الناقة حين يتردد في صدرها بصوت القوس حين ينطلق السهم ويرتد الوتر[٥٢] :

يَردُّ أنابيبُ الجِرانِ بُغَامَها   كما ارتدَّ في قَوْسِ السَّرَاءِ زَفيرُها

أما الحمر الوحشية فقد كان لها نصيب من مادة القوس فنرى زهير بن أبي سلمى يشبه الأتن التي طواها البقل فلا تشرب الماء بالقسي المتخذة من شجر السراء[٥٣] :

ثلاث كأقواس السَّراء وناشط   قد اخضرَّ من لسّ الغَمير جحافله

وإلى قريب من هذا ذهب الأعشى ولكنه تخير قوسا من شجر الضال[٥٤] :

لاحه الصَّيفُ والصيالُ واشفا   ق على صعدة كقوس الضال

واعتمد الشماخ على قوس السراء في تصوير الأتان[٥٥] :

أضرَّ بمقلاةٍ كثيرٍ لغُوبُها   كقوسِ السَّراءِ نَهْدَةِ الجنْبِ ضَمْعَجِ

* * *

ووجد الشعراء في السهام مادة لتصوير سرعة كلاب الصيد ، فهذا الأعشى يشبه سرعة الكلاب الضارية بسرعة النبال وذاك قوله[٥٦] :

حتى إذا ذرَّ قرنُ الشمس صَبحها ذؤالَ نبهان يبغى صحبُه المتَعَا
بأكلب كسراعِ النبل ضاريـةٍ ترى من العد في أعناقها قطعا

وقريب من هذا قول لبيد بن ربيعة(٥٧) :

عوابسَ كالنّشابِ تَدْمَى نحُورُهَا يَرَيْنَ دَماءَ الهاديات نَوافِلا

* * *

وبعيداً عن دائرة الحيوان كان للقوس وسهامها توظيفات مختلفة ، فقد وظفها الشعراء في تصوير المنية والكلام والهوى ، أما بخصوص المنية فقد جعلوا لها سهاما صائبة لا تطيش كما نرى في قول بشر بن أبي خازم يتخيل ابنته تؤمل عودته بينما هو يستقبل الموت(٥٨) :

تؤمّل أن أؤوب لها بنهبٍ ولم تعلم بأن السَّهمَ صابَا

وإذا كان السهم في صورة بشر يمكن أن يفهم على الحقيقة فما هكذا سهام لبيد في صورته(٥٩) :

صادفْنَ منها غرّةً فأصبْنَها إنَّ المنايا لا تطيشُ سِهَامُهَا

وقريب من هذا قول الخنساء(٦٠) :

رمتنا فلم يخطنا سهمها كذاك الحوادث حينا فحينا

ومن القوس وسهامها يستمد دريد صورته في تجسيد أيام معمر يقترب من النهاية(٦١) :

أصبحت أقذِفُ أهدافَ المنون كما يرجى الدريئة أدنى فوقه الوتر

وأما الكلام فقد استمد الشعراء عديدا من الصور من القوس وأسهمها للجارح منه، وفي أبيات للبيد بن ربيعة نرى عدة صور من مادة القوس ، فالألسن كالنبل ، والكلام كرشق السهم الجيد ، والتقاذف بالكلام يشبه الانتضال بالنبل(٦٢) :

إذا دَعَتْني عامرٌ أنصرُهَا فالتقى الألسَنُ كالنّبل الدُّوَل

فرميْت القوم رشقاً صائباً | ليس بالعُضـلِ ولا لمقثعِل
رَقميّاتٍ عليهـا نَاهِـضٌ | تكلحُ الأروَق منهم والأيـل
فانتضلنا وابن سلمى قاعدٌ | كعتيق الطير يُغضي ويجل

أما خداش بن زهير ، فيجعل الكلام سهاما تراش وتبري في قوله (٦٣) :

أريشُ وأبرى للظلومِ مَعَابلاً | إذا خرَجت من بَدْنها لم تُنزع

* * *

وأما الحب والهوى فمن مادة القوس أخذ الشعراء عددا من الصور في بيان فعل كلام المحبوب ، ووقع نظراته ، فيصور المثقب العبدي وقع كلامه على قلوب الحسان بوقع السهم المريش (٦٤) :

بتلهيةٍ أريشُ بها سهامي | تبذ المرشِقات من القطينِ

أما نظرة « هر » صاحبة امرئ القيس فقد كانت غداة الرحيل سهما أصاب الفؤاد (٦٥) :

رمتني بسهمٍ أصابَ الفؤادَ | غداةَ الرحيلِ فلم أنتصر

أما صاحبة بشر بن أبي خازم فنظراتها سهام لا تطيش بينما تطيش سهام من يريدها (٦٦) :

ليالي لا تطيشُ لها سهامٌ | ولا تَرْنو لأسْهُم من رَماهَا

وفي صورة أخرى يصور فعل الدهر به وبصاحبته حيث أمست تطيش سهامها بعد أن كانت صائبة مدة من الدهر (٦٧) :

فإنْ تَكُ نبلها طاشَتْ ونَبْلي | فقد نَرْمي بها حقباً صيَابـا
فتصطادُ الرِّجالَ إذا رَمتْهُمْ | واصطـادُ المخبَّأَة الكَعَابا

* * *

ونقع في شعر هذيل على عدة صور مأخوذة من القوس ، وهي صور لها خصوصية تتفق مع خصوصية بيئة هذيل ، فأبو ذؤيب الهذلي يشبه الغائص على الدر بالسهم الذي قشر حتى غدا دقيقا ، وذلك قوله(٦٨) :

فَجاءَ بِهَا بعدَ الكلالِ كأنهُ   مِنَ الأيْنِ محرَاسٌ أقذُّ سَجيحُ

وقريب من ذلك تشبيهه ضلوع مشتار العسل - وقد ملكه الخوف - بسهام نصلت من قطبها(٦٩) :

فَحَطَّ عليهَا والضُّلوعُ كَأنَّها   مِنَ الخوفِ أمثَالُ السِّهامِ النَّواصِلِ

وفي صورة ثالثة يشبه النحل في سرعتها بنصال السهام(٧٠) :

إذَا نَهَضَتْ فيهِ تصعَّدَ نَفْرَهَا   كقترِ الغِلاءِ مُستدراً صِيَابُها

* * *

وتبقى بعد ذلك كله صورة فذة للأعشى لا قرين لها وذلك حين يصور ماء قليب آجن يعلوه الريش فيشبه ذلك الريش بمنثور النبال(٧١) :

وقليبٍ آجنٍ كأنَّ من الريـ   ـش بأرجائه لقوط نصالِ

* * *

وبعد ، فقد كانت هذه محاولة لاستجلاء صورة القوس في شعرنا القديم ، وقد استخلصناها - على جهد ومشقة ، وبعد استقراء واسع لدواوين الشعراء - آملين أن نكون قد قدمنا للقارئ ما ينفع ·

الهوامش

(١) شرح ديوان أبي تمام ، ص ٧٦ .

(٢) جمهرة الأمثال للعسكري ٢/٣٢٤ .

(٣) صحيح البخاري ٣/٢٢٧ باب ٣٨ ، المد : الذي يقوم عند الرامي فيناوله سهما بعد سهم أو يرد عليه النبل بعد الهدف .

(٤) منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأمثال ٢/٣١٠ .

(٥) ديوان أوس بن حجر ص ٨٢ - ٨٩ .

(٦) مبضوعة : أي مقطوعة .

(٧) قرونته : نفسه .

(٨) التبكل : التغنم .

(٩) الاشتقاق لابن دريد ص ٤٩٠ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٧٦ .

(١٠) الإلهاب : جمع لهب : وهو الفرجة والهواء يكون بين الجبلين .
النيق : المشرف من الجبل ، المهبل : المهوى والمهلك .

(١١) العجس : موضع كف الرامي من كبد القوس .

(١٢) الجفير : الكنانة وحشوها السهام ، تنطع : تحذق في صناعته وتأنق وكذلك تنبل .

(١٣) ديوان أوس بن حجر ص ٩٤ - ٩٩ .

(١٤) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ١٧٣ - ١٩٣ .

(١٥) الشعر والشعراء ، ٣١٦ .

(١٦) القوس العذراء : أ. محمود محمد شاكر ص ٣٠ .

(١٧) النواحز : التي بها نحاز : وهو داء يأخذ الدواب والإبل في رئاتها فتسعل سعالا شديداً .

(١٨) الجلائز : عقبات تلوى على كل موضع من القوس لتشدها من غير عيب بها .

(١٩) الغيل : الشجر الكثيف الملتف ، متلاحز : متضايق دخل بعضه في بعض .

(٢٠) اعتمدنا في تقديم هذا البيت والأبيات الثلاثة بعده على الترتيب الذي ارتآه الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - ، - وهو في نظرنا - ترتيب يدل على بصر وذوق ، فتأخر هذه الأبيات إلى ما بعد مشهد البيع كما أوردته الروايات يجعلها شاذة نافرة عن السياق .

(٢١) رواية جمهرة أشعار العرب ٢/٨٣٣ .

(٢٢) هذه الفاء العاطفة التي استخدمها الشاعر يسميها النحويون « الفاء الفصيحة » ، أي التي تفصح عن معطوف عليه محذوف قبلها ، وعلى هذا يكون تقدير الكلام فخطر له خاطر البيع

فوافى بها أهل المواسم أو ما يماثل ذلك .

(٢٣) ديوان عمرو بن قميئة من ١٤٩ ، قضب : القضبه ، قدح من نبع نبعة يجعل منه السهم ، مناصبها : نصاب كل شيء أصله ، النضي : نصل السهم .

(٢٤) ديوان امرئ القيس ص ١٢٣ ، متلج كفيه : أي يدخل كفيه في القتر ، وهي بيوت الصائد التي يكمن فيها لئلا يفطن له الصيد فينفر منه .

(٢٥) المصدر نفسه ص ٣٠٥ ، اللاطئ : الذي يلزم بطن الأرض ويخفي نفسه عن الوحش لئلا تنفر، والطمر : الوثاب ، المرهفات : السهام ، الأسناخ : النصول .

(٢٦) ديوان أوس بن حجر ص ٧١ .

(٢٧) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٧٧ ، الشرع : الوتر الدقيق ، تستشزي : من أشزاه ، ناحية كذا : أماله ، محدلة : أعلاها أوسع من أسفلها ، القنواء : القوس الممدود به ، خلقاء : ملساء ، عرش : طويله .

(٢٨) ديوان الشنفرى ص ٥٤ ، العجس : مقبض القوس ، المطنف : من يعلو الطنف وهو الجبل .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٤٠ .

(٣٠) شرح ديوان عنترة بن شداد ص ٢٣١ ، المؤتف : المحدد الطرف .

(٣١) شرح أشعار الهذليين ١٦٢/١ .

(٣٢)-ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ١٣٣ .

(٣٣) ديوان ذي الأصبع العدواني ص ٦٠ - ٦١ ، المعابل : جمع معلبة وهي النصل .

(٣٤) شعر خداش بن زهير ص ٥١ ، القذة : واحدة القذذ وهو ريش السهم .

(٣٥) ديوان بشر بن أبي خارم ص ١٧٥ ، القطاع : جمع قطع وهو السهم .

(٣٦) قصائد جاهلية نادرة ص ١٤٢ ، زماع الصيد : سرعته ، الأفكل : الرعدة ، أشباه : سهام متشابهة ، مذروب : حاد المحشوش : السهم الذي يلزقه به القذذ من نواحيه .

(٣٧) المصدر نفسه ص ١٤٣ .

(٣٨) شرح أشعار الهذليين ٢٧٤/١ .

(٣٩) ديوان الأعشى ص ١٨١ .

ومعجم البلدان ، يثري ٤٣٠/٥ ، بلاد ٤٧٦/١ وبلوغ الأرب ٦٥ ، والعمدة ٢٣٢ .

(٤٠) شرح ديوان لبيد ص ١٩٥ ، ومعجم البلدان : رقم ٥٨/٣ واللسان ، رقم

(٤١) شرح أشعار الهذليين ٢٤/١ ومعجم ما استعجم للبكري ٨٣٢/٢ - صعدة .

(٤٢) ديوان شعر عامر بن الطفيل ص ١١٧ ، الساسم : شجر من الأبنوس ، الوجا : أن يشتكي الفرس حافره .

(٤٣) ديوان الأعشى الكبير ص ٢٨٣ .

(٤٤) ديوان امرئ القيس ص ٢٣٦٧ .

(٤٥) ديوان أبي دؤاد الأيادي ٢٩٣ ، الساطي من الخيل : البعيدة الشحوة والخطو .

(٤٦) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢١٠ .

(٤٧) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٣٦٣ .

(٤٨) شعر عمرو بن شأس الأسدي ص ٤٥ ، قرّمت : أي عممت ، مزم القدح : عجمه .

(٤٩) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

مرج : قلق ، الضفر : نسيج من الشعر عريض يشد في وسط الناقة ، الأحلاس : جمع حلس وهو الكساء الذي يكون تحت الرجل والقتب يلي ظهر البعير أو الناقة .

(٥٠) المصدر نفسه ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٥١) ديوان طرفة بن العبد ص ١٦ ، المحال : فقار الظهر ، الجران : باطن الحلقوم ، الدأي : فقار العنق .

(٥٢) ديوان الشماخ بن ضرار ص ١٦٥ .

(٥٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٣١ .

(٥٤) ديوان الأعشى الكبير ص ٥٧ ، الصيال : مصدر صاول ، مصاولة الفحول من حمر الوحش ، الصعدة : القناة المستوية تنبت فلا تحتاج إلى تثقيف وهي الآتان على التشبيه .

(٥٥) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ص ٩٠ ، الضمعج : التامة الخلق . اللغوب : اللعاب .

(٥٦) ديوان الأعشى الكبير ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٥٧) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص ٢٤٠ .

(٥٨) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢٥ .

(٥٩) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص ٣٠٨ .

(٦٠) ديوان الخنساء ص ٣٥٢ .

(٦١) ديوان دريد بن الصمة الجشمي ص ٦٦ ، الدريئة : الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي فيها ، الفوق : شق رأس السهم حين يقع الوتر .

(٦٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص ١٩٤ - ١٩٥ ، الرشق : أن يرمي السهام كثيرة دفعة ، العصل : المعوجة ، المقتعل : السهم لم يبر برياً جيداً . ناهض : ريش فرخ نسر حين ينهض وهو أجود ، الأروق : الطويل الأسنان . الأيل : الذي لزقت أسنانه .

(٦٣) شعر خداش بن زهير ، ص ٨٥ .

(٦٤) ديوان المثقب العبدي ص ١٦١ .

(٦٥) ديوان امرئ القيس ص ١٢٠ .

(٦٦) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢٢٠ .

(٦٧) المصدر نفسه ص ٣١ ، صيابا : جمع صائب .

(٦٨) شرح أشعار الهذليين ١٣٤/١ ، سحيج : الذي سحجه الحصى وقشره وجرده ، المحراس : القدح وهو السهم .

(٦٩) المصدر نفسه ١١٤/١ .

(٧٠) المصدر نفسه ٥٠/١ ، تصعد نفرها : أي شق على نفر منها وأفتره .

(٧١) ديوان الأعشى الكبير ص ٥٣ ، آجن : آش راكد .

المصادر والمراجع

١- الاشتقاق : ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن (-= ٢١٦هـ) تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٨٠م .

٢- بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب : الألوسي ، السيد محمود شكري الألوسي البغدادي ، عني بشرحه وتصحيحه : محمد بهجة الأثري ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د٠ت) .

٣- جمهرة الأمثال : أبو هلال العسكري ، حققه : محمد أبو الفضل إبراهيم ، عبد المجيد قطامش، ط٠ الأولى ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ١٩٦٤م .

٤- جمهرة أنساب العرب : ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي (- ٤٥٦هـ) تحقيق : عبد السلام هارون ، ط ، دار المعارف ١٩٦٢م .

٥- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي ، حققه وعلق عليه : الدكتور محمد علي الهاشمي ، ط٠ الأولى ، لجنة البحوث والتأليف والترجمة ، جامعة الإمام محمد بن سعود ١٩٧٩م .

٦- ديوان الأعشى الكبير ، شرح و تعليق الدكتور محمد محمد حسين ، ط٠ السابعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٧- ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٠ المعارف ١٩٨٤م .

٨- ديوان أوس بن حجر ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، ط٠ دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م.

٩- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ، تحقيق الدكتور عزة حسن ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، ١٩٧٢م .

١٠- ديوان الخنساء ، شرحه : ثعلب ، أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي ، ت ٢٩١هـ ، حققه : الدكتور أنور أبو سويلم ، ط٠ دار عمار ١٩٨٨م .

١١- ديوان دريد بن الصمة الجشمي ، جمع وتحقيق وشرح : محمد خير الدين البقاعي ، ط٠ دار قتيبة ، دمشق ١٩٨١م .

١٢- ديوان ذي الأصبع العدواني ، جمعه وحققه : عبد الوهاب محمد العدواني ، ومحمد نائف الدليمي ، ط٠ مطبعة الجمهور ، الموصل ١٩٧٣م .

١٣- ديوان شعر عامر بن الطفيل العامري ، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، ترجمة : شارلز ليال ، ط٠ المتحف البريطاني ، لبدن ، بريل .

١٤- ديوان شعر المثقب العبدي ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه : حسن كامل الصيرفي ، ط. معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧١م .

١٥- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني : حققه وشرحه : صلاح الدين الهادي ، ط. دار المعارف ، مصر ١٩٧٧م .

١٦- ديوان الشنفرى ، عمرو بن مالك ، جمعه وحققه : د. إميل بديع يعقوب ، ط. دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٩١م .

١٧- ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري (- ٤٧٦هـ) تحقيق : درية الخطيب ولطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق .

١٨- ديوان عمرو بن قميئة ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، ط. معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ١٩٦٥م .

١٩- شرح أشعار الهذليين ، السكري ، أبو سعيد الحسن بن الحسين (٢٧٥هـ) حققه : عبد الستار أحمد فراج ، راجعه : محمود شاكر ، مطبعة المدني ١٩٦٥م .

٢١- شرح ديوان أبي تمام ، ضبط معانيه وشروحه : إيليا حاوي ، ط. الأولى ، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١م .

٢٢- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعه الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب ، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م ، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤م .

٢٣- شرح ديوان عنترة بن شداد ، تحقيق : محمد سعيد مولوي ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٩٧٠م .

٢٤- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، حققه : إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ١٩٦٢م .

٢٥- شعر أبي دواد الإيادي ، جمعه : غوستاف فون غرنباوم ، ضمن دراسات في الأدب العربي ، ط. بيروت ١٩٥٩م .

٢٦- شعر خداش بن زهير ، صنعه : الدكتور يحيى الجبوري ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٦م .

٢٧- شعر عمرو بن شأس الأسدي ، صنعه الدكتور يحيى الجبوري ، ط. دار القلم ، الكويت ١٩٨٣م .

٢٨- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، ط. دار الدعوة ، استنبول ١٩٨١م .

٢٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني

(-٤٥٦هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط. الرابعة ، دار الجيل ، بيروت .
٣٠- قصائد جاهلية نادرة : الدكتور يحيى الجبوري ، ط. الأولى ، مؤسسة الرسالة ، ط. الثانية ١٩٨٨م .
٣١- القوس العذراء : أبو فهر محمد محمد شاكر ، الناشر دار المدني بجدة .
٣٢- لسان العرب : ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم الأنصاري (- ٧١١هـ) ط. دار المعارف (د.ت) .
٣٣- معجم البلدان : ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي (٦٢١هـ) ط. دار صادر بيروت (د.ت) .
٣٤- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تأليف : عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (- ٤٨٧هـ) ، حققه وضبطه : مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت (د.ت) .
٣٥- منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تأليف : علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي (- ٩٧٥هـ) ط. الأولى دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٩٩٠م .

التحولات الإجتماعية ومظاهر التغير في المجتمع القطري
- دراسة تحليلية -

د. كلثم علي غانم الغانم

مدرس بقسم الإجتماع - جامعة قطر

المقدمـة :

يؤكد التحليل السوسيولوجي على أن التغير الاجتماعي في معناه الشامل يضمن التغير في البناء الاجتماعي أو في نظم اجتماعية خاصة أو في العلاقات بين النظم [١]. كما إنه يرتبط ارتباطاً وثيقا بالتغيرات الثقافية، وإذا ما تأملنا واقع المجتمع القطري والمجتمعات الخليجية الأخرى ، وجدنا إنها قد تعرضت لتغيرات اجتماعية هامة في أبنيتها ونظمها الاجتماعية والثقافية ، خصوصاً في العقود الأخيرة بعد تسارع معدلات التغير الاقتصادي الاجتماعي ، نتيجة الطفرة المادية والتوسع الكبير في المشروعات التنموية المختلفة ، والتحديثات المستمرة في المجالين الاقتصادي والاجتماعي .

ولقد ارتبط الاتجاه نحو التحديث بظهور النفط في المنطقة ، ولجوء الحكومات المحلية إلى توظيف العوائد النفطية في عمليات تطوير واسعة النطاق، وذلك باستخدام عناصر التحديث (كالتعليم ، ووسائل الاتصال ، والإدارة ، والتكنولوجيا) التي أدت إلى تغيرات أساسية في الأبنية الاجتماعية والثقافية ساهمت في رفع معدل التغير الاجتماعي ، حيث تشهد المنطقة الآن عملية تغير اجتماعي واقتصادي سريع . وأن اختلفت معدلات التغير ومجالاته في كل دولة على حدة - نسبياً - بسبب اختلاف

حجم ونوعية التوجه نحو التغيير ، وارتباط ذلك بحجم ونوعية العناصر (المادية والبشرية التي يتم توظيفها في مشاريع التحديث ، وكذلك ارتباطها بعوامل أخرى مثل ظروف المجتمع السياسية والإدارية ، والقوى الاجتماعية المسيطرة ونوعية توجهاتها الثقافية ، وهي مصادر التغير الداخلي ، كذلك ترتبط بحجم ونوعية التغيرات التي يتعرض لها المجتمع نتيجة عمليات الاتصال والانتشار الثقافي ، ونوعية وطبيعة ارتباطه بقوى الاقتصاد الخارجية ، وهي مصادر التغير الخارجي.

كذلك ترتبط معدلات التغير الاجتماعي واتجاهاته في المنطقة بمدى قدرة تلك المجتمعات على التكيف مع اشكال التغير الاجتماعي الثقافي المختلفة والذي يظهر من خلال بعض مظاهر التطور الحضاري التي تتفاوت نسبياً بين دول المنطقة ، فتأمل مظاهر التغير الاجتماعي في المنطقة ، يشير إلى حدوث تحولات سريعة في بعض المجالات (كالمجال الاقتصادي وأساليب المعيشة وطرق التعليم وأساليب الاتصال وبعض المظاهر الحضارية الشكلية) في حين كان التحول والتبدل بطيئاً في بعض النظم والانساق الاجتماعية ، كالبناء الطبقي الذي لم يتأثر كثيرا بأشكال الحراك الاجتماعي المهني الجديدة ، كذلك النسق القرابي الذي يستند على اشكال الأسرة الممتدة ونظام العشيرة والقبيلة كوعاء أكبر، هذا إلى جانب التغيرات البطيئة في العديد من المفاهيم الثقافية المؤثرة على حياة الأفراد ومعيشتهم وعلاقاتهم الاجتماعية .

ويشير ذلك إلى وجود تباين أو تفاوت في معدلات التغير في مجالات الحياة الاجتماعية في المنطقة ، الأمر الذي له انعكاساته السلبية على سياق التغيرات التي تطرأ على بعض النظم الاجتماعية، والاتجاهات، وانماط السلوك[٢] . ولعل مشكلة التفكك الأسري هي إحدى النتائج الأساسية المترتبة على تباين اشكال ومعدلات التغير الاجتماعي في المجتمعات الخليجية . والذي تؤكده معدلات الطلاق المرتفعة .

وفي هذا الإطار فإن من المفيد مناقشة أهم الظروف التي مهدت لعملية التغير الاجتماعي في المجتمع القطري ، والكشف عن طبيعة التحولات الاجتماعية التي مر بها المجتمع خلال عهد التحديث، وخصوصاً التحولات التي طرأت على البناء الأسري

وأهم مظاهر ذلك التغير ، والمشكلات التي تهدد وظائف النظام الأسري .

أولاً : عوامل التغير الاجتماعي في المجتمع القطري :

تؤكد عملية التحليل التاريخي لظاهرة التغير الاجتماعي Social Change في المجتمع القطري إلى وجود مجموعة من العوامل والظروف الاقتصادية والاجتماعية التي مهدت لعملية التغير الاجتماعى، وإذا كان من الصعوبة بمكان تحديد فروق ذات دلالة بين عمليات التغير التي ترجع إلى عوامل خارجية وتلك التي ترجع إلى عوامل داخلية ، بسبب التداخل بين الظروف والعوامل المختلفة ، إلا أن الشواهد التاريخية تتيح لنا تصنيف عمليات التغير تبعاً للمجالات التي بدأت فيها ، وبالنسبة للمجتمع القطري والمجتمعات الخليجية الأخرى ، فإن عملية اكتشاف النفط والبدء بتصديره كانت بمثابة نقطة البدء الأساسية لعملية التغير الاجتماعي الواسع . وبذلك فإن العوامل الاقتصادية كانت هي مفتاح التغير في المنطقة ، رافقتها فيما بعد مجموعة الظروف الأخرى التي ساهمت في توسيع دائرة ومجالات التغير الاجتماعي ، وأدت إلى حفز عملية التغير الاجتماعي والأسراع بمعدلاته، وبالنظر إلى حالة المجتمع القطري يمكن تحديد عوامل التغير الاجتماعي فيما يلي :

١- توظيف العوائد النفطية :

شكلت الموارد المالية التي وفرها تصدير النفط إلى الأسواق الخارجية أهم مصادر الدخل القومي، بعد أن كان المجتمع يفتقر إلى مصادر التمويل ، والتي كفلت له مجاراة التطور في المجتمعات الأخرى، حيث ساعدت تلك العوائد في تبنى المجتمع لمجموعة من المشاريع الهامة خصوصاً في بناء شبكة للكهرباء والماء والطرق الحديثة ، وبناء المدارس، والمستشفيات ، ثم انتقلت إلى تأسيس نظام أداري حديث، وفي مرحلة لاحقه اتجهت إلى تحديث البناء السياسي، وتنويع الأنشطة الاقتصادية . ولازالت العوائد النفطية المحرك الأساسي للتغير الاجتماعي حتى الآن ، ويتضح ذلك من خلال نمو معدلات المصروفات الجارية التي ترافقت مع زيادة وتطور حجم العوائد النفطية ، فالمصروفات ارتفعت بنسبة ٣٧٪ خلال الفترة ١٩٧٣-١٩٧٧ وهي الفترة التي شهدت

ارتفاع اسعار النفط، ولقد بلغ الانفاق العام للدولة في عام ١٩٧٠ (٣ر٤٩٠) مليون ريال وقفز إلى (٩٤ر٤٨٩ر١٤) ألف مليون ريال في عام ١٩٧٥، ثم إلى (٩٤ر٨٨٤ر٣٠) ألف مليون ريال في عام ١٩٨٠[٣]، وانخفضت إلى (٢٧ر٢٨١ر٢٧) ألف مليون ريال في عام ١٩٨٤، ثم إلى (٥٢ر٦٤١ر٨) ألف في عام ١٩٩١[٤]. ولقد تم استثمار الجزء الأكبر من منها في تمويل مشروعات الخدمات الأساسية كالكهرباء والماء والصحة والتعليم والمساعدات الاجتماعية.

وساعدت المشاريع السابقة في إحداث تغيرات هيكلية ونوعية في البنية الاجتماعية والاقتصادية، حيث تم نقل المجتمع خلال فترة بسيطة من مجتمع بسيط تتركز أنشطته الاقتصادية على صيد اللؤلؤ ورعي الإبل والماشية، ويتشكل بناؤه الاجتماعي من عدة قبائل تربطها علاقات قرابة ونسب إلى مجتمع مركب يعايش نمطاً من التحضر السريع. ظهر ذلك من خلال التحولات الاجتماعية التي طرأت على البناء السكاني، نتيجة تدفق أعداد كبيرة من الوافدين إلى البلاد بهدف العمل في الأنشطة الاقتصادية المزدهرة، وتعقد البناء المهني، نتيحة تنوع الأنشطة الاقتصادية، وتحسن مستويات المعيشة، وبالتالي ارتفاع نسبة الاستهلاك وتغير انماطه. وهي التغيرات التي أثرت على بناء ووظيفة النظم الاجتماعية المختلفة.

٢- انتشار التعليم :

إذا كان التعليم الرسمي وغير الرسمي هو أداة المجتمعات في نقل التراث الاجتماعي المتراكم إلى الاجيال الجديدة، وأحد الوسائل التي تدعم الاستمرار، فإن نمو المعرفة في جانب آخر تعد أحد العوامل التي أدت إلى التغير الاجتماعي، في العصر الحديث في جميع المجتمعات، واحد مظاهر التغير الاجتماعي في المجتمعات الحديثة فنشر التعليم يتيح حدوث تغيرات في الاتجاهات ويساعد على تنوع المعايير والتكيف مع عناصر ثقافة مختلفة وانماط جديدة من أساليب العمل والسلوك.

وبالنسبة للمجتمع القطري فإن نشرالتعليم كان أحد وسائل التحديث ومن أهم مظاهرة في نفس الوقت. فلقد بدأ في تطبيق نظام للتعليم الرسمي بمراحله التعليمية

الثلاث منذ بدء مرحلة التحديث ، وارتفع عدد الطلاب الملتحقين بالمدارس من ١٨٥٣١ طالباً وطالبة في عام ١٩٧٠ إلى ٥٩٠٠٥ طالبا وطالبة في عام ١٩٨٩[٥]. وأرتفع عدد طلاب جامعة قطر من ١١٧٢ طالبا وطالبة في عام ١٩٨٠ إلى ٤١٦٩ طالبا وطالبة عام ١٩٨٩[٦] . ولقد بلغت نسبة الأمية ٦٦٪ من اجمالي السكان في عام ١٩٧٠ ، ثم هبطت إلى ٢٢٫٤٪ في عام ١٩٨٦م، ثم إلى ١٥٫٣٪ في عام ١٩٩٧، ويلاحظ أن نسبة الأمية بين السكان من القطريين قد انخفضت من ٢٣٪ حسب تعداد عام ١٩٨٦ إلى ١٣٫٦٪ حسب تعداد عام ١٩٩٧. كما يلاحظ أن نسبة الأمية ترتفع بين الإناث أكثر من الذكور ، حيث بلغت نسبة الأميات ١٨٫٤٪ من مجموع الإناث ، في مقابل ٨٫٧٪ من الذكور من القطريين حسب بيانات تعداد عام ١٩٩٧ [٧]، ويمكن تفسير ارتفاع نسبة الأمية بين الإناث عن الذكور بتأخر البدء ببرامج محو أمية النساء، التي بدأ بتطبيقها في عام ١٩٧٥ في حين بدأ برنامج تعليم الكبار (من الذكور) منذ منتصف الخمسينيات . الأمر الذي يشير إلى تفاوت زمني بين برامج التنمية الموجهة للرجل والمرأة في المجتمع القطري.

وقد كان لتسارع برامج تحديث وتطور النظام التعليمي الذي بدأ بافتتاح جامعة قطر ، دور كبير في تغيير الاتجاهات والقيم بشكل عام، نحو العديد من القضايا مثل العمل والتعليم وعمل المرأة وحجم الأسرة والزواج ... إلخ . وبالفعل فإن التعليم يعد من أهم مظاهر التغير الاجتماعي الذي حدث في المجتمع القطري ، وأهم العوامل التي أدت إلى تغيير أوضاع المرأة القطرية والمرأة في المنطقة بشكل عام والذي ساهم في تعديل وتغيير الأدوار الاجتماعية التي تقوم بها ، سواء على مستوى الأسرة مثل مشاركتها في الدخل نتيجة خروجها للعمل ، وفي اتخاذ القرارات داخل الأسرة بسبب دور التعليم في تغيير وتعديل الاتجاهات نحو وضع ودور المرأة في الأسرة وعلي دورها وفرصتها في الحصول على مراكز اجتماعية أفضل بسبب فرص الحصول على مستويات تعليم مرتفعة ، وبالتالي الحصول على مستويات وظيفية أعلى .

٤- انتشار وسائل الاتصال الحديثة :

تعد عملية انتشار وسائل الاتصال الجماهيرية (كالإذاعة والتلفزيون والصحف ، والمواصلات كالبريد والهاتف والطرق المرصوفة الحديثة ووسائل النقل... إلخ) أحد العوامل الهامة في تسريع اكتساب المجتمعات التقليدية خصائص المجتمعات الحديثة ، حيث تعتبر وسيلة لنقل الأفكار والسلوكيات الجديدة ، وبالتالي فهي أحد عوامل التغير الاجتماعي، وتكتسب أهمية أكبر في الدول التي تلجأ إلى تطبيق استراتيجية للتغير الاجتماعي الموجه ؛ والتي تخضع فيها وسائل الاتصال للتحكم من قبل السلطة السياسية . ونلاحظ أن المجتمع القطري قد تعامل في خلال فترة زمنية قصيرة مع شتى وسائل الاتصال المرئية والمسموعة، بالاضافة إلى توفر عامل السفر إلى الخارج والاحتكاك مع ثقافة مجتمعات متنوعة . وهذا الانفتاح المكثف والسريع والشامل للمجتمع القطري على العالم الخارجي كان من السرعة ، بحيث لم يمتلك المجتمع الوقت الكافي لعملية الهضم والاستبدال الثقافي ، الذي قد يحدث بصورة تدريجية في مجتمعات أخرى [٨] .

٥- تكوين المجتمع الحضري :

إن التحول إلى الحياة في المدن علامة لظاهرة واحدة ، هي الزيادة في متوسط الكثافة وحاجة الأفراد لوضع أنفسهم في اتصال دائم مع بعضهم البعض، في حين أن العكس يحدث بالنسبة للنمط الانقسامي . فالمدن لاتوجد بالنسبة للمجتمعات الانقسامية البسيطة . وبفضل عدد وسرعة وسائل الاتصال وتقليص الفجوة التي تفصل الأجزاء الاجتماعية تزيد الكثافة المجتمعية ، ويصبح العقد الاجتماعي بين الناس أكثر قوة [٩] . وبالنسبة لمجتمعات الخليج فإن ازدهار النشاط الاقتصادي المتمثل في تجارة اللؤلؤ كان عاملاً حاسماً في ظهور التجمعات الحضرية في العصر الحديث لمنطقة الخليج ، والتي كانت بمثابة مرحلة انتقالية للمجتمع من حالة البداوة إلى مرحلة التحضر الكامل في الآونة الأخيرة، مع الوضع في الاعتبار عامل اكتشاف النفط، كعامل أدى إلى ما يشبه الثورة الحضرية [١٠] . وبالنسبة للمجتمع القطري فإن مدينة الدوحة قد تعرضت لتغيرات سريعة من ناحية معدل النمو الحضري أو عدد سكان الحضر ، ومن الناحية العمرانية والاقتصادية والاجتماعية ، خصوصاً بعد تدفق

الهجرات الوافدة إلى المجتمع ، والتي ساهمت في تحول البناء السكاني ، وتعقد البناء الحضري، وتنوع أصوله الثقافية والعرقية . ومن مظاهر التحول الحضري لمدينة الدوحة، النمو المساحي للمدينة وتنوع اشكال وانماط المساكن ، وظهور المراكز التجارية والثقافية والترفيهية ، والفنادق ، ودور الصحف ، والمكتبات ... إلخ.

ونتوصل من التحليلات السابقة لعوامل التغير الاجتماعي في المجتمع القطري، إلى أن عامل توظيف العوائد النفطية ، يعتبر العامل أو المتغير المستقل بالنسبة لعملية التغير الاجتماعي التي يشهدها المجتمع القطري، والذي ترتبت عليه تغيرات تابعة في النظم والعلاقات الاجتماعية المرتبطة بالتركيب الطبقي الحضري، وبالبناء السياسي، وبالانساق الثقافية العامة ، وبالأنظمة الاجتماعية الأصغر حجماً والتي تشكل جوهر البناء الاجتماعي كالنظام الأسري والعلاقات الأسرية . ويشير التفسير التاريخي للظروف المرتبطة بتوظيف العوائد النفطية إلى ارتباط العامل الأساسي في عملية التغير الاجتماعي والتكنولوجي في مجتمعات أخرى (ارتباط الانتاج النفطي وعوائده بالسوق الدولية) الأمر الذي يستدل منه على أن مصدر التغير الاجتماعي في قطر وباقي دول المنطقة يرتبط في الجزء الأكبر منه بعوامل خارجية . وأن المتغيرات أو العوامل الأخرى المتداخلة تشكل في مجموعها المتغيرات التابعة، والتي شكلت أهم مظاهر أو ملامح التغير الاجتماعي في المنطقة .

ولقد كان للتطورات السابقة دور في تغير شبكة الأدوار الاجتماعية أو مجموعة الالتزامات التي على الفرد أن يؤديها، ولعل أهمهما تغير الأدوار الأسرية ، نتيجة الاستقلال الاقتصادي المرتبط بتغير الأدوار المهنية ومستويات التأهيل ، ونتيجة تغير اشكال الأسرة من الأسرة الممتدة إلى نظام الأسرة النووية، هذا بالاضافة إلى تنوع العلاقات الاجتماعية، وانماط التفاعل الاجتماعي على مستوى الجماعات الأولية، والجماعات الثانوية من خلال علاقات العمل ، واماكن الترفيه ... إلخ . وصاحبت مجموعة التغيرات في الأدوار الاجتماعية وانماط التفاعل، مشكلات اجتماعية جديدة لم تكن موجودة من قبل مثل ظاهرة جنوح الاحداث ، وتناول المسكرات والمخدرات ، ظهور مشكلات نفسية مرتبطة بالصراع الثقافي ، وصراع الاجيال ، هذا بالإضافة إلى

ظهور أشكال من التفكك الاجتماعي برز في ارتفاع معدلات الطلاق وما يترتب عليه من مشكلات نفسية واجتماعية واقتصادية . وهي ظاهرة تشير في احيان كثيرة إلى عجز النظم الاجتماعية عن التكيف مع التحولات الاجتماعية السريعة. والتي يمكن إيجازها في التغيرات الأساسية التي مست المجالات التالية :

أ - تحول البناء السكاني : والذي يعد إتساع القاعدة السكانية ، وارتفاع نسبة الشباب في المجتمع، وانخفاض نسبة الإناث تجاه الذكور، وتعدد الأصول العرقية ، والمرتبطة جميعها بأنماط وحجم الهجرة الوافدة، أهم مظاهر ذلك التحول .

ب - تعقد البناء الحضري وتغير أساليب الحياة نتيجة ذلك .

جـ - تغير البناء المهني : والذي يشكل تغير الانماط والتخصصات المهنية ومتطلباتها من المهارة بعد أن أصبح يضم سلماً متنوعا من المهن ، أهم مظاهر ذلك التحول .

د - تغير الانساق القيمية : ويعد تغير الانماط الاستهلاكية وانتشار التعليم ووسائل الاتصال الحديثة، أهم مصادر تغير اتجاهات الأفراد نحو العمل والتعليم ومكانة المرأة .

هـ - تغير بناء ووظائف الأسرة : ويعد تغير حجم الأسرة واستقلالها اقتصاديا ، وتغير أساليب التنشئة الاجتماعية الوالدية نتيجة التعليم وتنوع مصادر القيم الثقافية ، أهم مظاهر ذلك التغير.

ومن ذلك يلاحظ أن معظم جوانب المجتمع قد تعرضت للتغير، سواء في البناء أو في الدور أو الوظيفة أو في العلاقات. الأمر الذي يؤكد على أن عملية التغير الاجتماعي هي ظاهرة اجتماعية عامة في المجتمع القطري. ومع ذلك يجب عدم إغفال تباين أو تفاوت حجم واتجاهات ومعدل أو سرعة التغير بين المجالات المختلفة . فإذا كان التغير في المجالات الاقتصادية أكثر سرعة واقلها عرضة لظاهرة عدم التكيف مع متطلبات التغير سواء في البناء أو في الوظيفة أو في العلاقات ، فإن عملية التغير في المجالات الاجتماعية ، كانت أقل سرعة وأكثر عرضة للمشكلات المترتبة على سوء التكيف أو عدم القدرة على التلاؤم مع متطلبات التغير السريعة في المجالات الأخرى، سواء اكان ذلك في البناء الذي ظهر من خلال التحولات التي طرأت على الأنظمة

الاجتماعية مثل اشكال التدرج الاجتماعي، وأساليب التنشئة الاجتماعية ، وانساق القيم والنظام القبلي (القائم على شبكة العلاقات القرابية) الأمر الذي ترتب عليه انماط جديدة من العلاقات ، واشكال التفاعل الاجتماعي ومجموعة من الأدوار الجديدة التي تستند إلى اشكال من التنظيمات الاجتماعية المتحولة .

وتعد ظاهرة تباين أو تفاوت معدلات واتجاهات التغير بين الأنظمة الاجتماعية المختلفة ، وبينها وبين الأنظمة الاقتصادية ، أهم مظاهر التغير الاجتماعي السريع غير المخطط ، الأمر الذي أدى إلى اختلال اداء تلك الانظمة لوظائفها الاجتماعية ، وكذلك أدى إلى عدم تناغم التحولات البنائية بشكل عام في المرحلة الانتقالية .

ولقد ارتبط ارتفاع معدلات الطلاق بعجز الانظمة الاجتماعية عن التكيف مع متطلبات التغيير السريعة في المرحلة الانتقالية ، حيث نجد أن نسبة الطلاق تبلغ ٢٨٪ من حالات الزواج في عام ١٩٩٥م [١١] . الأمر الذي يشير إلى وجود ظاهرة اجتماعية تشكل احد المظاهر غير الصحية . ومن هذا المنطلق فإن هدف الدراسة قد تحدد في محاولة تناول أهم التغيرات التي طرأت على النظام الأسري سواء من حيث البناء أو الوظيفة أو نمط العلاقات السائدة فيه، ومن ثم دراسة أهم العوامل التي تؤدي إلى حدوث الطلاق في المجتمع القطري، والكشف عن النتائج المترتبة على الأفراد والمجتمع نتيجة تفكك الأسرة .

ثانياً : التغيرات في النظام الأسري في المجتمع القطري :

إذا كان التغير الاجتماعي يعني في أحد معانية التغير في النظم الاجتماعية والعلاقات بين النظم، فإن التغير في النظام الأسري والعلاقات الاجتماعية هو أحد أهم جوانب التغير الاجتماعي، الذي أصاب المجتمع القطري بعد التطورات والتحولات في البنية الاجتماعية الاقتصادية التي رافقت عمليات التحديث المستمرة وتشكل البناء الحضري [١٢] .

فبعد ارتفاع مستويات المعيشة وتغير انماط المعيشة والسكني، وتغير الأدوار الاقتصادية، والأوضاع الاجتماعية ورموز المكانة وإتساع قاعدة التعليم، وانفتاح

المجتمع على ثقافة المجتمعات الأخرى، وتدفق الهجرة الوافدة بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، نجد أن الأسرة الخليجية بشكل عام والأسرة في المجتمع القطري بشكل خاص قد تعرضت لتحولات أساسية في البناء والوظيفة . خصوصاً وأن بناء الأسرة قبل اكتشاف النفط كان يشهد نمطاً مستقراً وتقليدياً يتمثل في نظام الأسرة الممتدة التي تتميز بكونها أسرة تضم ثلاثة أجيال الاجداد والآباء والاحفاد، وتتوفر بها وصاية اقتصادية بسبب شيوع نمط الملكية الجمعية ، والوصاية على مستوى الأدوار الأسرية ، والسلوكيات ، والتي يتولاها في الغالب رب الأسرة أو كبير العائلة مثل الجد وفي بعض الحالات شيخ القبيلة .

وبسبب قوة نسق العلاقات القرابية داخل الأسرة الممتدة ، والتي تنعكس على شبكة العلاقات الاجتماعية بشكل عام ، نجد أن الانماط السلوكية متجانسة إلى حد كبير ، ويزداد الشعور بالأمن الجماعي والمشاركة ، وتقل حدة المشكلات الأسرية . إلا إنه وبعد التحولات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع القطري بدأ النظام الأسري في المجتمع القطري بالتحول ، حيث واجهت الأسرة القطرية مجموعة من المتغيرات في الحجم والبناء والوظيفة والتي تمثلت في تقلص حجم الاسرة وتغير الأدوار الأسرية وخروج المرأة للعمل . فبالنسبة للتغيرات التي طرأت على حجم الأسرة ، فإن ذلك يظهر من خلال انتشار ظاهرة الأسرة النووية أو الزواجية المكونة من الزوجين والأبناء ، وتعيش في مسكن منفصل، الأمر الذي أدى إلى صغر حجم الأسرة بعد انفصالها عن باقي أفراد العائلة الممتدة مكانيا ، ثم اقتصاديا بعد توفر مصادر للدخل لكل فرد بعيدا عن سلطة الأسرة الممتدة من خلال العمل بالوظائف المدنية، الأمر الذي ساعد على استقلال الأسرة الزواجية ماديا ، ومكانيا بعد التخلي عن نظام وحدة المعيشة House Hold الذي كان يتميز بسكن مجموعة من الأسر في مسكن واحد كبير تتكون من الاجداد والوالدين والأبناء المتزوجين . ولقد بدأ انتشار السكن المنفصل بعد توسع سياسة الرعاية الاجتماعية لتشمل المساعدة في بناء المسكن وتقديم قروض البناء للموظفين وذوي الدخل المحدود .

حيث أدى الاستقلال الاقتصادي والفيزيقي إلى تغيرات أساسية سواء في شكل

الأسرة أو في الأدوار الأسرية، والذي أدى إلى ضعف دور الأسرة الممتدة في التأثير على القرارات داخل الأسرة الزواجية، بعد أن تضاءلت سلطة رئيس الأسرة الجد أو الأب أو الجدة والوالدة والعمات، وقل بالتالي الاعتماد على الاقارب وخصوصاً في عملية التنشئة الممتدة في دعم الأسرة الزواجية مادياً ومعنوياً.

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن للتعليم والعمل في أدوار مهنية جديدة وفرها نظام العمل الحديث، دوراً كبيراً في تغير أنماط التفكير والسلوك بين أجيال الاجداد و الآباء وبين الأبناء في مجالات كثيرة منها، كيفية تربية وتنشئة الأبناء، وطرق الاختيار في الزواج ، حيث بدأ الاهتمام بأهمية التكافؤ في الزواج بعد أن كانت الفتاة تجبر في السابق على الزواج بمن يكبرها في السن ويجبر الفتى والفتاة على الزواج من أبناء العم أو الاقارب، عندما كان كبار السن يسيطرون على عملية الاختيار في ظل نظام الأسرة الممتدة، وقد كان ذلك يتم في الغالب في سن مبكرة للأولاد، حيث يتم الاتفاق على تزويجهم منذ الايام الأولى لولادتهم. وقد تحدث خلافات عندما يخل أحد الأطراف بالاتفاق، وحالياً فإن هناك مؤشرات على زيادة فرص الجنسين في الاختيار ، وأن كانت هذه الفرص أعلى عند الذكور من الإناث[١٣] ، الا أنه بعد حصول المرأة على حقها في التعليم وزيادة فرص خروجها للعمل ، واستقلالها اقتصاديا، وتقلص الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بينها وبين الرجل، ازدادت فرص المرأة في اتخاذ القرارات بالنسبة لاختيار شريك الحياة وبالنسبة لأدوارها الأسرية بشكل عام . ومن ذلك فإن تعليم المرأة يعد بالفعل أهم مظاهر التغير الاجتماعي في المجتمع القطري.

ومع ذلك لا تزال هناك قيود وعقبات تحول أو تحد من فرص الاختيار عند الزواج في المجتمع القطري، نتيجة مجموعة من العوامل لعل أهمها ، عدم وجود فرص للتعارف قبل الزواج وارتفاع تكاليف الزواج الأمر الذي أجبر الآباء على الزواج من الأقارب[١٤] يؤكد على تأثر القيم المرتبطة بالزواج بالقوالب الثقافية السائدة في هذا المجال ، مثل رفض الاختلاط بين الجنسين ، وكذلك تأثير الآباء على الأبناء في اختيار شريك الحياة ، كذلك تأثر عملية الاختيار ببعض المظاهر الاجتماعية المرتبطة برموز المكانة الاقتصادية الاجتماعية التي ساهمت في ارتفاع تكاليف الزواج .

وبسبب التحولات السابقة نجد أن الأسرة في المجتمع القطري تشهد تغيرات في الوظائف التي تؤديها ، فبعد ان كانت مسئولية الأسرة إعالة جميع الأفراد الصغار والكبار ، نجد أن تطور فرص التعليم وفرص العمل وأرتفاع مستويات المعيشة ، ساعد على أن يقوم معظم الأفراد بأعالة أنفسهم ، الأمر الذي ساهم في زيادة فرص الاستقلال الاقتصادي بالنسبة للمرأة والرجل على حد سواء ، خصوصًا بعد أن ارتفعت معدلات دخول المرأة إلى سوق العمل من ٩ر٧٪ في عام ١٩٨٦م إلى ٥ر١٣٪ في عام ١٩٩٧م، وتشكل القطريات ٠ر٢٤٪ من مجموعة قوة العمل القطرية خلال نفس العام [١٥] . وساعد ذلك على تغيير الأدوار الأسرية . وتقلصت وظيفة الأسرة في عملية التنشئة الاجتماعية لتصبح مسئولية الوالدين المباشرين نتيجة زيادة رغبة الأباء في عدم تدخل باقي أفراد الأسرة في تربية الأبناء ، الأمر الذي يشير إلى تغير في المفهومات المرتبطة بعملية التنشئة الاجتماعية وأدى إلى زيادة حدة الصراع بين الاجيال المثقفة أو المتعلمة ، والاجيال التي لم تحصل على أي نوع من التعليم داخل الأسرة حول طرق وأساليب التربية .

وبفضل التطورات التي طرأت على بناء الأسرة ووظائفها في المجتمع القطري ، ظهرت تغيرات في بعض المفاهيم المرتبطة بالزواج والطلاق وتعدد الزوجات والسن المناسب للزواج وتكاليف الزواج. . إلخ. هذا بالاضافة إلى سهولة التحلل من الروابط الزوجية ، والتي من مظاهرها سهولة الاقدام على الطلاق. واذا كان ارتفاع نسبة الطلاق يعد أهم المظاهر السلبية في المجتمعات التي تتعرض للتغير الاجتماعي السريع ، بسبب المشكلات التي تترتب عليه، فإن المجتمع القطري يشهد بالفعل ظهور مشكلة الطلاق في الوقت الحالي كنتيجة للتغيرات والتطورات العامة في البناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية التي تم شرحها ، والتي تؤكدها الاحصاءات العامة والرسمية لعدد حالات الطلاق . هذا بالإضافة إلى بروز ظواهر جديدة على المجتمع مثل جنوح الأحداث الذي تكشف الحالات المسجلة إلى انها ظاهرة ترتبط بظروف أسرية مضطربة كتعدد الزوجات أو وجود انفصال بين الأبوين في صورة طلاق أو سفر أو

الزواج بأخرى[١٦] . وكذلك دخول اطراف أخرى في عملية تربية الأبناء كظاهرة الخدم والمربيات .

وفي ضوء الشرح السابق لعملية التغير الاجتماعي بوصفها إحدى العمليات الأساسية في تغير البيئة الحضرية في المجتمع القطري، يمكن القول بأن الأسرة الحضرية الحديثة قد أصبحت أحد النظم الاجتماعية الأكثر تأثراً بالتحولات الاجتماعية التي حملتها رياح التغيير التي حملتها الوفرة وسياسات الرفاهية الاجتماعية، والتي أدت إلى جملة من التغيرات التي اصابت بنية الأسرة ووظائفها وأدوارها وعلاقاتها ، وواجهت الأسرة الحضرية بذلك مجموعة من المشكلات التي تمس تماسكها ووجودها، وأدوراها في التشئة الاجتماعية، ووظيفتها في استقرار الأفراد وتلبية احتياجاتهم النفسية .

قائمة المراجع

(١) انظر : محمد الجوهري وآخرون : التغير الاجتماعي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١، ١٩٨٢، ص ١٦٥.

(٢) ولقد اكد كل من وليم اوجبرن ونيمكوف على دور عدم تزامن التغير في جوانب الثقافة بالنسبة للدول النامية في ظهور العديد من مشكلات عدم التكيف . فالثقافة ليست لديها القدرة دائماً على مواكبة التغيرات في المجال الاقتصادي، الأمرالذي يؤدي إلى حدوث فجوة ثقافية بين التغيرات التكنولوجية السريعة وما يرتبط بها من أنظمة العمل ، في مقابل استمرار أو تباطؤ التغير في مجال القيم والمعتقدات أو الإطار الثقافي للمجتمع . انظر المرجع التالي :

W.Ogburn, M.Nikmkoff : Ahand Book of Sociology, Routledg and Kegan Poul, London, 1964.

(٣) انظر :

Zuhair Ahmed Nafi : Economic and Social Development in Qatar, Frances Pinter (Publisher) London, 1983, p.44.

(٤) انظر : وزارة الاقتصاد والتجارة : العرض الاقتصادي السنوي، الاعوام ، ١٩٨٥، ١٩٩٢، دولة قطر.

(٥) انظر : وزارة التربية والتعليم ، التقرير السنوي ، الدوحة ، ١٩٩٠.

(٦) انظر : جامعة قطر التقرير الإحصائي السنوي للعام الجامعي ٨٨-١٩٨٩م ، الدوحة ، ص ٣٥-٣٦.

(٧) تم استخراج النسب المئوية من بيانات التعداد العام للسكان لعام ١٩٨٦م والتعداد العام للسكان لعام ١٩٩٧م.

(٨) انظر : فاروق إسماعيل ، علي ليله وآخرون : الخارطة الاجتماعية لمدينة الدوحة – دراسة انثروبولوجية . اصدارات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر ، الدوحة ، ١٩٩٣، ص ٤١١.

(٩) انظر :

Anthony Giddens : Emile Durkheim-Selected Writings, Cambridge Press, 1983.

(١٠) انظر : كلثم الغانم : المجتمع القطري من الغوص إلى التحضر .دار الشرق للطباعة والنشر، الدوحة، ط٢، ١٩٩٧م، ص٩٥.

(١١) انظر : النشرة السنوية لاحصاءات الزواج والطلاق التي يصدرها الجهاز المركزي للإحصاء بدولة قطر لعام ١٩٩٥م.

(١٢) أظهرت نتائج دراسة ميدانية لنمط التحضر في المجتمع القطري إلى أن الأسرة كنظام قد تأثرت بمجموعة من المتغيرات من أهمها المستوى التعليمي، والمهنة ، والدخل ، ومكان الاقامة ، وهي المتغيرات التي لها دور كبير في التغير البنائي للأسرة وارتباطها الوثيق بعملية التحضر

السائدة في المجتمع القطري . انظر : محمود الكردي وآخرون : الدوحة: المدينة الدولة،١٩٨٥، ص ١٠٤- ص١٠٥.

(١٣) انظر : نتائج الدراسة الميدانية التي اجراها كل من السيد الحسيني وجهينة العيسى حول الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطري، حولية كلية الإنسانية والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، العدد الثالث ، الدوحة ، ١٩٨١.

(١٤) انظر : الدراسة السابقة ، جدول رقم (٧) ، ص ٥٠ .

(١٥) انظر : الجهاز المركزي للاحصاء ، دولة قطر ، التعداد العام للسكان لعام ١٩٨٦، و١٩٩٧.

(١٦) انظر : كشوف قسم شرطة الأحداث ، وزارة الداخلية، دولة قطر، احصاءات الاعوام ٩٥-٩٦-١٩٩٧م.

مستقبل دراسات علوم المعلومات
في جامعة قطر

د. عماد الصباغ

أستاذ علم المعلومات المشارك

وحدة نظم المعلومات ـ جامعة قطر

مستخلص :

يشهد حقل علوم المعلومات (Information Science أو Informatics) اهتماماً متزايداً من المتخصصين في علوم عديدة في مختلف جامعات العالم ، ومراكزه البحثية ، منذ أن كان العالم منشغلا بالحرب العالمية الثانية ، حين أخذ الإنسان يطمح لبناء الحاسوب ، واستخدام أساليب بحوث العمليات لإسناد ودعم المجهود الحربي ، وإلى يومنا هذا . وقد أدى هذا الاهتمام إلى استحداث العديد من البرامج الأكاديمية الموجهة لإعداد إختصاصي علوم المعلومات بمستويات متعددة .

يعرض البحث التطورات الحديثة في حقل علوم المعلومات ، ويناقش التوجهات العالمية في هذا السياق . ويعمل على وضع نموذج لهيكلية منظمة لتدريس علوم المعلومات في جامعة قطر تشتمل على استحداث برنامج للبكالوريوس في علوم المعلومات والمكتبات ، وبرنامج للدراسات العليا من خلال قسم أكاديمي متخصص تطلق عليه تسمية « قسم علوم المعلومات والمكتبات » ضمن كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية . ويقترح البحث أن يتم استحداث البرامج المطلوبة على وفق خطة تنفذ على مرحلتين لضمان توفير المتخصصين الذين تحتاجهم المؤسسات القطرية بأسرع وقت ممكن ، أو لاً ، ولتحقيق استفادة قصوى من الطاقات المتاحة في الجامعة ، ثانياً .

١- مقدمــة :

يمكننا اعتبار الإعداد الأكاديمي لاختصاصي علوم المعلومات من مستجدات العقود الأربعة المنصرمة . ويعود السبب في ذلك إلى عدم ظهور ما نطلق عليه اليوم « علوم (أو) علم المعلومات » حتى الخمسينيات من هذا القرن . وجاء الاهتمام بهذا الفرع العلمي في الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية نتيجة لظهور عدد من التخصصات العلميـة الجديدة التي استحدثت للمرة الأولى لأغراض دعم المجهود الحربي ، مثل ، بحوث العمليات ، وتكنولوجيا الحاسوب ، وعلم التحكم والضبط (السبرنطيقا) ، وغيرها .

ومن المعروف أن الحرب العالمية الثانية قد أدت إلى توافر كميات هائلة من البيانات والمعلومات بمختلف الصيغ ، والأشكال ، واللغات ، وعلى مختلف الأوساط . وكان لابد من إيجاد وسائل عملية أكثر كفاءة للاستفادة من هذه البيانات والمعلومات . وجاء الاستخدام التجاري للحاسوب في أوائل الخمسينيات ليحل نصف المشكلة ، وتكفلت الجامعات والمعاهد الأكاديمية بحل نصفها الثاني عن طريق استحداث تخصصات علمية جديدة تهدف إلى تهيئة وإعداد اختصاصي معلومات قادرين على التعامل بدقة وكفاءة مع البيانات والمعلومات المتوفرة . ومن هنا نرى أن للحروب ، بالرغم من كوارثها ومساوئها وويلاتها ، الفضل في تحقيق تقدم علمي كبير . فقد أدت الحرب العالمية الأولى إلى اختراع الإذاعة والراديو لخدمة الجيوش المتحاربة ، ولكنهما أصبحا من الخدمات التجارية بعد الحرب . أما الحرب العالمية الثانية فقد أدت إلى اختراع الحاسوب الذي نقل العالم بأكمله إلى عصر جديد هو عصر المعلومات أو كما يسميه الفن تافلر " الموجة الثالثة " ، بعد موجتي " الزراعة " و " الصناعة " .

وفي الخمسينيات عرضت بعض الجامعات مقررات دراسية للتعريف بما أصبح يسمى علم نظم استرجاع المعلومات أو الاسترجاع الميكانيكي للوثائق والمعلومات . ولكن معهد جورجيا التكنولوجي (وهو من الجامعات الهندسية والتكنولوجية الراقية،

ويقع في مدينة اطلنطا بولاية جورجيا الأمريكية) كان أول المؤسسات الأكاديمية التي اهتمت بالإعداد المهيكل لاختصاصي المعلومات منذ أوائل الستينيات . وقد جاء ذلك الاهتمام أول الأمر في شكل دعوة وجهت إلى عدد من المؤسسات العلمية والمتخصصين لحضور مؤتمرين علميين عقدا في أواخر ١٩٦١ وأوائل ١٩٦٢ للتداول في أساليب ومتطلبات ومواصفات البرامج الأكاديمية المرغوبة في هذا الجانب(١) . وبالفعل ظهر أول برنامج أكاديمي متخصص في أعداد المعلوماتيين على هيئة " مدرسة علوم المعلومات والحاسوب " التي ما زالت من المؤسسات الرائدة في هذا القطاع وتقدم برامج بمستوى البكالوريوس والماجستير والدكتوراه في الاختصاص (تغير اسمها مؤخراً إلى كلية الحاسوب) . ومن هذا نرى أن القطاع التكنولوجي - الهندسي هو الذي تكفل بإعداد اختصاصي المعلومات وليس قطاع الإنسانيات كما يتصور العديدون .

وبعد ذلك حاولت العديد من الأقسام العلمية والكليات أن تدلو بدلوها للمساهمة في إعداد المعلوماتيين . ومن ذلك أقسام علم الحاسوب ، وعلم المكتبات ، وإدارة الأعمال ، والإعلام ، وعلم النفس ، وحتى الفلسفة والعلوم السياسية .

وقد أدى هذا التطور المتسارع لإستحداث البرامج الأكاديمية في علوم المعلومات إلى ظهور مشاكل عديدة تتعلق بالفهم العام للتخصص ، وهيكليته ، ومداه ، واحتياجاته الفعلية مما أوجد حاجة ضرورية للبحث في أصول العلم والفروع العلمية التي تشترك في بناءه ، والتعرف على أفضل ارتباط أكاديمي له بما يتوائم مع الاحتياجات الحالية والمستقبلية .

لقد أسهم عدم ظهور فهم مشترك وواضح لمفهوم " علوم المعلومات " ، والتغيرات التي شهدها المفهوم ، إضافة إلى التطورات السريعة والمتلاحقة لتكنولوجيا المعلومات إلى خلق حالة من الضياع وعدم التنظيم ، تبرز في الآتي(٢) :

١- غموض هيكلية الحقل وصعوبة متابعة تطور هذه الهيكلية والفروع العلمية التي تساهم في التركيب البنائي للحقل بالرغم من إجازة أطروحتين للدكتوراه حاولتا

وضع تصور واضح لهذه الهيكلية وتطورها [٣،٤] .

٢- عدم وجود اتفاق على تعريف عملياتي لمصطلح " علوم المعلومات " والمصطلحات ذات العلاقة ، مثل ، علم المعلومات ، والمعلوماتية ، وغيرهما . وتحديد اهتمامات التخصص ، ومداه ، وغير ذلك من الجوانب .

٣- تنوع الارتباطات الأكاديمية للبرامج التعليمية في علوم المعلومات وعدم تبلورها في أقسام بالشكل المتعارف عليه في الجامعات والمعاهد الأكاديمية .

ويهدف هذا البحث إلى التعريف بمفهوم " علوم المعلومات " من خلال تحليل النتاج العلمي المنشور في أدبيات الحقل . وتحديد هيكلية الحقل العلمي هذا وتوضيح أصوله وجذوره والتغيرات التي شهدتها هيكليته عبر الزمن . كما يهدف إلى تصنيف اختصاصي المعلومات في فئات بحسب العمل الذي يؤدونه . إضافة إلى عرض واقع تدريس علوم المعلومات في الجامعات العربية وإمكانيات تطورها مستقبلا . وستحقق الأهداف أعلاه من خلال إجابة ثلاثة أسئلة بحثية ، هي :

١- ما المقصود بعلوم المعلومات ؟ وكيف ظهر وتطور كحقل علمي ؟ وما هي علاقته بعلم الحاسوب ، ودراسات المكتبات ؟

٢- من هو اختصاصي المعلومات ؟ وما هي مهماته ؟ وكيف يتم أعداده ؟ ماهي علاقته بأمين المكتبة ، والمبرمج ، وغيرهما ؟

٣- كيف يبدو الواقع الحالي لدراسات علوم المعلومات في جامعة قطر ؟ وما هي توجهاتها المستقبلية في هذا المجال ؟

ويفترض البحث أن مصطلحي " علم المعلومات " و " المعلوماتية " هما وجهين لعملة واحدة وانهما يعنيان الشيء نفسه تماما . ويستند هذا الافتراض إلى نتائج عدد من البحوث والدراسات المنشورة [٥] .

٢- دراسات علوم المعلومات :

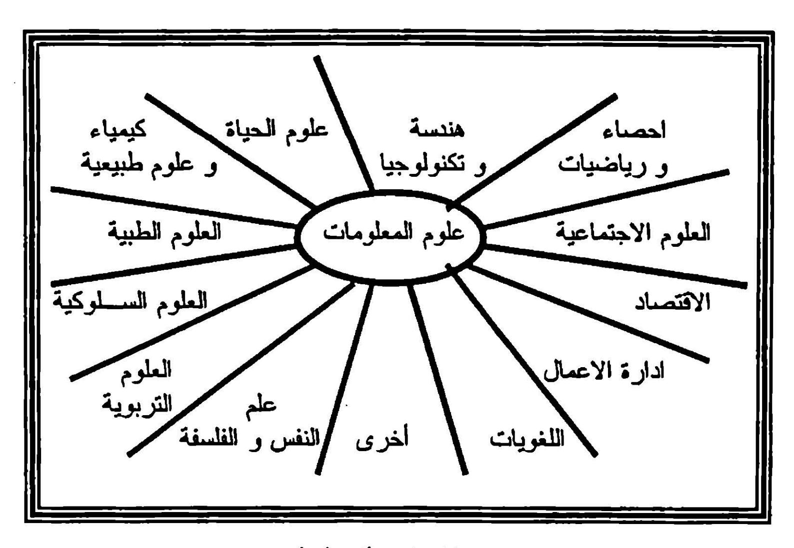
تتعاظم احتياجاتنا ، كأفراد ومؤسسات ودول إلى المعلومات يوما بعد آخر

كنتيجة حتمية لتطور الحياة ، وتعقدها ، وتنامي متطلباتها . ففي العالم الذي نعيشه نواجه كل يوم سلسلة من الأحداث التي تتطلب منا صناعة قرارات متتالية . وتبين لنا خبرتنا أن عملية صناعة القرارات تحتاج إلى توافر كميات معينة من المعلومات . وتشير الدراسات إلى أن القرار يعتمد لنجاحه ، وبنسبة قد تزيد على ٩٠٪ على نوعية المعلومات التي تتوفر لصانعة ، في حين أن الخبرة والثقافة والقدرة الشخصية لا تسهم إلا بأقل من ١٠٪ من مستلزمات صناعة القرار[٦] .

المعلوماتية و نظم المعلومات	علم الحاسوب	علم التحكم و الضبط
المكتبات و التوثيق	بحوث العمليات	الإحصاء
الأعلام	علم النفس المعرفي	أخرى ؟

الشكل رقم (١)
الفروع العلمية لعلوم المعلومات

ونظراً لأهمية المعلومات هذه ، فقد حاول عدد كبير من العلماء والباحثين ، الذين يحملون خلفيات علمية متنوعة ، أن يبحثوا في ماهية المعلومات ، وطبيعتها ، ومكوناتها ، وطرق انتاجها وبثها وانسيابها ، وسلوكياتها ، وأساليب السيطرة عليها وإدارتها . وتشير الدراسات إلى أن الفرع العلمي الذي نطلق عليه تسمية " علم المعلومات " يضم عدداً من التخصصات العلمية التي بينها الشكل رقم (١) ، وهو في الوقت نفسه نقطة تقاطع عدد من الفروع العلمية ، وكما في الشكل رقم (٢) .



الشكل رقم (٢)
الهيكلية العلمية المتداخلة لحقل علوم المعلومات

٢-١ تطور حقل علوم المعلومات :

علوم المعلومات هو الحقل العلمي الذي يبحث في المعلومات منذ تولدها كبيانات في عالم المتغيرات ، مروراً باستحصالها ، ونقلها ، ومعالجتها ، والاستفادة منها في صناعة القرارات ، وتحويل هذه القرارات إلى فعل يولد بيانات عن طريق أحداث التغيرات في العالم . ولابد من توفر بيئات ملائمة لكي تحدث كل العمليات أعلاه . وأطلقنا على هذه البيئات تسمية " نظم المعلومات " . ولكي تجري العمليات بيسر وسهولة وسرعة ودقة فاننا نحتاج إلى أدوات ومعدات اصطلحنا على تسميتها "تكنولوجيات المعلومات والاتصالات " . يقول روبرت تايلور في بحث نشره عام ١٩٦٣ بعنوان "The Information Sciences " إن علوم المعلومات في إطاره النظري يتعامل مع دراسة عناصر عملية الاتصال مثل نظم المعلومات والأفراد . وأنه نقطة تقاطع عدد من العلوم مثل الرياضيات ، والمنطق ، وعلم النفس ، والفسلجة العصبية ، وعلم اللغويات ، أما في الإطار العملي ، فإن علوم المعلومات ، كحقل علمي ، يهتم بتطوير نظم استرجاع المعلومات . وانه يستند إلى عدد من

التكنولوجيات ، مثل الهندسة الكهربائية ، والحاسوب ، والعلوم الإدارية ، والمكتبات ، وبحوث العمليات(٧) .

وقد حل مصطلح " علم المعلومات " محل " علوم المعلومات " في النتاج العلمي المنشور وفي التداول لأنه يأتي بصيغة المفرد فلا يختلط الأمر على الناس . حيث أن مصطلح " علوم المعلومات " قد يعني لهم مجموعة حقول وليس حقلا علمياً واحداً فقط . وقد استخدم هذا المصطلح للمرة الأولى أثناء انعقاد المؤتمر الدولي للمعلومات العلمية في واشنطن العاصمة(٨) ، ووضع أول تعريف له خلال مؤتمري معهد جورجيا التكنولوجي عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢ ، وكالآتي : « هو العلم الذي يبحث في خواص وسلوك المعلومات ، والقوى التي تتحكم بانسياب المعلومات ، وأساليب معالجة المعلومات لتحقيق أفضل استحصال واستعمال . والمعالجة تشمل تنظيم المعلومات ، وتوزيعها ، وجمعها ، والعثور عليها ، وخزنها ، واسترجاعها ، وترجمتها ، والاستفادة منها »(٩) .

وأدت الحاجة البشرية المتزايدة إلى المعلومات إلى ضرورة تهيئة أفراد قادرين على التعامل بكفاءة واقتدار مع المعلومات . وساهمت مؤسسات تعليمية مختلفة في إعداد هؤلاء الأفراد ولكن بأساليب مختلفة لعدم وجود اتفاق مسبق بين هذه المؤسسات حول ماهية المطلوب من كل منهم ، برغم محاولة مؤتمرا معهد جورجيا التكنولوجي لصياغة مواصفات اختصاصي المعلومات . وقد أدى ذلك إلى غياب الفهم المشترك حول ما الذي يقع ضمن حدود واهتمامات هذا الحقل وما هو بعيد عنها . ويمكن ملاحظة غياب هذا الفهم من خلال :

١- عدم وضوح تعريف علوم المعلومات كحقل علمي ، وغموض مكوناته وارتباطاته . حتى أن هناك تباين في وجهات النظر حول كونه حقلا علميا واحداً أو مجموعة حقول علمية مترابطة مع بعضها البعض .
٢- غموض التركيب العلمي (الهيكلية) لهذا الحقل ، وعدم وضوح ماهية التغيرات التي حصلت لهيكليته ، والتي يمكن ملاحظتها من خلال متابعة التغير الحاصل

في اهتمامات الحقل العلمية منذ ظهوره إلى الآن .

٣- إن التعليم في علوم المعلومات لازال مشتتاً في عدد من البرامج والأقسام الأكاديمية والكليات ، مثل علم الحاسوب ، والمكتبات ، والتوثيق ، وإدارة الأعمال، وهندسة النظم ، وغيرها .

ويمكن التعرف على أساسيات تطور التركيب العلمي لحقل علوم المعلومات من خلال متابعة الجدول في الشكل رقم (٣) .

٢-٢ مشاكل علوم المعلومات كحقل علمي :

يمكننا أن نصنف مشاكل علوم المعلومات أو التحديات التي تواجهه كعلم في دولنا إلى الآتي[١٠] :

١- افتقار الجهات المشرفة على التعليم والبحث العلمي في دول العالم الثالث ، وبضمنها الدول العربية ، إلى تصور واضح عن علوم المعلومات ، مما لا يتيح الفرصة أمام المؤسسات التعليمية المختلفة لوضع برامج متطورة لإعداد اختصاصي المعلومات الأكفاء .

٢- عدم وجود معايير دقيقة لقياس مدى ملائمة البرامج الأكاديمية المتوفرة في علوم المعلومات لإعداد متخصصين قادرين على تلبية الاحتياجات الوطنية .

٣- افتقار معظمنا ، كأفراد ومؤسسات ، إلى تصور واضح ومؤكد عن أهمية وجدوى الدور الذي يمكن أن يضطلع به اختصاصي المعلومات ، وتحديد القطاعات التي هي بحاجة أعظم إلى خدماته .

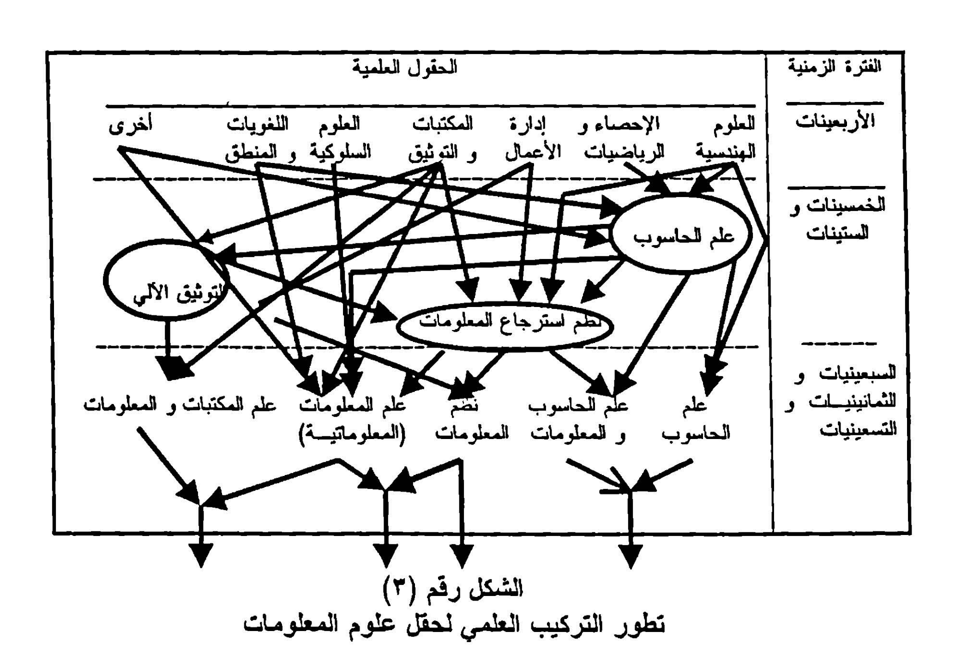
٤- تحديد من هو اختصاصي المعلومات ؟

٥- تعاني معظم المؤسسات الأكاديمية في مختلف أرجاء العالم من مشكلتين أساسيتين تتعلقان بتعليم علوم المعلومات ، هما :
   - تحديد اهتمامات وجوانب الحقل العلمي أسوة بالعلوم الأخرى .
   - جوانب حقل علوم المعلومات التي يجب الاهتمام بها أكثر من غيرها لكونها

أساسية في إعداد وتهيئة اختصاصي المعلومات .

٦- افتقار الأقسام العلمية والكليات التي تتولى مهمة إعداد اختصاصي المعلومات إلى تصور وفهم مشتركين لطبيعة مهمتهم هذه ، ومتطلباتها ، ومستلزماتها ، والتوجهات العامة لها .

٧- لازالت العديد من دول العالم (خاصة الأقل تقدماً) تعامل المعلومات كسلعة كمالية لذلك لا تولي عملية إعداد المتخصصين فيه اهتماماً كافياً على الرغم من أن كل المقاييس تشير إلى أن المعلومات هي مورد قومي أساسي لا تقل أهميته عن الموارد الأخرى ، كرأس المال ، والطاقة ، والأفراد ، وما إلى ذلك . ويتجلى عدم الاهتمام هذا في أن العديد من هذه الدول لازالت تفتقر حتى إلى برنامج أكاديمي واحد لإعداد اختصاصي المعلومات ، أو أن برامج الإعداد هذه تستحدث وتلغى بحسب مزاج القائمين على النظام التعليمي في البلد ، وغير ذلك .



الشكل رقم (٣)
تطور التركيب العلمي لحقل علوم المعلومات

وهذه المشاكل ليست وليدة اليوم ، فقد رافقت الحقل منذ ولادته ولكنها لازالت قائمة في الدول الأقل تقدما إلى الآن . أما في الدول المتقدمة فقد وضعت حلول لها منذ ما يقرب من ربع قرن حيث عقدت المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية التي أوجدت حلولاً لهذه المشاكل . ومن ذلك المؤتمر الذي دعت إليه جامعة بيتسبرغ الأمريكية في منتصف السبعينيات لمناقشة سبل إعداد اختصاصي المعلومات والاتفاق على المناهج الدراسية الضرورية لإعداد أفراد أكفاء في التعامل مع المعلومات وإدارتها . وساهم في المؤتمر عدد كبير من المعنيين وناقشوا التحديات التي تواجه البرامج الأكاديمية في الحقل ، وحاولوا ايجاد وسائل من شأنها مجابهة تلك التحديات . وكان من نتائج المؤتمر استحداث القسم المشترك لعلم المعلومات (Interdisciplinary Department of Information Science) في جامعة بتسبرغ ، والذي لازال قائما إلى الآن ويوفر برامج دراسية في علم المعلومات بمستوى البكالوريوس علوم ، والماجستير علوم ، وشهادة الدراسات المتقدمة ، والدكتوراة[١١] .

أما على مستوى دول العالم الثالث فقد عقد في بغداد " مؤتمر التخطيط الوطني للمعلوماتية في الدول النامية " ، عام ١٩٧٥[١٢] . وقد تناقش المشاركون حول العديد من المواضيع التي كان منها طرق وأساليب إعداد المعلوماتيين في الدول النامية. ولكن مقرراته ودراساته لم تجد طريقها للتطبيق الفعلي إلى الآن .

٢-٣ فئات اختصاصي علوم المعلومات :

تشير الدراسات السكانية والاجتماعية إلى أن أكثر من ٥٠٪ من القوى العاملة في الدول المتقدمة يعملون في مجالات علوم المعلومات ، وأن هذه النسبة هي في تزايد مستمر . وقد صنف كينغ والمجموعة التي عملت معه في رسم صورة العاملين في حقل علوم المعلومات في الولايات المتحدة اختصاصي المعلومات إلى ست مجموعات ، هي[١٣] :

١- أخصائيو نظم المعلومات : وهم العاملون في تحليل ، ودراسة ، وتصميم ، وتنفيذ ، وتشغيل ، وإدامة وصيانة ، وتقويم نظم المعلومات ، ويقسم الصنف إلى فئتين من العاملين :

أ - محللو نظم المعلومات : وتتلخص المهام الأساسية لهذه الفئة في تحليل نظام المعلومات ودراسة مشاكله ، وتعريف مكونات النظام ومتطلبات مستخدميه .

ب - مصممو نظم المعلومات : وتتعلق مهام أفراد هذه الفئة بالاستفادة من نتائج دراسات الفئة الأولى واعتمادها في تصميم وبناء نظم معلومات أكثر كفاءة وفاعلية لتلبية احتياجات المستفيدين بصورة أفضل ، وعلى وفق التطورات التي تشهدها المنظمة .

وعادة ما يكون مصمم النظم هو نفسه محلل النظم ، ولكن ليس على الدوام . وأفراد هذه الفئة هم من خريجي أقسام نظم المعلومات ، أو علم الحاسوب ، أو الإحصاء، أو بحوث العمليات .

٢- فنيو نظم المعلومات : وهم الأفراد الذين يديرون نظام المعلومات ، ويسيطرون على فعالياته ، ويديمونها من الجانب التكنولوجي ، الذي يشتمل على الحواسيب ، ومعدات الاتصال ، والشبكات ، وغير ذلك من التكنولوجيات المتقدمة . وعادة ما يكون أفراد هذه الفئة من مهندسي السيطرة والنظم ، أو مهندسي الحاسوب ، أو المهندسين الإلكترونيين .

٣- وسطاء المعلومات : وتضم الفئة مجموعة الأفراد الذين يعملون ما بين مصادر المعلومات والمستفيدين منها . وتتعلق مهامهم في البحث في مصادر المعلومات (التقليدية والإلكترونية) بناء على طلب المستفيد ، واقتراح مصادر المعلومات لمن يحتاجها . ومعظم أفراد هذا الصنف هم أما من خريجي أقسام بحوث العمليات الذين يوفرون المعلومات عن طريق استخدام النماذج الرياضية ، والمحاكاة ، وغير ذلك من أساليب بحوث العمليات . أو من خريجي أقسام المكتبات والتوثيق الذين يمتلكون

معرفة عميقة في مصادر وخدمات المعلومات ، إضافة إلى معرفتهم بنظم التصنيف المختلفة ، ونظم التكشيف والاستخلاص ، ونظم استرجاع المعلومات . ويمكن تقسيم أفراد هذا الصنف إلى ثلاث فئات :

أ - الباحثون عن مصادر المعلومات .

ب - المنظمون لأوعية المعلومات ، من مفهرسين ، ومصنفين .

ج - الوسطاء الذين يعدون ويهيئون المعلومات (وليس أوعية المعلومات) لصانعي القرارات . وتشمل الفئة اختصاصي بحوث العمليات ، والمحللين الموضوعيين ، والمكشفين ، والمستخلصين ، والببليوغرافيين ، واخصائي القياسات الببليوغرافية (الببليومتريكس) ، وغيرهم .

٤- مدراء المعلومات : ويضم الصنف مجموعة من الأفراد المؤهلين تأهيلا عالياً تكون مهمتهم الرئيسية هي إدارة منظمات المعلومات بمختلف مستوياتها وأشكالها . ويمارس أفراد هذا الصنف الوظائف الإدارية المعتادة ، من تخطيط وتنظيم ورقابة وأفراد وصناعة قرارات وتمويل ورقابة . . . إلخ . وعادة ما يكونون من حملة الشهادات العليا في نظم المعلومات ، أو علم الحاسوب ، أو الإحصاء ، أو المكتبات ، أو إدارة الأعمال ، أو هندسة السيطرة والنظم ، وغيرها .

٥- العلماء والباحثون العلميون : ويشمل هذا الصنف اختصاصي علوم المعلومات الذين يهتمون بالجوانب النظرية ، أو بحوث الجوانب التطبيقية لعلوم المعلومات كحقل علمي . والجوانب العلمية التي تغطيها بحوثهم هي فلسفة العلم ، ونظرياته ، والقوانين التي تحكمه ، والجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتعلقة به . وأفراد هذا الصنف في العادة هم من حملة شهادات الدكتوراه في مختلف الاختصاصات العلمية والإنسانية والإدارية والهندسية والاجتماعية التي يصورها الشكل رقم (٢) ، والتي تشكل هيكلية علوم المعلومات .

٦- مدرسو علوم المعلومات : وهم الأفراد في أعلى مستوى تعليمي في حقل

علوم المعلومات (في العادة من حملة الدكتوراة والألقاب العلمية) الذين يقومون بالتدريس في أقسام وكليات علوم المعلومات ، أو يدرسون مقررات علوم المعلومات في الكليات والأقسام غير الاختصاصية . ومهمتهم الأساسية هي تدريس وتدريب وإعداد وتهيئة الأفراد لممارسة العمل في الأصناف الأخرى .

٢ - ٤ المواد الدراسية لعلوم المعلومات :

تعود أولى المحاولات لتدريس المواد الخاصة بعلوم المعلومات إلى منتصف الخمسينيات ، حين بدأت (هيلين فوك) بتدريس مادة " التوثيق الآلي " في جامعة ويسترن ريزيرف في كليفلاند بولاية أوهايو الأمريكية[١٤] . وسرعان ما أخذت العديد من الجامعة الأمريكية تنحو هذا المنحى حتى استحدث معهد جورجيا التكنولوجي مدرسة علوم المعلومات والحاسوب في النصف الأول من عقد الستينيات . وصنف (الصباغ) مقررات حقل علوم المعلومات إلى خمسة مجموعات رئيسية ، هي[١٥] (مع استبعاد مقررات الإعلام كما هو الحال في الجامعات العربية) :

١- مقررات خزن واسترجاع المعلومات : وتبحث هذه المقررات في نظريات استرجاع المعلومات ، وأساليب الخزن والاسترجاع ، وتكنولوجياته ، وطرق بناء وتنظيم قواعد البيانات وملفات المعلومات واسترجاع المعلومات منها ، والنماذج والأساليب الإحصائية والاحتمالية المتعلقة باسترجاع المعلومات ، والمواصفات التكنولوجية لنظم الخزن والاسترجاع ، واستراتيجيات إجراء البحوث الآلية المباشرة في النظم المحوسبة العالمية أو نظم الاقراص الليزرية المكتنزة .

٢- مقررات نظم المعلومات : ومحور اهتمام هذه المقررات هو نظام المعلومات وليس المعلومات نفسها . وتتناول المقررات دراسة هيكلية النظم ، وخصائصها ، ومكوناتها ، ودورة حياة النظام ، ومستلزمات بنائه ، ومشاكله ، وأساليب دراسته وتحليله ، وتصميم النظم ، وبنائها ، وتشغيلها ، وتقييمها ، وصيانتها ، وإدامتها . والنظم المتخصصة ، ونظم المعلومات الإدارية ، ونظم المعلومات الاستراتيجية ، والنظم

الخبيرة ، ونظم إسناد القرارات . إضافة إلى أربع أنواع من التكنولوجيات المهمة لنظام المعلومات التي هي : تكنولوجيا المكونات المادية ، وتكنولوجيا البرمجيات ، وتكنولوجيا قواعد البيانات ، وتكنولوجيا الاتصالات .

٣- مقررات علم الحاسوب : وهي المواد الدراسية التي تبحث في أساسيات علم ونظم الحاسوب ، وهيكلية الحاسوب ، وتصميمه المنطقي ، وتمثيل البيانات فيه ومعالجتها وإنتاج المعلومات وأنظمة تشغيل الحاسوب ، وإجراءات السيطرة والأمنية والحماية ، وشبكات الحاسوب ، وإدارة المعلومات والسيطرة عليها ، والذكاء الاصطناعي ومعالجة اللغات الطبيعية ، ولغات البرمجة ، وتطبيقات الحاسوب في مختلف مجالات الحياة ، والحزم البرمجية ، وهندسة البرمجيات . أي أن اهتمام هذا المحور هو تكنولوجيا المعلومات ومستلزمات تشغيلها .

٤- مقررات مصادر وخدمات المعلومات : وهي المقررات المتعلقة باقتناء ومعالجة وإعداد مصادر المعلومات (يتضمن الفهرسة ، والتصنيف ، والتكشيف ، والاستخلاص ، وإعداد الببليوغرافيات) ، وصيانة مصادر المعلومات ، وتقديم مختلف أنواع الخدمات المعلوماتية للمستفيدين ، مثل الإعارة ، وخدمات مراجع وأدلة المعلومات العامة والمتخصصة ، والبحث الآلي المباشر ، والاستشارات ، وخدمات الإحالة، وغير ذلك من الخدمات التي تقدمها المكتبة .

٥- مقررات أتمتة المكاتب : وهي المقررات التي تتناول الاستخدامات المختلفة لأنواع التكنولوجيات الحديثة في المكاتب ، سواء كان ذلك بهدف تسهيل العمل أو تنظيمه أو تحسين أساليب الحماية والأمنية . وتتضمن هذه المقررات معالجة النصوص ، والبريد الالكتروني ، والشبكات ، ونظم الحماية والأمنية ، وتشفير الاتصالات ، وما إلى ذلك .

٢-٥ البرامج الأكاديمية في علوم المعلومات :

هناك عدد كبير من البرامج الأكاديمية في مختلف الكليات والمعاهد التي تقدم

تعليما في علوم المعلومات بشكل أو بآخر . ومن الملاحظ أن هناك اختلافات واضحة بين هذه البرامج في جوانب متعددة ، مثل فلسفة البرنامج وطبيعته ، ومحتوياته وتوجهاته واهتماماته ، وارتباطه الأكاديمي ، والدرجات العلمية التي يمنحها ، والخلفيات العلمية للمدرسين العاملين فيه ، وغير ذلك من اختلافات . ويمكن أن تصنف هذه البرامج إلى صنفين رئيسيين ، هما : (١) البرامج التخصصية المباشرة ، و(٢) البرامج غير المباشرة .

١- البرامج التخصصية المباشرة : وهي البرامج المتعلقة بالمعلومات ليس إلا . واهتمام هذه البرامج يتمحور حول أنظمة المعلومات ، أو المعلوماتية (علم المعلومات) ، أو إدارة المعلومات ، أو سياسات المعلومات . ومن أمثلة هذه البرامج هي البرامج المتوفرة في القسم المشترك لعلم المعلومات في جامعة بتسبرغ الأمريكية (تقدم برامج بمستوى البكالوريوس ، والماجستير (ثلاث تخصصات فرعية) ، وشهادة الدراسات المتقدمة ، والدكتوراة) وقد تغير اسم القسم الآن ليصبح قسم علم المعلومات والاتصالات ، وبرنامج دراسات المعلومات في جامعة ولاية فلوريدا ، والبرامج التي توفرها جامعات سيركيوز ودريكسل والكلية الجامعة - لندن . وفي جامعة نيويورك الرسمية في الباني (SUNY) تقدم عدد من البرامج في علم وسياسات المعلومات . أما في الدول العربية فتتوفر برامج نظم المعلومات في المملكة العربية السعودية في جامعة الملك فهد في الظهران ، وجامعة الملك سعود في الرياض . وفي العراق يتوفر برنامجان ، الأول في كلية الرافدين الجامعة في بغداد بمستوى البكالوريوس في نظم المعلومات ، والثاني في المركز القومي للحاسبات الإلكترونية في بغداد بمستوى ماجستير علوم في نظم المعلومات . وفي جامعة عمان في الأردن يقدم برنامج بمستوى البكالوريوس في أنظمة المعلومات الحاسوبية . كما تقدم عدد من برامج الليسانس (المعادلة للبكالوريوس) في معاهد علم المعلومات في الجامعات الجزائرية ، وغيرها . كما استحدثت جامعة القاهرة قبل عامين كلية لعلوم الحاسوب والمعلومات توفر برنامجاً لنظم المعلومات بمستوى البكالوريوس .

٢- البرامج غير المباشرة : ويتمحور اهتمام هذه البرامج على أكثر من اختصاص تكون علوم المعلومات إحداها . أو يتركز الاهتمام على أحد جوانب علوم المعلومات وليس على العلم بأكمله . مثل التركيز على علم الحاسوب ، أو المكتبات ... إلخ ، وأهم هذه البرامج هي :

١- أقسام علم الحاسوب والمعلومات :

بدأ ظهور أقسام تتولى إعداد المتخصصين بعلم وهندسة الحاسوب منذ الخمسينيات حين أخذت تطبيقات الحاسوب تنتشر تجاريا في جميع القطاعات الحياتية في الولايات المتحدة الأمريكية . واقتصرت المناهج الدراسية لهذه الأقسام في بداية ظهورها على جانبين ، هما : تكنولوجيا الحاسوب ، وهندسته ، والبرمجة . ونتيجة لتزايد الاهتمام بالحاسوب وبرامجه التعليمية فقد بدأت أقسام علم الحاسوب تتجه للتخصص أكثر فأكثر . ومنذ السبعينيات بدأت أقسام هندسة الحاسوب تستقل عن أقسام علم الحاسوب في جانبي المقررات الدراسية والارتباط الأكاديمي . ففي الوقت الذي بقت فيه معظم أقسام علم الحاسوب مرتبطة بكليات العلوم ، أو كليات الآداب والعلوم نرى أن أقسام هندسة الحاسوب قد أصبحت ترتبط بكليات الهندسة .

وحين قلت الحاجة إلى المبرمجين ، نتيجة لظهور مفهوم حزم البرمجيات الجاهزة ، وانتشار استخدام الحاسوب الدقيق (Microcomputer) السهل الاستخدام والذي لا يحتاج استعماله إلى الإلمام بالبرمجة ، بدأت أقسام علم الحاسوب بالاتجاه نحو إعداد اختصاصي معلومات ملمين بمختلف جوانب إدارة تكنولوجيا المعلومات ، مثل تحليل النظم ، وتصميمها ، وإدارتها ، وبرمجتها ، وتشغيلها ، واستخدامها ، إضافة إلى أساسيات علم الحاسوب . وبناء على ذلك غيرت أغلب هذه الأقسام عناوينها إلى "قسم علم الحاسوب والمعلومات" بعد أن ربطت مفهومي الحاسوب والمعلومات في حقل أكاديمي واحد .

وفي الثمانينيات اتجهت بعض الجامعات إلى التخصص مرة ثانية ففصلت بين علم

الحاسوب وأنظمة المعلومات واستحدثت كليات متخصصة في إعداد مختلف أصناف اختصاصي المعلومات في أقسام مستقلة وعادت فكرة كلية علوم المعلومات والحاسوب التي بدأها معهد جورجيا التكنولوجي للظهور ثانية حين استحدثت العديد من الجامعات " كليات علوم الحاسوب والمعلومات " . ومن أمثلتها في دولنا العربية " كلية علوم الحاسب والمعلومات " في جامعة الملك سعود في الرياض التي يتوفر فيها أربعة أقسام أكاديمية ، هي : قسم علم الحاسوب ، وقسم هندسة الحاسوب ، وقسم نظم المعلومات ، وقسم تقنية المعلومات . وكلية علوم الحاسوب والمعلومات في جامعة القاهرة ، والعديد من الجامعات المصرية الأخرى .

يتركز اهتمام البرامج في هذه الفئة على معالجة المعلومات ، وأساليب إنتاجها ، وخزنها ، واسترجاعها ، ونقلها ، وبثها ، وتحليل وتصميم وبناء وتقويم نظم المعلومات، وتكنولوجيا المعلومات وشبكة الحاسوب ، ونظم التشغيل ، ومعالجة اللغات الطبيعية ، وما إلى ذلك .

وتضم المناهج الدراسية لهذه الأقسام مقررات في لغات البرمجة المختلفة ، والمعالجة الحاسوبية للبيانات ، والإنتاج الحاسوبي للمعلومات ، وأساليب خزن واسترجاع واستخدام المعلومات حاسوبيا ، وتحليل وتصميم وتقويم نظم المعلومات ، وقواعد البيانات ونظم إدارتها ، وبناء الملفات ، ونظم تشغيل الحاسوب ، وشبكات الحاسوب والاتصالات ، والذكاء الاصطناعي والنظم الخبيرة ، ونظم دعم وإسناد القرارات ، ومواد ساندة في الفيزياء والرياضيات وبحوث العمليات .

٢- أقسام علم المكتبات والمعلومات :

شهد النصف الثاني من عقد الخمسينيات بدايات توجه بعض مدارس المكتبات الأمريكية لإضافة مقررات دراسية تتناول " الاسترجاع الميكانيكي أو الآلي للمعلومات" ، ولكن على نطاق محدود للغاية . وكان معظم الذين تبنوا هذا الاتجاه هم من المدرسين المتخصصين في العلوم (الكيمياء والفيزياء) بالتحديد ، من أمثال

كنت، وبيري ، وغيرهما . وبعد ظهور وانتشار استخدام مصطلحات ، مثل علوم المعلومات ، وعلم المعلومات ، والمعلوماتية خلال عقدي الستينيات والسبعينيات أدخلت مدارس المكتبات في مناهجها مقررات مثل " علم المعلومات " ، و " تطبيقات الحاسوب في نظم المعلومات " ، و " أتمتة المكتبات " ، وغيرها منذ أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات . كما أن الفترة نفسها شهدت إضافة مصطلح " المعلومات " إلى عنوان مدرسة المكتبات ، فأصبحت " مدرسة علم المكتبات والمعلومات " ، كما في الجامعات المعروفة في هذا الحقل ، مثل بتسبرغ ، وكاليفورنيا - بركلي ، وكاليفورنيا - لوس انجلوس ، وجنوب كاليفورنيا ، وكيس وسترن ، ومن ثم انديانا ، ووسكانسون - مديسون ، والينويز ، وميشيغان ، وتكساس ، وغيرها . أو أطلقت عليها تسمية " مدرسة المكتبات ودراسات المعلومات " ، كما في جامعة ولاية فلوريدا التي عادت وغيرت العنوان الآن إلى " مدرسة دراسات المعلومات " ، كما هو الحال في سيركيوز ، ودريكسل ، وشفيلد ، وغيرها .

وكان عقد الخمسينيات قد شهد تحولا جذرياً في طبيعة البرامج الدراسية في المكتبات في الولايات المتحدة الأمريكية وتبعتها في ذلك كندا وبريطانيا . حيث تقرر غلق جميع برامج البكالوريوس في هذا الاختصاص بعد أن أصدر مجلس التعليم للعلوم المكتبية الأمريكي مقاييس التقييم لعام ١٩٥١ التي أشارت إلى عدم جدوى برامج البكالوريوس في المكتبات حيث وجد أن هناك ضرورة ملحة في أن يكون لمن يعمل في المكتبات خلفية علمية متينة في أحد فروع المعرفة إضافة إلى العلوم المكتبية[(١٦)] . لذلك أصبحت شهادة الماجستير هي الشهادة الأولية في المكتبات .

أما في الدول العربية ، فقد كان برنامج المكتبات والوثائق الذي استحدثته جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد) في عام ١٩٥١ ، أول برنامج من نوعه في المنطقة ، وتلته العديد من البرامج المماثلة في مصر والسعودية والسودان والعراق واليمن وعمان ولبنان وسوريا . وتتميز جميعها بأنها تبدأ بمرحلة البكالوريوس ، وإنها موجهة لإعداد أمناء مكتبات وليس اختصاصي معلومات ، وأن المقررات التكنولوجية

ومقررات علوم المعلومات التي تحتويها محدودة للغاية ، ولا تتجاوز أتمتة المكتبات ونظم خزن واسترجاع المعلومات ، وأحيانا مقرر في " علم المعلومات " بحسب المفاهيم التي كانت سائدة في الستينيات . واستحدثت برامج للماجستير والدكتوراة في مصر والعراق والسعودية والجزائر والسودان والمغرب لا تختلف محتوياتها عن برامج البكالوريوس . ويتركز اهتمام الغالبية العظمى من هذه البرامج على أوعية المعلومات وليس على المعلومات نفسها .

٣- أقسام أخرى :

هناك عدد آخر من الأقسام العلمية التي تهتم بإعداد أنواع محددة من اختصاصي المعلومات مثل :

أ - أقسام بحوث العمليات : " ظهرت بحوث العمليات خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) كأساليب مساعدة في صناعة القرارات العسكرية . واستخدمت بعد الحرب بنجاح في التطبيقات الصناعية ومنها انتشرت إلى مختلف جوانب وضع السياسات"[١٧] . وبحوث العمليات هو العلم الذي يتعلق بأساليب صناعة القرارات ، وخاصة الأساليب الرياضية ، من خلال جمع بيانات حول مشكلة معينة واستخدام نموذج رياضي أو طريقة كمية محددة للوصول إلى أفضل حل للمشكلة[١٨] . ومن هنا نرى أن بحوث العمليات هي أسلوب معلوماتي بحت .

لقد ظهرت البرامج الدراسية التي تتولى إعداد المتخصصين في بحوث العمليات في عدد من الجامعات ، كأقسام مشتركة للإحصاء وبحوث العمليات (كما في جامعة التكنولوجيا في لفبرة / بريطانيا) ، أو كأقسام مستقلة في كليات إدارة الأعمال ، أو كليات الآداب والعلوم . وفي الدول العربية هناك قسم مستقل لبحوث العمليات في كلية الرافدين الجامعة ، وآخر في كلية المنصور الجامعة ، وكلاهما في بغداد ، وقد افتتحا منذ عام ١٩٨٨ .

ب - أقسام نظم المعلومات الإدارية : وتعمل هذه الأقسام على إعداد اختصاصي

نظم معلومات للعمل في قطاع إدارة الأعمال . وهذه الأقسام في العادة ترتبط بكليات إدارة الأعمال . ولكن عدد هذه الأقسام لازال محدوداً ويقتصر توافرها عل الجامعات الكبيرة في العادة . والمناهج الدراسية لهذه الأقسام مشابهة لمناهج أقسام نظم المعلومات التي سبق الحديث عليها ، مع تركيز خاص على إدارة الأعمال . وتعتبر الجامعة الأمريكية في الشارقة رائدة في هذا المجال في العالم العربي .

ج - أقسام الإعلام : وهي التسمية التي تطلق على الأقسام التي تعد الصحفيين، والذين سيعملون في مؤسسات الإعلام ، كالإذاعة والتلفزيون . وهي بعيدة إلى حد ما عن تخصص علوم المعلومات كعلم قائم بذاته ، ولكنها تقدم عدداً من المقررات ذات العلاقة ، مثل التوثيق الإعلامي ، وشبكات الاتصالات والمعلومات ، ونظم المعلومات ، والنشر الإلكتروني ، وما إلى ذلك .

د - أقسام مشتركة : بدأت بعض الجامعات بتوفير برامج لعلوم المعلومات مشتركة مع تخصصات أخرى ، وتهتم بإعداد اختصاصي معلومات للعمل في تلك التخصصات . مثل قسم المعلومات والفلسفة بجامعة دايتون في أوهايو ، وكلية علم وسياسات المعلومات في جامعة نيويورك في ألباني في نيويورك ، وغيرهما .

والجدول في الشكل رقم (٤) يعرض الاهتمام المعلوماتي لكل قسم وكلية توفر برامج أكاديمية في حقل علوم المعلومات ، وقد تم استثناء " الإعلام " لخصوصيته .

٢- التوجهات العربية في دراسات المعلومات :

ليس هناك من اختلاف كبير بين توجهات الجامعات العربية وتوجهات زميلاتها الغربيات في جانب دراسات المعلومات . فالشكل الأول الذي ظهرت فيه هذه الدراسات كان ضمن أقسام المكتبات ، ولم تتعدى مقررات بعضها ما كانت تقدمه الجامعات الأمريكية خلال السبعينيات . ويعتبر برنامج " البكالوريوس في علم المعلومات " في قسم علم المكتبات والمعلومات بجامعة الملك سعود في الرياض أول برنامج عربي يتخصص بإعداد المعلوماتيين . تلته برامج " قسم نظم المعلومات " في كلية الرافدين

الجامعة وبرنامج " نظم المعلومات الحاسوبية " في جامعة عمان الأهلية والآخر في جامعة العلوم التطبيقية في الأردن ، ومثيلهما في جامعتي البيان وعجمان للعلوم والتكنولوجيا في الإمارات العربية المتحدة ، وغيرها . كما أن العديد من الجامعات بدأت تنحو هذا المنحى في الأعوام الأخيرة ، مثل جامعة القاهرة ، والعديد من الجامعات المصرية الأخرى .

الكلية / القسم	الاهتمام
علم الحاسوب والمعلومات	لغات البرمجة وحزم البرمجيات الجاهزة خزن واسترجاع المعلومات الحاسوب ومنطق عمله وتركيبه وهيكليته ونظم تشغيله أساليب معالجة البيانات / الشبكات والمحطات نظم المعلومات / قواعد البيانات ونظم إدارتها الذكاء الاصطناعي / النظم الخبيرة / معالجة اللغات الطبيعية
المكتبات والمعلومات	أوعية ومصادر المعلومات / اقتناء ومعالجة وتنظيم تكنولوجيا المعلومات نظم استرجاع المعلومات إدارة خدمات المعلومات نظم المعلومات الببليوغرافية
إدارة الأعمال	نظم المعلومات الإدارية ونظم المعلومات المحاسبية تطبيقات الحاسوب في إدارة الأعمال معالجة البيانات الإدارية وأتمتة المكاتب النظم الاستراتيجية نظم دعم وإسناد القرار
علم المعلومات (المعلوماتية)	نظم المعلومات بمختلف أنواعها ومستوياتها المعالجة الحاسوبية للبيانات لغات البرمجة وحزم البرمجيات الجاهزة شبكات المعلومات والاتصالات نظم إدارة قواعد البيانات والجداول الإلكترونية مصادر وخدمات المعلومات نظرية المعلومات (النظرية الرياضية للاتصالات)

الشكل رقم (٤)

الاهتمام المعلوماتي للأقسام والكليات المختلفة

أما أقسام بحوث العمليات فلا زال عددها محدودا ، وهي لا تعد اختصاصي معلومات بالشكل المتعارف عليه لهذه الفئة من المتخصصين .

في الجزائر وتونس والمغرب هناك عدد من معاهد علم المعلومات (يسمى المعهد الأعلى للتوثيق في جامعة تونس الأولى) ، وهي الأخرى أكثر تخصصاً في علوم المعلومات من زميلاتها في دول المشرق العربي ، ولو إنها لم تصل إلى مرحلة التخصص الكاملة .

٣-١ لماذا علم المكتبات والمعلومات ؟

ترتبط أقسام علم المكتبات والمعلومات في الجامعات العربية بكليات الإنسانيات ، أو الآداب ، أو الآداب والعلوم ، أو العلوم الاجتماعية ، أو التربية ، أو غيرها . ويتوفر حاليا (١٢) من البرامج التي تحمل هذه التسمية (أو تسمية مقاربة) في الجامعات المصرية ، و (٧) برامج في الجامعات السعودية و (٣) برامج في الجامعات العراقية ومثلها في الجامعات الليبية ، وبرنامجين في الجامعات اللبنانية ومثلها في جامعات السودان ، ويتوفر برنامج واحد في جامعات كل من سوريا واليمن وعُمان وتونس والمغرب . كما يتوفر عدد من البرامج التي تمنح درجة الماجستير في علم المكتبات والمعلومات في كل من الجزائر وتونس والسعودية والسودان والعراق وليبيا ومصر . أما برامج الدكتوراه فتتوفر في السعودية ، والعراق ، ومصر فقط بحد علمنا .

وتهدف هذه البرامج بصورة عامة إلى إعداد " أمناء مكتبات " ، وتحمل مصطلح "المكتبات" في عناوينها ، والدرجات العلمية التي تمنحها . والسبب في ذلك ، كما يقول أحمد بدر ، هو للحفاظ على الهوية[١٩] . ويشير بدر إلى عدم وجود اختلاف بين العنوانين " أمين مكتبة " و " عالم معلومات " وإن إصرار البعض على استخدام تسمية " علماء المعلومات " بدلا من " أمناء المكتبات " يعود إلى أن التسمية الأولى تكسب حامليها أبهة اجتماعية[٢٠] . ولكن ماذا عن عالم المعلومات الذي لم يتلقى أي تعليم في حقل المكتبات ولم يعمل كأمين مكتبة طوال حياته ؟ هل يجب أن نسميه

" أمين مكتبة " أم ماذا ؟ وماذا عن الأبهة الاجتماعية التي تمنحها تسمية " أمين مكتبة " لحاملها ؟ وهي أبهة إن لم تزد عن أبهة تسمية " عالم المعلومات " فهي لا تقل عنها بكل تأكيد .

وقد يعود الإصرار على إضافة مصطلح " المكتبات " لعناوين الكليات والأقسام العلمية التي تعد من سيعمل في المكتبات مستقبلا عائدا إلى بدايات التعليم المكتبي في العالم . فحين انشأ ميلفل ديوي أول برنامج أكاديمي لإعداد أمناء المكتبات أطلق عليه تسمية " مدرسة علوم المكتبات " وذلك في عام ١٨٧٦ [٢١] ، وبقيت التسمية ملازمة لهذه البرامج حتى الآن في العديد من الجامعات ، ومن ضمنها الجامعات العربية. وبالطبع ليس هناك اعتراض فيما لو اكتفت هذه البرامج بإعداد أمناء مكتبات، ولكن أن تتوسع وتتحول لإعداد اختصاصي معلومات بشكل عام (أمناء مكتبات وغيرهم) فأن هذا يتطلب منها توسيع إهتماماتها بشكل يتوائم مع الطبيعة الحقيقية للتخصص . وهذا ما دعا (الصباغ) إلى أن يتساءل في أطروحته التي نال بها الدكتوراه عام ١٩٨٧ عن مدى صلاحية الارتباطات الأكاديمية الحالية لبرامج علوم المعلومات سواء كان هذا الارتباط بأقسام علم الحاسوب والمعلومات أو بأقسام علم المكتبات والمعلومات [٢٢] ، انطلاقا من حقيقة أن البرامج الأكاديمية تلعب أدوارا حاسمة في صياغة مستقبل علوم المعلومات كحقل للنشاط المهني وكجانب علمي بحثي [٢٣] . وأشار (الصباغ) إلى ضرورة البحث عن ارتباط أكاديمي جديد لبرامج دراسات علوم المعلومات بالشكل الذي يساعد الحقل على التطور ويخلق برامج تعليمية أكثر تنظيما [٢٤] .

٤- دراسات علوم المعلومات في جامعة قطر :

بدأت جامعة قطر في الدوحة ككليتين ، إحداهما للبنات والأخرى للبنين في عام ١٩٧٣ . وتحولت رسمياً إلى جامعة في عام ١٩٧٧ . وتضم الجامعة حاليا سبع كليات ، وعدد من مراكز البحوث المتخصصة . وهي الجامعة الرسمية الوحيدة في دولة قطر ، إضافة إلى فرع الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا وهو ليس جامعة حكومية .

ويتوفر في الجامعة حاليا برنامجين يمكن أن يصنفا ضمن اختصاصات حقل علوم المعلومات ، هما :

١- برنامج البكالوريوس علوم في الحاسب الآلي : والذي يقصد به علم الحاسوب ، ويقدم من خلال قسم الحاسب الآلي في كلية العلوم . ويهدف البرنامج إلى إعداد متخصصين في علوم الحاسوب ومبرمجين . ويقدم عدد من مقررات علوم المعلومات ، مثل : مقرر نظم المعلومات ، ومقرر تحليل وتصميم النظم ، ومقرر قواعد البيانات ، وغيرها .

٢- برنامج بكالوريوس آداب في الإعلام : واستحدث مطلع العام الدراسي ١٩٩٧/٩٦ ، ويقدم من خلال قسم الإعلام في كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية. ويقدم البرنامج عدداً من مقررات علوم المعلومات ، مثل : مقرر تكنولوجيا الاتصال والمعلومات ، ومقرر التوثيق الإعلامي ونظم المعلومات ، وغيرها . والبرنامجان هما ليسا من برامج علوم المعلومات المباشرة ولكنهما ضمن الاهتمام العام لذلك يصعب اعتبار أي منهما برنامج " علوم معلومات " .

وكانت الجامعة قد استحدثت في العام الدراسي ٧٨/٧٧ تخصصا فرعيا في المكتبات من خلال قسم التاريخ بمستوى البكالوريوس ، ولكن التخصص الغي بعد عشر سنوات من استحداثه ، حيث وجد أن مقررات البرنامج :

« كخطة دراسية غير قادرة لإعداد أمين مكتبة مؤهل يقدر على العمل في مؤسسات توفير المعلومات القطرية . . كان من الواضح أن الخريج لا يمكنه أن يعمل كأمين مكتبة ولذلك عين الخريجون في الأعم الأغلب في غير المكتبات ومن عين منهم في المكتبات أبعد عن العمليات الفنية »[٢٥] .

ثم استحدثت الجامعة في مطلع العام الدراسي ٨٩/٨٨ برنامجاً للدبلوم في المكتبات والمعلومات يتكون من ٣٦ ساعة فصلية ، ويقبل فيه حملة شهادة البكالوريوس في مختلف الاختصاصات[٢٦] . وتوقف القبول في البرنامج في مطلع

العام الدراسي ٩٦/٩٥ لعدم إقبال الطلبة عليه . وتشير دراسة نشرت عام ١٩٩٥ إلى أن أسباب عدم إقبال الطلبة على البرنامج يمكن تلخيصها بالآتي[٢٧] :

١- عدم وجود حوافز مادية أو معنوية تشجع الطلبة على الالتحاق بالبرنامج ، فهم متساوين مع حملة شهادة البكالوريوس في الراتب والامتيازات الأخرى .

٢- عدم وجود فرصة لإكمال التعليم بعد انهاء البرنامج . فعلى الرغم من أن البرنامج أمده ٣٦ ساعة فصلية أي أنه مساو لبرامج الماجستير ، إلا أن مختلف الجامعات (العربية أو الأجنبية) لا تعتمده بهذا الشكل بسبب تسميته كدبلوم وليس كماجستير .

٣- لكون أن أغلب الذين يتقدمون للبرنامج هم من موظفي الدولة ، ولا تمنحهم دوائرهم تفرغا لإكمال الدراسة .

٤- أسباب متنوعة أخرى ، مثل ، الظروف الأسرية ، والرهبة من الالتحاق بالدراسات العليا .

ويمكننا أن نضيف إلى أسباب فشل البرنامجين ما يأتي :

٥- عدم أخذ خصوصية قطر بنظر الاعتبار عند استحداث البرنامج ، فهل تحتاج دولة بحجم قطر وعدد سكانها إلى أعداد كبيرة من أمناء المكتبات ، وهل يتوفر ذلك العدد الكبير من المكتبات بحيث تبقى قادرة على استيعاب الخريجين سنة بعد أخرى ؟

٦- عدم استحداث قسم أكاديمي يقدم البرنامج من خلاله مما أفقده الارتباط الأكاديمي الصحيح ، أولاً ، وافقده هويته ، ثانياً . أما وجود ما يسمى بشعبة المكتبات في الجامعة ، فمن الواضح أنها تسمية غير أكاديمية ، وقد يكون السبب في استخدامها هو لأسباب إدارية أو غيرها .

٤-١ توجهات مستقبلية :

شهد العامان الدراسيان ٩٧/٩٦ و ٩٨/٩٧ حدثين مهمين فيما يتعلق بدراسات

علوم المعلومات في جامعة قطر . الأول ، هو مناقشة مشروع برنامج للبكالوريوس في علوم المعلومات والمكتبات من خلال استحداث قسم لعلوم المعلومات والمكتبات في كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية في الجامعة . والحدث الثاني تمثل في تشكيل لجنة لاستحداث برنامج للدراسات العليا في دراسات المعلومات . وقدمت اللجنة تقريرها الذي يتضمن استحداث مثل هذا البرنامج . ولكن لابد من الأخذ بنظر الاعتبار متطلبين رئيسيين ضماناً لنجاح البرنامج ، هما :

١- أن يشكل البرنامج المرحلة الأولى من برنامج الماجستير في التخصص ، والا يعتبر برنامجاً يمنح درجة علمية إلا لمن لا يوفو بمتطلبات الحصول على شهادة الماجستير.
٢- أن يقدم البرنامج من خلال قسم أكاديمي يحمل تسمية " قسم علوم المعلومات " ، يقع ضمن كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، أو كلية العلوم .

ولا تختلف جامعة قطر في حالتها الراهنة عن معظم الجامعات العربية في جانب تعليم علوم المعلومات وهي تتميز عن غيرها في أن برامجها في علوم المعلومات لم تولد لحد يومنا هذا ، وأن البرامج القريبة لازالت تحبو . لذلك فان فرصة التخطيط لهيكلية حديثة تتواءم مع التوجهات العالمية قائمة ومتاحة ولا يجوز إهمالها .

إن التوجه العالمي اليوم هو نحو استحداث برامج بكالويوس في " علم المعلومات"، كما هو يحصل في العديد من الجامعات العريقة في أمريكا وبريطانيا ، مثل جامعات ولاية فلوريدا ، وبتسبرغ ، ودريكسل ، وسيركيوز ، ومعهد جورجيا التكنولوجي ، وكاليفورنيا - ببركلي ، ومشيغان ، وكلية المدينة الجامعة - لندن ، وجامعة الملك سعود في الرياض ، ومعهد علوم المعلومات في جامعة الجزائر ، وجامعة قسنطينة ، والعديد من الحالات الأخرى في الجامعات العربية والأجنبية .

وإضافة إلى برامج البكالوريوس فنحن نقترح برامج ماجستير موازية في تخصصين في هذا الفرع ، هما : برنامج الماجستير في علم أو نظم المعلومات ، وبرنامج الماجستير في علم المكتبات . وتليها برامج الدكتوراه في نفس الاختصاصات . ومن

منطلق هذه التوجهات العالمية يجب أن ينظر إلى مستقبل دراسات علوم المعلومات في جامعة قطر وأن يخطط لها بحيث تتواءم مع احتياجات قطر وخططها التنموية .

٤-٢ خطة برامج دراسات المعلومات في جامعة قطر :

تقسم الخطة المقترحة لاستحداث البرامج الدراسية الخاصة بدراسات المعلومات في جامعة قطر إلى مرحلتين أساسيتين تنشأ في كل منهما عدد من البرامج لسد الاحتياجات الآنية وتلبية الاحتياجات المستقبلية حيث أشارت الدراسات التي نشرتها جامعة قطر إلى وجود حاجة فعلية إلى ما لا يقل عن (٨٠٠) من اختصاصي المعلومات ، وكما في الجدول في الشكل رقم (٥) .

نوع مؤسسة المعلومات وأعدادها	عدد العاملين			نسبة القطريين إلى قوة العمل	العدد المطلوب من المتخصصين
	قطريين	غير قطريين	المجموع		
المكتبات المدرسية/ ٢٠٠	٢٣	٣	٢١٥	٧ر١٠٪	٤٠٠
المكتبات العامة ودار الكتب القطرية/ ٧	٢	٨	٨٤	٤ر٢٪	٥٠
المكتبات الجامعية/ ٥	١٣	٣	١٠٢	٧ر١٣٪	٥٠
مراكز المعلومات والمكتبات المتخصصة/ ١٥٠	٥٠	١٥	٢٠٠	٥ر٢٪	٣٠٠

الشكل رقم (٥)

منظمات المعلومات في قطر وحاجتها من القوى العاملة[٢٨]

المرحلة الأولى : وتبدأ هذه المرحلة في مطلع العام الدراسي ٩٨/٩٩ وتشتمل على استحداث برنامج البكالوريوس في " علوم المعلومات والمكتبات " ، وهو البرنامج الأساسي ، ويقبل فيه طلبة الجامعة الذين أنهوا ما لا يقل عن (٢٤) ساعة فصلية ولم يتخصصوا لحد الآن من الفرعين الأدبي والعلمي ، (الملحق أ) . ويقبل البرنامج ما يقرب من (٥٠) طالب وطالبة سنوياً بهدف إعدادهم بشكل جيد للعمل في مختلف

منظمات المعلومات في قطر .

وفي الوقت نفسه يستحدث برنامج للدبلوم العالي في دراسات المعلومات أمده سنة دراسية واحدة (٢٤ ساعة فصلية) يقبل فيه خريجو الجامعات في مختلف التخصصات العلمية ، على ألا تقل معدلاتهم عند التخرج عن " جيد " ، وأن يجتازوا امتحان كفاءة اللغة الإنجليزية ، (انظر الملحق ب) . والهدف من استحداث هذا البرنامج هو لتخريج متخصصين خلال فترة قصيرة نسبياً (سنة واحدة) لسد الاحتياجات الآنية لقطر ، حيث أن الحاجة تبدو شديدة إلى عدد كبير من المؤهلين للعمل في المكتبات المدرسية وغيرها من منظمات المعلومات[٢٩] .

المرحلة الثانية : وتبدأ مطلع العام الدراسي ٢٠٠١/٢٠٠٢ (حيث يتخرج الفوج الأول من حملة البكالوريوس في دراسات المعلومات) وفيها يتم استحداث " كلية علوم المعلومات " وتطوير برنامج دبلوم دراسات المعلومات إلى برنامجين هما : (١) برنامج ماجستير نظم المعلومات ويقبل بالدرجة الأولى حملة شهادة البكالوريوس في علوم المعلومات والمكتبات ، وبالدرجة التالية خريجي أقسام علم الحاسوب ، والرياضيات ، والإحصاء ، وإدارة الأعمال ، والإعلام ، والهندسة الكهربائية ، وغير ذلك من التخصصات القريبة ضمن قسم علم المعلومات . أما البرنامج الثاني فهو برنامج ماجستير علوم مكتبات ويقبل في الدرجة الأولى حملة البكالوريوس في علوم المعلومات والمكتبات ، وبالدرجة الثانية خريجي مختلف الاختصاصات الأخرى ومن خلال قسم " علم المكتبات " .

ويتم التطوير من خلال إضافة سنة أكاديمية لبرنامج الدبلوم العالي ينهي فيها الطالب (١٢) ساعة فصلية من المقررات التخصصية بضمنها رسالة الماجستير . وكما في الملحقين (ج) و (د) .

إن تنفيذ هكذا خطة سيمنح جامعة قطر خصوصية وتميزاً ليس على مستوى منطقة الخليج العربي فحسب ، بل على مستوى الدول العربية بأجمعها ، وسيضمن لها

أن تكون رائدة في تبني التوجهات العلمية الأكثر حداثة في حقل دراسات المعلومات ، وستكون نموذجا يحتذى به حين تفكر الجامعات الأخرى في استحداث برامج مشابهة . وسيسهم في بناء فلسفة تعليمية واضحة وخاصة بجامعة قطر فيما يخص دراسات المعلومات .

خاتمـــة :

أخذت دراسات علوم المعلومات تنال اهتماما متزايداً من الجامعات والمؤسسات العلمية في الدول الأكثر تقدما منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الآن بسبب تنامي الحاجة الإنسانية إلى المعلومات لصناعة قرارات أكثر صحة ومعقولية . فطبيعة الحياة اليوم تلزمنا بصناعة سلسلة من القرارات الرشيدة بسرعة عالية وبصورة مستمرة سواء على الصعيد الشخصي أو على صعيد المؤسسات . ولا يمكن لهذه القرارات أن تكون صحيحة ودقيقة من دون توفر أنواع مختلفة من المعلومات . وتوفير هذه المعلومات هي مهمة اختصاصي المعلومات الذي تعده وتهيئه البرامج الأكاديمية في دراسات علوم المعلومات . والتوجه العالمي السائد اليوم هو تجميع برامج علوم المعلومات في وحدات أكاديمية مستقلة لتحقيق أعلى استفادة ممكنة من جهود المدرسين في هذه التخصصات، وتحقيق تكامل نوعي في العملية التدريسية والبحثية .

وما زالت معظم الجامعات في الدول العربية تفتقر إلى نظرة موضوعية متكاملة بما يخص دراسات علوم المعلومات مما أدى إلى عدم ظهور برامج أكاديمية موجهة ومنظمة، إلا فيما ندر . وحيث أن معظم جامعاتنا هي في نقطة البداية في تعليم علوم المعلومات لذلك فإن البداية الصحيحة متاحة لها جميعا ويتم ذلك من خلال استحداث كلية متخصصة في دراسات علوم المعلومات تتولى تقديم برامج دراسية متنوعة في هذا المجال ، كما تقدم الخدمات الحاسوبية إلى الأقسام الأكاديمية والإدارية في الجامعة . إضافة إلى توفير الدورات التدريبية ، وبرامج التعليم المستمر في دراسات علوم المعلومات لأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة ، والطلبة ، ومنتسبي الجامعة الآخرين ، والمجتمع الذي تخدمه الجامعة بعامة .

الهوامش

(١) Imad A. Al-Sabbagh. "The Evolution of the Interdisciplinarity of Information Science : A Bibliometric Study" Ph.D. Dissertation, The Florida State University, U.S.A, 1987.

(٢) عماد الصباغ ، تطور المفهوم العلمي للمعلوماتية (الإعلامية) ، في وضعية دراسات المكتبات والمعلومات في الوطن العربي : التوجهات المستقبلية ، وقائع بحوث الندوة العربية الخامسة للمعلومات (تونس : الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات ، ومؤسسة متبعم ، ومركز التوثيق القومي ، ١٩٩٥) ص ص ٢٣٧ - ٢٥٠ .

(٣) S.Afsharpanah. "Interdisciplinary Structure of Information Science" Ph.D. Dissertation, Case Western Reserve University, U.S.A, 1983.

(٤) Imad A. Al-Sabbagh, Op. Cite.

(٥) عماد الصباغ ، مصدر سابق ، ص ٢٥٠ .

(٦) عماد الصباغ ، " مقترح برنامج لإعداد اختصاصي المعلومات العرب " ، التوثيق الإعلامي ٧ (العدد ١ ، ١٩٨٨) ص ٢١ .

(٧) Robert S. Taylor, "The Information Sciences", Library Journal 88 (1963) P. 4163.

(٨) H. Wellisch, "From Information Science To Informatics : A Terminological Investigation ", Journal of Librarianship 4 (1972): 1963.

(٩) Conference On Training Science Information Specialsts, Proceedings. 12-13 October, 1961 and 12-13 April, 1962. Atlanta: Georgia Institute of Technology, GA, U.S.A.

(١٠) D.King & Others, " A National Profile of Information Professionals" , BASIS 6 (August, 1980) pp. 18-22.

(١١) عماد الصباغ ، " مقترح برنامج . . . " ، مصدر سابق ، ص ٢٤ .

(١٢) Conference On National Planning For Informatics in Developing Countries, Proceedings. 2-6 November, 1975. Baghdad : The

National Computing Center (Amsterdam : Elsevier, 1976).

(١٣) D. King & Others. OP. Cite.

(١٤) H.Fosdick, " Library Education In Information Science : Present Trends", Special Libraries 3 (1978) pp. 100 - 107.

(١٥) عماد الصباغ ، مصدر سابق .

(١٦) عماد الصباغ وماركريت باركيف هوسيب ، " التعليم الجامعي في حقل المكتبات والمعلومات : مقارنة بين العراق والسعودية ومصر " ، رسالة المكتبة ٢٧ (آذار ١٩٩٢) ص ص ١٨-٣٣.

(١٧) عماد الصباغ ، " طرائق وأساليب بحوث العمليات في المعلوماتية " وقائع بحوث المؤتمر العلمي الأول لكلية المنصور الجامعة ٢٣ - ٢٥ تشرين الثاني ، ١٩٩٣ ، بغداد : كلية المنصور الجامعة ، ص ٣٥٠ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٣٥٢ .

(١٩) أحمد بدر ، أساسيات في علم المعلومات والمكتبات (الرياض : دار المريخ ، ١٩٩٦)ص٢٠ .

(٢٠) المصدر السابق .

(٢١) عماد الصباغ و ماركريت هوسيب ، " التعليم الجامعي ... " مصدر سابق : ١٩ .

(٢٢) Imad A.Al-Sabbagh. " The Evolution ... " . OP. Cit. P.142.

(٢٣) Tefko Saracevic, " An Essay on The Past and Future (?) of Information Science Education-1 : Historical Overview" , Information Processing and Management 1 (1979) P.10.

(٢٤) Imad A.Al - Sabbagh. OP. Cit. pp.142 - 143.

(٢٥) منيرة عيد آل ثاني ، " برنامج الدبلوم العام في المكتبات والمعلومات بجامعة قطر : دراسة العوامل المؤثرة في إقبال أمناء المكتبات على البرنامج " ، المكتبة ١ (ربيع ١٩٩٥) ص ص ٥٩ - ٦٦ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٢٨) جامعة قطر - كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، مشروع برنامج البكالوريوس آداب في علوم المعلومات والمكتبات (غير منشور) ، ١٩٩٨ ، ص ٥ .

(٢٩) محمد الكعبي وآخرون ، " واقع المكتبات المدرسية في قطر " . في وقائع بحوث الندوة القطرية حول المكتبات المدرسية ، الدوحة ٢٣-١٩٩٨/٣/٢٥م ، الدوحة ، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٩٨) .

الملحق (أ)

المقررات الدراسية المقترحة

لبرنامج البكالوريوس في علوم المعلومات

المقررات الاجبارية (٥١) ساعة معتمدة :

رمز ورقم المقرر	اسم المقرر	ساعة نظرية	ساعة عملية	عدد الساعات
أ م ع ٢٠١	أساسيات علم المعلومات	٢	٢	٣
أ م ع ٢٠٢	معالجة أوعية المعلومات / ١	٢	٢	٣
أ م ع ٢٠٣	معالجة أوعية المعلومات / ٢	٢	٢	٣
أ م ع ٢٠٤	إدارة منظمات المعلومات	٣	-	٣
أ م ع ٢٠٦	المعالجة الإنسانية للمعلومات	٣	-	٣
أ م ع ٢٠٨	مصادر المعلومات	٢	٢	٣
أ م ع ٢١١	نظم إدارة قواعد البيانات	٢	٢	٣
أ م ع ٣٠١	نظم المعلومات	٢	٢	٣
أ م ع ٣٠٢	تكنولوجيا المعلومات	٢	٢	٣
أ م ع ٣٠٤	مناهج البحث العلمي في علوم المعلومات	٣	-	٣
أ م ع ٣٠٥	تحليل وتصميم النظم	٢	٢	٣
أ م ع ٤٠١	الحاسوب في خدمات المعلومات	٢	٢	٣
أ م ع ٤٠٢	شبكات المعلومات والاتصالات	٢	٢	٣
أ م ع ٤٠٥	الذكاء الإصطناعي	٢	٢	٣
أ م ع ٤٠٦	نظرية إسترجاع المعلومات	٢	٢	٣
أ م ع ٤٩٩	مشروع تخرج	٣	-	٣
	المجموع	٣٨	٢٦	٥١

المقررات الاختيارية : يختار الطالب (٩) ساعات من المقررات الآتية :

رمز ورقم المقرر	اسم المقرر	ساعة نظرية	ساعة عملية	عدد الساعات
أ م ع ٢٠٥	حزم برمجيات جاهزة	٢	٣	٣
أ م ع ٢٠٧	بحوث العمليات	٣	-	٣
أ م ع ٢٠٩	مصادر وخدمات المعلومات الالكترونية	٢	٢	٣
أ م ع ٢١٠	مراكز المعلومات	٣	-	٣
أ م ع ٣٠٦	اقتصاديات المعلومات والمجتمع	٣	-	٣
أ م ع ٤٠٣	معالجة اللغات الطبيعية	٣	-	٣
أ م ع ٤٠٧	نظرية تشفير المعلومات	٢	٢	٣
أ م ع ٤٠٨	المحاكاة	٣	-	٣
أ م ع ٤٠٩	موضوع خاص في علوم المعلومات	-	-	٣

المقررات السائدة : (١٢) ساعة اجبارية :

رمز ورقم المقرر	اسم المقرر	ساعة نظرية	ساعة عملية	عدد الساعات
	رياضيات	٣	-	٣
	إحصاء	٣	-	٣
	برمجة الحاسوب	٢	٢	٣
	مبادئ الإدارة	٣	-	٣
المجموع		١١	٢	١٢

المقررات السائدة : (١٨ساعة يختارها الطالب من المقررات الآتية)

رمز ورقم المقرر	اسم المقرر	ساعة نظرية	ساعة عملية	عدد الساعات
	المدخل إلى العلوم البحتة والتطبيقية	-	-	٣
	مدخل لتكنولوجيا التعليم	-	-	٢
	تقنيات التعليم	-	-	٢
	مدخل إلى علم النفس	-	-	٣
	رياضيات متنوعة	-	-	٣
	نظم المعلومات الجغرافية	-	-	٣
	المدخل إلى علم الاتصال	-	-	٣
	المدخل إلى العلاقات العامة	-	-	٣
	مبادئ الاقتصاد	-	-	٣

الملحق (ب)

المقررات الدراسية لبرنامج الدبلوم في دراسات المعلومات

ينهي الطالب جميع المقررات الإجبارية التالية ، والبالغ عدد ساعاتها الفصلية (٢٤) ساعة معتمدة :

رمز ورقم المقرر	اسم المقرر	ساعة نظرية	ساعة عملية	عدد الساعات
أ م ع ٥٠٣	إدارة مؤسسات المعلومات	٢	-	٢
أ م ع ٥٠٦	تنمية مصادر المعلومات	٢	-	٢
أ م ع ٥١١	أساسيات علوم المعلومات	٢	٢	٣
أ م ع ٥١٢	تنظيم أوعية المعلومات	٢	٣	٣
أ م ع ٥١٤	نظم إدارة قواعد البيانات	٢	٢	٣
أ م ع ٥٢٢	مصادر وخدمات المعلومات	٢	-	٢
أ م ع ٥٣١	تكنولوجيا المعلومات	٢	-	٢
أ م ع ٥٣٢	نظرية استرجاع المعلومات	٢	-	٢
أ م ع ٥٣٣	الحاسوب في نظم المعلومات	٣	-	٣
أ م ع ٥٣٤	شبكات المعلومات والاتصالات	٢	-	٢
	المجموع	٢١	٧	٢٤

الملحق (ج)

المقررات الدراسية لبرنامج الماجستير في نظم المعلومات

رمز ورقم المقرر	اسم المقرر	ساعة نظرية	ساعة عملية	عدد الساعات
أ م ع ٥٥١	تحليل وتصميم نظم المعلومات	٢	-	٢
أ م ع ٥٦٥	الذكاء الاصطناعي والنظم الخبيرة	٢	-	٢
أ م ع ٥٧٠	نظم المعلومات الاستراتيجية	٢	-	٢
أ م ع ٥٨٨	حزم برمجية متقدمة	-	٤	٢
أ م ع ٥٩٤	إحصاء وأساليب بحث علمي	٢	-	٢
أ م ع ٥٩٨	رسالة ماجستير	-	٥	٢
أ م ع ٥٩٩	امتحان رسالة الماجستير	-	-	٠
	المجموع	٨	٩	١٢

الملحق (د)

المقررات الدراسية لبرنامج ماجستير علوم مكتبات (MLS)

رمز ورقم المقرر	اسم المقرر	ساعة نظرية	ساعة عملية	عدد الساعات
أ م ع ٥٥٠	نظم تصنيف مقارنة	١	٣	٢
أ م ع ٥٦٦	فهرسة متقدمة	١	٣	٢
أ م ع ٥٧١	المكتبات العامة والمتخصصة	١	٣	٢
أ م ع ٥٨٦	مصادر العلوم والتكنولوجيا	١	٣	٢
أ م ع ٥٩٤	إحصاء وأساليب بحث علمي	٢	-	٢
أ م ع ٥٩٨	رسالة ماجستير	-	٥	٢
أ م ع ٥٩٩	امتحان رسالة الماجستير	-	-	٠
	المجموع	٦	١٧	١٢

ساطع الحصري
رائد التنظير للفكرة القومية العربية

د. زاهـــد روســـان

قسم الإجتماع ـ كلية الآداب ـ جامعة اليرموك

المقدمــة :

ما أنْ سقطت الامبراطورية العثمانية التي كانت حاكمة على القسم الأعظم من البلاد العربية لعدة قرون، حتى وقعت هذه البلدان تحت حكم امبراطوريتين أخريين استعماريتين : امبراطورية بريطانيا وامبراطورية فرنسا . وقد عملت الأخيرتان على تجزئة الوطن العربي إلى ولايات وأقطار مستقلة، وكانت «الأمة العربية» شعوباً وقبائل موزعة على تلك الولايات والأقطار .

أما الأولى (أي العثمانية) فقد انتهجت - إبّان حكمها للمشرق العربي وبالذات من أواسط القرن الماضي إلى العشرينات من هذا القرن- سياسة التتريك لقهر «الأمة العربية» وإجهاض كل محاولة نهضوية تحاول الاستقلال والتحرر وتحقيق الاتحاد والترقي لهذه الأمة . لكن هذه المحاولات العثمانية كانت تبوء بالفشل في كل مرة، وإذا كانت تنجح أحياناً في عرقلة هذه المسيرة (النهضوية) أو التضييق عليها، فذلك يكون مؤقتاً، بفضل الوعي القومي ونشوء «الفكرة القومية العربية» التي كان من أهدافها الأولية إبراز الهوية العربية والدفاع عنها أمام التحديات والأخطار التي كانت تواجهها في بلاد الشام نتيجة سياسة التتريك العثمانية .

هذا ويعترف بعدم فاعلية سياسة التتريك تجاه العرب أحد الكتاب والمفكرين من دعاة الفكرة القومية التركية ، حيث يقول: «إن سياسة التتريك لا يمكن أن تنجح مع

العرب: لأن عددهم كبير، كما أن نسبتهم إلى مجموع نفوس الدولة زادت زيادة كبيرة، بعد حرب البلقان، وضياع ولاياتنا الأوروبية . وفضلاً عن ذلك، فإن لغتهم قوية، ولها مناعة كبيرة، لكونها لغة الدين والقرآن . ولهذه الأسباب كلها، يجب أن نعرف أن كل محاولة لتتريك العرب محكوم عليها بالفشل . فمن الخير لنا أن نتفاهم معهم بأي شكل كان، لكي نتخلص من مشاكلهم ونركز جهودنا ومواردنا لإصلاح وتعمير بقية بلادنا »[١] .

ولم تقتصر مهمة «الفكرة القومية العربية» على مجابهة سياسة التتريك هذه والتصدي لها، بل كان عليها كذلك، وبعد سقوط الامبراطورية العثمانية، أن تتجه بكل جهودها إلى مقاومة الاستعمار الانجليزي والفرنسي سواء في المشرق العربي أو في مغربه ، ومن ثم «نشر الوعي بوحدة الوطن، وبضرورة توحيد الأمة، وإقامة دولة الوحدة التي تتطابق معها »[٢] . وهذه المطالب، في الحقيقة، تمثل طموحات وآمال الجماهير العربية في الماضي كما في الحاضر .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف ظهرت الفكرة القومية العربية إلى الوجود، وما هي مراحل تطورها ؟ ثم من هو منظّرها ؟ وما هي مقوماتها ؟ ذلك ما سيكون موضوع فقراتنا الآتية :

تأريخ الفكرة القومية العربية :

إن الفكرة القومية التي تعني حق كل أمة في أن تقيم على وطن أبنائها دولة لها، هي في الأساس فكرة أوروبية حديثة لا يتعدى تاريخ ظهورها أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكان لنشوئها وتغلغلها في نفوس الشعوب وتخمرها تخمراً طويلاً، أثر فعّال في تكوين الدول وتوجيه السياسة الدولية بل في التحولات والانقلابات السياسية الأوروبية . وهكذا أخذت تتفكك أوصال الدول المؤلفة من أمم متعددة وفق مقتضيات «الفكرة القومية» ومطالب «مبدأ القوميات»، لتنشأ على أنقاضها دول جديدة مستقلة لكل واحدة منها لغة خاصة وتاريخ خاص . وكان من جملة هذه الدول المنحلة التي كانت تتألف من أمم عديدة: الامبراطورية

العثمانية والامبراطورية النمساوية . أما الأمم التي برزت بفعل نشوء الفكرة القومية فهي الأمة اليونانية والبلغارية والرومانية واليوغسلافية والألبانية والألمانية وغيرها، ولهذا أطلق المؤرخون والكتّاب على تسمية القرن التاسع عشر باسم عصر القوميات .

أما بالنسبة للفكرة القومية العربية فيمكن التمييز في تاريخها بين فترتين: الأولى تمتد من أواسط القرن الماضي حتى الحرب العالمية الأولى، والثانية تمتد منذ نشوب الحرب العالمية الأولى حتى الوقت الحاضر .

بالنسبة للفترة الأولى، يشير كثير من مؤرخي الفكر العربي الحديث إلى أن الفكرة القومية العربية إنما بدأت أول مرة عند المفكرين العرب المسيحيين بعيد منتصف القرن الماضي وبالذات مع الجمعية العربية السرية التي تأسست سنة ١٨٧٥م، وذلك قبل أن تبدأ عند المسلمين منهم[٣] ، بسبب اتصال الفئة الأولى بالغرب الأوروبي وتأثرها بثقافته ومن ثم بالحركة القومية التي كانت تسود أوروبا آنذاك والتي امتد تأثيرها ليشمل المناطق الأوروبية من الامبراطورية العثمانية كاليونان والبلغار والألبان، وهي المناطق التي أخذت تطالب بانفصالها عن هذه الامبراطورية وتكوين دول خاصة بها كما ذكرنا ذلك سالفاً . ولا ننسى أن نذكر أيضاً أن تعريب الكنائس الأورثوذكسية والكاثوليكية ودخول المذهب البروتستانتي إلى العالم العربي قد ساهم -وإن كان بصورة غير مباشرة- في الدعوة إلى الفكرة القومية العربية باعتبار اللغة إحدى مقومات الأمة العربية، لذلك -يقول الحصري- «يجب ألا نستغرب إذا ما لاحظنا أن أول دعاة فكرة القومية العربية بين المسيحيين قد نشأوا في البيئات البروتستانتية»[٤] .

كانت الفكرة القومية العربية إذن، شأنها في ذلك شأن مثيلاتها الأوروبيات، تعني من حيث الأساس حق العرب في الانفصال عن الأتراك وتكوين دولتهم المستقلة . ومع أن هذا التيار القومي العربي الوليد قد ازداد سعة ليشمل مسلمين من لبنان وسوريا وفلسطين بحيث أصبح هؤلاء يشكلون الأغلبية في الجمعيات السرية التي تمثل ذلك التيار على الساحة العربية، فإن تزامن ذلك مع حركة التوسع الاستعمارية

الأوروبية من ناحية، وما تركته من ردود فعل دينية ووطنية من ناحية أخرى، قد جعل الفكرة القومية العربية محاصرة بعدة تيارات قوية برزت إلى حيز الوجود: تيار «الوطنية» في مصر بشكل خاص، وتيار «العثمانية» في الولايات العربية وبشكل خاص في سوريا ولبنان، وتيار «الجامعة الإسلامية» الذي كان يشمل الشرق كله، وكان من دعاته جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده.

بالنسبة إلى التيار الأول فقد كانت مصر مشغولة بقضاياها الوطنية وهمومها الخاصة بها وخصوصاً بعد احتلال الانجليز لها عام ١٨٨٢م، لذلك لم تلق الفكرة القومية العربية فيها قبولاً، وهكذا كان هذا التيار يرفع شعار «مصر للمصريين» وحدهم، لا للأتراك ولا للأوروبيين، وكان من دعاة هذا التيار عبد الله النديم ولطفي السيد ورفاعة الطهطاوي. ومما يجدر ذكره هنا أن هذا التيار أخذ، في أواخر القرن التاسع عشر، اتجاهين متعاديين: الأول لم يرَ اختلافاً أو تناقضاً بين الرابطة الوطنية والرابطة الدينية، ويمثله مصطفى كامل مؤسس «الحزب الوطني» الذي هاجم دعاة القومية العربية كونهم طالبوا بالانفصال عن الدولة العثمانية. والثاني رأى في الرابطة الدينية تفرقة بين أبناء الجنس الواحد والوطن الواحد، ويمثله عبد الله النديم ولطفي السيد[٥].

أما في الولايات العربية المشرقية التابعة للامبراطورية العثمانية، فقد كان التيار الغالب فيها هو تيار الرابطة العثمانية الذي كان ينادي بالإصلاح داخل الامبراطورية العثمانية، والدعوة إلى إقامة حكم محلي في الولايات العربية. ويمثل هذا التيار -إضافة إلى مصطفى كامل- كل من محمد فريد وأحمد عرابي وسليم نقلا مؤسس جريدة الأهرام. أما تيار «الجامعة الإسلامية» الذي كان جمال الدين الأفغاني محركه وقائده، فقد كانت قضيته هي قضية المسلمين، ولذلك كان يدعو إلى التعاون والتضامن بين الأقطار الإسلامية كردّ فعل على الغزو العسكري والثقافي الغربي لبلدانهم.

هذا ويجمل لنا ساطع الحصري التيارات الفكرية والسياسية التي تولدت في البلاد

العربية -بين سكانها المسلمين والمسيحيين- في أواخر القرن التاسع عشر، فيجدها خمسة تيارات أساسية هي :

أ - السعي لإقامة خلافة عربية تقوم مقام الخلافة العثمانية .

ب - المطالبة بإصلاحات خاصة بالبلاد العربية .

جـ - الإشتراك مع أحرار الأتراك للمطالبة بإصلاحات عامة، تشمل الولايات العثمانية بما فيها الولايات العربية .

د - الدعوة إلى انفصال البلاد العربية عن السلطنة العثمانية لتأسيس دولة عربية مستقلة .

هـ - طلب الحماية من دولة أوروبية .

ويشير الحصري إلى أن التيار الأول كان خاصاً ببعض الجماعات من المسلمين، والتيار الأخير كان خاصاً ببعض الجماعات من المسيحيين . أما التيارات الثلاثة الأخرى، فكانت مشتركة بين جماعات من المسلمين والمسيحيين(٦) .

يعود الباحث فيقول: إن هذا الحصار الذي فرضته التيارات الثلاثة السابقة -أقصد «الوطنية» و«الجامعة الإسلامية» و«العثمانية» على الفكرة القومية العربية، لم تثنِ دعاة الأخيرة عن متابعة مسيرتهم وبناء قوميتهم وذلك من خلال العمل على إحياء اللغة العربية وآدابها والمطالبة بجعلها لغة التدريس في المدارس في الولايات العربية . أما عن الجانب السياسي فلقد طالبت الجمعيات السرية العربية ذات الميول القومية وكذلك الكتّاب والمفكرون العرب، بحكم محلي ضمن إطار الامبراطورية العربية . ومن هذه الجمعيات والمنظمات السرية: «جمعية النهضة العربية» وقد أسّسها في الأستانة ١٩٠٦ محب الدين الخطيب وعارف الشهابي مع عبد الكريم الخليل وشكري الجندي على أن يكون مركزها الثابت في دمشق، و«عصبة الوطن العربي» التي أنشأها في باريس نجيب عازوري . كذلك تشكّلت الجمعيات التالية في الفترة الواقعة بين إعلان الدستور العثماني «الثاني» في ١٠ تموز سنة ١٩٠٨م وقيام الحرب العالمية الأولى: «الجمعية القحطانية» سنة ١٩٠٩م، و«المنتدى الأدبي» سنة ١٩٠٩م، أمّا عن

الكتّاب والمفكرين العرب فقد ظهرت مثل هذه المطالب القومية في كتاب «أم القرى» لعبد الرحمن الكواكبي سنة ١٣١٦هـ وفي كتاب «يقظة الأمة العربية» لنجيب عازوري عام ١٩٠٥م، هذا بالإضافة إلى عدد من المقالات والأشعار التي كانت تُكتب على صفحات الجرائد والمجلات العربية[٧] .

ومن الجدير بالذكر أن الفكرة القومية العربية التي عارضتها فكرة «الرابطة العثمانية» التي تعني الولاء للامبراطورية العثمانية وكان معظم رجالاتها من العرب، «لن تعرف انبعاثاً حقيقياً إلا مع بروز الفكرة القومية لدى الأتراك أنفسهم»[٨] . بمعنى آخر، إن العرب الذين كان لديهم الاستعداد للتضحية بالدولة العربية المستقلة في سبيل إنقاذ الامبراطورية العثمانية والحفاظ عليها سواء من خلال «الرابطة العثمانية» أو في إطار «الجامعة الإسلامية»، قد وجدوا أنفسهم أمام تيار قومي تركي ينصب لهم العداء والكراهية . إنها القومية التركية التي تبنّتها جمعية «الاتحاد والترقي» وقد تحولت فيما بعد إلى حزب سياسي كبير يضم عدداً كبيراً من العسكريين. وهكذا سعت هذه الجمعية أو هذا الحزب إلى بناء الدولة التركية بعد أن تنكرت لشعار «العثمانية» ولكل ما هو «إسلامي»، ومن هنا رأت في العرب وفي الفكرة القومية العربية «الآخر» الذي يجب محاربته وفرض سياسة التتريك عليه .

ولا شك أن هذه الأعمال العدائية والتعسفية من لدن الجمعية التركية ذات النزعة القومية ومحاولتها القضاء على مشروع «العثمانية» و«الجامعة الإسلامية» قد أفسح المجال لانتشار الفكرة القومية العربية وتغلغلها في نفوس الشعوب العربية، خصوصاً وأن العرب قد أصبحوا مستهدفين كأمة وقومية ولغة ودين وحتى كوجود . إن سياسة «التتريك» التي اتبعها الحكام العثمانيون في كل مناحي الحياة الإدارية والتعليمية والسياسية، لا بد وأن تثير ردود فعل مضادة من قبل العرب، فكان أن رُفع شعار «العروبة» تعبيراً عن الفكرة القومية عند العرب، بدل شعار «التتريك» الذي يعبّر عن القومية التركية الطورانية .

وإزاء هذا الصراع بين العرب والأتراك، استغلّ الغرب هذه الظاهرة فتظاهروا

بالصداقة للعرب ومن ثم تأييد قضيتهم القومية مقابل نصرتهم له في الحرب العالمية الأولى التي دخلتها تركيا ضده . وهكذا قامت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف الحسين بن علي ضد الأتراك وبالتعاون مع بريطانيا، ورأس ابنه فيصل الأول دولة عربية حديثة في سوريا . ولكن بما أن مصالح الغرب تتناقض مع مصالح العرب، إذ كان هدف الأول سلب ممتلكات الولايات العربية بما فيها دولة الشريف حسين وابنه فيصل، فقد انتهى الأمر إلى وقوع العرب تحت حكم استعماري جديد هو بريطانياوفرنسا اللتان اقتسمتا هذه الولايات .

لقد انتهت الفترة الأولى من تاريخ الفكرة القومية العربية دون أن تتبلور نظرية عامة في القومية العربية، فبقيت الفكرة القومية (العربية) ليست أكثر من شعار سياسي ترفعه الجمعيات السرية أو الكتّاب والمفكرون العرب من أجل الاستقلال السياسي عن الدولة العثمانية، ولم ترْقَ لأن تصبح «عنواناً لأيدولوجية محددة في الوطن العربي»[٩] . كما يقول أحد الباحثين العرب المعاصرين . بمعنى آخر نقول: إن الفكرة القومية العربية لم تتأسس نظرياً إلا في العشرينات وبصورة خاصة في الثلاثينات من هذا القرن، أي في الفترة الثانية من تاريخ نشوء الفكرة القومية العربية. وكان ساطع الحصري (١٨٨٠-١٩٦٨م) هو رائد التنظير لهذه الفكرة القومية . فمنذ العشرينات وحتى وفاته وهذا الرجل -الذي عمل في الإدارة العثمانية في البلقان ردحاً من الزمن والتحق بالملك فيصل الأول وأصبح وزيراً للمعارف في حكومته في دمشق ثم مستشاراً له في أمور المعارف في حكومته ببغداد(١٠)، إضافة إلى توليه مناصب إدارية هامة في جامعة الدول العربية، ناهيك عن أنه «كان عيناً من أعيان المشرق بتحدر من عائلة كبيرة من مشاهير عائلات حلب»[١١] حيث توفرت له أفضل الظروف المعاشية والثقافية التي توفرت لأبناء طبقته في ذلك الحين- يقود حملة التنظير للقومية العربية ونشر الوعي بها كما سنرى في الفقرة التالية . ولعل سائل يسأل هنا عن هذا الانتقال المفاجىء للحصري من شخصية موالية للامبراطورية العثمانية ويعيش في كنفها، إلى شخصية مناوئة لها . والجواب على ذلك يكمن في أن صاحبنا كان مدركاً كل الإدراك، بصفته عربياً، لما كان يدور في

أذهان أقرانه من أفكار وطموحات، وما يجول في خواطرهم من آمال وتوقعات، وحين آن الأوان لأبناء وطنه الأصليين أن ينفصلوا عن الامبراطورية، انتقل بيسر وسهولة، ليأخذ دوره ومكانه بين مواطنيه . وقد عبّر عن ذلك بنفسه في مقابلة أُجريت معه عام ١٩٦٠، فقال: «إنه عربي، وعندما انفصل العرب عن الامبراطورية العثمانية، لم يكن له خيار سوى أن ينضم إليهم»[١٢] .

نظرية الحصري في القومية :

يذكر لنا الحصري أن القومية فكرة نشأت في أوروبا وأخذت تتغلغل في نفوس الشعوب في أوائل القرن التاسع عشر . وتتلخص هذه الفكرة حسب قوله: «في وجوب تأسيس الدول على أساس القوميات»، لأن كل أمة من الأمم تكوّن «عضوية اجتماعية طبيعية»، ذات كيان معنوي خاص، فيحق لها أن تستقل في إدارة شؤونها، دون أن تخضع لمشيئة أمة أخرى، وأن تؤسس «دولة خاصة بها، مستقلة ومنفصلة عن غيرها»[١٣] . بهذا المعنى تصبح القومية هي المحرك الرئيس لتطور التاريخ، وقد امتدت لتشمل معظم أرجاء المعمورة . وما التحولات والانقلابات الدولية التي نشاهدها إلا نتيجة لانتشارها بين الناس وتأثيرها على عقولهم ومشاعرهم . لكن هذا لا يعني أن القومية - إذا ما أخذناها كفكرة - لا ترتبط بالواقع، بل بالعكس، فواقعيتها إنما تصدر من حقيقة أن المجتمعات البشرية مقسمة بطبيعتها إلى شعوب وأمم . الأمة إذن هي الأساس الواقعي للفكرة، وهي نقطة الارتكاز التي يستند إليها الحصري في فهمه لحركة التاريخ والمجتمع . والسؤال الآن هو : ما هي الأمة في نظره؟ وما عوامل تكوينها ؟

ولكن قبل الإجابة على هذا السؤال يجدر بنا الإشارة إلى بعض المصطلحات الملاصقة للأمة والتي لا تنفك عنها، وهي في الحقيقة بمثابة مرتكزات تستند إليها نظرية الحصري في القومية، وأقصد بذلك «الوطنية» و«القومية» و«الدولة» إضافة إلى « الأمة » .

يذهب الحصري إلى أنه ليس هناك تمييز لدى الغربيين بين هذه المصطلحات .

فالقوميات الأوروبية اكتمل نشوؤها في القرن التاسع عشر وحدود الدولة هي حدود الوطن . ولا يستطيع الغربي أن يفرق بين الوطنية والقومية إلا أن الحصري لا يستطيع الأخذ بهذه المسلمات لأنه يعيش في وطن مجزأ لم تستكمل وحدته بعد . وهكذا تراه يضع التعاريف الدقيقة للتفريق بين هذه المصطلحات: «الوطنية هي حب الوطن، والشعور بارتباط باطني نحوه؛ والقومية هي حب الأمة ، والشعور بارتباط باطني نحوها .. الوطن .. قطعة من الأرض ، والأمة .. جماعة من البشر» . هناك وطن عام ووطن خاص، وبذلك لا يختلف مفهوم الوطنية عن مفهوم القومية كثيراً. أما مفهوم الدولة فهو «يرتبط بمفهوم الوطن من جهة وبمفهوم الأمة من جهة أخرى .. ولكن هذا الارتباط لا يكون على نمط واحد في كل الدول والأمم وفي جميع أدوار التاريخ ، بل إنه يلبس أشكالاً متنوعة فيختلف بين أمة وأمة، وبين دور ودور»[(١٤)] .

أمّا هذه الأشكال فيلخصها الحصري ، كما يلي :

١- أمة تولف دولة واحدة مستقلة، وفي هذه الحالة لا يوجد أي اختلاف بين الوطنية والقومية . وهذا حال الأمة السويدية في الوقت الحاضر .
٢- أمة تؤلف دولاً عديدة مستقلة، في هذه الحالة لا ينطبق مفهوم القومية على مفهوم الوطنية، وهذا حال الأمة الألمانية قبل اتحادها سنة ١٨٧٠م .
٣- أمة محرومة من دولة خاصة بها وتابعة لدولة أجنبية، مثل الأمة البلغارية في عهد خضوعها للدولة العثمانية .
٤- أمة محرومة من الاستقلال وفي الوقت نفسه مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية، كالحال في الأمة البولونية قبل الحرب العالمية الأولى[(١٥)] .

من خلال هذه الأنماط المختلفة، يناضل الحصري لتحقيق الحالة الأولى التي تعتبر الحالة الفضلى للحياة القومية الصحيحة: أمة واحدة وشعب واحدة في دولة واحدة .

والآن نعود إلى سؤالنا الأول حول الأمة وعوامل تكوينها :

الأمة كما يرى الحصري هي تكوين اجتماعي، أفراده مترابطون ترابطاً عضوياً، ومن صفة هذه التكوينات أنها تتميز بعضها عن بعض بصفتين هامتين هما: اللغة والتاريخ: فحيثما وُجدت اللغة الواحدة والتاريخ المشترك وُجدت أمة ووُجدت قومية. كتب الحصري يقول بهذا الصدد: «إن أسّ الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ لأن الوحدة في هذين الميدانين هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة... وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى»[(١٦)].

ويفصّل الحصري حديثه حول هاتين الصفتين أو العاملين فيشير إلى أن اللغة هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد البشري بغيره من الناس، وذلك لعدة أسباب هي: أولاً، إن اللغة واسطة التفاهم بين الأفراد، وثانياً، آلة التفكير عند الفرد، وثالثاً، واسطة نقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء، ومن الأسلاف إلى الأخلاف. ولهذا تجد أن وحدة اللغة توجد نوعاً من الوحدة في الشعور والتفكير، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة ومعقدة من الروابط الفكرية والعاطفية، وتكون أقوى الروابط التي تربط الأفراد بالجماعات. ومن هنا كانت «اللغة هي روح الأمة وحياتها وأنها بمثابة محور القومية وعمودها؛ وهي أهم مقوماتها ومشخصاتها(١٧). وأما التاريخ فهو بمثابة شعور الأمة وذاكرتها، فإن كل أمة من الأمم، إنما تشعر بذاتها، وتتعرف إلى شخصيتها، بواسطة تاريخها الخاص. التاريخ الحي في النفوس وليس التاريخ المدون في الكتب. فوحدة التاريخ وذكرياته تولّد تقارب النفوس وتوجد بينها نوعاً من القرابة المعنوية. ولذلك فإن الأمة المحكومة التي تنسى تاريخها الخاص، تكون قد فقدت شعورها ووعيها. وهذا الشعور والوعي، لا يعودان إليها إلا عندما تتذكر ذلك التاريخ وتعود إليه.

ولهذا السبب تجد الأمم المستولية والحاكمة، تعمد قبل كل شيء إلى مكافحة تاريخ الأمة المحكومة، وتبذل ما استطاعت من الجهود لإقصاء ذلك التاريخ من الأذهان.

إذن فاللغة والتاريخ، في نظر صاحبنا، هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير في تكوين القوميات. والأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها وإن لم تفقد الحياة. ولكنها إذا ما فقدت لغتها، تكون عندئذ قد فقدت الحياة ودخلت في عداد الأموات[١٨].

لكن الحصري إذ يثبت أهمية العاملين السابقين وتأثيرهما في تكوين الأمة والقومية، تراه ينظر إلى العوامل الأخرى مثل وحدة الأرض والدين والمشيئة والاقتصاد والانتماء إلى عرق واحد.. الخ على أنها عوامل مؤثرة فعلاً ولكنها ثانوية، وهكذا كتب يقول: «ولكن العوامل التي تؤثر في تكوين الأمم، وتميز بعضها من بعض لا تنحصر في اللغة والتاريخ؛ بل إن هناك عوامل أخرى تؤثر في ذلك تأثيراً واضحاً، فتقوي تارة تأثير العاملين الأساسيين المذكورين آنفاً، وتضعف ذلك التأثير طوراً»[١٩]. ويعدد صاحبنا من هذه العوامل: الدين والاتصال الجغرافي والإرادة والمشيئة وغيرها. كما كتب يقول في موضع آخر: «ولكن لا وحدة الدين، ولا وحدة الدولة، ولا وحدة الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية»، كما أن «الاشتراك في الرقعة الجغرافية، أيضاً، لا يمكن أن يعتبر من مقومات الأمة الأساسية»[٢٠].

إن ساطع الحصري في استبعاده لبعض العناصر والمقومات الأساسية للأمة، كان يعارض آراء بعض أعلام الفكر القومي الغربي من أمثال «مانتشيني» Mancini الإيطالي و«أرنست رنان E. Renan» الفرنسي و«فيخته Fichte» الألماني. وهو (أي الحصري) في تركيزه على عاملين أساسين -اللغة والتاريخ- «يبدو وكأنه يعدّل مفهوم «فيخته» عن القومية، وهو على ما يظهر، يضع التأكيد الوحيد على اللغة أكثر من أي شخص آخر»[٢١]. فعلى سبيل المثال يأخذ على فيخته Fichte (١٧١٢-١٨١٤م) أنه أسقط عنصر التاريخ المشترك، وانصب اهتمامه على دور اللغة في تأسيس الأمم. وهكذا يسجل عليه قوله التالي الذي ورد في خطبه المختلفة عن اللغة:

- «اللغة»، جهاز الاجتماع في الإنسان.

- اللغة والأمة، أمران متلازمان ومتعادلان .
- اللغة التي ترافق وتحدد وتحرك الفرد حتى أعمق أغوار تفكيره ومشيئته .. تجعل من اللملومة البشرية التي تتكلم بها، جماعة متماسكة، يدبّرها عقل واحد .
- إن الذين يتكلمون بلغة واحدة، يكونون كلاً موحداً، ربطته الطبيعة بروابط متينة ، وإن كانت غير مرئية»[٢٢] .

يوحي لنا النص أن الحصري لم ينقل آراء في القومية والأمة عن المفكرين الألمان وبخاصة فيختة كما يحلو للبعض أن يدّعي ذلك، بدلالة نقد الحصري لنص فيختة السابق حين اعتبر اللغة أساس القومية وحين اعتبر الألمان أمة واحدة لكونهم ذوي لغة واحدة . وتبدو الفوارق بينهما واضحة حين ينظر الحصري إلى عوامل توحيد الأمة على أسس غير استعلائية في حين يؤكدها فيختة فيتحدث عن «رسالة إنسانية سامية» للألمان تحمل في طياتها بذور النظرية العرقية الاستعلائية . وهكذا كان يقول -مثل غيره من مفكري الألمان عندئذ- إن الفروق التي تشاهَد بين البروسيين وبين غيرهم من الألمان، كلها فروق عارضة، اعتبارية، مصطنعة، وأما الفروق الموجودة بين الألمان وبين غيرهم من الأمم فهي فروق طبيعية جوهرية «ثم يقول في إحدى خطبه: إن «نهوض العالم أصبح متوقفاً على نهضة ألمانيا ... ولم يبق على الكرة الأرضية أمة قادرة على إنهاض العالم، غير الأمة الألمانية»، ثم إنكم أيها الألمان «أصبحتم الأمل الوحيد لنهوض البشر وتقدم الإنسانية . وإذا سقطتم أنتم، فلا يبقى للبشرية أي أمل في النهوض» .[٢٣] وأخيراً كيف يمكن الحديث عن عملية نقل فكرية تمّت من قبل الحصري والوحدة الألمانية تحققت عن طريق توحيد الجمارك والاقتصاديات بين مختلف البلاد الألمانية[٢٤] ، في حين أن الحصري يحذف الوحدة الاقتصادية كعامل رئيس في نشوء الأمم والدول القومية . ويبدو أن اشتراك الاثنين -الحصري وفيختة- في اعتماد اللغة كعنصر في تكوين الأمة، هو الذي أدّى إلى مثل هذا الالتباس وأن الأول نقل عن الثاني، والحقيقة أن الحصري، وإن كان قد استشهد ببعض جوانب الفكر القومي الألماني وبخاصة فيختة، إلا أنه أخذ بعين الاعتبار بعض خصوصيات الوضع العربي وخلفيته الاجتماعية والسياسية التي استمد منها الحصري مقومات نظريته

القومية، في مرحلة معينة من تاريخ المشرق العربي الحديث . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن إسقاط الحصري لبعض العوامل حين طرح نظريته في القومية والأمة واقتصاره على أخرى، كان مراعاة للواقع العربي الذي كان يعيشه في ذلك الوقت . فاللغة العربية، العامل الرئيس للقومية العربية، تتجاوز الحدود القطرية وتشكل عامل اتصال رئيسي بين الشعوب العربية . يقول الحصري بهذا الصدد: «إن كل الشعوب التي تتكلم العربية - كل الشعوب الناطقة بالضاد، حسب التعبير المشهور- هي عربية. . وكل فرد ينتسب إلى هذه الشعوب، هو عربي .»[٢٥]

وحتى إذا لم يعترف الفرد بعروبته، وأنف الاعتزاز بها، فهو بالقوة عربي، «إنه عربي شاء هو أم لم يشأ، اعترف هو أم لم يعترف بذلك في الحالة الحاضرة . إنه عربي. . جاهل أو غافل أو عاق، أو خائن . . ولكنه عربي على كل حال . . عربي فاقد الوعي والشعور . . . وربما كان في الوقت نفسه فاقد الضمير .»[٢٦]

وقل مثل ذلك في التاريخ العربي، فقد حاول صاحبنا كذلك أن يضع تعريفاً انتقائياً له ينسجم مع واقع التاريخ العربي، لذلك يقول: «فعندما نقول «وحدة التاريخ» يجب ألا نفهم من ذلك «الوحدة التامة في جميع أدوار التاريخ»، بل يجب أن نفهم من ذلك «الوحدة النسبية والغالبة التي تتجلى في أهم صفحات التاريخ» . أهم صفحات التاريخ التي أوجدت ثقافة الأمة الأساسية، وأعطتها لغتها الحالية، وطبعتها بطابعها الخاص . . . وإلا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة، كانت (موحدة) على طول تاريخها توحيداً تاماً .»[٢٧]

وليس هناك من مانع لدى الحصري في هذا الصدد من أن ننسى قسماً من تاريخ الأمة العربية إذا لم يكن مفيداً في تقوية الرابطة القومية: «فنحن لسنا سجناء ماضينا، إلا إذا أردنا ذلك . وعلى كل أمة أن تنسى جزءاً من تاريخها، ولا تتذكر منه إلا مما تجد فيه نفعاً» .[٢٨]

وهكذا استطاع الحصري أن يستخلص شروط الرابطة القومية المتمثلة في اللغة والتاريخ المشترك انطلاقاً من الواقع العربي الراهن، ومن ثم صياغة نظريته في الأمة

العربية والقومية العربية . غير أنه لم يكتف بذلك، بل حاول «منح نظريته في القومية صفة الشمول والعمومية»[٢٩] . إذ أصبح يعتبر أي شعب يتمتع أفراده بلغة واحدة وتاريخ مشترك، أمة متميزة، وأي شعب لا يتحدث أفراده لغة واحدة، وليس له تاريخ مشترك، لا يكوّن أمة بالمعنى الحقيقي . فالبلغار -على سبيل المثال- كانوا قد فقدوا كثيراً من مقوّمات الأمة الواحدة « من تاريخ مشهور، ومن لغة أدبية راقية »، إلى أن تنبهوا إلى ذلك، في أوائل القرن التاسع عشر، فتضافرت جهود المفكرين الوطنيين، على العمل في سبيل إيقاظ الشعب البلغاري من سباته العميق، وحمله على التمسك بلغته الخاصة ونشرها بين أبنائه إلى أن تحقق لهم وحدتهم القومية وكيانهم الخاص في أواخر ذلك القرن[٣٠] . كذلك الحال كان بالنسبة لرومانيا ويوغسلافيا وألبانيا ، حيث كانت اللغة العامل الأصلي في تحديد القوميات وتكوين الدول في جميع بلاد البلقان إضافة إلى التاريخ القومي . وأمّا الولايات المتحدة الأمريكية فقد انفصلت عن بريطانيا على الرغم من وحدة اللغة التي كانت تربطهما ، وذلك نتيجة لظروف تاريخية وجغرافية خاصة، ولأن هناك فرقاً بين كون اللغة متأصلة عند الانجليز، بينما هي مكتسبة عند الأمريكيين، وبالتالي لا يمكن أن يُتّخذ هذا الانفصال دليلاً على عدم تأثير اللغة في تكوين القوميات وفي اتحاد الدول أو انفصالها[٣١] . وأما سويسرا وبلجيكا حيث تتشابك وتتداخل عدة لغات، فمع أن كلاً من البلدين يتمتع بوحدة الدولة، إلا أن هذه الدولة تحوي أمماً متعددة لا أمة واحدة .[٣٢]

وهكذا إذن حاول الحصري أن يخضع التجارب القومية الأخرى لشروط ومقاييس التجربة العربية، وذلك على خلاف ما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين من أن صاحبنا كان متأثراً لحد كبير بالمفكرين الأوروبيين في القرن التاسع عشر، وأنه سعى لنقل التجربة الأوروبية إلى الوضع العربي، حيث قال: «فهو (أي الحصري) لم يكن مبتكراً لنظام سياسي أو فكري، ومفاهيمه مستمدة إلى حد كبير من مفكري القرن التاسع عشر الأوروبيين» على أن أفكاره حول القومية تنبع في الأكثر من القوميين الرومانسيين الألمان[٣٣] . ويبدو أن وجهة النظر هذه تتفق مع ما ذهبت إليه الباحثة

الأمريكية سلفيا حايم Sylvia Haim من «أن فكر الحصري نادراً ما هو أصيل»[٣٤] .

غير أن ما يؤخذ على الحصري في هذا المجال هو محاولته إعطاء نظريته هذه طابع « الشمول أو العمومية » ، وهذا في نظر الباحث يجانب الصواب، ذلك لأن للعالم العربي معطياته التاريخية: الاجتماعية والاقتصادية التي تختلف عن معطيات الغرب، ويترتب على هذا صعوبة تطبيق نظرية الحصري على القوميات الأخرى، ولا حتى سحب التجربة القومية في أوروبا على العالم العربي، ولعل هذا هو ما عناه الأستاذ والمؤرخ الكبير عبد العزيز الدوري، حين كتب يقول: «فإذا ظهرت القومية في الغرب تعبيراً عن فكر الطبقة الوسطى وطموحها . وكانت وراء تكوين الدول القومية والتوسع الاستعماري، فإن هذا لا يصدق بالضرورة على كل حركة قومية، وبخاصة الحركات القومية في آسيا وإفريقيا، لاختلاف منطلقاتها وظروف نشأتها وأهدافها»[٣٥] . ويقول أيضاً: «وهذه الدراسة تفترض أن الأمة العربية تكونت في التاريخ بعد تطور اجتماعي وفكري طويل، وأن شعورها بهويتها ووعيها لذاتها ترتبط بصورة وثيقة بهذا التكوين . كما تفترض أن الوعي العربي الحديث في الاتجاه القومي لم يكن تقليداً لقومية أو أخرى، بل إنه تبيّن للهوية العربية وامتداد للوعي العربي في التاريخ بعد أن تأثر بالآراء الحديثة في العصر الحديث»[٣٦] .

ولقد انتقد سعدون حمادي شمولية النظرة الحصرية هذه، معتقداً أن ثمّة فرقاً بين المفهوم للقومية العربية والمفهوم القومي الأوروبي، ذلك أن الأول يُشتق من الواقع العربي الحي بينما الثاني يعتمد على المنطق المجرد . يقول حمادي في تقديم كتاب لميشيل عفلق ممتدحاً إياه، وفي نفس الوقت منتقداً ساطع الحصري: «وهذا المفهوم للقومية حي، بمعنى أنه يبتدىء بالأمة العربية وواقعها وأحوالها، ومن ظواهر اليقظة القومية والواقع تشتق المبادىء والأحكام، وذلك نقيض المفهوم القومي الأوروبي الذي يعتمد على المنطق المجرد والذي يعتبر أن تطور القوميات يجري حسب قواعد مشتركة ثابتة تصح على جميع الأمم الذي يمثله الآن لحدٍّ ما الأستاذ ساطع الحصري» . ويضيف قائلاً: «وبذلك جاء هذا المفهوم للقومية للعربية (يقصد ما جاء في كتاب

عفلق) جديداً تماماً، وهو مفهوم منبثق من التجربة العربية ويرفض استخدام تجربة القوميات الأخرى لأكثر من الاطلاع والاستنارة وإغناء الثقافة» .[٣٧]

ومما يسترعي الانتباه في نظرية الحصري القومية أنه تكلم عن اللغة والتاريخ فقط على اعتبار أنهما هما اللذان يجمعان العرب أو يمكن أن يجمعهم في «أمة»، ولكنه غضّ الطرف عن محتوى هذين العنصرين، أقصد الثقافة العربية والتراث العربي الإسلامي، الأدبي منه والفلسفي والديني . لقد تحدّث عن القومية العربية وناقش جميع العناصر المكوّنة لها، الرئيسة منها والثانوية، كالاقتصاد والدين والمشيئة والجغرافيا ووحدة الأصل والمنشأ .. الخ وعرض نماذج ونقدها من العالم الغربي (مثل ألمانيا، إيطاليا، فرنسا، دول البلقان، بريطانيا، أمريكا ..) وجادل جميع الآراء المخالفة لرأيه ودخل في سجالات ومناقشات مع شخصيات فكرية عربية ذات شأن مثل طه حسين(٣٨) وشيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي[٣٩] وسلامة موسى[٤٠] وغيرهم كثير . وتعرّض مراراً للردّ على الدعوات الاقليمية من فرعونية وفينيقية باعتبارها عوائق أمام الوحدة العربية، ولذا وجب محاربتها بكل ما أوتينا من عزم وقوة، وهكذا كان يقول: «إن الاقليمية وليدة تعدد الدول العربية . وتعدد الدول العربية وليد الاستعمار . فيجب على كل فرد عربي أن يكافح الإقليمية كما كان يكافح الاستعمار . يجب عليه أن يكافح الاقليمية، أولاً في خبايا نفسه، ثم بين بني قومه، بكل قواه»[٤١] . وعارض أيضاً ما يسمى بـ «ثقافة البحر الأبيض المتوسط» مبيناً أنه «إذا كان هناك ما يمكن أن يطلق عليه «حضارة البحر الأبيض المتوسط فإنه ليس هناك ثقافة بهذا الاسم، لأن الحضارة لا تختص بأمة من الأمم بل تشمل -عادة- عدداً كبيراً من الأمم . وأما الثقافة -فبعكس ذلك- تختص بكل أمة على حده، وترتبط قبل كل شيء وأكثر من كل شيء بلغة الأمة وأدبها»[٤٢] . كما أن صاحبنا تعرّض مراراً لدور الدين وناقش مشروع «الجامعة الإسلامية» ورفض أن تكون بديلاً من الوحدة العربية . ولكنه مقابل كل ذلك غضّ الطرف عن التراث العربي والإسلامي كمحتوى ومضمون، بمعنى أنه من يقرأ خطاب الحصري القومي وغيره من القوميين العرب لا يكاد يعثر على آية دينية أو حديث نبوي أو بيت من الشعر أو نص

فلسفي أو حدث تاريخي إلاّ ما ندر، ما أسباب ذلك ؟

ربما يعود الأمر إلى العداء المستحكم بين القوميين العرب من جهة، والأتراك وتيار «الجامعة الإسلامية» من جهة أخرى . وتفصيل ذلك أن الفكرة القومية العربية نشأت - كما بينّا من قبل - كحركة سياسية في ظل السلطنة العثمانية: الحميدية الاستبدادية أولاً، ثم القومية التركية الطورانية ثانياً التي حاولت إنهاء العرب كوجود وكقومية، وبالتالي لم يكن القوميون العرب في هذه المرحلة ليعتمدوا على التراث الإسلامي كأيديولوجيا لأنه تراث مشترك مع الخلافة العثمانية التي كانت تحكم باسم الإسلام، ولأن تيار «الجامعة الإسلامية» الذي يقوده الأفغاني وعبده، يتخذ منه مرجعية مطلقة، يضاف إلى ذلك أن رواد الفكرة القومية العربية هم في الأساس مسيحيون عرب، وبالتالي كيف يمكن لهم الاقتباس من الثقافة العربية وحدها دون الإسلام؟ من هنا تبنى القوميون العرب ومنهم الحصري، شعار «العلمانية» بدل «الإسلام» .

وحتى في مرحلة التنظير للقومية العربية التي بدأت منذ العشرينات من هذا القرن على يد الحصري، أي بعد سقوط الخلافة العثمانية وتأسيس الدولة التركية العلمانية، فإن فكرة «الجامعة الإسلامية» بقيت حية تحت هذا الاسم أو ذاك (كالإخوان المسلمين) بقيت تحاصر الفكرة القومية العربية . وهذا يعتبر أحد العوائق الأيديولوجية والايبستمولوجية الذي حال دون توظيف الدعوة القومية العربية للثقافة والتراث العربيين اللذين هما إسلاميان . ذلك أن توظيف التراث العربي الإسلامي، الثقافي والتاريخي، من قبل القوميين «كان يعني السقوط في حضن الجامعة الإسلامية»، وهذا نفي للعروبة بوصفها كياناً يقع خارج الإسلام .[٤٣]

وقد أدى هذا الإقصاء للتراث العربي الإسلامي من مجال التفكير القومي خلال هذه المرحلة من تطوره، إلى «إفقار» شديد لفكرة القومية العربية ولمفهوم «الأمة العربية» ولأساس «دولة الوحدة» . وكان من نتيجة هذا «الإفقار» أن قامت أصوات معارضة ونزعات إقليمية تحارب بشدة الفكرة القومية، من خلال طرح لهجات محلية تحل محلّ اللغة الفصحى واستبدال التاريخ الفرعوني والفينيقي بالتاريخ العربي

الإسلامي، وبالتالي طرْح وطنيات قطرية كالسورية والمصرية بديلاً عن القومية العربية والاستمساك بالدولة القطرية بدلاً من دولة الوحدة[٤٤] ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى حشر «الفكرة القومية العربية» في الزاوية . ولكنها مع ذلك بقيت حية وصامدة أمام كل هذه التحديات والإقليميات، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف استطاعت الفكرة القومية العربية الصمود والبقاء رغم هذه المصاعب؟

من وسائل الدفاع التي كان لها دورها في الإبقاء على الفكرة القومية العربية حيّة، خلال الثلاثينات وحتى الخمسينات من هذا القرن، الميل بها نحو الرومانسية وكل ما هو وجداني أو عاطفي . أو إن شئت فقل التعالي بالفكرة القومية والارتقاء بها فوق مستوى التفكير العقلي والاستدلالي . وقد استخدم الحصري هذه الوسيلة حينما ربط بين الإيمان والقومية وشبّه دور الإيمان بها بدوره في الحرب، يقول بهذا الصدد: «إن الكفاح القومي، والجهاد في سبيل النهضة القومية، لا يختلف كثيراً عن الحروب ... إن النجاح في هذا الكفاح أيضاً يحتاج إلى إيمان راسخ في النفوس»[٤٥] . وعن سؤال: «هل الإيمان يسبق المعرفة أم المعرفة تسبق الإيمان ؟» أجاب الحصري بقوله : إنه إزاء «النزاعات الإقليمية التي تربط نفوس الكثيرين بالدول التي قامت بعد الحرب العالمية ربطاً يبعدهم عن الإيمان بوحدة الأمة العربية» وإزاء «النزعات العالمية التي أخذت تتسرب إلى نفوس البعض، بأشكال مختلفة، وصارت تزدري النزعات الوطنية والقومية .. وفضلاً عن التيارات التي تعادي القومية العربية تحت ستار الدين، دون أن تقدر حقائق الدين ومصالح الدين تقديراً صحيحاً .. لا يسوغ لنا أن نقول: إن الإيمان يسبق المعرفة في شؤون القومية العربية في بلادنا هذه، وفي أحوالنا الحاضرة»[٤٦] .

« الإيمان يسبق المعرفة» في مجال الدعوة القومية معناه في نظر الحصري : أن تؤمن أولاً بأنك عربي وأنك تنتمي إلى الأمة العربية، وبعدها تتولد لديك معرفة بأنك كذلك، وهذا لا يتأتى إلا بـ «استئصال جذور الآراء والمعتقدات المخالفة التي تسلطت على أذهان الكثيرين، مع مواصلة الجهود لوقاية هذا الإيمان من تأثيرات التيارات التي تعمل لزعزعته وإضعافه .. بوسائل شتى»[٤٧] . هذا ويعدد الحصري الحقائق التي

«يجب أن نعرفها حق المعرفة ونؤمن بها أشد الإيمان» فيجدها تنحصر في أربعة: أولاها: «إن جميع البلاد التي يتكلم سكانها باللغة العربية، هي عربية مهما تعددت الدول التي تحكمها» . وثانيها: «أن كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية، هو عربي، مهما كان اسم الدولة التي يحمل جنسيتها وتابعيتها .. ومهما كانت الديانة التي يدين بها .. ومهما كان أصله ونسبه» . ثالثها: «أن الدول العربية القائمة الآن، لم تتكون ولم تتعدد بمشيئة أهلها، ولا بمقتضى طبيعتها .. إنها وليدة الاستعمار، حديثه وعارضه» . ورابعها: أن «العرب أمة واحدة، وما المصريون والعراقيون والمغاربة . . . إلا شعوب وفروع لأمة واحدة، هي الأمة العربية» .[٤٨]

وواضح من هذه «الحقائق» أن الحصري يستبعد أي دور أو فاعلية للدين، وهذا يثير مشكلة لدى معارضيه من أصحاب «الجامعة الإسلامية» ومن في معناهم، كما يستنكر تعدد الدول العربية، وهذا يثير مشكلة كذلك لدى أصحاب النزعات الإقليمية وممن يتمسكون بالدولة القطرية .

على أن الذي عبّر أفضل تعبير عن هذا المفهوم الوجداني والرومانسي للقومية في العصر الحديث هو ميشيل عفلق حين ربط القومية بـ «الحب» والوجدان واستنكر ربطها بالمعرفة والاستدلال العقلي . يقول تحت عنوان: «القومية حب قبل كل شيء» ما يلي: «أخشى أن تسف القومية عندنا إلى المعرفة الذهنية والبحث الكلامي فتفقد بذلك قوة العصب وحرارة العاطفة» . ويضيف قائلاً: «كثيراً ما أسمع من الطلاب أسئلة عن تعريف هذه القومية التي ننادي بها! أهي عنصرية تقوم على الدم أم روحية تستمد من التاريخ والثقافة المشتركة، وهل هي تنفي الدين أم تفسح له مكاناً ؟!

«وكأني بهم يعلقون إيمانهم بالقومية على درجة التعريف من الصحة والقوة، مع أن الإيمان يجب أن يسبق كل معرفة ويهزأ بأي تعريف، بل إنه هو الذي يبعث على المعرفة ويضيء طريقها» . ثم يؤكد قائلاً: «القومية التي ننادي بها هي حب قبل كل شيء . هي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته، لأن الوطن بيت كبير والأمة أسرة واسعة، والقومية ككل حب تفعم القلب فرحاً وتشيع الأمل في جوانب النفس ..

إن الذي يحب لا يسأل عن أسباب حبه . وإذا سأل فليس بواجد له سبباً واضحاً . والذي لا يستطيع الحب إلا لسبب واضح يدل على أن الحب في نفسه قد فتر أو مات . الحب أيها الشباب، قبل كل شيء . الحب أولاً والتعريف يأتي بعده . إذا كان الحب هو التربة التي تتغذى قوميتكم منها، فلا مجال للاختلاف على تعريفها وتحديدها . .[49]

ويبدو أن هذا النوع من التسامي الرومانسي هو الذي جعل كلاً من الحصري وعفلق مثالياً، بل ربما كان عفلق أكثر إيغالاً وإفراطاً في المثالية الفكرية كما يتضح ذلك من قوله الآتي: «مثاليتنا هي هذه الروح المتفائلة الواثقة من نفسها ومن الأمة والمستقبل . هذه الروح المؤمنة التي تعتقد أن المبادىء السامية لم توجد للتظرف بالكلام عنها، ولم توجد لتكتب على الورق، وإنما هي الحياة بعينها» .[50]

ولا شك أن هذا المفهوم المثالي للقومية من لدن الحصري والمتمثل أيضاً في العناصر التي تشكل الأمة حيث اعتبرها فكرية وروحية، قد حجب عنه رؤية الجانب المادي . وهكذا بقيت آراؤه في القومية العربية متأثرة بالأوضاع السياسية في العالم العربي . فأصبح يرى أن بلوغ الاستقلال هو بالضرورة هدف القومية العربية العاجل، ثم تعقبه الوحدة كخطوة تالية . وحين سأله صاحب كتاب «الاتجاهات السياسية في العالم العربي» عن نظام الحكم الذي يفضله بعد تحقيق الوحدة «أجاب بأن شكل الحكم لا يهمه كثيراً، إذ أنه سيكون من مسؤولية الجيل اللاحق . وأضاف قوله بأن الاهتمام يجب أن ينصبَّ في الوقت الحاضر على مسألة الوحدة، وبأن الواجب القومي على كل عربي هو دعم القائد القادر على تحقيقها . فمن هذه الناحية، لم يتخط الحصري الأهداف القومية التي نادى بها أبناء جيله .[51]

وأخيراً بقي لدينا تساؤلان حول نظرية الحصري، الأول هو: أنه لو استعرضنا التاريخ العربي الإسلامي السابق لوجدنا أن الأمة العربية الإسلامية كانت موحدة ولفترات طويلة من دون الفكرة القومية . ألا يعني ذلك أن عامل الدين الذي استبعده الحصري واعتبره ثانوياً، كان هو العامل الأساسي في وحدة الأمة من حيث أنه

يجمع القلوب ويؤلف بينها ويُذهب التنافس والتحاسد ويقضي على الخلاف كما يقول ابن خلدون ؟[٥٢] أم أن الأمور قد اختلفت؟ وحتى لو اختلفت الظروف والأحوال - وهذا صحيح - فلماذا لم يتحد الوطن العربي على أساس قومي وخصوصاً أنه مرّ أكثر من قرن على بزوغ الفكرة القومية في أوروبا وثلاثة أرباع القرن في الوطن العربي؟! بل بالعكس فقد تجزأ إلى دول، لا أقول مستقلة، بل تابعة، وتتمسك بالدولة القطرية إلى أبعد الحدود وتعتبر ذلك التكريس شيئاً مقدساً لا يجوز المساس به .

والتساؤل الثاني هو: لماذا استبعد صاحبنا العامل الاقتصادي من مقومات الأمة، مع أن هذا العامل يعتبر -في نظر الكثيرين - القوة المحركة لسير حركة التاريخ والمجتمع، بل لا يمكن لأمة أن تقوم أو تنهض إلا باقتصاد حرّ مستقل؟ والحقيقة أن استبعاد هذا العامل يُعتبر أحد النواقص الأساسية في فكر الحصري، وهو من النواقص التي عرقلت، ولا تزال، هدف تحقيق الوحدة العربية، ذلك الهدف الذي كان يسعى إليه الحصري وعمل له بإخلاص، كما تعمل له أجيال اللاحقين له من المفكرين والشباب .

إلا أنه مهما قيل في نظرية الحصري وآرائه، فلا بد من الاعتراف بأنه «كان المفكر القومي النموذجي والداعية الأول بلا منازع للفكرة القومية العربية والوحدة العربية في فترة ما بين الحربين العالميتين، حتى أنه باستطاعتنا القول أن فكرة ما زال يهيمن على الأجيال الحالية في الحقل القومي»[٥٣] . إلا أن هذا الإطراء لا يمنع من القول بأن ثمة مفكرين قوميين آخرين ظهروا على المسرح بعد ساطع الحصري وساهموا من خلال كتاباتهم في نشر الدعوة القومية في ظلمة التجزئة والاستعمار والتخلف، أمثال قسطنطين زريق وعلي ناصر وميشيل عفلق وغيرهم كثير، إلا أن لكل واحد منهم وجهة نظر تتفق مع الآخرين وقد تختلف عنهم أحياناً أخرى .

الهوامش

١- اقتباساً من: الحصري، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ١١٠ . وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥١ .

٢- الجابري، محمد عابد . المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية . الطبعة الأولى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، ص ٨٧ .

٣- الحصري، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية، المصدر السابق، ص ١٢١ . وانظر أيضاً: المحافظة، علي . الاتجاهات الفكرية عند العرب . بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥، ص ١٢٩ وما يليها .

٤- الحصري ، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية، المصدر السابق، ص ١٢٥ .

٥- المحافظة، علي . الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص ١٢١-١٢٨ .

٦- الحصري، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مصدر سابق، ص ١٣٠-١٣١ .

٧- المحافظة، علي . الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص ١٢٩-١٥٦ .

٨- الجابري، محمد عابد . المشروع النهضوي العربي، المرجع السابق، ص ٩٣ .

٩- رؤوف، عماد عبد السلام . «الجمعيات العربية وفكرها القومي» . (مجلة المستقبل العربي، ع ٨١ ١٩٨٥) ص ١١٥ .

١٠- الحصري، ساطع . مذكراتي في العراق . الطبعة الأولى، بيروت: منشورات دار الطليعة، ج١، ١٩٦٧، ٧ وما يليها .

١١- قرنيها، وليد . «القومية العربية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين»، (مجلة المستقبل العربي، ع ٥، ١٩٧٩) ص ٦٠ .

١٢- Cleveland, William. The Making of an Arab nationalist. Ottomanism and Arabism in the life and thought of sati Al-Husri, Princeton University Press, 1966, p. 45.

١٣- الحصري، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية، المصدر السابق، ص ١١ .

١٤- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، الطبقة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٩-١٠ وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٤٤ .

١٥- المصدر نفسه، ص ١٠-١٢ .

١٦- الحصري، ساطع . ما هي القومية . طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٢١٠ . وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥٩ .

١٧- الحصري، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية، إلمصدر السابق، ص ٢١ .

١٨- المصدر نفسه، ص ٢٢ .

١٩- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية مصدر سابق، ص ٢٣ .

٢٠- الحصري، ساطع . حول القومية العربية . الطبعة الثابتة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ٦٧ . وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٦١ .

٢١- Kazziha, Walid. "Another reading into Al-Husris' concept of Arab nationalism". Intellectual life in the Arab East. American University of Beirut, 1981, p. 161.

٢٢- نقلاً عن: الحصري، ساطع أبحاث مختارة في القومية العربية . طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٢١٥-٢١٦ وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٦٤.

٢٣- نقلاً عن الحصري، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مصدر سابق، ص ٣٣-٣٤.

٢٤- المصدر نفسه، ص ٣٥، ٣٦، ٥١، ٥٢ .

٢٥- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في القومية العربية طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م، ص ٤٥ . وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥١ .

٢٦- المصدر نفسه، ص ٤٦ .

٢٧- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، مصدر سابق، ص ٣١ .

٢٨- نقلاً عن حوراني، ألبرت . الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول . الطبعة الثالثة، بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٧، ص ٣٧٤ .

وانظر أيضاً: ساطع الحصري في: أبحاث مختارة في القومية العربية، مصدر سابق، ص ٤٧ .

٢٩- نظمي، وميض جمال عمر . «فكر ساطع الحصري القومي» . (مجلة المستقبل العربي ع ٨١، ١٩٨٥م)، ص ١٥٣ .

٣٠- الحصري، ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية، مصدر سابق، ص ٦٩-٧٧ .

٣١- الحصري، ساطع . دفاع عن العروبة، طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٩٩-١٠٧، وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥٦ .

٣٢- الحصري، ساطع . أبحاث مختارة في القومية العربية، مصدر سابق، ص ٢٣٨-٢٤٩ .

٣٣- Cleveland, William. The Making of an Arab Nationalist. p. 85.

٣٤- Haim. G. Sylvia. Arab Nationalism: An anthology (University of California press), 1962, p. 43.

٣٥- الدوري، عبد العزيز . التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي . الطبعة الثالثة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦م، ص ٩ .

٣٦- المرجع نفسه، ص ١٠ .

٣٧- حمادي، سعدون . «تقديم» لكتاب ميشيل عفلق «في سبيل البعث»، دمشق: دار الطليعة، ١٩٥٩م، ص ٧ .

هذا وقد استغرب الحصري مثل هذا النقد الموجّه إليه، وقال في بعض دفاعه أنه لا ينبغي وجود فروق بين مختلف القوميات، وأن (أحكامه العامة) لم تكن وليدة «تفكير منطقي مجرد» . على أنه يعود فيصرّح: «أني أعتقد أن لعالم الاجتماعيات قوانين عامة وعوامل أساسية. . . كما أن للنزعات القومية أيضاً قوانين عامة عوامل أساسية» . انظر: ساطع الحصري في كتابه : حول القومية العربية، مصدر سابق، ص ٦١-٦٣ .

٣٨- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية . مصدر سابق، ص ٧٥ وما يليها

وص ٨٣ وما يليها .

٣٩- المصدر نفسه، ص ١٠٦-١٠٧ .

٤٠- الحصري، ساطع . أبحاث مختارة في القومية العربية، مصدر سابق، ص ٢٨٦ وما يليها .

٤١- المصدر نفسه ص ٣٨٠ . الاقليمية، جذورها وبذورها، ص ١٥-١٦ .

٤٢- الحصري، ساطع . حول الوحدة الثقافية العربية . طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٧٥-٧٧ . وكان الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٥٩ .

٤٣- الجابري، محمد عابد، المشروع النهضوي العربي، مرجع سابق، ص ١٠٣ .

٤٤- حول هذه النزعات وردّ الحصري عليها . انظر

- الحصري، ساطع . أبحاث مختارة في القومية العربية، مصدر سابق، ص ١٦٥-١٩١، ٣٧٩-٤٠٤، ٤٣٩-٤٤١ .
- الحصري، ساطع . الاقليمية، جذورها وبذورها . طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ١١-٢٢ وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٦٣م.

٤٥- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، مصدر سابق، ص ٣٦ .

٤٦- الحصري، ساطع . حول القومية العربية، مصدر سابق، ص ١٤ .

٤٧- المصدر نفسه، ص ٢٠ .

٤٨- الحصري، ساطع . العروبة أولاً . طبعة خاصة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ١١-١٥، وكان هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عامن ١٩٥٥ .

٤٩- عفلق، ميشيل . في سبيل البعث، بيروت: دار الطليعة، ١٩٥٩، ص ٢٩-٣٠ .

٥٠- المرجع نفسه، ص ١٣ .

٥١- خدوري، مجيد . الاتجاهات السياسية في العالم العربي، دور الأفكار والمثل العليا في السياسة . الطبعة الأولى، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٢، ص ٢١٠ .

٥٢- ابن خلدون، عبد الرحمن . مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي . الطبعة الثالثة، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ج ٢، ١٩٨١م .

٥٣- مراد، سعيد . «تطور الفكر القومي العربي بين الحربين العالميتين» من كتاب «بحوث في الفكر القومي العربي» بإشراف معن زيادة . الطبعة الأولى، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣، المجلد الأول، ص ١٨١ .

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية :

- ابن خلدون، عبد الرحمن . مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي . الطبعة الثالثة، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٨١، ج٢ .
- الجابري، محمد عابد . المشروع النهضوي العربي . الطبعة الأولى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦م .
- الحصري، ساطع . الأعمال القومية لساطع الحصري، الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠م بالنسبة للقسم الثاني، ١٩٨٥م بالنسبة للمجلد الثالث . (سلسلة التراث القومي) .
- الحصري، ساطع . مذكراتي في العراق . الطبعة الأولى، بيروت: منشورات دار الطليعة، ١٩٦٧ . جزءان .
- الحصري . ساطع . محاضرات في نشوء الفكرة القومية . الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م .
- الحصري، ساطع . آراء وأحاديث في الوطنية والقومية . الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م .
- الحصري، ساطع . حول القومية العربية . الطبعة الثانية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧م .
- حوراني، البرت . الفكر العربي في عصر النهضة ترجمة كريم غرقول . الطبعة الثالثة . بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٧م .
- خدوري، مجيد . الاتجاهات السياسية في العالم العربي . الطبعة الأولى، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٢م .
- الدوري، عبد العزيز . التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي . الطبقة الثالثة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦م .
- عفلق، ميشيل في سبيل البعث، بيروت: دار الطليعة، ١٩٥٩ .
- قزيها، وليد «القومية العربية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين»، (مجلة المستقبل العربي، ع ٥-١٩٧٩م، ص ٥٥-٦٦ .
- قزيها، وليد . «فكرة الوحدة العربية في مطلع القرن العشرين» . (مجلة المستقبل العربي: ع ٤-١٩٧٨)، ص ١٢-٢٦ .
- محافظة، علي . الاتجاهات الفكرية عند العرب . بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥م.
- مراد، سعيد . «تطور الفكر القومي العربي بين الحربين العالميتين»، من كتاب (بحوث في الفكر القومي العربي) بإشراف معن زيادة . الطبعة الأولى، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٣م . المجلد الأول .

- نظمي، وميض جمال عمر . «فكر ساطع الحصري القومي»، (مجلة المستقبل العربي - ع ٨١-١٩٨٥)، ص ١٤٨-١٦٦ .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

- Cleveland, William. The Making of an Arab Nationalist. Ottomanism and Arabism in the life and thought of Sati-Al-Husri, princeton University press, 1966.
- Haim. G. Sylvia. Arab Nationalism: An Anthologhy. (University of california press) 1962.
- Kazziha, Walid. "Another reading into al-Husris' concept of Arab Nationalisms". (Intellectual life in the Arab East), American University of Beirut, 1981, p. 154-164.

الجذور التاريخية لتعريب سكان بلاد الشام والجزيرة منذ الجاهلية حتى نهاية العصر العباسي الأول

د. عبد الحسين علي أحمد

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد - جامعة قطر

يلحق الكثير من الجغرافيين العرب بلاد الشام بشبه الجزيرة العربية ، من خلال محاولتهم تبرير تسميتها بالجزيرة العربية لأن مياه الشام تحيط بها من الجهة الشمالية أو الجهة البرية الوحيدة ، وهكذا يقول الهمداني « وإنما سميت بلاد العرب الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها ، وصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر ، وذلك أن الفرات القافل الراجع من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق حتى دفع البحر من ناحية البصرة والأبلة » . وبعد ذكره للبحر من الشرق والجنوب والغرب يعود لذكر شواطئ الشام كحدّ آخر يقول : « ثم اقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها وأتى على صور ساحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ، ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين ، حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطا على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق . فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوا بها »[1] .

وهذا الواقع الظاهر باتصال بلاد الشام بالجزيرة جعلها موضع جذب لقبائل سكنت الجزيرة منذ أقدم العصور التاريخية . وما يهمنا هنا ويدخل في سياق بحثنا هو تلك القبائل العربية التي كانت على أرض الشام عند ظهور الإسلام ، والتي دخلت أراضي الشام من خلال الحركة الموسمية التي تقوم بها القبائل عادة والتي اعتبرها رنيه ديسو طبيعية في كل المناطق التي يجاور فيها البدو مناطق حضارية ، إذ أن الأعشاب في

وديان الجزيرة العربية وخاصة في نجد تختفي وتجف الآبار بعد انتهاء فصل الشتاء مما يدفع هذه القبائل للاتجاه شمالاً أواخر الربيع ليصلوها فيحصلوا على الماء والمرعى سواء في المروج كمروج الجولان أو حتى في الأراضي الزراعية بعد الحصاد فيها ، فتلتهم مواشيهم جذور سيقان الحنطة والشعير ، وفي بعض الأحيان كان الحضريون عند حرمانهم من حماية السلطة لا يمتلكون القدرة لصد البدو من ارتياد مناطق الحصاد ولا المراعي الطبيعية ومنابع المياه فحسب ، بل غالبا ما يشترون حمايتهم بدفع إتاوة عينية في الغالب لكف أذاهم ودفع عادية البدو الآخرين حين تغير عليهم[٢] .

إلى جانب هذه الهجرة الموسمية كانت تقوم بين الحين والآخر هجرة لقبائل أو لعشائر تبقى في أراضي الشام جماعات منها على بداوتها بينما تستقر الأخرى لتجد لنفسها معاشا في الفعاليات الاقتصادية الأخرى ، اشتهر منها منذ القرون الأولى[٣] قبل الميلاد وبعده التجارة عند الانباط في البلقاء حتى دمشق شمالاً على خط التجارة القادم من اليمن والحجاز إلى بلاد الشام قبل أن يحطمهم الرومان عام ١٠٥م[٤] ، ومثلهم التدمريون الذين تحطمت دولتهم عام ٢٧٣م ، وعاشوا على استثمار خط التجارة الوارد من الشرق باتجاه البحر الأبيض المتوسط[٥] .

كان للقبائل العربية التي وجدها المسلمون في الشام عند الفتح شأن آخر ، إذ ظلت البداوة غالبة عليها وإن اتجه بعض منها تدريجياً نحو الزراعة ، وربما دفعها نحو هذا التوغل عامل مشترك هو الطمع الأزلي للبدو في أراضي الحضر ، وربما حدد وقت نزوحها من منازلها قحط ألم بها وهددها بالموت مع قطعانها إلى جانب عوامل أخرى أثرت في كل قبيلة كالحروب التي نشبت بينها وبين بطونها[٦] .

يلاحظ من تتبع حركات هذه القبائل أنها دخلت الشام من ثلاثة خطوط ، أقصاها في الغرب من الحجاز ، وفي الوسط عبر البوادي المتصلة في الشام ، وفي أقصى الشرق في السير مع نهر الفرات . وتتفق الروايات على أن قبائل قضاعة كانت أول من قدم إلى الشام من الغرب وأنشأوا ملكاً في جنوب بلاد الشام واستعملهم الروم على بادية العرب[٧] . وقد تنازع بطنان منهم على هذا الملك هم تنوخ واخواتهم من سليح

فملكت الشام أولاً تنوخ بعد دخولهم دين النصرانية فكانوا ملوكا على العرب في بلاد الشام عمالا للروم[٨] ، وتتابع فيهم ثلاثة ملوك ثم غلبهم سليح وربما كانوا أول من أنشأ من العرب ملكا في جنوب بلاد الشام وفرضوا جزية على الناس قدرها دينار إلى دينارين ، وحاول آخرهم أن يأخذها من رجل من غسان يدعى «جذع بن عمرو بن المجالد بن الحرب الأزد » فقتله بدلاً منها[٩] .

وربما تكون رواية قتل جذع الغساني لملك سليح موضوعة كرمز لحلول الغساسنة الأزد واستقرارهم في البلقاء ويرموك وجولان وغوطة دمشق والاردن فيما بعد وتوليهم السلطة بدلاً من سليح كدولة حاجزة استخدمها البيزنطيون في وجه القبائل البدوية في المنطقة بعد تحضرهم ، ويعدد الألوسي قصور الغساسنة في بلاد الشام مما يدل على عظم قوة سلطانهم الذي استمر بحسب رواية ابن الأثير أكثر من ستمائة سنة[١٠] .

وإذا كانت حياة هذه الدولة لا تدخل ضمن بحثنا إلا أن وجودها هام لنا إذ بقيت حتى الفتح في مناطقها كبقية القبائل العربية الأخرى في بلاد الشام استقرت غالباً في منازلها وتظهر أهميتها في دورها المناهض لتقدم المسلمين العرب ، فالغساسنة تصدوا للمسلمين . وتتفق الروايات على أنه عند قدوم خالد بن الوليد نحو الشام « أتى مرج راهط " شرق مؤتة " فأغار على غسان في يوم فصحهم »[١١] كما واجههم في مرج الصفر جنوب دمشق[١٢] ، وكانوا ضمن العرب الذين ساعدوا البيزنطيين في مواجهة المسلمين ، وكانوا في جملة من ساعد أهل دومة الجندل أيضاً عندما هاجمهم القائد نفسه[١٣] ، وكما قادهم جبلة بين الأيهم ليلتحقوا بهرقل في انطاكية عندما كان يستعد لردع المسلمين الذين دخلوا دمشق بقيادة أبي عبيدة بن الجراح[١٤] .

ضمن هذا الخط الغربي كانت تتقدم نحو بلاد الشام قبائل أخرى منها قبيلتان تؤامتان هما لخم وجذام اللتان يعود نسبهما إلى كهلان بن سبأ من القبائل القحطانية[١٥] ، والتي سكنت جنوب بلاد الشام ، فنزلت لخم غرب البحر الميت إلى حدود مصر ، كما أنها خالطت قبائل جذام في النزول إلى الشرق في المنطقة الممتدة من تبوك جنوباً حتى البلقاء حول عمان شمالاً[١٦] ، وكانت طرفاً في التجمع القبلي

المحالف للبيزنطيين والذي أوقع بالمسلمين عام ٨ هـ / ٦٢٩م في مؤتة ، واستمرت كذلك ضمن الحشد البيزنطي في البلقاء استعداداً للهجوم على المسلمين ، والذي قام الرسول (ﷺ) بغزوة تبوك لاتقاء مخاطره . ويحدد الخبر المتعلق بمنح الرسول (ﷺ) إقطاعاً لتميم وإخوته توقيته عند منصرف الرسول (ﷺ) من هذه الغزوة الأمر الذي يدعم الميل لتصديقه لما في هذا الوعد من تأليف قلوب بعض أبناء هذه القبائل واستجلابا لها من الصف البيزنطي إلى الجانب الإسلامي (١٧) . وقد انضم لهذا الصف من جذام فروة بن عمرو النافرة الذي بعث إلى الرسول (ﷺ) بإسلامه ، وكان عاملاً للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام (١٨) .

وإلى نفس الجد الذي انتمت إليه القبيلتان السابقتان وهو كهلان تتمنى قبيلة عاملة أيضاً التي توغلت في جنوب بلاد الشام ونزلت إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت ، حيث بقيت تابعة للبيزنطيين وكانت ضمن حلفاء هرقل في تصديه للعرب (١٩) .

وربما لعبت دوراً أكبر من القبائل السابقة مجموعة قبائل قضاعة ، وقد اختلف على انتمائها إلى معد النزازية أم حمير القحطانية ، وحل بعض النسابين الأمر بأن أم قضاعة تزوجت أولاً حميريا وجاءها منه ولده الأول ثم تزوجت بعده معديا (٢٠) . والمهم أنها نزلت شمال الحجاز وحالفت البيزنطيين ، وبرز العديد من قبائلها أشهرها : بلى وبهراء وعذرة وبلقين وسليح وحلوان والضجاعم وتنوخ وكلب وجهينة ، وقد توجهت بعض قبائلها فيما بعد إلى مصر عند الفتح عن طريق الشام ، وبقيت بعضها في الشام، وكانت محالفة للبيزنطيين ووقفت ضد المسلمين فكان قائد المتنصره من العرب في مؤتة بلويا من بلى ، كما كونوا جزءاً من جيش هرقل في تصديه للمسلمين بعد ذلك سنة ١٣هـ / ٦٣٤م (٢١) .

والملاحظ أن هذه القبائل على هذا الخط كلها يمانية ، وتعزو الروايات سبب هجرتها إلى انهيار دولة سبأ وتفرق قبائلها في القرن الثاني للميلاد وانهيار سد مأرب ، واتبعت الطريق الذي سلكته التجارة وكان لها توقف في شمال الحجاز . كما يلاحظ أنها أصبحت نصرانية كلها بفعل أعمال التنصير التي أتت من جهة بيزنطة على الأرجح مما

سهل على بيزنطة كسب ولاء هذه القبائل لها واستخدامها أداة لنشر نفوذها في الجزيرة العربية عندما كانت هناك ومساعدتها لحماية حدودها ضد هجمات قبائل أخرى . .

وضمن خط مواز في الداخل عبر البوادي توغلت في بلاد الشام قبائل أخرى أهمها قبيلة كلب بن وبرة التي ستصبح أكبر قبائل قضاعة في الشام وكانت قادرة على أن تزرع بادية السماوة بين الشام والعراق حتى دعيت أحيانا باسم بادية كلب(٢٢) ، وكان مركزها الواحات في أدنى وادي الخيط المكون من وادي الجوف والسرحان ، وظلت زعامتها حتى بعد الإسلام في بني بحدل بن انيف والد ميسون التي تزوجها معاوية وكانت منازل أسرته في جنوب تدمر(٢٣) ، وفي الطريق نفسه وهو طريق البوادي في الوسط توغلت في بلاد الشام قبل الإسلام قبيلة طيء من كهلان من سبأ فنزلوا بجوار قنسرين فيما سمي بحاضر طيء بعد هجرتهم بسبب حرب الفساد التي اندلعت بينهم أثر نزولهم في جبلي الجزيرة أجأ وسلمى(٢٤) .

في حين كان بنو مشجعه من التيم من النمر وهم من قضاعة أيضاً قد نزلوا قصم في دومة الجندل ، وقد صالحهم القائد خالد بن الوليد وكتب لهم كتاب أمان حدد فيه حدود منطقتهم(٢٥) . وأما كندة فكانت منازلهم بلاد اليمن جلت طوائف منها إلى الشمال وكان لكندة ملك بنجد وبادية الشام ودومة الجندل . وكان أكيدر بن عبد الملك ملكا عليها ، وقد هزمهم خالد بن الوليد في صندوداء . وقد ساكنهم قوم من إياد وبعض العجم(٢٦) .

أما على الخط الثالث الشرقي فقد نزح إلى بلاد الشام من جهة الجزيرة قبيلتان من ربيعة ابن نزار بن معد بن عدنان ، أي من عرب الشمال ، وهما تغلب وبكر بن وائل قادمتان من هضاب نجد ، حيث كانتا حتى القرن الخامس الميلادي ، ثم تحركتا ببطء نحو السهوب المتاخمة للفرات الأدنى وذلك في النصف الأول من القرن السادس الميلادي. وعندما قام عمرو ابن كلثوم التغلبي بقتل ملك الحيرة عمرو بن هند ٥٦٩ - ٥٧٠م ، هاجرت تغلب نحو الشمال حتى وصلت إلى الجزيرة الفراتية بين الخابور ودجلة(٢٧) . وحلت محلها على الفرات الأدنى بكر ابن وائل ، ومنها تابعت قبيلة منها

وهي شيبان السير شمالاً حتى أعالي دجلة لتحتل ضفتيه[٢٨] .

موجة العرب الفاتحين

مما لا شك فيه أن الفتح الإسلامي لبلاد الشام أدخل إليها أعداداً كبيرة من العرب الفاتحين ، كما جعلها جزءاً من الدولة العربية الإسلامية مما أزال كل العقبات أمام استمرار تدفقهم بمناسبات متعددة .

لعل أكبر كتلة منفردة من العرب الداخلين إلى الشام مع الفتح تكونت من الحشد عند اليرموك عام ١٤ هـ ، وقد أشار إليهم ابن الأعثم بالقول « وخرج الناس على راياتهم ، فيها أشراف العرب . . . وقبائلهم بها الأزد وهم الثلث وفيها حمير وهم عظم الناس وفيها همدان وخولان ومذحج وخثعم وقضاعة ولخم وجذام وغسان وعاملة وكندة وحضرموت ومعهم جماعة من كنانة ولكن عظم الناس من أهل اليمن ، ولم يحضرها يومئذ أسد ولا تميم ولا ربيعة ولم تكن دارهم هناك وإنما كانت دارهم عراقية فقاتلوا فارس بالعراق »[٢٩] .

وتبدو هذه الرواية على جانب كبير من الصحة ، إذ أن من المقتضيات العامة توجيه الناس للجهاد وأن يوجه كل قوم نحو ما يليهم من بلاد الجهاد . فالقبائل اليمانية كثيرة لأن محطتها نحو الجهاد هي الحجاز وهذا يجعل حمير وهمدان وخولان هم الغالبية ، وكذلك حال الأزد لأن أحد موطنيهم الكبيرين هو السراة في مرتفعات عسير وبالتالي يجب أن يحددوا باسم أزد السراة تمييزاً لهم عن أزد عمان[٣٠] . كما يجب أن يضاف إليهم الأنصار من أوس وخزرج[٣١] . وكذلك الحال في مشاركة قضاعة التي أوردتها الرواية عامة مما جعلها مبهمة ، إذ الأصح أن المشاركين فيها كانوا من قبائل جهينة وبلي وعذرة النازلة شمال الحجاز بجهات وادي القرى ، وأصبحت تتحكم في الطريق إلى المدينة ، وقد حولت الآن معسكرها من الجانب البيزنطي إلى الجانب الإسلامي بعد انتشار الإسلام في صفوفها ، وكذلك بلقين النازلة بين وادي القرى وتيماء ومثلها لخم وجذام التي كان الإسلام قد دخل صفوفها بعد غزوة تبوك بإسلام تميم الداري ومنح الرسول ﷺ له إقطاعاً[٣٢] .

وربما دفعت العصبية صاحب الرواية اليماني إلى إغفال ذكر مشاركة قبيلة قيسية مشاركة فعالة في المعركة وهي قبيلة سليم من قبائل قيس بن عيلان بن مضر والتي كانت منازلها على الحدود بين نجد والحجاز من المدينة شمالاً إلى مكة جنوباً . وكان منها أبو الأعور بن سفيان الذي انخرط مع بني قومه في جيش يزيد بن أبي سفيان وكان قائد كردوس من كراديس الجيش في اليرموك حسب تنظيمات خالد بن الوليد(٣٣) .

أما نفي الرواية لحضور أحد من تميم وأسد للمعركة فغير دقيق ، إذ أهملت نجدة الفاتحين في العراق بقيادة خالد بن الوليد والتي تقدرها رواية بعشرة آلاف ، وبرز فيهم قائدان لاشك في قيادتهما لأناس من قبيلتيهما : تميم ومنها القعقاع ابن عمرو التميمي، وأسد التي برز منها ضرار ابن الأزور وكلاهما قاد كردوسا منها(٣٤) .

وعلى كل حال ، تبعت معركة اليرموك أعمال الفتح لمدن الشام والجزيرة التي قامت بها جيوش الفاتحين المكونة من وحدات قبلية وتم فتح أغلب المدن بعد حصار دام شهوراً . فقد قاومت حمص طيلة الشتاء على أمل أن يؤثر البرد في الفاتحين فينصرفوا عنها . أما حصار دمشق فقد استمر شهوراً اختلفت الروايات على عددها بين مقلة يقصرها على أربعة شهور وكثرة توقتها إلى أربعة عشر شهرا . يضاف إلى هذه المدة التي اقامتها الوحدات العسكرية القبلية في الحصار مدة أخرى بين استسلام المدينة وبين دخولهم إليها ، إذ تريثوا في الدخول ريثما يمكنون لأنفسهم في الجهات الأخرى المحيطة بالبلد ، إذ دعاهم هذا إلى التمسك بهذه الأراضي التي أقاموا فيها مقرات سكن لهم(٣٥) ، وأمرهم عمر بن الخطاب الذي قدم إلى الشام عام ١٥هـ بعد عام من فتح أكثر المدن ، وقد وضح سليمان بن عنبه (ت ١٨٥هـ) أحد فقهاء الشام للمأمون العباسي هذا الأمر في معرض تبريره لتملك أحفاد هؤلاء الفاتحين لتلك الأراضي إذ يقول : « سألني أمير المؤمنين عبد الله بن محمد لما قدم الشام ثلاث وخمسين أو أربع وخمسين ومائة عن سبب الأرضين التي بأيدي ابناء الصحابة ويذكرون أنها قطائع لآبائهم قديمة. فقلت : يا أمير المؤمنين أن الله لما اظهر المسلمين على بلاد الشام

وصالحوا أهل دمشق وأهل حمص كرهوا أن يدخلوها دون أن يتم ظهورهم واثخانهم في أعدائهم فعسكروا في مرج بردى ما بين المزة ومرج شعبان (شمال دمشق) ، وكان هناك مروج مباحة فيما بين أهل دمشق وقراها ليست لأحد منهم فأقاموا بها حتى اوطأ الله المشركين ذلاً وقهراً ، فاحيا كل قوم محلهم ورفعوا ذلك إلى عمر بن الخطاب فامضاه لهم فبنوا الدور ونصبوا الشجر ثم امضاه عثمان ومن بعده إلى ولاية أمير المؤمنين . فقال قد أمضيناه لأهله »[٣٦] .

وربما فسر ذلك تداخل القبائل في المدينتين وما حولهما ، وهذا ما أشار إليه اليعقوبي بقوله : « كور الغوطة وأهلها غسان وبطون من قيس وبها قوم من ربيعة[٣٧] » . وإذا اعتمدنا على ترجمة أبي الهيذام[٣٨] الذي كان في القرن الثاني للهجرة يتضح لنا أن غالبية القرى قد نزلتها قبائل يمانية منها : بيت الآبار[٣٩] ومرج الدحاح والاوزاع نسبة لقبيلة الاوزاع وهم بطن من ذي الكلاع من حمير[٤٠] وبيت البلاط[٤١] والحديثة[٤٢] وجسرين ، والحميريين[٤٣] وصنعاء[٤٤] . وكذلك من قرى اليمانية في الغوطة داعية وبيت سوا وحمورية وحجرا وحوارة وعربيل وأرزونا ودقانية وغيرها من القرى الذي يصعب ذكر البطن الذي سكن فيها في حين تزودنا بعض الروايات معلومات عن ساكني هذه القرى . ففي داريا كبرى قرى الغوطة عبس وخولان[٤٥] ، والمزة لكلب ، ودير المران والارزه وسطر لبني لخم[٤٦] وبيت لهيا للسكون والسكاسك من كنده[٤٧] وقرية حجور التي تدعى عين شرما لهمدان[٤٨] وزملكا للازد[٤٩] وحرلان لغسان[٥٠] . وتجاورت بعض هذه القرى اليمانية قرى قيسية فبلاش قرية قيسية تجاور داريا اليمانية ، في حين كانت الحرحلة قبسية نزل بها بني سليم[٥١] كذلك من قرى القيسية راوية[٥٢] وبراق وحلق بلتا (حلقبلتا)[٥٣] .

وربما حصل هذا التداخل منذ الفتح الإسلامي لبلاد الشام وإنزال الجند بالمدن الكبرى التي شاطروا السكان نصف منازلهم حسب اتفاقية الصلح المبرمة مع أهل دمشق وحمص وباقي المدن[٥٤] أو ما جلا عنه أهله ، إذ روعي نزول البطن القبلي في موضع واحد كما تعكس لنا ذلك أسماء بعض الأزقة لتلك الفترة بدمشق كدرب الأسديين وزقاق الكلبيين بعد باب الجابية[٥٥] . ويشاهد هذا التنوع ذاته في حمص ولو أنه

طفت فيها اليمانية ويرجع هذا إلى فجر يوم تحريرها وتولى السمط بن الاسود الكندي خططها بين المسلمين فنزلوها بحسب قبائلهم . وتبدو غلبة اليمانية آنذاك في قول اليعقوبي : « أهل حمص جميعاً من يمن من طئ وكندة وحمير وكلب وهمدان وغيرهم من بطون اليمن » . ويبدو خلو حمص من القيسية حتى أصبح مضربا للمثل « أذل من قيس بحمص » فلم يكن بها من قيس إلا بيت واحد حسب قول الميداني[٥٦] . ولكن المدن الصغيرة كطبرية لم تشهد مثل هذا التنوع فجل سكانها من الأشاعرة من كهلان سبأ[٥٧] .

لقد كان لهذا التجاور بين القبائل القيسية واليمانية في دمشق خاصة أثر بالغ . فقد شهدت بلاد الشام نتائجها فبدأت بمرج راهط لتستمر حتى خلافة هارون الرشيد بسبب العصبية والخلاف على المناطق الخصيبة والمياه . ولم يهدأ النزاع بينهما فالقيسية يوقدون نارهم من قمة جبل مانع في حين يوقد اليمانية نارهم من جعل دير مران[٥٨] . ويوضح الجاحظ مدى اضطراب الوضع بينهم برواية ثمامة بن أشرس « لما صرفت اليمانية - من أهل المزة - الماء عن أهل دمشق ووجهوه إلى الصحاري كتب أبو الهيذام إلى بني إستها أهل مزة ، ليمسينني الماء أو لتصبحنكم الخيل ؟ قال : فوافاهم الماء قبل أن يعتموا »[٥٩] .

نزول القبائل العربية في الشام بعد الفتح

انفتحت أبواب الشام على مصاريعها بالفتح لتدفق القبائل والجماعات من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام لأسباب متعددة كمتابعة الجهاد ، إما حسبة لوجه الله وإما ابتغاء الغنيمة بالإغارة على الروم ، وإما هربا من القحط وأشهره الذي حل زمن خلافة هشام بن عبد الملك عندما كان واليه على المدينة خالد بن عبد الملك ، فقحط المطر سبع سنوات فسماها الناس « سنيات خالد » وجلوا من بادية الحجاز إلى الشام »[٦٠] . ومن ناحية أخرى أخذت قبائل البادية الشامية تتقدم باتجاه المناطق الحضرية بموافقة الدولة أو بمنح منها مكافأة على خدمات قدمتها بعض هذه القبائل .

عبد الله بن الجراح وعياض بن غنم بن زهير جبل سنير بين حمص وبعلبك يجاورهم قوم من كلب[٦٨] واستهدفهم بطنان من غطفان هما بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان وقد سيطروا على الجولان موطن المراعي وعلى حوران الزراعية وحاضرتها بصرى ، وكان من أبرز رجالهم مسلم بن عقبة المري قائد جيش يزيد بن معاوية يوم الحرة والذي أوصى قبيل وفاته أن تكون داره بحوران صدقة على مهاجرة بني مرة ، كما شكلوا غالبية سكان بانياس إلى جانب قبائل يمانية ، واستقر قسم آخر من بني مرة دار الدور[٦٩] ، أما بنو عمومتهم من قبيلة عبس فقد ظهروا في الشمال عندما منح عبد الملك بن مروان القعقاع بن خليد العبسي منهم قطيعة سميت حيار بني القعقاع بين حلب وقنسرين حسب ياقوت الذي يجعل معناها أنها جمع لكلمة حير التي تعني الحمى[٧٠] . ولم يلبثوا أن توسعوا زمن هشام بن عبد الملك في حاضر قنسرين كله إلى الجهة الشرقية من بريتها وظلوا على ذلك قروناً متأخرة ، حتى أن ابن العديم يقول بأنهم « غالبون على أهل حاضر قنسرين »[٧١] .

قد يكون قدوم القيسية للشام حصل بدافع ذاتي كخلاص من قحط أو رغبة في أرض خصبة لكنه قد يكون أيضاً بتشجيع من الأمويين المعروفين بحنكتهم السياسية ورغبتهم في اقامة نوع من التوازن القبلي في بلاد الشام الناجم عن غلبة اليمانية فيها[٧٢] ، كما أنه يوفر لهم جنداً محاربين اشداء كبدو يعملون لمصلحة الأسرة الحاكمة، وهذا ما يفسر كيف قام معاوية ابن أبي سفيان ففرض في الديوان لأربعة آلاف من قيس سوى جندف[٧٣] .

ولعل أهم من يمثل هؤلاء قبائل عامر بن صعصعة وهي قبائل كثيرة العدد انتشرت منازلها في وسط غرب الجزيرة العربية ، وقدمت منها بطون إلى الشام من أشهرها كلاب ، حيث ترد إشارات بوجود قسم منهم في القسم الجنوبي بحوران ، حيث يورد عند ابن عساكر نص يقول « وجاء أخوة المقتول إلى ناس من الزواقيل بحوران فاستنجدهم »[٧٤] .

ويقول عنهم ابن العديم « الزواقيل قبيلة ينسبون إلى زوقل بن حبيط بن قدامة

عبد الله بن الجراح وعياض بن غنم بن زهير جبل سنير بين حمص وبعلبك يجاورهم قوم من كلب (٦٨) واستهدفهم بطنان من غطفان هما بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان وقد سيطروا على الجولان موطن المراعي وعلى حوران الزراعية وحاضرتها بصرى ، وكان من أبرز رجالهم مسلم بن عقبة المري قائد جيش يزيد بن معاوية يوم الحرة والذي أوصى قبيل وفاته أن تكون داره بحوران صدقة على مهاجرة بني مرة ، كما شكلوا غالبية سكان بانياس إلى جانب قبائل يمانية ، واستقر قسم آخر من بني مرة دار الدور (٦٩) ، أما بنو عمومتهم من قبيلة عبس فقد ظهروا في الشمال عندما منح عبد الملك بن مروان القعقاع بن خليد العبسي منهم قطيعة سميت حيار بني القعقاع بين حلب وقنسرين حسب ياقوت الذي يجعل معناها أنها جمع لكلمة حير التي تعني الحمى (٧٠) . ولم يلبثوا أن توسعوا زمن هشام بن عبد الملك في حاضر قنسرين كله إلى الجهة الشرقية من بريتها وظلوا على ذلك قروناً متأخرة ، حتى أن ابن العديم يقول بأنهم « غالبون على أهل حاضر قنسرين » (٧١) .

قد يكون قدوم القيسية للشام حصل بدافع ذاتي كخلاص من قحط أو رغبة في أرض خصبة لكنه قد يكون أيضاً بتشجيع من الأمويين المعروفين بحنكتهم السياسية ورغبتهم في اقامة نوع من التوازن القبلي في بلاد الشام الناجم عن غلبة اليمانية فيها (٧٢) ، كما أنه يوفر لهم جنداً محاربين اشداء كبدو يعملون لمصلحة الأسرة الحاكمة، وهذا ما يفسر كيف قام معاوية ابن أبي سفيان ففرض في الديوان لأربعة آلاف من قيس سوى جندف (٧٣) .

ولعل أهم من يمثل هؤلاء قبائل عامر بن صعصعة وهي قبائل كثيرة العدد انتشرت منازلها في وسط غرب الجزيرة العربية ، وقدمت منها بطون إلى الشام من أشهرها كلاب ، حيث ترد إشارات بوجود قسم منهم في القسم الجنوبي بحوران ، حيث يورد عند ابن عساكر نص يقول « وجاء أخوة المقتول إلى ناس من الزواقيل بحوران فاستنجدهم » (٧٤) .

ويقول عنهم ابن العديم « الزواقيل قبيلة ينسبون إلى زوقل بن حبيط بن قدامة

ابن عبدالله ابن عامر بن حصن بن الحارث من الهضاب وهو عامر الاكبر بن كعب بن أبي بكر بن كلاب [٧٥] . لكن تجمعهم الاكبر كان في الشمال ، حيث موقعها الرئيسي في البرية بين حلب وبالس ، وهناك كانت قرية خساف لبني زفر بن الحارث الكلابي زعيم قيس المشهور عند تسلم الفرع المرواني لحكم الدولة الأموية . ويحدد ابن العديم موقعها في معرض حديثه عن أحداث دولة آخر المروانيين مروان بن محمد بالقول « في سنة ١٢٨هـ وعندما خرج سليمان بن هشام على قريبه مروان بن محمد وخرج معه سبعون ألفا التقى الطرفان بموضع يقال له خساف وهي قرية لبني زفر في البرية بين بالس (قرب الرقة الحالية) وحلب [٧٦] وهم مجاورون في الجنوب الغربي قبيلة عبس أصحاب بطنان حبيب الذي يفصله روحة للماشي عن بطنان بني وبر بن الاضبط بن كلاب ، حسب ياقوت الذي يجعل معنى بطنان أنه المواضع التي يستربض فيها ماء السيل فيكرم نباتها [٧٧] . أما في الشرق فتتصل منازلهم إلى منبج وهي مشتركة بينهم وبين قبائل كلب حسب قول الهمداني الذي يقول « ومنبج مشتركة بينهم (يعني كلب) وبين كلاب إلى حد وادي بطنان » [٧٨] كما يشير ابن العديم إلى أن البطن الكلابي الذي بأرض منبج يعود في نسبه إلى عمر بن كلاب وأنه استقر وأضحى من أهل المدر لا الوبر ، وفي قرى معروفة باسم اخليط الصيادة وما والاها [٧٩] .

إذا كان هذا الجوار في منبج مع قبائل معادية مزعجا لكلاب فإن ما يساعدها باعتقادنا هو جوارها من الجنوب الشرقي لقبيلة مضرية هي أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نزار بن عدنان التي سكنها وأصبح مستقراً من أهل المدر بينما وصل القسم الآخر إلى الشمال ، حيث حلب وما والاها منزل في سفوح جبل الأخص واحتلت الأرض اسمهم فأصبح يقال لها نقرة بني أسد [٨٠] ، ومعنى النقرة حسب قول ياقوت « كل أرض متصوبة في هذه فهي نقرة » [٨١] .

لكن كلاب كان لها سندها من القبائل القيسية التي تناصر عند اللزوم ، ففي الشمال من حلب وعند الثغور أبناء عمومتهم بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ومنهم كان عمرو بن معاوية بن المنتفق قائد الصوائف لبني أمية [٨٢] . وبجوار حلب ينزل بنو هلال بن عامر بن صعصعة ومنهم ذاع صيت العباس بن زفر بن

عاصم الهلالي زمن الفتنة بين الأمين والمأمون، إذ حاول العرب المقيمون في حاضر حلب، والذين أطلق عليهم اسم تنوخ ، استغلال الفوضى لمصلحتهم فهاجموا حلب بقصد الاستيلاء عليها ، وكتب الهاشميون من أهلها إلى جميع من حولهم من قبائل العرب يستنجدونهم فكان أسبقهم إلى إنجادهم وإعانتهم العباس بن زفر بن عاصم الهلالي الذي استطاع بمن معه صد المهاجمين أولاً ثم إخراجهم عن حاضرتهم وتخريبها . وقد انتقل هؤلاء بعد ذلك إلى قنسرين فأسعفهم أهلها بالاطعمة والكساء فلما دخلوها أرادوا التغلب عليها فأخرجوهم منها ليتفرقوا في البلاد[(٨٣)] .

وتجاوزت قبائل قيس الفرات شرقا وسيطرت بطون تميمية على شرقيه حتى البليخ وتجاوزته شمالاً لتنزل حيث خالطها بنو سليم وتوسعت شمالاً حتى سيطرت على الرها[(٨٤)] . وعلى ما يظهر استمرت هذه القبائل في التوسع شرقا ، أما البدو منها كانوا يتنقلون في المنطقة الممتدة حتى الخابور ، حيث كانت قبائل ربعية ، وهي تغلب، تسود المنطقة بين الخابور غربا ودجلة شرقا ، ولو أنها كانت بيد ربيعة فرأس العين لبني نمر بن قاسط وأعلاه لبني مالك وبني حبيب وهما بطنان من فرع عمرو بن غنم بن تغلب[(٨٥)] . بينما نزل أقسامه الأخرى بطون أخرى من تغلب فكانت كفر توثا الواقعة بين دارا ورأس العين لبني جشم اتخذها مالك بن طوق بن عتاب التغلبي منزلاً وحصناً وأصبحت مصراً لهم[(٨٦)] . أما برقعيد وهي مدينة حسنة كبيرة فكانت من ديار بني عبد بن تغلب ومن أهم منازل تغلب أيضاً نصيبين ومدينة اذرمه وجبل سنجار وجبل الشراة[(٨٧)] .

إلا أن قيسا لم تحسن جوار حليفتها تغلب فقد نزل عمير بن الحباب على الخابور في جوار منازل تغلب ولم يلق نزوله في هذا الموضع ترحيباً من بني تغلب ، وأدى تعارض المصالح إلى وقوع العداء بين ربيعة ومضر فتحولت قيس من قتال كلب إلى قتال بني تغلب ، ومما زاد في قوتهم نزول سيد بني عامر زفر بن الحارث العامري الكلابي قرقيسيا ، حيث تحصن بها منذ هزيمتهم في مرج راهط[(٨٨)] .

أما سبب الخلاف فيرجع إلى أمرين : أحدهما المرعى والآخر أن القيسيين كانوا

يسخرون من مشايخ تغلب النصارى[٨٩] . فأغارت القيسية على منازل تغلب بماكسين وهي قرية بين الخابور ورأس العين[٩٠] وعلى القدين الواقعة على شاطئ الخابور[٩١] وعلى السكير وهي من قرى تغلب على الخابور[٩٢] وعلى الشرعية بناحية منبج[٩٣] ، كما أغاروا على لبى قرية لبني جشم والرجوب ماء لهم أيضاً[٩٤] وكذلك الكحيل والبشر ، حيث تمكن الاخطل أن ينجو من هذه المذبحة واستغاث بعبد الملك بن مروان[٩٥] .

وتصدت تغلب لهم وأغارت على قرى القيسية فهاجمت البليخ وبها عمير بن الحباب والقيسية[٩٦] ولم تحقق تغلب نصراً حاسماً فجمعت حاضرتها وباديتها وصاروا إلى الحشاك وهو نهر يأخذ من الهرماس ووقع القتل ببني سليم وغني خاصة وقتل من قيس الكثير منهم عمير بن الجباب[٩٧] بن جعدة السلمي .

ومن غير المستبعد أن يكون الامويون وأولهم معاوية بن أبي سفيان مشجعين استيطان القبائل العربية في الجزيرة ، فهذه العملية تفيدهم من نواح عديدة أولها توطن قسم كبير من البدو مما يضفي استقراراً نسبياً ، أضف إلى ذلك أنهم يصنعون أمام تغلب النصرانية آنذاك والمتاخمة للحدود مع البيزنطيين قوة أخرى تحد من مساومتها بين الطرفين البيزنطي والإسلامي .

وزاد معاوية هذا التناقض بإضافة قبيلة يمانية بين تجمعين عدنانيين وهي بنو الأرقم من كندة وهم كوفيون عثمانيون غادروها مع نسائهم وذراريهم عند قدوم علي بن أبي طالب ونيل أصحابه من عثمان لأنهم لا يقيمون ببلاد يشتم بها الخليفة عثمان ، فعاملهم معاوية رغم سروره بهم معاملة كل من يأتيه من العراق ، إذ يخشى أن يفسد عليه أهل الشام فينزله في الجزيرة فأنزلهم بنصيبين أولاً ومنحهم القطائع ثم نقلهم إلى الرها[٩٨] . ومهما يكن فإن غالبية سكان الجزيرة من ربيعة ، منازلهم منتشرة بين مدنها وقراها لهم الغلبة في شرقي الخابور ، وحين عين الرشيد روح بن صالح الهمداني على صدقات بني تغلب فسار حتى بلغ النجدية من قرى سنجار كمن له فرسان تغلب وقتلوه عام ١٧١هـ[٩٩] . كما دخلت ربيعة ضمن حركة الخوارج وثار منهم الوليد بن

طريف الشاري عام ١٧٩هـ من بني حيي بن عمرو بن قدوكس - يقال لهم اضراس الكلاب - من بني تغلب ، خاض الجزيرة من شرق دجلة حتى وصل إلى نصيبين والخابور قبل أن يقتل وترثيه أخته :

ايا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنى وسيوف [١٠٠]

إضافة إلى العرب القادمين من الجزيرة العربية ، تدفقت من بادية بلاد الشام أو بادية السماوة قبائل بدوية باتجاه المعمورة مستفيدة من علاقاتها السياسية بالأمويين : ينتمي أكثر هؤلاء إلى قضاعة وكان أقربهم إلى المعمور قبيلة بهراء ، لأن الماء المنسوب إليها في البادية وهو مصيخ بهراء وقد اجتازه خالد بن الوليد أثناء قدومه من العراق بعد سوى (بالقرب من سبع بيادر حاليا إلى الشمال الشرقي من دمشق) [١٠١] مما يدل على أقرب منها إلى دمشق . وقد توسع هؤلاء شمالا نحو وادي العاصي ، حيث نزلوا فشاركوا أقاربهم عذرة من قضاعة في سكنى فامية المدينة الرومية ، وكذلك حماة حيث شاركوا فيها تنوخ التي كانت منذ قبل الإسلام تعيش في ظاهرها من ناحية الشرق ، وواصلت بعض جماعاتهم التوسع شمالاً حتى بلغت جبل الزاوية حيث مدينة البارة [١٠٢] التي يذكر ياقوت أن اسم الشهرة لها هي بارة الزاوية [١٠٣] .

والقبيلة التي لعبت دوراً أساسياً في حياة بلاد الشام والدولة الأموية وفاقت مكاسبها الأرضية القبائل الأخرى هي قبيلة كلب بن وبرة القضاعية . وكانت هذه كغيرها من القبائل القضاعية حليفة للبيزنطيين حتى انتهاء انتصار المسلمين ثم بدأت بالابتعاد عنهم . وسلك المسلمون منذ الفتح سياسة تسامح فلم يلحق بهم ضرر ونجد مثالاً على ذلك عند فتح خالد لقنسرين بعد معركة خاضها بظاهر في الحاضر ، حيث تنزل قبائل عربية غلب عليها اسم تنوخ وكانت نتيجتها حسب ما ذكره الطبري « فأما الروم فماتوا على دمه (قائدهم) حتى لم يبق منهم احد ، وأما أهل الحاضر فارسلو إلى خالد أنهم عرب ، وانهم إنما حُشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم » [١٠٤] . وقد تميزت كلب عن القبائل الأخرى بوجود صلة أقدم لها بالأمويين

السماق ، (جبال العلويين) وفي ذيله قرية كبيرة يقال لها ريحا »[١١٥] وبالمنطقة ذاتها يورد ابن العديم ذكراً لاقطاع رجل قضاعي جبلا بقوله : « وكان مروان بن الحكم أقطع لعكار القضاعي الجبل الذي يلي الساحل إلى حد أرض حمص فهو يسمى جبل ابن عكار »[١١٦] .

ونال الكلبيون أيضاً ما وراء هذا الجبل المنطقة المعروفة الآن باسم البقاع والمحصورة بين جبال لبنان الشرقية والغربية ، المعروفة ببقاع كلب[١١٧] وبجوار دمشق إلى جنوبها الغربي ، حيث قرية المزة التي يذكرها الجغرافيون باسم مزة كلب لأنها منحت كاقطاع لهم حسب الروايات الشائعة والتي تقول بأن أسامة بن زيد قائد الجيش الذي أعده الرسول (ﷺ) للإغارة على الشام والذي سيره أبو بكر الصديق لتحقيق هذه المهمة عاد إلى عشيرته من كلب فيما بعد ، ثم وفد على معاوية بن أبي سفيان فقال له اختر لك منزلاً فاختار المزة واقتطع عنها هو وعشيرته[١١٨] . وربما يكون كبيرها في هذه الفترة حميد بن شمله من بطن ربيعة بن عامر الاكبر ويقال له ابن رقاش الذي يذكره ابن الكلبي بالقول « صاحب المزة »[١١٩] .

ومما سبق نلاحظ أن القبائل العربية اكملت بالفتح انتشارها في بلاد الشام والجزيرة فعمت البادية والريف والمدن ، لكنها ظلت حتى العصر العباسي محتفظة بشخصيتها القبلية الناجمة عن كون القبيلة في الأصل وحدة اجتماعية أو وحدة عسكرية وعند نزولها بغرض الفتح أو الاقطاع كقبيلة أو عشيرة فانها تشكل وحدة حضرية في السكنى حتى في المدن أحياناً مما رسخ شعورها بشخصيتها لعدم رغبتها في الاندماج مع قبائل أخرى . ويمكن أن نرجع هذا إلى نظام العرب في استيطان المقاتلة فجعل لكل قبيلة خطتها التي تستقل بسكناها ، ثم جاءت المنافسة على نيل مكاسب الدولة أو المكاسب المادية من المراعي بين من بقوا على بداوتهم أو على مياه الانهار والقنوات في المناطق الحضرية كما حدث في الجزيرة الفراتية بين فرعي العدنانية ربيعة ومضر ، وفي البادية وحدودها بين قيسية الجزيرة كلاب وهلال وسليم وقضاعة ممثلة بقبيلة كلب بن وبرة ، وتأخر الصراع حول دمشق إلى أن فقدت مكانتها كعاصمة ليشتعل بين القرى المجاورة لها حيث تداخلت مساكن القيسية واليمانية .

لكن هذا الجانب المظلم يجب ألايحجب جانباً حضارياً مضيئا ، فقد عم الإسلام بسرعة قبائل الشام النازلة بها قبل الفتح وأصبح العنصر العربي مهيمناً كما يلاحظ مما سبق أن القبائل العربية انتشرت في كل مناطق بلاد الشام والجزيرة حتى لم يعد بالامكان وجود منطقة خالية منهم مما وضع الأساس لتعريبها الكامل . كما أن قسما من بدو العرب استقروا على الأرض حتى انقسمت القبيلة الواحدة إلى أهل وبر وأهل مدر ، وفي الوقت نفسه عمرت مساحات من الأرض كانت مواتا في السابق بسبب الحروب بين فارس والروم وهجمات البدو على الحاضرة ، ولعب الاقطاع دوره في هذا المجال مما ساعد على النهوض الاقتصادي .

الهوامش

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٨٤ - ٨٦ . وانظر نبيه عاقل ، تاريخ العرب القديم ، ١٨ - ١٩ . شكري فيصل ، المجتمعات الإسلامية ، ١ - ٢ .

(٢) رنيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الإسلام ص ٣ - ٤ ، انظر احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ٥٩ .

(٣) يرجع وجود العرب في اطراف الشام إلى أوائل الألف الأول قبل الميلاد ، الدوري ، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام . ص ٢٥ المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، ١٩٧٤ .

(٤) تاريخ دمشق ، تحقيق المنجد ، ٤١٣/١ ، ابن العديم ، بغية ، ٥٣٣/١ .

فليب حتى ، سوريا ولبنان ، ٤١٦/١ - ٤٢٥ . جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ، ٥٧/٣ .

باشميل ، العرب في الشام قبل الإسلام ، ٢٤ ، محمد خريسات ، البلقاء ، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد ٢١-٢٢، ١٩٨٦ ، ص ٥٢ .

(٥) جواد علي ، المفصل ، ١٢٣/٣ ، فليب حتى ، تاريخ سوريا ، ٤٣٣/١ و ٤٥٢ ، باشميل ، ٧٣ .

(٦) جواد علي ، المفصل ، ٢٤٣/١ - ٢٤٤ ، ٥٨١/٢ ، احسان النص ، العصبية ، ١٣٦ - ١٤٢ .

(٧) ابن خلدون ٢٩٨/١ ، اليعقوبي ، ٢٠٦/١ ، باشميل ، العرب في الشام ، ١٤٩ .

(٨) البلاذري ، فتوح ، ١٩٨ ، قدامه ، الخراج ، ٣٠٣ .

(٩) ابن خلدون ، ٣٣٥/٢ ، اليعقوبي ، ٢٠٦/١-٢٠٧، الالوسي ، بلوغ الأرب ، ٣٥٤/٢. ابن حبيب ، المحبر،٣٠٧.

(١٠) المسعودي ، مروج ، ٢٠٩/٣ ، ابن الأثير ٥١٠/١ ، ابن العديم ، بغية ، ٥٦١/١ - ٥٦٣ ، الألوسي ، بلوغ

٢١٢/١ ، الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٤٥ . نبيه عاقل ، تاريخ العرب القديم ، ١٦٤ .

(١١) البلاذري ، فتوح ، ١٥٤ ، ابن الاثير ، ٤٠٩/٢ ، تاريخ دمشق ، المنجد ، ٤٥٨/١ ، الازدي ، فتوح الشام ، ٨٢ ، قدامة ، الخراج ، ٢٨٧ ، ياقوت ، معجم ، ٨٥/٢ . المراصد، ٥٩٩/٢ .

(١٢) الطبري ، ٤١٠/٣ ، المسعودي ، مروج ، ٤١٠/٣ .

(١٣) الطبري ، ٤٨٧/٣ ، ابن الاثير ، ٤٠٢/٢ .

(١٤) الطبري ، ٥٧٠/٣ .

(١٥) المبرد ، نسب عدنان وقحطان ، ٣١ . صالح الحمارنة ، دور جذام في الفتوح الإسلامية ، ١٤٩ - ١٥٠ .ابن حزم ، الجمهرة ، ٤٨٥ .

(١٦) ابن خلدون ، ٣٠٧/٢ ، ابن حبيب ، المحبر ، ٣٨٣ ، ابن حزم ، الجمهرة ، ١٥١ ، ٤٢١ ،

٤٢٤ ، الحميري ، الروض ، ١٥٦ ، ٤٢٨ ، المراصد ، ٢٣٧/١ ، البكري ، معجم ، ١٢٨٤/٤ .

(١٧) أحمد بدر ، الاقطاع في بلاد الشام خلال القرنين الأول والثاني للهجرة ، محاضر المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، ص ٣٧٠ .
وانظر المقريزي ، ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري ، ٥٦ - ٦٤ .

(١٨) سيرة ابن هشام ، ٥٩١/٢ ، ابن خلدون ، ٣٠٧/٢ ، ياقوت ، معجم ، ١٥٣/٥ .

(١٩) ابن خلدون ، ٣٠٨/٢ ، احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام ، ١٤٤ ، احسان النص ، العصبية ، ١٣٨ ، CL. Cahen, E, I2. Art. Amila. Vol. E. p.430.

(٢٠) الهمداني ، كتاب الاكليل - تحقيق الأكوع ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ١٨٠/١ - ١٩٠ ، ياقوت ، المقتضب ، ٣٠٨ . ابن حزم ، الجمهرة ، ٤٤٠ - الهمداني ، عجالة المبتدى ، ١٠٥ .

(٢١) الطبري ، ٣٧/٣ .M.J.Kister, E.I2, Art. Kudaca. Vol V,P 315-318.

(٢٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٤٣ ، ياقوت معجم ، ٢٤٥/٣ ، المراصد ، ٧٣٤/٢١.

(٢٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، تحقيق احسان عباس ، ١٤٩ .
A.A. Dixon, E. I2, Art. Kalb Bin Wabara, Vol, V, pp.492-494

(٢٤) البلاذري ، فتوح ، ١٥٨ . نهر الذهب في تاريخ حلب ، ١٨/٣ . الطبري ، ٤٠٦/٥ .

(٢٥) الازدي ، فتوح ، ٧٦ ، البلاذري ، فتوح ، ١٥٤ . ابن الاثير ، ٤٩/٢ . قدامة ، الخراج، ٢٨٧ .

(٢٦) ابن خلدون ، ٣٠٨/٢ ، البلاذري ، فتوح ، ١٥٢ ، الطبري ، ١٠٨/٣ ، الحميري ، الروض ، ٢٤٥ ، أبو يوسف ، الخراج ، دار الاصلاح مصر ، ٢٩٣ . قدامة ، الخراج ، ٢٨٦ .

(٢٧) كندمان ، الموسوعة الإسلامية (الترجمة العربية) ، ٢٢٤ - ٢٣٧ . سعد زغلول ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢٦٣-٢٦٤ .

(٢٨) W.Kaskel, Art. E. I2, Art. Bakar. Bin Wail, Vol. I, P.963-965.

(٢٩) الازدي ، الفتوح ، ٢١٨ ، وانظر ابن اعثم ، الفتوح ١٩٨ ، الواقدي فتوح الشام ، ٣/١-٨ . تاريخ دمشق ، المنجد ٥٣٥/١ .

(٣٠) ابن حزم ، جمهرة ، ٤٨٤ . G. Strenziok, E.I2, Art "AZD" , Vol, I,p.311

(٣١) M.J.- Kister. E.I2. Art, "Kudaca, Vol V, pp.316-318.

(٣٢) ابن سعد ، الطبقات الكبري ، ٤١٦/٧ . البلاذري ، الفتوح ، ١٧٦ . الهمداني ، عجالة المبتدى ، ٥٨ .

(٣٣) ابن سعد ، الطبقات ، ١٠٦/٣ . الطبري ، ٣٩٦/٣ ، ٤٣٨ . الهمداني ، عجالة المبتدى، ٧٤ .

(٣٤) الطبري ، ٤١١/٣ و ٣٩٦ - ٣٩٧ . الازدي ، فتوح ، ٨١ .

(٣٥) أحمد بدر ، الاقطاع في بلاد الشام ، ٣٧١ - ٣٨٢ .

(٣٦) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، المنجد ، ٥٩٧/١ . وانظر تاريخ داريا ، ٩٦ .

(٣٧) اليعقوبي البلدان ، ٣٢٦ .

(٣٨) ابن عساكر ، تحقيق شكري فيصل ، ٣٩٦ - ٤٢٠ .

(٣٩) الآبار جمع بئر قرية من غوطة دمشق فيها عدة قرى ، ياقوت ، معجم ، ٥١٩/١ ، المراصد، ٢٢٦/١ .

(٤٠) قرية على باب دمشق من جهة الفراديس ، معجم البلدان ٢٨٠/١ . المراصد ، ١٣١/١ . الهمداني ، عجالة ، ٢٠ .

(٤١) معجم البلدان ، ٥١٩/١ . المراصد ، ٢٣٧/١ .

(٤٢) من قرى الغوطة ويقال لها جرش ، معجم البلدان ، ٢٣٢/٢ . المراصد ٣٨٧/١ .

(٤٣) محله بظاهر دمشق على القنوات . معجم البلدان ٣١٧/٢ . والمراصد ، ٤٢٨/١ .

(٤٤) قرية على باب دمشق دون المزة ، معجم البلدان ، ٤٢٩/٣ ، الحميري ، الروض المعطار ، ٣٦٠ ، المراصد ، ٨٥٤/٢ .

(٤٥) معجم البلدان ٤٣١/٢ . المراصد ، ٥٠٩/٢ ، الطبري ، ٢٤١/٧ . تاريخ داريا ، ٥٣ .

(٤٦) الطبري ، ٢٤٢/٣ . الهمداني ، عجالة ، ١١٠ .

(٤٧) ابن حزم ، الجمهرة ، ٤٣٢ . تاريخ داريا ، ٩٠ . معجم البلدان ٥٢٢/١ . البكري ، معجم ، ٢٩٠/١ . المراصد ٢٣٨/١ ، ٢٦٦/٣ . القزويني ، آثار البلاد ، ٢٦٣ .

(٤٨) الكلبي ، نسب معدو اليمن الكبير ، ٥١٠/٢ . معجم البلدان ٢٢٥/٢ ، ياقوت المشترك، ١٣٢ ، ٣٢٠. معجم البلدان ، ١٧٧/٤ . المراصد ، ٩٧٧/٢ .

(٤٩) تهذيب تاريخ دمشق ، ٣٨٤/٤ .

(٥٠) معجم البلدان ، ٢٤٣/٢ . المراصد ، ٢٩٣/١ .

(٥١) ابن عساكر ، تحقيق شكري فيصل ، ٤٠١ - ٤٠٤ . معجم البلدان ، ٤٧٦/١ . البكري، ٥١١/٢ .

(٥٢) معجم البلدان ، ٢٠/٣ . المراصد ، ٥٩٨/٢ .

(٥٣) معجم البلدان ، ٢٩٠/٢ . المراصد ، ٤١٨/١ .

(٥٤) البلاذري فتوح ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٧٩ ، قدامة ، الخراج ، ٩٠ ، ابن الاثير ، ٤٩٢/٢ . ابن عساكر ، المنجد ٥١٧/١ ، ٥٢٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ .

(٥٥) الطبري ، ٢٤١/٧ . ابن عساكر ، المنجد ٧٧/٢ ، ١٤١ .

(٥٦) اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٤ . الميداني ، مجمع الأمثال ، ١٧/٢ .

(٥٧) اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٧ . ابن حزم ، الجمهرة ، ٣٩٧ - ٣٩٨ . معجم البلدان ، ١٧/٤ . الهمداني ، عجالة ، ١٧.

(٥٨) ابن عساكر ، تحقيق شكري فيصل ، ٤٠٤ ، الحميري ، ٦٠٢/٢ . المراصد ، ٥٧٦/٢ .

(٥٩) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٢٤٢/١ .

(٦٠) الزبيري ، نسب قريش ، ١٧٠ - ٢٤٦ . ابن شبة ، تاريخ المدينة ، ١٣٠ .

(٦١) ابو عساكر ، تهذيب ، ١٨٤/٣ ، البلاذري ، فتوح ، ١٥١ ، فالح حسين ، الحياة الزراعية في بلاد الشام ، ٥٦.

F.M.G. Donner. The Early Islamic Conquests Princeton, University Press (1981) p.105.

(٦٢) البلاذري ، فتوح ، ١٦٨ . ياقوت ، معجم ، ٣٢٨/١ ، ٣٢٩ .

(٦٣) ابن العديم ، بغية ، ١٤١/١ ، ٥٦١ . اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٤ - ٣٢٥ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٤٧٠/٤ ، ٢٧٠/١ ، ٥/٥ .
(٦٤) اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٤ - ٣٢٥ . ياقوت المعجم ، ٤٧٠/٤ . وجلة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية من حصون الروم جلو عنها عند فتح حمص شحنها معاوية بالرجال، معجم البلدان ، ١٠٥/٢ .
(٦٥) الهمداني ، صفة ، ٢٤٣ ، ٣٤٥ .
CL, Cahen, E.I2. Art, Amila., Vol. I. p.436.
(٦٦) البلاذري ، فتوح ، ٢٠٥ . قدامة ، الخراج ، ٣٠٥ . ابن العديم ، بغية ، ١٢٠/١ . نجدة خماس ، الشام في صدر الإسلام ، ٨١ .
(٦٧) ياقوت ، المقتضب ، ٢٥٥ ، ابن حزم ، الجمهرة ، ٤٨١ .
W.Cascel. E. I2, Art. Akk., Vol. I p.340-341.
(٦٨) اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٦ . الزبيري ، نسب قريش ، ٤٤٥ - ٤٤٦ . ابن حزم ، جمهرة، ١٧٧ . ياقوت ، معجم ، ٣٦٩/٣ .
(٦٩) اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٦ . انساب الاشراف ، ٣٣٨/٤ ، ابن عساكر ، تحقيق شكري فيصل ، ٤١٢ ، ياقوت ، معجم ، ٤٢٧/٢ . اللحميري ، الروض ، ٧٤ .
(٧٠) البلاذري ، فتوح ، ٣٥٢ . ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٢٧/٢ ، الهمداني ، صفة ، ٢٤٣. قدامة ، الخراج ، ٣٠٣ .
ابن العديم ، بغية ١٢٥/١ ، ابي الفداء ، تقويم البلدان ، ٢٣٢ . ويعرف بحيار بني عبس وكان القعقاع اخوال الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان . ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ٣٨/٢ .
(٧١) ابن العديم ، بغية ٥٤٠/١ .
(٧٢) ابن عساكر ، تهذيب ، ٣٠٣/٥ .
(٧٣) ابن عساكر ، تهذيب ، ٣٠٣/٥ . ابن الاثير ، ١٢٩/٦ .
Wlaskel , E. I2, Art. Amir. B. Sacsa, Vol, I. p.441-442.
(٧٤) ابن عساكر ، تحقيق شكري فيصل ، ٣٩٨ . وانظر الطبري ، ٤٢٥/٨ - ٤٢٧ . سعد زغلول ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ٢٦٧ . المبرد ، نسب عدنان وقحطان ، ٢٣ .
(٧٥) ابن العديم ، بغية الطلب ، ٥٣٦/١ .
(٧٦) ابن العديم زبدة الحلب ، ٥٠/١ . ياقوت معجم البلدان ، ٣٧٠/٢ ، الطبري ، ٣٢٤/٧. ابن العديم ، بغية ، ٦٣/١ - ٦٤ .
(٧٧) ياقوت ، البلدان ، ٤٤٧/١ - ٤٤٨ . وينسب بطنان حبيب إلى حبيب بن سلمة الفهري ، وقد وجهه أبو عبيدة من حلب ففتح حصنا بها فنسب إليه ، البلاذري ، فتوح ، ٢٠٣ .
(٧٨) الهمداني صفة جزيرة العرب ، ٢٤٦ .
(٧٩) ابن العديم بغية الطلب ، ٥٥٠/١ . ابن شداد ، ١/ق٢ ، ٣٦ . الغزي ، نهر الذهب ٣٢٦/١ .
(٨٠) ابن العديم ، بغية الطلب ، ١١٥/١ ، ٥٣٤ . الهمداني ، عجالة ، ١٢ .
(٨١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٢٩٨/٥ .

(٨٢) ابن حزم ، الجمهرة ، ٢٩١ . الهمداني ، عجالة ، ٩٣ .
(٨٣) البلاذري فتوح ، ١٥٨ . ابن العديم ، بغية ، ٥٥٤/١ . قدامة ، الخراج ، ٣٠٣ . الهمداني ، عجالة ، ١٢٥ .
(٨٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ٢٤٦ .
(٨٥) البلاذري ، انساب ، ٣١٤/٥ . ابن حزم الجمهرة ، ٣٠٤ . ياقوت ، المعجم ، ١٤/٣ .
(٨٦) الهمداني ، صفة ، ٢٤٦ ، قدامة ، الخراج ، ٣١٥ . ياقوت ، المعجم ، ٤٦٨/٤ .
(٨٧) الهمداني ، صفة ، ٢٤٦ - ٢٤٧ . الادريسي نزهة المشتاق ، ٦٦١ ، ياقوت ، المعجم ، ٣٣١/٣ .
(٨٨) البلاذري ، أنساب ، ٣٠٨/٥ ، الحميري ، الروض ، ٤٤٥ . فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ١٩٨ - ١٩٩ .
(٨٩) البلاذري ، انساب ، ٣١٤/٥ - ٣١٦ . ابن الاثير ، ٣٠٩/٤ - ٣١٠ .
(٩٠) البلاذري ، انساب ، ٣١٧/٥ . ابن الاثير ٣١١/٤ .
(٩١) ابن الاثير ، ٣١٣/٤ .
(٩٢) البلاذري ، انساب ، ٣٢١/٥ . ابن الاثير ، ٣١٣/٤ .
(٩٣) البلاذري ، انساب ، ٣٢٢/٥ . ابن الاثير ، ٣١٤/٤ .
(٩٤) البلاذري ، انساب ٣٢٩/٥ ، ابن الاثير ، ٣١٨/٤ ، ٣٢٠ .
(٩٥) نقائض جرير والفرزدق ، ٤٠١/١ ، ابن العديم ، بغية ، ٤٣١/١ . ياقوت ، المعجم ، ٤٢٦/١ .
(٩٦) البلاذري ، الانساب ، ٣٢٢/٥ ، ابن الاثير ٤١٥/٤ .
(٩٧) البلاذري ، انساب ، ٣٢٣/٥ - ٣٢٥ . ابن حزم ، الجمهرة ، ٢٦٤ .
(٩٨) ابن الكلبي ، انساب ، ١٤٩/١ - ١٥٠ . ابن حزم ، الجمهرة ، ٤٢٦ . البكري ، معجم ، ٦٧٨/٢ .
(٩٩) الازدي ، تاريخ الموصل ، ٦٨ . ابن الاثير ، ٦ ، ٣٨ .
(١٠٠) تاريخ الموصل ، ٢٨٢ ، وفيات الاعيان ، ٣١/٦ - ٣٢ . الطبري ، ٢٦١/٨ ، ابن حزم ، جمهرة ، ٣٠٦ - ٣٠٧ .
ابن الاثير ١٤١/٦ - ١٤٣ .
(١٠١) الطبري ، ٤١٠/٣ . فليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان ، ٩/٢ .
(١٠٢) اليعقوبي ، البلدان ، ٣٢٤ . الهمداني ، صفة ، ٢٤٦ ، ابن العديم ، ١٤٣/١ . ياقوت، معجم البلدان ، ٢٣٣/٤.
(١٠٣) ياقوت ، المعجم ، ٣٢٠/١ .
(١٠٤) الطبري ، ٦٠١/٣ .
(١٠٥) ابن الكلبي ، ٥٦١/٢ - ٥٦٨ ، البلاذري ، الانساب ، تحقيق احسان عباس ، ٤٩٦ - ٤٩٧ .
(١٠٦) الهمداني ، صفة ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ياقوت ، معجم ، ٢٤٥/٣ . الحميري ، الروض ، ٤٥٩ ، المراصد ، ١٠٧٣/٣ ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١٥٦/١ . فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ١٧٧ . الثقفي ، الغارات ، ٤٢٦ .

(١٠٧) ابن مزاحم ، صفين ، ٢٠٦ - ٢٠٧ . تاريخ ابن الخياط ، ١٩٥ - ١٩٦ ، نهج البلاغة ، ٢٨/٤ ، ٢٩ . الثقفي ، الغارات ، ٤٦٤ .

(١٠٨) ابن العديم ، بقية ، ٥٦٢/١ ، الهمداني ، صفة ، ٢٤٥ .

(١٠٩) البلاذري ، الانساب ، ٣٠٨/٥ ، الطبري ، ٢٤٣/٧ ، تاريخ المنبجي ، ٩٩ .

(١١٠) ابن الكلبي ، ٥٥٩/٢ ، ابن حزم ، الجمهرة ، ٤٥٦ ، ٤٧٩ .

(١١١) ابن العديم ، بغية ، ٥٦١/١ .

(١١٢) ابن العديم ، بقية ١١٥/١ ، ويذكر الهمداني منازل كلب في تدمر وسلمية والعاصمية والجزيرة وحمص وكفر طاب ويشاطرهم كنانة . الهمداني ، صفة ، ٢٤٦ . وانظر ياقوت ، المعجم ، ٣٩٠/٢ و ٤٩٣ ، ٢٤٠/٣ ، ٦٧/٤ ، ١٤٧.

(١١٣) ابن الكلبي ، ٦٠٩/٢ .

(١١٤) ابن العديم ، بغية ، ٥٦١/١ ، والضمير قربه وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة ، انظر ياقوت ، المعجم ، ٤٦٣/٣ .

(١١٥) ابن العديم ، بغية ، ٤٢٦/١ - ياقوت ، المعجم ، ١٠٢/٢ ، ١١١/٣ . الغزي ، نهر الذهب ، ٣٦/١ .

(١١٦) ابن العديم ٥٦١/١ - ٥٦٢ . ابي الغداء ، تقويم البلدان ، ٦٨ .

(١١٧) المراصد ، ٢١١/١ ، الزمخشري ، الامكنة ، ٥٧ .

(١١٨) ابن عساكر تهذيب ٢١٨/٣ ، ياقوت معجم الادباء ٢٤٧/١ - ٢٤٨ . القزويني ، اثار البلاد ، ٢٦٣ ، المراصد ١٢٦٦/٣ .

(١١٩) ابن الكلبي ، انساب ٦١٩/٢ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن الاثير . علي بن أبي محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، (ت٦٣٠هـ)
  (الكامل في التاريخ) ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- الادريسي . محمد بن محمد بن عبد الله الحموي ، (ت٤٩٣هـ)
  (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- الازدي . محمد بن عبد الله الازدي ، (ت١٩٦هـ)
  (تاريخ فتوح الشام) ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- الازدي . يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم ،
  (تاريخ الموصل) ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- ابن اعثم . أحمد بن اعثم الكوفي ،
  (الفتوح) ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- الالوسي ، محمود شكري الالوسي البغدادي ،
  (بلوغ الارب في معرفة احوال العرب) ، بيروت .
- البغدادي . صيقي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ،
  (مراصد الإصلاح على اسماء الأمكنة والبقاع) ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- البكري ، عبد الله بن عبد العزيز ، (ت ٤٨٧هـ) ،
  (معجم ما استعجم من اسماء البلاد - المواضع) ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- البلاذري . أحمد بن يحيى بن جابر ، (ت٢٧٩هـ)
  (فتوح البلدان) ، تحقيق عبد الله بن انيس الطباع ، بيروت ، ١٩٨٧ .
  (انساب الاشراف) تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٩ .
  (انساب الاشراف) الجزء الرابع ، القسم الأول ، مكتبة المثني ، بغداد .
  (انساب الاشراف) الجزء الخامس ، مكتبة المثني ، بغداد .
- الثقفي . إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي ،
  (الغارات) تحقيق السيد جلال الدين - تهران ، ١٣٩٥
- الجاحظ ، عمرو بن بحر بن محبوب ، (ت٢٢٥هـ)
  (البيان والتبيين) ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ابن حبيب . محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي ، (ت ٢٤٥) ،
  (المحبر) ، دار الآفاق ، بيروت .
- ابن أبي الحديد ، عبد الحميد بن هبة الله المدائني ، (ت ٦٥٦ هـ)
  (نهج البلاغة) ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- الحميري . علي بن عبد المنعم ، (ت٩٠٠هـ)
  (الروض المعطار في خبر الاقطار) ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- ابن خلدون . عبد الرحمن بن خلدون . (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) ،

(ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر) ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- ابن خلكان ، أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٠٨ - ٦٨١هـ) ،
(وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان) ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- الخولاني . عبد الجبار الخولاني ، (ت ٣٦٥هـ)
(تاريخ داريا ومن نزلها من الصحابة والتابعين) ، دمشق ، ١٩٨٤ .
- ابن الخياط . خليفة بن الخياط العصفري ، (ت ٢٤٠ هـ) ،
(تاريخ ابن الخياط) ، النجف ، ١٩٦٧ .
- الزبيري . المصعب بن عبد الله بن المصعب ، (١٥٦ - ٢٣٦هـ)
(نسب قريش) ، دار المعارف ، مصر .
- الزمخشري . محمود بن عمر ،
(الامكنة والمياه والجبال) ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، بغداد .
- ابن سعده محمد بن سعده ، (ت ٢٣٠هـ) ،
(الطبقات الكبرى) ، دار صادر ، بيروت .

- ابن شبة . عمر بن شبة النمري البصري ، (ت ٢٦٢هـ) ،
(تاريخ المدينة المنورة) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت .
- ابن شداد . محمد بن علي بن إبراهيم بن إبراهيم ، (ت٦٨٤هـ)
(الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة) ، دمشق ، ١٩٩١ .
- الطبري ، محمد بن جرير ، (٢٢٤ - ٣١٠ هـ)
(تاريخ الامم والملوك) ، دار المعارف ، مصر .
- ابن العديم . كمال الدين عمر بن أحمد بن ابي جرادة ، (٥٨٨ - ٦٦٠هـ)
(بغية الطلب في تاريخ حلب) ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٨ .
- ابن عساكر - علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي ، (ت٥٧١هـ)
(تاريخ مدينة دمشق) المجلدة الأولى ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٥١ .
(تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق شكري فيصل ، دمشق ، ١٩٧٧ .
(تهذيب تاريخ دمشق الكبير) ، تهذيب عبد القادر بدوان ، دمشق ، ١٩٧٩ .
- أبو الفدا . إسماعيل بن علي بن جمال الدين محمود ، (ت ٧٣٢هـ)
(تقويم البلدان) ، باريس ، ١٨٤٠ .
- قدامة . قدامة بن جعفر ، (ت ٣٢٩ هـ)
(الخراج وصناعة الكتابة) تحقيق حسين الزبيدي ، بغداد ، ١٩٨١ .
- القزويني . زكريا بن محمد بن محمود ، (ت ٦٨٢هـ)
(آثار البلاد وأخبار العباد) ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- ابن الكلبي . هشام بن محمد بن السايب ، (ت ٢٠٤هـ) ،
(نسب معد واليمن الكبير) ، بيروت ، ١٩٨٨ .
- المبرد ، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) ،

(نسب عدنان وقحطان) ، قطر ، ١٩٨٤ .
- المثنى . معمر بن المثنى التيمي البصري ، (ت ٢٠٩ هـ) ،
(نقائض جرير والفرزدق) ، ليدن ، ١٩٠٥ .
- المسعودي . علي بن الحسين بن علي ، (ت ٣٤٦هـ) ،
(مروج الذهب ومعادن الجوهر) ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- المنبجي . اغابيوس بن قسطنطين ، (من القرن الرابع الهجري)
(المنتخب من تاريخ المنبجي) ، تحقيق عمر عبد السلام تذمري ، لبنان ، ١٩٨٦.
- الميداني . أحمد بن محمد بن إبراهيم ،
(مجمع الامثال) تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، ١٩٧٧ ،
- ابن هشام ، عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣هـ) ،
(السيرة النبوية) ، مؤسسة دار العلوم القرآنية ، القاهرة .
- الهمداني . الحسن بن أحمد بن يعقوب ، (ت٣٦٠هـ)
(صفة جزيرة العرب) ، تحقيق الاكوع ، بيروت .
(الاكليل) ، تحقيق الاكوع ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- الهمداني ، محمد بن أبي عثمان الحازمي ، (ت٥٨٤ هـ)
(عجالة المبتدى وفضالة المنتهى في النسب - طبعة ثانية ، مصر ، ١٩٧٣)
- الواقدي . محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ) ،
(فتوح الشام) ، دار الجبل ، بيروت .
- ياقوت . عبد الله الحموي (٥٧٥ - ٦٢٦هـ) .
(معجم البلدان) ، دار صادر ، بيروت .
(المقتضب من كتاب جمهرة النسب) ، بيروت ، ١٩٨٧ .
(المشترك وضعا والمفترق صقعا) ، جوتن ، ١٨٤٦ .
- اليعقوبي . أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي ، (ت٢٨٤هـ) ،
(تاريخ اليعقوبي) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ .
(البلدان) ، ليدن ، ١٨٩١ .
- أبو يوسف . يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس . (١١٣ - ١٨٢ هـ) ،
(الخراج) ، تحقيق محمد البنا ، مصر ، ١٩٨١ .

ثانياً : المراجع العربية - المترجمة :

- احسان عباس ، تاريخ بلاد الشام من قبل الاسلام حتى نهاية العصر الاموي ، (٦٠٠ - ٦٦١) ، عمان ، ١٩٩٠ .
- احسان النص ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- أحمد بدر ، الاقطاع في بلاد الشام خلال القرنين الأول والثاني للهجرة ، مؤتمر بلاد الشام ،

عمان ، ١٩٨٩ ٠
- اطلس سورية والعالم ، مؤسسة الصياغ ، الطبقة الثانية ، بيروت ٠
- باشميل محمد أحمد ، العرب في الشام قبل الإسلام ، دار الفكر ، ١٩٧٣ ٠
- بروكلمان كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٤٨ ٠
- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، ١٩٧٦ ٠
- الدوري عبد العزيز ، العرب والارض في بلاد الشام في صدر الإسلام ، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، ١٩٧٤ ٠
- دائرة المعارف الإسلامية - ترجمة أحمد السنتناوي ، إبراهيم خورشيد ، دار الفكر ، بيروت ٠
- رينيه ديسو ٠ العرب في سوريا قبل الإسلام ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٩ ٠
- سعد زغلول ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، ١٩٧٦ ٠
- شكري فيصل ، المجتمعات الإسلامية ، بيروت ، ١٩٨١ ٠
- عطوان حسين ، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام ، بيروت ، ١٩٨٧ ٠
- صالح حمارنه ، دور جذام في الفتوح الإسلامية ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، العدد ١٩ - ٢٠ ، ١٩٨٥ ٠
- الغزي كامل البالي الحلبي ٠ نهر الذهب في تاريخ حلب ، حلب ، ١٩٩١ ٠
- فالح حسين ، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الاموي ، عمان ، ١٩٧٨ ٠
- فلهوزن يوليوس ٠ تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الاموية ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ٠
- فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، بيروت ، ١٩٥٨ ٠
  تاريخ العرب المطول ، بيروت ، ١٩٥٠ ٠
- محمد خريات ، القبائل العربية منذ الفتح في البلقاء ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق، العدد ٢١ - ٢٢ ، ١٩٨٦ ٠
- نبيه عاقل ، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، بيروت ، ١٩٨٥ ٠
- نجدة خماش ، الشام في صدر الإسلام ، دمشق ، ١٩٨٧ ٠

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

CL. Cahen, E.I2. Art. Amila. Vol. I. P.430 .
M.J.Kister. E.I2. Art, Kudaca. Vol. V.P.315-318.
A.A. Dixon, E.I2. Art. Kalb·Bin Wabara, Vol. V. pp. 492-494.
W.Kasked, Art. E.I2. Art. Bakar Bin Wail, Vol. I. p.963-965.
G. Strenxiok, E.I2. Art "AZD" Vol. 1. p.311.
F.M.C. Donner. The Early Islamic Conqueston, University Press (1981) p.105.
W.Cascel. E.I2. Art. Akk. Vol. 1. p.340-341.
Wlkased. E.I2. Art. Amir. B. (Sacsca) . Vol. 1.p.441-442.

المرض في المجتمع الأردني
بين المنظور الشعبي والمنظور المهني

د. سالم خضر محمد ساري

أستاذ الإجتماع المساعد - جامعة قطر

مقدمــة :

يمرض الناس في جميع المجتمعات ، بعض الوقت أو معظمه ، ويحيط الناس المرضى أمور صحتهم / أمراضهم ، عادة ، باعتقادات معينة . كما يقومون بتعريفات وتفسيرات ذاتية واجتماعية بشأنها . ثم يقررون ، بناء على مدلولات تقييماتهم للأعراض المرضية ، الذهاب إلى الطبيب ، عاجلا أو آجلا ، أو يختارون العيش بها والتعايش معها .

ويمكن ملاحظة أن معظم الناس مرضى - بمعنى أو بآخر . ولكن فئة قليلة منهم فقط هي التي يرى الأطباء أمراضها . وفئة مازالت أقل ، هي التي تذهب بأمراضها طواعية إلى الأطباء والمؤسسات الطبية للتشخيص والعلاج .

كما يمكن ، بملاحظة معمقة ، تقدير أن حجم المرض الفعلي ، في أي مجتمع ، أكبر بكثير مما قد تُنبِئُ به سجلات الأطباء والممارسين للمهنة . إذ أن ما يراه الأطباء في عياداتهم لا يمثل ، بالمقاييس العملية ، إلا عيِّنات فقط ، لا تمثل ، رغم ضخامة حجمها الظاهري ، إلا قمة جبل جليد عائم من الأمراض والمرضى الموجودين فعلا في أي مجتمع .

وهنا بالضبط تكمن مشكلة قصور الإحصاءات الطبية ، كغيرها من الإحصاءات الرسمية (الجنائية ، مثلا) . إذ تظل النسبة الأكبر من الأمراض في المجتمع ، كما كانت دائما ، أرقاما سوداء Dark Figures لا يراها الأطباء ، لسبب أو لآخر ، ولا

تظهر طبعاً في الإحصاءات الرسمية ·

وتدل دراسات المرض المسكوت عنه أو غير المعلن Unreported Disease في مجتمعات كثيرة (حتى المتقدمة منها في المعرفة والخدمات الصحية) أن المرأة / الرجل العادي الذي يقرر الذهاب إلى الطبيب لعلاج مرض واحد محدد يكون قد ترك ، عمليا ، عدة أمراض أخرى دون تشخيص أو علاج ·

وليس الأمر هنا أن الأمراض الكامنة Latent التي يحس بها أصحابها " فتنة نائمة " ليس من المفيد ، لأصحابها أو للأطباء والمجتمع ، ايقاظها من مكامنها · فبقاؤها نائمة لا يعني بأية حال ، عدم وجودها وتأثيرها · وإنما هي ، بالأحرى ، أمراض مؤثرة يعاني منها أصحابها فعلا كما لو كانت بارزة ظاهرة Manifest وربما بدرجة ووقع أشد ايلاما وعمقا · وقد تؤول إلى نتائج ونهايات أكثر تعقيدا وخطورة · أما كمونها ، لفترات متفاوتة ، فميزة كبرى تبقيها ضمن الضوابط الذاتية لأصحابها ، وتمكنهم من التعامل معها بطرقهم الخاصة ·

وربما يتساوى الأطباء وباحثو العلوم الاجتماعية والإنسانية في وعيهم بحجم وخطورة هذه المشكلة – نظريا ومنهجيا · (Tuckett, 1976)·

فتبدو مهمات البحث الاجتماعي الطبي في هذا المجال متعددة :

١- البحث ، مثلا ، عن الأسباب غير الطبية المحضة ، (النفسية الاجتماعية ، والثقافية الاقتصادية السياسية · ·) التي تدعو الأفراد لطلب المساعدة الطبية والتعجيل فيها ، وتلك التي تمنعهم من طلبها أو تأجيلها ، رغم حاجتهم إليها ·

٢- تحديد الحواجز والمعوقات والمآزق التي تحول بين الأفراد وبين تطوير قدراتهم الجسمية وامكانياتهم الفكرية وأداء نشاطاتهم اليومية بثقة كفيلة بتحقيق احساسهم الذاتي بالصحة والمعافاة Well - Being · والوقوف على أنماط اعتقاداتهم واطرهم التفسيرية لأعراضهم المرضية خاصة تلك التي تعزز عندهم شعورهم "بالاختلاف" المرضي ·

٣- معرفة مواقف الناس المرضى أنفسهم وميولهم نحو الطب والأطباء ، الدواء

والمداوين ، وتوقعاتهم من العملية العلاجية الطبية المهنية والشعبية التقليدية معا .

وتتلخص هذه المهمات البحثية في توجيه باحثي علم الاجتماع الطبي نحو معرفة العوامل الذاتية والموضوعية المعقدة التي تؤثر في حسابات الأفراد ، في الثقافات المختلفة ، نحو التقييمات التي يتخذونها بشأن أمراضهم : تعريفا لها Definition اعترافا بها Recognition، واتخاذ قرار Decision بفعل شيء تجاهها .

الدراسات السابقة :

سارت الدراسات التقليدية لسلوك الصحة والمرض باتجاه تحديد العوامل والأسباب وراء تفاوت الاستجابات للناس المرضى ازاء أعراضهم المرضية ، والتباينات في اقبالهم على طلب الاستشارة / المساعدة الطبية .

وقد تركزت الدراسات المبكرة في هذا الميدان (مثلا : Rosenstock, 1966, Mechanic, 1962, 1968) بمداخلها الفردية Individualistic الخالصة ، على تحديد خصائص شخصية ، نفسية على الغالب، (متكررة حول مدى تعرض الفرد للمرض ، مدى استعداده النفسي للذهاب إلى الطبيب ، مدى قابليته للتأثر ، مدى تصوره لخطورة مرضه .. إلخ) باعتبارها نزعات ودوافع تقف وراء اختلاف الاتجاهات وردود الأفعال الفردية في طلب العلاج الطبي المؤسسي .

وإلى هذه الخصائص ، أضافت دراسات لاحقة (مثلا Strauss, 1969, Zola, 973) مداخل جمعية Collective ضيقة بالاهتمام بمتغيرات بيولوجية اجتماعية ثقافية متكررة (مثل العمر ، الجنس ، الحالة الاجتماعية ، الطبقة الاجتماعية ، المستوى التعليمي ، الأصل العرقي والأثني Ethnic ، مستويات الدعم الاجتماعي أو مستوى التسامح الثقافي مع الأعراض المرضية .. إلخ) باعتبارها عوامل مسؤولة عن انتاج الفروق والتمايزات في السلوك المرضي للأفراد والجماعات الاجتماعية المتعددة في المجتمعات الصناعية غير المتجانسة .

وضمن هذا الاتجاه ، حدد شتراوس (Strauss, 1969) أربعة عوامل تقف وراء

انخفاض مستويات الاستشارات الطبية لأفراد الطبقة العاملة البريطانية .

١- قلة التركيز على الصحة كهدف حياتي للفرد والجماعة .
٢- قلة المعرفة والثقافة الصحية ، والجهل بوجود الخدمات الصحية المتاحة .
٣- كره المرضى للأطباء ، ومقتهم للنظام الطبي الرسمي ، واحتجاجهم على تحيّزات موظفي الخدمات الصحية ضدهم .
٤- صعوبات الوصول إلى الخدمات الطبية الرسمية ، والنفاذ إلى مداخل نظام الرعاية الصحية المجانية .

وتنطلق مثل هذه الدراسات من افتراض ثابت بأن الأعراض المرضية تكون دائماً على درجة من الوضوح والألحاح والخطورة كافية ، بحد ذاتها ، لأخذ أصحابها إلى الطبيب ، وأن الأفراد المرضى - ولو بفعل مرضهم - معبّأين مدفوعين لاستشارة الطبيب ، ومهيّأين جاهزين لَطلب العلاج حين الاحساس بأي مرض . فلم تؤخذ مفاهيم الصحة والمرض نفسها كمفاهيم اشكالية متغيرة متفاوتة بمعانيها ودلالاتها وأبعادها ، ليس للأطباء والمؤسسات الطبية الاجتماعية فحسب ، وإنما لأصحابها المرضى أساسا وللباحثين أيضا . ولم توجه هذه الدراسات أصلا ، توجيها سوسيولوجيا تحليليا ، بقدر ما وجهت توجيها خدماتيا Service - Oriented محاولة ايجاد علاقات / ارتباطات (ليست سببية Causal بالضرورة) بين المعدلات العالية / المنخفضة لاستغلال الخدمات الصحية أو الانتفاع بها ، وبين خصائص الأفراد والجماعات المستعملة لها أو المستفيدة منها . وترمي نتائجها إلى سد ثغرات في الإحصاءات الطبية المؤسسية بإضافة بيانات عملية محددة تساعد المؤسسات الطبية العاملة ، والمؤسسات الأخرى المتعاملة ، على تحسين أدائها وتعظيم ربحها وتقديم خدمات وتعاملات طبية أكثر استيعابا ونفعا .

وقد اكتشف الباحثون المهتمون بدراسة السلوك المرضي Illness Behaviour أن طلب الاستشارة الطبية والسعي وراء العلاج الطبي المحترف ليس مسألة تلقائية أو حتمية لأي مريض . وإنما يبدي الأفراد أسبابا جيدة لطلب / رفض المساعدة الطبية .

كما يبدون أسبابا عقلانية لخياراتهم بتعجيل زيارة الطبيب أو تأجيلها . فوضع زولا (Zola, 1973) خمسة " مثيرات اجتماعية " Social Triggers من شأنها أن تحدد قرار الذهاب إلى الطبيب - تعجيلا أو تأجيلا . وتتصل هذه المثيرات بمنظور المريض وادراكه لمرضه وتقييماته ، ضمن شبكة العلاقات المباشرة في محيطه الاجتماعي المحدود ، من حيث :

١- مدى تدخل المرض / الأمراض بنشاطاته الحسية والمهنية اليومية المعتادة .
٢- مدى تدخلها بعلاقاته الشخصية والاجتماعية .
٣- مدى حدوث " أزمة " في العلاقات الشخصية .
٤- مدى الحاح الأعراض المرضية ، أو استمرار تهديدها بعد انتهاء الفرصة التي يمنحها لها المريض لتتوقف .
٥- ضغوطات الأقارب والأصدقاء والمعارف بزيارة الطبيب ، وعقوباتهم المتوقعة إذا لم يفعل المريض ذلك .

كما وضع آرمسترونج (Armstrong, 1994 : 5-8) أربعة محددات تحيط بقرار الذهاب إلى الطبيب ، وتتضمن نماذج من الأمثلة الرئيسية التي يسألها المريض لنفسه حين يقيّم تجربة المرض ، ويستعرض البدائل ، ويحسب حسابا عقلانيا للربح أو الخسارة .

١- هل الأعراض التي أخبرها الآن " عادية " Normal أم هي " غير عادية " Abnormal ؟
٢- هل يتوجب عليّ الذهاب إلى الطبيب بهذه المناسبة ؟
٣- ما الذي يمكنني فعله غير هذا ؟ هل يمكن التفكير باللجوء إلى أي شيء آخر غير الذهاب إلى الطبيب ؟
٤- ما هي المزايا / الفوائد مقابل المضار / التكلفة التي ستعود عليّ من وراء الذهاب / عدم الذهاب إلى الطبيب ؟

ورغم أهمية هذه الدراسات ، فإنها لا تستطيع الافلات من النقد الذي يوجّه إليها

لتجاهلها ، عمليا ، التجربة المرضية Illness Experience للمرضى أنفسهم ، وبصورتها الحية الأولية النقية First - Hand Experience وذلك لاقتصارها على دراسة الأفراد المرضى الذين يقدمون أنفسهم أصلا للخدمات الطبية أو الذين سبق لهم استخدامها لفترات سابقة متباينة . فلم تستطع هذه الدراسات الامتداد إلى الأفراد الذين مازالوا في بيوتهم ومع جماعاتهم ، يؤدون أعمالهم ويمارسون نشاطاتهم اليومية المعتادة ، ولم يبادروا ، لأسباب متعددة ، بتقديم أنفسهم للطبيب ، رغم شعورهم بالمرض ومعاناتهم منه .

فنحن ، إذن ، بحاجة إلى بحوث سوسيولوجية تحليلية بمداخل تفسيرية تأخذ تجربة المرضى أنفسهم مأخذا جديا . وتساعدنا مثل هذه المداخل التفسيرية في معرفة العمليات التي تجيب عن أسئلة كيف ؟ وأين ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟ تتولد الأفكار حول الصحة والمرض ، كما تساعدنا على التدليل بأن التصورات والتقييمات والاعتقادات حول الصحة والمرض لكل الأطراف المعنية - المرضى والأطباء على السواء - ، لا تتشكل بالجوانب البنائية Structural فحسب ، وإنما بالأبعاد الثقافية Cultural أيضاً.

وتشير نتائج بحوث علم الاجتماع الطبي ، المتنامية ببطء في هذا المجال ، إلى أن الاختلاف الحاد بين المنظور الشعبي Lay Perspective والمنظور المهني Professional Perspective ، والتضارب الواقع بين الادراك الذاتي Subjective للمريض ، والتقييم الموضوعي Objective للطبيب ، يترك عددا من الاشكاليات ، النظرية والمنهجية ، مازالت قائمة أمام الباحثين . ومن هذه الاشكاليات الجدية ما يلي:

١- الاهتمام التقليدي للأطباء بأنماط الأمراض المشخصة Diseases ، ذات الأساس أو الارتباط الباثولوجي ، ليس بديلا جديا للاهتمام بأنماط أخرى من السلوك المرضي أو الشعور بالمرض Illness (غير المشخص) التي يحس بها أصحابها ويعانون منها ، بصورة أو بأخرى ، ولكن لا يذهبون بها إلى الطبيب . (Dingwall 1976, Tuckett 1976, 1978, Calnan 1987)

٢- الأعراض المرضية Symptoms مؤشرات طبية باثولوجية حقا ، من شأنها أن تقود أصحابها إلى الطبيب . ولكنها لا تفعل ذلك ، عمليا ، بنفسها بالضرورة أو بصورة تلقائية مباشرة . إذ يترك كثير من الناس ، لسبب أو لآخر ، أمراضا أخرى دون تشخيص أو علاج ، كثير منها أمراض خطيرة بالمفهوم الطبي المهني . (Banks etal, 1975, Zola,1973, Staiano 1986: Armstrong 1994)

٣- الحقيقة الطبية الاجتماعية ليست شأنا طبيا خالصا . وإنما تبنى بناء اجتماعيا Socially Constructed عبر أفعال اجتماعية مشحونة بالمعاني ، وتفاعلات رمزية متبادلة بين الذات والآخرين . وما رؤية الأطباء لها أو تعريفاتهم حولها إلا جزء مهني احترافي ضابط للعالم الاجتماعي ضمن مواصفات نموذج طبي رسمي محدد ، ومقاييس اطار مهني مقيد ، وباطلاق للصيغة المعرفية المنتجة . (Friedson, 1972, Dingwall, 1976, Sari, 1996)

٤- ظواهر الصحة والمرض ظواهر حية حيوية ، متفاعلة متعددة الأبعاد - Multi Dimensional وما تعريف الأطباء لها إلا جانب واحد فقط من جوانبها المكونة المتعددة . ولا تعكس الإحصاءات الرسمية والتقديرات الطبية المؤسسية ، رغم دقتها وضخامة حجمها ، إلا أجزاء بارزة ومحدودة من الحجم الفعلي للأمراض الموجودة فعلا في المجتمع . مما يطرح أمام أي بحث يتصدى للاحاطة بها ، بشمولية وعمق ، صعوبات جمة في القياس . (Last 1963, Hannay 1979, Fizpatrick etal 1984, Armstrong 1994) فلابد أن يأخذ الباحث باعتباره التعريفات الذاتية والموضوعية معا ، العوامل النفسية الاجتماعية الثقافية جنبا إلى جنب مع العوامل البيولوجية الطبية ، القيم الفردية والمهنية الخاصة باتصال دائم مع القيم المجتمعية الثقافية العامة .

اشكالية البحث وأهدافه :

إن السؤال المحوري الموجه لهذا البحث الميداني يسأل ببساطة : ماذا يفعل الناس بأمراضهم بعيداً عن أعين الأطباء ؟

فيأخذ البحث المرض غير المعلن ، غير المشخص Ilhess إشكالية له . ويركز التحليل على العمليات الاجتماعية الطبية التي يقيم فيها الناس أمور صحتهم ، والاعتقادات السببية التي يفسرون بها أمراضهم ، والطرق العلاجية التي يتدبرون بها أمرها . فيهتم التحليل بالتعريفات والمعاني والدوافع والأسباب ، الأفعال وردود الأفعال ، التفاعلات والأبعاد الداخلة في هذه العمليات الثقافية الحيوية .

ويسعى البحث ، بذلك ، إلى تحقيق الأهداف التالية :

١- تقدير حجم المرض غير المعلن ، وأنماطه الرئيسية السائدة ، عند عامة الناس في مجتمعنا .

٢- تحديد الأسباب والدوافع والمعاني التي تحول دون / تؤجل قرار الناس المرضى في مجتمعنا في الذهاب إلى الطبيب ، وتلك التي تحتم / تعجل في قرارهم بطلب المساعدة الطبية .

٣- فهم مراجع التشخيص الذاتي للمرض ومصادر تفسيره ، وتفهم مدى صلة المنظورات الشعبية للصحة والمرض ، ومدى اتصالها / انفصالها مع المنظورات الطبية المهنية ، ضمن ثقافة مجتمعية عربية ذات خصوصية واختلاف وتغاير .

٤- التعرف على الطرق التي يوظفها الأفراد المرضى في مجتمعنا لإدارة أمراضهم والاستراتيجيات البديلة التي يتبعونها لتدبر أمورها ، ومدى عموميتها وانتشارها بين الناس المرضى .

وواضح أن البحث ، بهذا التوجيه السوسيولوجي التحليلي ، لا ينطلق من أية اعتقادات مؤسسية طبية ، ولا يتوجه ، بصورة مباشرة ، نحو رسم سياسات طبية . ولا يحاول ، بأية صورة ، أن يحل أية مشكلات قد تكون متراكمة في الإحصاءات الطبية الرسمية .

وإنما قد يساعد البحث في استحثاث أفكار ذات صلة ، وتطوير سياسات أكثر عقلانية وشمولية وفعالية ، للتربية والممارسة الطبية السائدة حالياً في المشهد الطبي الاجتماعي العربي .

ومن المتوقع أن تسفر نتائجه عن فهم أفضل للواقع الطبي الاجتماعي في مجتمعنا ، وربما توجيهه في مسارات مغايرة . كما قد تشكل بياناته العملية ، المستمدة ميدانيا من واقع ثقافة عربية ، مادة ثرية للمقارنة بين المنظور الشعبي للمرضى ، والمنظور المهني للأطباء ، عبر ثقافات مجتمعية مختلفة ، ومن زوايا متعددة .

أهمية البحث وإجراءاته المنهجية :

يكتسب هذا البحث أهميته النظرية والمنهجية ، من مبادرته بتجاوز الاهتمام التقليدي المتكرر بالمرض نفسه Disease ، المشخص المعروف لصاحبه والأطباء إلى الاهتمام البحثي بالشعور بالمرض Illness ، غير المشخص وغير المعروف ، كما يحس به أو يعاني منه أصحابه المرضى أنفسهم .

وفي غياب بحوث سوسيولوجية تنطلق من منظورات المرضى أنفسهم فان المصدر الغالب لبيانات البحوث القليلة السائدة في الميدان الطبي الاجتماعي هو مسوح العينة Sample Surveys المجزأة ، ودراسات الحالة Case Studies المنعزلة ، أو إحصاءات المستشفيات والعيادات غير الممثلة ، أو حتى سجلات شركات الأدوية والتأمين غير المكتملة . ولأن مثل هذه الدراسات تحكمها إجراءات إدارية تنظيمية وتوجهها أهداف تجارية ربحية ، فإنه لا يمكنها - في أحسن الأحوال - إلا دراسة الأمراض المشخصة Diagnosed المسجلة Recorded البارزة Manifest ثانوية الجدة Second - Handed . كما أنه لا يمكنها دراسة موضوعها الإنساني إلا بطرق كمية Quantitative رقمية مجزأة ، مقطوعة غالباً عن الواقع الاجتماعي الثقافي المؤثر في الحصيلة الطبية بأكملها .

وعندما يتجه هذا البحث إلى أخذ كل من المرض والمريض والحقيقة الطبية بمعنى مختلف فإنه لا يأخذ المرض بالمعنى القار الساكن Static وإنما بالمعنى الديناميكي المتحرك Dynamic في نشأته وتطوره وتحوله ، بمرور الوقت وبتطور وعي صاحبه به ، وتحول تقييماته حوله ، ونضج قراراته بشأنه .

كما أنه لا يأخذ المريض باعتباره متلق سلبي ، متأثر غير مؤثر ، تنعكس عليه التعريفات وينفعل بالتقييمات دونما قدرة على صنعها أو ردها واستجوابها . وإنما يأخذ الفرد سليما أو مريضا - باعتباره فاعلا مستجيبا Responsive قادراً على إقامة معان لأفعاله - بما في ذلك ، بالطبع ، أمر صحته ومرضه - وتقييم ردود الأفعال الاجتماعية نحوها . ويتناوله الحقيقة الطبية ، يحاول البحث تجنب الرؤية بعين واحدة والابتعاد عن الانشغال بمنظور واحد لفئة واحدة ، وتقترح هذه النظرة التعددية للحياة الاجتماعية الطبية أن يرى الباحث أن الحقيقة الطبية لا تبني بناء طبيا محضا ، وإنما بناء اجتماعيا أيضا بتفاعل جدلي مستمر بين الاجتماعي والطبي ، الشعبي والمهني ، الذاتي والموضوعي ، العام والخاص معا (Sari, 1996) .

وعندما يتجه البحث إلى أخذ تجربة الناس المرضى مأخذا إنسانيا تكامليا جدّيا فإنه يمتد ليشمل الأساليب والأدوات والأبعاد التالية :

أ - مزاوجة الأساليب الكمية بأساليب أخرى كيفية نوعية Qualitative .
ب - الاهتمام بدراسة الأمراض البارزة وتفحص الأمراض الكامنة Latent أيضاً .
ج - الجمع بين الأطراف الرئيسية الداخلة مباشرة في العملية التعريفية التفاعلية - المرضى والأطباء معا . وعدم استثناء رؤية أي طرف لعالمه الاجتماعي من دائرة البحث والتفسير ، ودون انحياز معياري لأي طرف .

ولا يأخذ هذا البحث أيضا المجموعة المهنية الطبية (مجموعة الأطباء) مأخذا شكليا مفروضا بما اصطلح تقليديا على تسميته " جماعة ضابطة " Control Group لتمارس ضبطا ومراقبة معرفية وصدقية على مجموعة المرضى . وإنما يأخذها باحترام وبدرجات متساوية من المصداقية والتكامل ، وضمن السياق الاجتماعي الثقافي للمجتمع الكلي .

كما أنه لم يأخذ المنظورات الشعبية ، باعتبارها تقع في وضع أدنى من المنظورات المهنية ، أو باعتبار الثانية بديلة للأولى ، وإنما موازية ومكملة لها .

ومن أجل هذا كله ، عمد الباحث إلى صياغة استمارتي بحث منفصلتين : واحدة

للناس (المرضى) العاديين للاحاطة بالمنظورات الشعبية ، وأخرى للأطباء الممارسين للاحاطة بالمنظورات الطبية المهنية .

وتعززت استمارة كل مجموعة برسالة ودية من الباحث يتحدث فيها عن موضوع البحث وأهدافه العامة ، ويستحث المبحوثين على التحدث بحرية واهتمام واسهاب .

وتضمنت كل استمارة استيفاء متغيرات / خصائص عامة أساسية للمبحوثين ، ثم إجابة أسئلة محورية قليلة لكل مجموعة (عشرة أسئلة للمرضى وخمسة للأطباء) ، تدرجت ما بين الصياغة شبه مكتملة البناء Semi - Structured والصياغة مفتوحة النهاياتOpen - Ended ، تسير مع المبحوثين سيرا تتبعياً هادئاً لتسجيل تجربة مرضهم واعتقاداتهم حوله ، وتستجيب لمفهوم العملية Process للمرض منذ إدراكه وتفسيره إلى اتخاذ قرار يفعل شيء تجاهه .

وقد كانت النتيجة مشجعة تماما ، بصورة تفوق كثيراً ما كان يتوقعه الباحث من ندرة الرغبة والاستعداد في البوح بمعلومات من هذا النوع الحساس ، الموصوم أحياناً ، والمسكوت عنه معظم الأحيان ، في المجتمع العربي الذي يوصف أفراده عادة " بأن لديهم الوقت الكافي للحديث الطويل في كل شيء ، وفي أي وقت ، ولكنهم يحجمون عن الحديث القليل اللازم لبحوث العلوم الإنسانية والاجتماعية . فقد لاحظ الباحث هنا أنه كان يسعد المبحوثين من الناس (المرضى) التحدث بصدق وتلقائية عن تجربتهم المرضية التي يبدو (كما عبّرت بعض تعليقاتهم المكتوبة) أنه لم يسألهم عنها أحد من قبل بجدية واهتمام - أطباء أو باحثين على السواء . كما جاءت إجابات الأطباء مكتملة دقيقة ربما لأنها أتاحت لهم التحدث عن موضوعات مازالت تمثل لهم ، في فهمهم وتعاملهم مع مرضاهم ، مشكلات حقيقية وتحديات واقعية ، ولا يبدو أنهم استطاعوا ، إلى الآن ، أن يفعلوا تجاهها شيئا .

ورغم ما تسببه إجابات مثل هذا النوع من الأسئلة من مشقة للباحث (الذي لم ينو ، منذ البداية ، صياغتها أو معاملتها آليا / حاسوبيا) ، فأنها تتمخض عن إجابات ذات قيمة تحليلية غزيرة ، إذا ما توفر الوقت والصبر والمثابرة على فهمها

وتفريغها وتصنيفها وجمعها في مجموعات متعددة Grouping متماثلة المعنى .

ونظراً لاطمئنان الباحث حول اكتمال الإجابات وتنوعها وغزارتها ، لكلتا المجموعتين ، فإنه لم ير ضرورة تستدعي المضي فيما كان ينوي القيام به من إضافة مقابلات معمقة Intensive Intreviews محدودة . فقد استلم الباحث (٣٠٠) استمارة مكتملة من الناس المرضى ، و (١٠٠) استمارة مكتملة أيضاً من الأطباء . وقد اعتبرت هذه وتلك عينة طبقية عشوائية Stratified Random Sample ممثلة لخصائص المجتمع الكلي في كلتا المجموعتين (من حيث المستويات العمرية ، الجنسية، الاجتماعية ، الاقتصادية ، التعليمية ، المهنية ، الجغرافية .. إلخ) كما يوضح الجدولان التاليان (١/١) للمرضى و (١/٢) للأطباء .

جدول رقم (1/2)

توزيع أفراد العينة من الأطباء حسب البيانات الأساسية .

المتغيرات	التفاصيل	العدد	النسبة المئوية
الجنس	ذكر	83	%83
	أنثى	17	%17
العمر	25 – 30 سنة	12	%12
	31 – 40	43	%43
	41 – 50	41	%41
	51 – فأكثر	04	%04
الحالة الاجتماعية	أعزب	13	%13
	متزوج	74	%74
	غير محدد	13	%13
المجال الطبي	ممارس عام	43	%43
	اختصاصي	57	%57
عدد سنوات الخبرة الطبية	5 سنوات فأقل	17	%17
	6 – 10	29	%29
	11 – 15	30	%30
	16 – فأكثر	23	%23
مكان العمل	عيادة	30	%30
	مستشفى	36	%36
	مركز صحي	24	%24
أخر مؤهل علمي	بكالوريوس	67	%67
	عالي	23	%23
الجامعة مانحة المؤهل العلمي الأخير	عربية	49	%49
	أجنبية	51	%51
مكان الإقامة الحالي	عمان	57	%57
	محافظات	43	%43

تحليل النتائج ومناقشتها

أولاً : الأمراض الحاضرة الغائبة :

أول ما تشير إليه نتائج هذا البحث أن الناس العاديين عندنا يعانون من أمراض غير معلنة وغير مشخصة طبيا ، ولكنها أمراض فعلية موجودة عندهم ، بحجم كبير وأنماط متنوعة .

أ - حجم المرض :

تقرر عينة البحث العشوائية من الناس العاديين في مجتمعنا أن حجم الأمراض التي تعاني منها كبير نسبياً ، كما يوضح الجدول رقم (1 / 2) :

جدول رقم (1 / 2)

عدد الأمراض التي لم يرها الأطباء لأفراد العينة

من الناس العاديين

عدد الأمراض	ذكور	اناث	ذكور واناث	٪
مرض واحد	52	23	75	25
مرضان	58	42	100	33
ثلاثة أمراض	34	28	62	25ر5
أربعة أمراض فأكثر	32	31	63	21
المجموع	176	124	300	100

فيبلغ مجموع الأمراض التي يعترف بها أفراد العينة (المكونة من ٣٠٠ مبحوث) (٧١٣) مرضاً ، أي بمعدل مرضين ونصف تقريباً لكل فرد منهم ، لم يذهب أي منهم بسبب هذه الأمراض بعينها ، إلى الطبيب ، في أي وقت من الأوقات السابقة على فترة

البحث الممتدة سنة كاملة (تشرين أول / أكتوبر ١٩٩٥ - تشرين أول / أكتوبر ١٩٩٦) .

ويظهر من جدول (2 / 2) أن الأطباء أيضاً على وعي فعلي بوجود هذه المشكلة الواقعية في التعامل مع مرضاهم ، ويدركون حجم الأمراض التي يأتون بها إليهم ، وتلك التي يحجمون عن ذكرها . فيعتقد الأطباء ، من واقع خبرتهم العملية ، بوجود عدد من الأمراض الحاضرة دائماً عند الناس ، والغائبة دائماً في عياداتهم ، بأكبر مما يقرره الناس (المرضى) أنفسهم .

جدول رقم (2/2)

عدد الأمراض التي يعتقد الأطباء بوجودها عند الناس
ولكن لا يراها الأطباء

عدد الأمراض	التكرار	%
مرض واحد	1	1
مرضان	10	10
ثلاثة أمراض	36	36
أربعة أمراض	20	20
خمسة أمراض فأكثر	33	33
المجموع	100	100

فيبلغ مجموع ما يعتقده أفراد العينة من هذه المجموعة المهنية (المكونة من ١٠٠ طبيب) من أمراض موجودة بين الناس ولا يأتون بها إلى عياداتهم (٣٧٤) مرضاً . وبذلك يصل معدل ما يعتقد كل طبيب أربعة أمراض لكل فرد عادي ، تظل غائبة عن التشخيص والعلاج الطبي .

وتعني هذه النتائج ، عملياً ، أن الشخص الخالي تماماً من الأمراض غير المشخص، غير المعلنة ، يكاد يكون لا وجود له في مجتمعنا : سواء في ملاعبنا

الرياضية أو في جامعاتنا ومكاتبنا ودوائرنا الوظيفية ، أو في مدننا وقرانا جميعاً .

وتدلل هذه النتائج ، بوضوح كاف ، على أنه بالرغم من ازدحام عيادات الأطباء والمستشفيات بالمرضى ، فان طلب المساعدة الطبية مازال أمراً نادر الانتظام في مجتمعنا .

ولكن يجب التأكيد أن مشكلة " الأمراض السوداء " ، الحاضرة الغائبة ، ليست مقصورة على هذا المجتمع العربي دون غيره . وإنما هي مشكلة موجودة ، بدرجات متفاوتة ، ومستمرة في المجتمعات جميعاً حتى المتقدمة منها في وعيها الصحي وتوفر خدماتها الطبية .

فقد وجدت باحثتان بريطانيتان ، مثلا (Dunnell & Cartwright, 1972) أن (٩١٪) من أفراد عينتهما العشوائية من الناس العاديين البالغين يعترفون بوجود أعراض لأمراض متعددة مستمرة خلال الأسبوعين السابقين مباشرة على مقابلة الباحثتين لهم ، وأن معدل ما يخبره كل واحد منهم هو أربعة أعراض أمراض ، ولم تفكر إلا نسبة ضئيلة منهم فقط (١٦٪) بالذهاب إلى الطبيب . بينما بقيت النسبة الأكبر منهم دون تفكير برؤية الطبيب لهذه الأعراض بالذات .

وفي دراسة مسحية ، أحدث ، للصحة والمرض على عينة بريطانية أكبر حجماً (مكونة من ٩٠٠٣ من الأفراد البالغين) ، عرض عليهم الباحثون (١٦) عرضاً لأمراض مختلفة لتسجيل ما خبروا منها خلال الشهر الأخير ، فوجدوا أن مجموعة الذكور قد سجلت ما معدله أكثر من مرضين بقليل ، بينما سجلت مجموعة النساء ما معدله أقل من ثلاثة أمراض بقليل (Blaxter, 1990 : 46) .

كما يسود ، على نطاق عالمي واسع ، الوعي بحجم هذه المشكلة الطبية الاجتماعية في الثقافات المختلفة . إذ يقدر أطباء منظمة الصحة العالمية ، مثلا ، أن معظم مرضى الاكتئاب في العالم ، يظلون بغير علاج ، وأن الجزء غير المعروف أو غير المشخص طبياً ، كان يشكل الجزء الكلي تقريباً (٩٨٪) من جميع حالات الاضطرابات الاكتئابية التي يعتقد الأطباء بوجودها عام ١٩٧٩ (W.H.O., 1983 :1) .

ب - أنماط المرض :

بتفحص نمط الأمراض الشائعة بين الناس في مجتمعنا ، وتلك التي يعتقد الأطباء بشيوعها ، دون أن يروها ، (قارن الجدول 1 / 3 مع الجدول 3/2) ، نجد اختلافاً ظاهراً بين ما تقرره مجموعة الناس المرضى وبين ما تعتقده مجموعة الأطباء .

جدول رقم (3/1)

أنماط الأمراض الحاضرة عند الناس الغائبة عن الأطباء

نمط المرض	التكرار	٪
أمراض نفسية	119	18ر5
أمراض المفاصل	90	14
آلام الرأس والصداع	84	13
أمراض باطنية	53	8ر5
أمراض اجتماعية	42	6ر5
أمراض الجهاز التنفسي	39	6
آلام موسمية عارضة	38	6
آلام الظهر والرقبة	34	5ر5
أمراض جلدية	28	4ر5
أمراض القلب وضغط الدم	26	4
آلام الأسنان	24	4
آلام العيون	18	3
أمراض الأنف والأذن والحنجرة	16	2ر5
سكري	14	2
أمراض تناسلية وجنسية	10	1ر5
أمراض متفرقة	5	1
المجموع	640	100

جدول رقم (3/2)

أنماط الأمراض التي يعتقد الأطباء بوجودها عند الناس وغيابها عن الأطباء

نمط المرض	التكرار	%
أمراض نفسية	75	23ر5
أمراض جنسية وتناسلية	47	14ر5
أمراض باطنية	43	13ر5
أمراض اجتماعية	39	12
أمراض جلدية	19	5
أمراض القلب والدم والشرايين	18	5ر5
آلام المفاصل والعظام	15	4ر5
أمراض الجهاز التنفسي	11	3ر5
الأورام (حميدة وخبيثة)	11	3ر5
آلام موسمية عارضة	10	3
سكري	8	2ر5
آلام الرأس والصداع	7	2ر5
آلام الأسنان واللثة	6	2
آلام الأنف والأذن والحنجرة	6	2
آلام العيون	5	1ر5
المجموع	320	100

فهناك مثلا ، تفاوت حاد في تقدير كل من المجموعتين للأمراض الجنسية والتناسلية كالعقم والعجز والبرود (تقرير الناس بنسبة ضئيلة لا تتعدى ٥ر٢٪ وتقدير الأطباء بنسبة مرتفعة تصل إلى ٥ر١٤٪) ، وأمراض المفاصل والعظام كآلام الركبتين والساقين والقدمين (٥ر٤٪ : ١٤٪) وآلام الرأس كالصداع والشقيقة والدوخة والغثيان (٥ر٢٪ : ١٣٪) .

كما نجد اتفاقاً نسبياً حول مدى وجود أمراض القلب والدم والشرايين (الناس بنسبة ٤٪ والأطباء بنسبة ٥ر٥٪) ، والأمراض الباطنية كآلام المعدة والأمعاء والبطن، القرحة والقولون والمرارة (٥ر٨٪ : ٥ر١٣٪) .. إلخ .

ولكننا نجد بالتأكيد اتفاقاً كلياً على أن الأمراض النفسية (اكتئاب ، احباط ، توتر ، قلق ، كبت ...) هي أكثر الأمراض الشائعة بين الناس في مجتمعنا ، وذلك بتقرير الناس المرضى أنفسهم (موجودة فعلاً بنسبة ٥ر١٨٪) وتقدير الأطباء أيضاً (اعتقاد بوجودها بنسبة ٥ر٢٣ ٪) .

ويأتي الاكتئاب على رأس أنماط هذه الأمراض كنمط رئيسي سائد بعمومية طاغية: كأكثر هذه الأمراض المستترة بين الناس انتشاراً ، وأكثرها اقتراناً ، عند اصحابها ، بالمسمى الطبي الدقيق المطابق ، وأشدها غياباً عن تشخيصات الأطباء وعلاجاتهم .

وهناك بالطبع ، فرق كبير بين الحزن العادي Grief وبين **الاكتئاب** Depression : يتولد الأول من أحداث الحياة المؤلمة كالفقدان والانفصال والهجران . وقد يستمر لفترات تطول أو تقصر إلى أن تأخذ الحياة ، عند المصاب ، مجراها المعتاد . أما الثاني فيتولد من مصادر وجودية أكثر عمقاً ، ويتجسد بأسى طويل عميق مستمر ، حيث تفقد الحياة عند المريض ، اشراقها ، والنفس قيمتها ، ويبدو المستقبل ميئوساً منه، والعالم عبثياً لا معنى له ولا جدوى للعيش فيه Sense of Futility .

لقد أبدى أفراد العينة خطوة متقدمة في الاعتراف بأن الاكتئاب - هكذا - مرض رئيسي يحسون به ويعانون منه ، دون أن يتبعوا ذلك بخطوة مماثلة في الاعتراف به ، أو الذهاب من أجله ، إلى الطبيب . يحدث ذلك لدرجة تجعلنا نعتقد أن الطب النفسي، رغم توفر خدماته وتقدم مستوياته ، مازال في مجتمعنا العربي موصوم الهوية Stigmatized . فرغم أننا لا نسمع الآن ، عن طبيب نفسي عاطل عن العمل أو يشكو حقاً من قلة المرضى والدخل ، فاننا نعتقد أن ما يدخل عيادته بمدلولات الواقع

الفعلي للأمراض النفسية في مجتمعنا ، إلا عدد ضئيل جداً من النساء والرجال المرضى المنتشرين هنا وهناك - سواء القابعين في بيوتهم ، العاملين في مزارعهم ومكاتبهم ، أو المتجولين على أرجلهم وفي سياراتهم .

وإذا ما اضيف إلى هذه المجموعة الكبيرة من الأمراض النفسية مجموعة أخرى لا بأس بها من الأمراض الاجتماعية (همّ وغمّ وكآبة مجتمعية ، وحدة وفراغ وملل عام) فانها تصل إلى معدل عال حقاً (بنسبة ٢٥٪ في تقرير الناس و ٣٥،٥٪ في تقدير الأطباء) من مجموع معدلات أنماط الأمراض غير المشخصة الموجودة فعلاً ، أو المعتقد بوجودها بحزم ، عند الناس العاديين في مجتمعنا .

وليست هذه وتلك ، بالضبط ، مجرد " أمراض هامشية " أو صعوبات حياتية . كما أنها ليست ، ببساطة ، مجرد " شكاوي مترفة " أو مآزق سلوكية لبعض الأفراد . وإنما هي ، بالأحرى ، أمراض حقيقية موجودة ومنتشرة عند عامة الناس بأكثر مما نظن عادة ، ومؤثرة بأكثر مما قد نتوقع .

ومن شأن هذه الأمراض أن تخلق ، أو تعزز ، عند أصحابها شعوراً ، متفاوت الحدة ، بالاختلال (لا بمعنى التميز والتفرد السوي طبعاً وإنما بالمعنى المرضي) يمنعهم من رؤية أنفسهم " بعادية " ، كأفراد أصحاء معافين ، ويعيق من قدراتهم الجسمية ، أو يحد من طاقاتهم الفكرية والإبداعية ، ويمنعهم من القيام بأعمالهم وأدوارهم الاجتماعية بصورة ايجابية ، في شتى مجريات الحياة اليومية ، وعلى كافة مستويات الحياة التفاعلية : في العائلة والمدرسة والجامعة ، في العمل والانتاج ، وفي الحرب والسلم . وليست الأمراض الحديثة ، بتعريف منظمة الصحة العالمية نفسها ، شيئاً آخر غير هذا الخلل في التوازن والانسجام الجسمي والنفسي والاجتماعي ، ولا تقود إلى شيء آخر أكثر خطورة من هذا !!

ومع أنه لم تجري في مجتمعنا ، إلى الآن ، دراسات طبية اجتماعية لتحليل أنماط الأمراض السائدة وعلاقتها ببناء المجتمع ، أو دراسات نفسية اجتماعية لتشخيص نمط الأعراض الاكتئابية لأصحابها ، فان نتائج الدراسة الحالية تدلل ، بعمومية شديدة ،

على حقيقة صارخة في هذا الميدان ، باعتراف الناس والأطباء معاً ، تقول شيئا صريحا كالآتي :

الأردنيون متوترون ، مكتئبون ، محبطون ، ومستلبون :

إنهم خائفون من كل شيء ، دون سبب ظاهر ، وكأن شيئاً مريعاً على وشك الحدوث . يظلون متوترين مشدودين ، طوال الوقت ، دون قدرة على الانسجام والتوازن النفسي الداخلي ، ودون رغبة في الاسترخاء والتحرر من الاجهاد العصبي .

إنهم يفتقدون القدرة على الابتهاج ، ولا يجدون الرغبة في الاستمتاع بأي شيء. ويحسون احساساً مؤلماً مستمراً باللا معنى ، واللا قوة ، واللا تأثير في المشهد الوجودي والمجتمعي والإنساني كله !

تفرض عليهم متطلبات الأدوار الاجتماعية المتغيرة ، ومقتضيات العادات والتقاليد الجامدة ضغوطاً يومية متزايدة ، دونما قدرة منهم على إحداث التأثير والتغيير المطلوب في البناء الاجتماعي الثقافي والسياسي الاقتصادي التقليدي المتصلب ، الذي مازالت مكوناته الأساسية " العقيدة القبيلة - الغنيمة " وسلسلة محظوراته الرئيسية " حرام - عيب - ممنوع " متشابكة ضاغطة قامعة .

ومازالت مصادر محيطية عريضة تصب في الدائرة العامة للكآبة والجمود المجتمعي ، وتغذي ، بدورها ، الاحباطات الاجتماعية المتراكمة . ومن أوسعها وأشدها تأثيراً : حرب الخليج ، وعودة مئات الآلاف من الأردنيين المهجرين قسريا من أعمالهم وأماكن استقرارهم ، وتعثر جهود السلام ، وتوالي الهزائم العسكرية والانتكاسات السياسية ، والشلل شبه التام لحركات الأسواق الاقتصادية ، وغياب حوافز مشروعات التنمية والاستثمار ، دون أن تلوح في الأفق أية بوادر لانفراجات تبرر للإنسان العربي تفاؤلا أو فرحا من أي نوع ، ودون قدرة منه تؤهله على التلاؤم والتكيّف مع هذا الواقع المجتمعي الكئيب الغريب .

ولابد من التأكيد ، مع هذا كله ، أن مشكلة هذه الأمراض ليست مرتبطة ، سببياً ، ببناء المؤسسات الاجتماعية الثقافية والسياسية الاقتصادية للمجتمع الكلي

فحسب ، وإنما متصلة أيضاً ، بصورة جدلية متفاعلة ، بمنظورات أصحابها ودوافعهم وبتفسيراتهم وتقييماتهم .

فكيف يقيم الناس (المرضى) في مجتمعنا أمراضهم ؟ ما هي الأسباب والدوافع التي تدفعهم / تمنعهم من الذهاب إلى الطبيب ؟

ثانياً : محددات طلب المساعدة الطبية :

ليس طلب المساعدة الطبية أمرا تلقائيا ، وليس المرض سببا كاف ، بحد ذاته ، لأخذ صاحبة إلى الطبيب . وإنما هناك عوامل وأسباب وظروف أخرى ، ذاتية وموضوعية ، تتدخل في عملية التقييم الذاتي للمرض واتخاذ القرار بشأن علاجه ، تأجيلا أو تعجيلا .

أ - أسباب التأجيل :

سُئلَ أفراد العينة من الناس العاديين الذين ذكروا أنهم يعانون من أمراض مختلفة (ظلت مخفية) ، عن الأسباب والدوافع أو الظروف التي حالت دون طلب المعالجة الطبية. وقد وضع لهم (١٢) سببا واردا / محتملا في مثل هذه الحالات (مستقاة من أدبيات الموضوع) دون أي ترتيب رقمي أو صياغة ايحائية بأهمية سبب دون آخر. وطلب منهم اعطاء هذه الأسباب الحيادية ترتيبا بالأهمية حسب دقة مطابقتها لحالتهم المرضية ، بترقيمها تفاضليا من (١- ١٢) حيث يأخذ السبب الأهم عندهم رقم (١) والذي يليه في الأهمية رقم (٢) وهكذا ... إلى أن يأخذ السبب الأخير الأقل أهمية على الاطلاق في قائمة ترتيبهم رقم (١٢) .

وعند تفريغ بيانات هذا السؤال ، أعطيت ترتيبات أو ترقيمات المبحوثين التفاضلية لأسباب التأجيل أوزانا متفاوتة حسب أولوياتها لديهم (بأن يأخذ كل تكرار للسبب (١) في ترتيبهم وزنا مقداره (١٢) نقطة ، تقل إلى نقطة واحدة في السبب (١٢) الأخير .

ويوضح الجدول (٤/١) حصيلة هذه الأسباب حسب أهميتها / أوزانها عند الناس المرضى .

جدول رقم (4/1)

الترتيب التفاضلي لأسباب الناس المرضى في تأجيل قرار الذهاب إلى الطبيب

	ترتيب أولوية السبب	مجموع ذكور	مجموع إناث	مجموع ذكور + إناث	٪
1	لعدم التأكد من خطورتها وتعقيداتها	1505	1051	2556	٪12.5
2	للإنشغالات اليومية في العمل والواجبات	1410	988	2398	٪12
3	للإعتقاد بأنها بسيطة مؤقتة محدودة	1317	1055	2372	٪11.5
4	لأنها لا تؤثر على الأعمال والعلاقات اليومية	1221	873	2094	٪10
5	لعدم القناعة بجدوى معالجتها	1188	785	1973	٪9.5
6	الخوف من تشخيص الأطباء وأحكامهم المرعبة	973	902	1839	٪9
7	لعدم القناعة بمهارة الأطباء عندنا	942	903	1545	٪7.5
8	لأسباب وظروف مالية عائقة	980	559	1539	٪7.5
9	لتسامح عائلاتهم وأصدقائهم بشأنها	867	526	1393	٪7
10	الخوف من كلام الناس وأحكامهم المشينة	793	498	1219	٪6.5
11	لإعتقادات دينية	628	428	1056	٪5
12	للإعتقاد بأنها غير ملائمة للإهتمام الطبي	364	166	530	٪2.5
	المجموع الكلي	12152	8434	20586	٪100

تذكر مجموعة الناس العاديين أن السبب الأهم الذي يقف وراء تأجيل / منع زيارة الطبيب هو عدم التأكد من خطورة أمراضهم (غير المشخصة) وتعقيداتها (بنسبة ١٢ر٥٪) ويليه مباشرة في الأهمية سبب الإنشغالات اليومية (بنسبة ١٢٪) ثم لاعتقادهم بأنها بسيطة مؤقتة ومحدودة (بنسبة ١١ر٥ ٪) ولأنها لا تؤثر على أعمالهم ونشاطاتهم وعلاقاتهم اليومية (بنسبة ١٠٪) .

وقد سُئل الأطباء أيضاً عن أسباب التأجيل ، ووضعت لهم الأسباب الحيادية نفسها لاعطائها أرقاما تفاضلية (١- ١٢) حسب أهميتها في اعتقادهم . كما أعطيت لتكرارات أسبابهم نفس الأوزان (١٢ - ١) التي أعطيت لمجموعة الناس العاديين .

ويوضح الجدول رقم (٤/٢) حصيلة ترتيبات الأسباب المانعة كما تقترحها تجربة الأطباء المهنية .

جدول رقم (4/2)

الترتيب التفاضلي لاعتقادات الأطباء في تأجيل ذهاب الناس المرضى إلى الطبيب

	السبب	الوزن	٪
1	لأسباب وظروف مالية	692	٪13.5
2	لعدم التأكد من خطورة الأمراض وتعقيداتها	869	٪12
3	للإنشغالات اليومية في العمل والواجبات	679	٪9.5
4	للإعتقاد بأنها بسيطة مؤقتة محدودة	674	٪9.5
5	للخوف من تشخيصات الأطباء المرعبة	673	٪9.5
6	للخوف من كلام الناس وأحكامهم المعيبة	636	٪9
7	لأنها لاتؤثر على الأعمال والعلاقات اليومية	582	٪8
8	لعدم القناعة بجدوى معالجتها	551	٪8
9	لتسامح عائلاتهم وأصدقائهم ومعارفهم بشأنها	473	٪6.5
10	للإعتقاد بأنها غير ملائمة للإهتمام الطبي	407	٪5.5
11	لعدم القناعة بمهارة الأطباء عندنا	306	٪4.5
12	لإعتقادات دينية	306	٪4.5
	المجمـــوع	7115	٪100

يعتقد الأطباء أن الأسباب والظروف المالية هي أهم الأسباب المانعة (بنسبة ١٣٫٥٪) ، يليها في الأهمية سبب عدم تأكد الناس من خطورة أمراضهم وتعقيداتها (بنسبة ١٢٪) ، ثم للانشغالات اليومية للناس في العمل والواجبات (بنسبة ٩٫٥٪) ، ولاعتقادهم بأنها بسيطة مؤقتة ومحدودة (بنسبة ٩٫٥٪ أيضا) .

ويبدو واضحا أن الأطباء على وعي أكبر ، من واقع تجربتهم المهنية ، بأهمية الأسباب المالية العائقة للناس من المضي في تشخيص أمراضهم ومعالجتها جميعا . وليس في هذه النتيجة ، بالطبع ، أي إنكار أو تجاهل لخطورة الاتجاهات الحالية للطب عندنا التي يخرج بها ، بازدياد ، من دائرة الاهتمامات الإنسانية والاجتماعية ، ليدخل، كغيره ، في دائرة المال والأعمال التجارية المربحة .

وباستثناء هذه الأسباب المالية المانعة (التي يرتبها الأطباء أولا ، ويذكرها الناس ثانيا) يظهر أن هنالك اتفاقا عاما بين ترتيبات الناس المرضى وترتيبات الأطباء .

وبعيدا عن الخيارات السببية المتعددة ، الواردة أو المحتملة ، التي أعطيت للمبحوثين في كلتا المجموعتين لاعادة ترتيب أهميتها .. ، سئل الناس أنفسهم ليذكروا السبب الرئيسي المانع لهم فعلا ، من واقع تجربتهم المرضية المعاشة ، والتعبير عنه بكلماتهم الخاصة المباشرة .

ويوضح الجدول رقم (٥/١) تقريرات مجموعة الناس المرضى لأسبابهم الحقيقية التي حالت فعلا ، وماتزال ، دون رؤية الأطباء لتشخيص أمراضهم وعلاجها .

جدول رقم (5 / 1)

السبب الرئيسي في تأجيل الذهاب إلى الطبيب كما يقرره الناس المرضى بأنفسهم

	السبب	العدد	٪
1	للإعتقاد بأنها بسيطة مؤقتة محدودة	65	٪21.5
2	للإنشغالات اليومية في العمل والواجبات	49	٪16.5
3	لعدم القناعة بجدوى معالجتها	38	٪12.5
4	لعدم التأكد من خطورتها وتعقيداتها	36	٪12
5	الخوف من تشخيصات الأطباء المرعبة	31	٪10.5
6	لأسباب وظروف مالية	29	٪9.5
7	لعدم القناعة بمهارة الأطباء عندنا	19	٪6.5
8	لأنها لا تؤثر على الأعمال والعلاقات اليومية	13	٪4.5
9	الخوف من كلام الناس وأحكامهم المعيبة	9	٪3
10	الإكتفاء بالخبرة الشخصية	5	٪1
11	لتسامح عائلاتهم وأصدقائهم ومعارفهم بشأنها	3	٪1
12	لإعتقادات دينية	3	٪1
	المجمـــوع	300	٪100

يقرر الناس المرضى ، بأنفسهم ، أن السبب الرئيسي المانع هو اعتقادهم بأن أمراضهم ، غير المعلنة ، بسيطة مؤقتة ومحدودة (بنسبة ٢١٫٥٪) ويليه في الأهمية انشغالاتهم اليومية في العمل والواجبات (بنسبة ١٥٫٥٪) ثم لعدم قناعتهم بجدوى معالجتها (بنسبة ١٢٫٥٪) وعدم تأكدهم من خطورتها وتعقيداتها وتطوراتها (بنسبة ١٢٪) .

ومن الممتع ملاحظة المؤشرات الاجتماعية ، والدلالات الإنسانية التالية لهذه النتائج مجتمعة :

١- تسيطر على أفراد العينة من الناس المرضى ، حقا ، جملة من عدم التأكدات Uncertainties : عدم التأكد من سبب المرض ، عدم التأكد من تطوراته وتعقيداته ، عدم التأكد من خطورته ، وعدم التأكد من جدوى علاجه .

ولكن لعله من الخطأ ، بمدلولات الواقع المجتمعي ، استمرار الأطباء والباحثين في الاعتقاد بأن حالات فقدان الثقة وسلسلة الغموض والإبهام هذه خاصة بالفرد المريض ، دون سواه ، أو الادعاء بأن المرض يفقد صاحبه " بوصلته " الموجهة بدقة للصواب والخطأ .

فلم يعد الإنسان العربي العادي قادرا على اللحاق بتسارع الأحداث ، أو السيطرة على مجريات التحولات الاجتماعية الثقافية والسياسية الاقتصادية جميعا ، حيث يتناوب عليه الأشخاص ، وتتبدل حوله الأماكن ، ويختلط في ذهنه الثابت بالمتغير ، وتبقى أمامه جميع الاحتمالات مفتوحة ، ليصبح " عدم التأكد " من أي شيء - على وجه اليقين - هو الحقيقة الوحيدة الثابتة لجميع أفراد المجتمع وفي شتى جوانب الحياة المجتمعية العامة : المرضى ، والأصحاء معا ، العمال والمهنيين والسياسيين جميعا ، السياسة والاقتصاد ، الثقافة والإعلام ، على السواء .

٢- هنالك قدر كبير من الانشغالات Busyness تملأ حياة أفراد العينة من الناس العاديين لدرجة تثير التساؤل : بماذا ينشغل الأردنيون حقا ؟ بماذا يزدحم جدول أعمالهم اليومي ؟

لا تقترح الملاحظات المعمقة لمجريات الحياة اليومية للناس العاديين في مجتمعنا اليوم بأنهم ينشغلون فعلا في مجالات العقل والفكر ، أو العمل والفن والأدب . ولا ينشغلون في أعمال انتاجية صلبة ، أو مشروعات اقتصادية كبرى ، أو صفقات مالية ضخمة .

ولا يبدو أنهم يحضّرون لإنجازات هائلة ، أو يتهيأون لإنطلاقة نوعية مميزة . ولا ينشغلون حتى في مجالات السياحة والترفيه وواجبات الضيافة . فقد ينشغلون حقا بحمى الحياة السياسية العامة (التطبيع والتطويع ، الانفتاح والانغلاق ، السكون والحركة . . .) ، ولكن تشغلهم أكثر متطلبات الحياة المعيشية اليومية المحمومة التي يملؤها قلق الحصول على عمل لتدبير القوت اليومي ، وقلق الاحتفاظ به ، والخوف الدائم من فقدانه . كما تملأ حياتهم العامة حمى امتلاك الأشياء واستهلاكها .

فلا ينبيء الازدحام (الظاهري) لجدول الأعمال اليومي للمرأة / الرجل العادي في مجتمعنا إلا عن إعلان منهم بأن **المرض لا يشكل لصاحبه أولوية من أي نوع** تستدعي القفز على سلم أولوياتهم الحياتية المعيشية ، ليس نوعية الحياة Quality of Life هي شاغلهم الأكبر ، وإنما مجرد البقاء على قيد الحياة !

٣- لا تؤثر الاعتقادات الدينية (المرض ابتلاء من الله ، وإذا مرضت فهو يشفين) سبباً على قرار الذهاب إلى الطبيب عند أفراد كل من المجموعتين (الناس والأطباء معا) إلا بنسبة ضئيلة للغاية (نسبة ٥٪ في ترتيبات الناس المرضى ، ٥ر٤٪ في تقدير الأطباء ، ١٪ فقط في تقرير الناس) . وتدلل هذه النتيجة بوضوح كاف على أن **الغالبية العظمى من الناس تأخذ مسألة المرض مأخذا دنيويا** Secular ، أكثر منه دينيا ، وتتحرك تجاهه تحركا **عقلانيا** Rational واقعيا ، لا تحركا عاطفيا انفعاليا متسرعا .

ب - أسباب التعجيل :

هنالك مجموعة من العوامل الوسيطة Mediating Factors من شأنها أن تتدخل بالدفع باتجاه تعجيل القرار الفردي بزيارة الطبيب .

وقد سئلت مجموعة الأطباء عن الأسباب والدوافع أو المعجلات التي تدفع الناس للذهاب إلى الأطباء . وقد وضعت لهم ستة خيارات معجلة محتملة (مستقاة من أدبيات الموضوع أيضا) وطلب منهم ترتيبها حسب أهميتها لديهم . وقد أعطيت لتكرارات كل سبب أوزان تفاضلية متفاوتة . فكانت قائمة الترتيبات كما يلي : (انظر الجدول رقم ٢/٥) .

جدول رقم (2/5)

الترتيب التفاضلي لإعتقادات الأطباء في أسباب تعجيل طلب المرضى للمساعدة الطبية

	السبب / الدافع	التكرار / الوزن	٪
1	للعجز في التكيف مع الأعراض المرضية	435	٪25.5
2	لأنهم أصبحوا يرون ما يعانون منه مهددا للحياة	375	٪22
3	لأنهم بدأوا يعرفون أنفسهم كمرضى	364	٪21
4	لأن العائلة والأقرباء والمعارف بدأوا يعرفونهم كمرضى	214	٪12.5
5	لإنهيار في العلاقات الشخصية والاجتماعية	169	٪10
6	لتغيرات صارخة في البيئة النفسية والاجتماعية للمريض	160	٪9
	المجمـــوع	1717	٪100

يعتقد الأطباء أن عجز الفرد عن الاستمرار بالتكيف مع الأعراض المرضية هو السبب المعجل الأكبر (بنسبة ٢٥٫٥٪) .

وبعيداً عن الخيارات المعجلة المتعددة ، سئل الأطباء ، أيضا عن السبب الرئيسي، من واقع تجربتهم العملية ، في تعجيل طلب المساعدة الطبية . ويوضح الجدول رقم (٦/٢) أولويات التعجيل عندهم .

جدول رقم (6/2)

السبب / الدافع الرئيسي في تعجيل طلب المساعدة الطبية كما تقترحه خبرة الأطباء

	السبب / الدافع	العدد	٪
1	التخلص من الأعراض المرضية الملحة	37	٪37
2	خوفا من استفحال المرض وتهديد الحياة	32	٪32
3	للثقة والاطمئنان ورفع المعنويات	17	٪17
4	لاستئناف نشاطات العمل والحياة اليومية	14	٪14
	المجمـــوع	100	٪100

يقدر الأطباء ، بمدلولات خبرتهم العملية وممارساتهم المهنية ، أن المعجل الأكبر لقرار الفرد بزيارة الطبيب هو التخلص مع الأعراض المرضية الملحة (بنسبة ٣٧٪) .

وتؤكد هذه النتائج أن الأعراض المرضية أمر متكرر الحدوث في حياة الناس . وليست هذه الأعراض مهمة أو مؤثرة بحد ذاتها في تعجيل قرار الذهاب إلى الطبيب ، ما لم يتم تعريفها ، والاعتراف بها ، كأعراض أمراض جدية وخطيرة ، مهددة بحس ما للفرد .

ومما له دلالة في هذه النتائج أن التأثير السببي للعائلة العربية ، ولو كعامل وسيط على قرار أفرادها المرضى بالتعجيل في تشخيص أمراضهم وعلاجها يبدو ضئيلا حقا (تقرير الناس ٧٪ و ١٪ وتقرير الأطباء ٧٪ فقط) ولعل هذه النتيجة المتصلة بالمرض بالذات ، تدفعنا إلى زيادة حجم تقديراتنا للتحولات المختلفة التي تجري ، بدرجات متفاوتة ، في وظائف العائلة العربية التقليدية ، وأنماط تأكيداتها الثقافية ، واتجاهات تنشئتها الاجتماعية ، وتوزيع أدوارها وعلاقاتها الداخلية .

ومن أهم هذه التحولات ، السير باتجاه **الفردية** Individualism **والخصوصية** Privacy **والاستقلالية** Autonomy **والمرونة** Flexibility في علاقات العائلة لتحل تدريجيا محل اتجاهاتها التقليدية في العمومية ، والاعتمادية ، والصرامة والضبط والمراقبة . إن انحسار حجم التدخلات التقليدية المألوفة للعائلة العربية ، وتقليص حدة إغراقها العاطفي في شؤون أفرادها ، وتوسيع دائرة خياراتهم الفردية ، والتسامح مع اختلافاتهم المتعددة ، أمور تتأكد جميعا هنا بالنتيجة العملية في أن المرض لم يعد استثناء ، وإنما يتحول بدوره ، ليصبح شأنا خاصاً لصاحبه ، ويظل طوع تقييماته الذاتية ، ورهين قراراته وخياراته الخاصة .

ثالثاً : النماذج التفسيرية الشعبية للأمراض :

كل الأمراض تبدأ بالشعور بالمرض ، وتتجسد الأمراض عادة بأعراض ، يشخصها الأطباء تشخيصا مرضيا / باثولوجيا . ولكنها لا تعتبر مرضا جديا يستدعي التدخل الطبي إلا إذا عرفها أصحابها أولا بهذا التعريف قبل أن تأتي إلى انتباه

الأطباء ، وقبل أن تتبعها طرق للعلاج في المؤسسات الطبية اللاحقة .

وإذا كان المرض ، بتعريفه وإدراكه ، خبرة ذاتية محددة اجتماعيا ، فإن التقييمات والاعتقادات حول أسبابه وتفسيراته ليست إلا نماذج عامة ملونة ثقافيا .

ويقتضي هذا الفهم النظر إلى الأعراض والمؤشرات ، المؤجلات والمعجلات ، الاعتقادات والتفسيرات جميعا باعتبارها ثقافية التكوين والتشكيل ، ذات معايير ودلالات ثقافية قيمية ، نسبية ، متفاوتة في الزمان والمكان بين الثقافات المجتمعية ، بل وداخل المجتمع الواحد ، يتنوع ثقافاته الفرعية Sub - Cultures ومجموعاته الأثنية Ethnic Groups ، وتفاوت طبقاته وشرائحه الاجتماعية .

ولابد من ملاحظة أن الأعراض المرضية Symptoms تقوم عادة بوظيفة (عملية) مهمة في هذا الشأن ، حيث تقف كرموز ثقافية Symbols (Staiano, 1986) .

ويتطلب ذلك كله من الباحثين تفحص الخبرة الفردية ، والسياقات الاجتماعية التي حدثت فيها تلك الأعراض / الرموز ، والطرق والأساليب المتبعة فرديا في تقديمها ، والأطر والنماذج المقبولة ثقافيا في تصنيفها وتفسيرها ، وايضاح الغايات والأهداف التي يرمي إليها الفرد من وراء توظيف تلك النماذج التفسيرية .

أ - مراجع التشخيص الذاتي :

تشير نتائج البحث هنا إلى ضخامة الدور الذي تقوم به الأعراض المرضية في تأكيد وجود المرض والتعريف به وإعلانه لصاحبه ، من خلال تجسيدها لمواطن الخلل وعدم التوازن الجسمي والنفسي والاجتماعي في حياة ذلك الفرد بالذات .

ويجب أن لا يقود وجود هذه الأعراض أو التغيرات المرضية باكتشاف الفرد لها ، إلى الاعتقاد بأنها حدثت بصورة بيّنة صارخة الدلالة لا تحتمل التأويل وسوء الفهم ، أو أنها تطورت بصورة سريعة مفاجئة وخطيرة لم يعد من الممكن لصاحبها تجاهلها أو السكوت عليها . وإنما هي ، بالأحرى ، علامات وإشارات تفرض على صاحبها تشخيصها وتفسيرها ، بفك رموزها وفهم معانيها ودلالاتها ، وتقدير نتائجها

وأبعادها . فتضطره إزاء ذلك ، للرجوع إلى مراجعه الذاتية ومصادره العامة .

ومادام الناس جميعا على ألفة معرفية تامة بأجسامهم ونفوسهم (وهم الخبراء الحقيقيون فعلا في هذا الشأن) ، فإن تجربة الفرد المرضية ، الذاتية الاجتماعية ، تشكل المصدر الأكبر لتشخيصات أعراض المرض .

ويلاحظ من الجدول رقم (٦/١) أن استخدام هذه التجربة والخبرة الفعلية تشكل ما مجموع نسبته (٥٣٫٥٪) من جملة المصادر المستخدمة في عملية التشخيص الذاتي التي يمارسها الفرد منفردا .

جدول رقم (6 / 1)

طرق إدراك الناس المرضى لأمراضهم غير المشخصة

	طرق الإدراك	التكرار	٪
1	من التغيرات في الحالة الجسمية والنفسية	197	٪29.5
2	من الخبرة الفعلية	162	٪24
3	من القراءات والمشاهدات الطبية	140	٪21
4	من الحديث مع العائلة والأصدقاء والمعارف	132	٪19.5
5	من مصادر مختلفة (شخصية ، اجتماعية ، طبية)	39	٪6
	المجمـــــــــوع	670	٪100

ويلاحظ هنا أيضاً أن العائلة العربية ليست مصدرا اجتماعيا رئيسيا للاتصال والتفاعل في اكساب المرضى من أعضائها خبرة تعينهم على اكتشاف أمراضهم وتشخيصها (إلا بنسبة ١٩٫٥٪) إنما تفوقها مصادر وسائل الاتصال الجماهيري (كتابات الصحافة وبرامج التلفزيون والإذاعة والكتب والمجلات الطبية) قليلا في الأهمية (بنسبة ٢١٪) .

ب - مصادر التفسيرات الشعبية :

لا تتبنى الغالبية من أفراد العينة الاعتقاد بأن للمرض سبب واحد يقود إليه بالضرورة . وإنما تبنت منظورات أكثر تعددية سببية لعلية الأمراض Aetiology ، تظهر فيها مجموعة من الأسباب تؤدي إلى مجموعة من الأمراض التي يعانون منها ،

دون اهتمام بتصنيف الأمراض والأسباب ، ودون تفصيل للسبب الواحد بعينه المؤدي إلى المرض الواحد بذاته ٠ (وكان ذلك متوقعا ، بل ملائما ، مادامت أسئلة استمارة البحث قد اهتمت بمعرفة جملة الأسباب والاعتقادات السائدة عند عامة الناس حول جملة الأمراض الشائعة بينهم) ٠

جدول رقم (7/1)

التفسيرات الذاتية الأولية لأفراد العينة لأمراضهم غير المشخصة

	التفسير الأولي	العدد	٪
1	أمراض عادية شائعة	82	٪27.5
2	أمراض عارضة وآلام مؤقتة	80	٪26.5
3	أمراض مخيفة ، مرعبة و محيرة	41	٪13.5
4	أمراض متصلة بطبيعة العمل ونمط الحياة	34	٪11.5
5	أمراض متصلة بمراحل العمر	17	٪5.5
6	أمراض وراثية متصلة بالعائلة	11	٪3.5
7	أمراض لحكمة دينية	10	٪3.5
8	أمراض غير مفسرة / غير محددة	25	٪8.5
	المجموع	300	٪100

ويظهر من الجدول رقم (٧/١) أن الأعراض المرضية المتغيرة قد حملت لأصحابها جملة من المعاني والدلالات الأولية أبرزها ميل الغالبية منهم للنظر إليها باعتبارها مجرد أعراض / أمراض عادية ، عامة ، شائعة ، وليست ببساطة إلا آلام عارضة ، مؤقتة متصلة بتأثيرات العمل الذي يؤدونه ، وطبيعة الحياة المجتمعية التي يعيشونها ، وموروثات العائلات التي ينتسبون إليها ٠

وهكذا يربط غالبية أفراد العينة أمراضهم بأسباب ومصادر خارجية بصورة بارزة (بنسبة ٦٩٪) ، بينما لا يربطون أسبابها بأشخاصهم إلا بنسبة ضئيلة (لا تتعدى ٥ر٥٪) ، ويرجعونها بنسبة مازالت أقل ، لأسباب وأحكام دينية (٥ر٣٪) ٠ ولم تسعف كل من مدلولات الثقافة المجتمعية الهامة ومقترحات التجربة المرضية الخاصة

أصحابها في تفسير ما نسبته (٥ر٨٪) من أمراضهم فبقيت ، مرحليا ، غامضة ، عائمة غائمة ، مستعصية على الفهم والتفسير .

كما تشير نتائج اتجاهات التفسيرات الحالية التي يقدمها أفراد العينة لأمراضهم ، (انظر الجدول رقم 1 / 8) إلى أن التقييمات والتفسيرات الأولية (التي قدموها آنفا) ليست مجرد أسباب آنية متسرعة يلجأ إليها الفرد تحت وطأة هجمة المرض وغموضه وإلحاحه ، كما أنها ليست اعتقادات تجريبية Tentative متحولة بمرور الوقت وتطور المرض . وإنما هي اعتقادات سببية نهائية متبلورة ، مستمرة ومستقرة ، مستمدة من ، أو منسجمة مع ، اتجاهات الثقافة المجتمعية العامة . وما استمرار تلك الاعتقادات السببية واستقرارها إلا تأكيد عملي لحقيقة استمرار الثقافة الشعبية Popular Culture واستقرارها كنسق معتقدات Belief System مستقل ذاتيا ، مكتف بنفسه .

جدول رقم (1 / 8)

التفسيرات الذاتية الحالية لأفراد العينة لأمراضهم غير المشخصة

	التفسير الحالي	العدد	٪
1	أمراض عادية مؤقتة وشائعة	89	٪29.5
2	أمراض متصلة بطبيعة العمل ونمط الحياة	83	٪27.5
3	أمراض جدية و لابد من علاجها	30	٪10
4	أمراض تعودت عليها وتعايشت معها	29	٪10
5	أمراض لا علاج لها إلا الله والصبر	24	٪8
6	أمراض ما زالت محيرة	14	٪4.5
7	أمراض غير مفسرة / غير محددة	31	٪10.5
	المجموع	300	٪100

فإذا كنا إذن نعرف أن الأجزاء المتغيرة في تشخيصات الناس المرضى وتفسيراتهم هي تلك الأجزاء المتصلة فقط بتغير التجربة المرضية الذاتية وتطورها ، فإننا مازلنا لا نعرف بالضبط (ربما لقصور في ذاكرة المريض و / أو لقصور في استمارة البحث) ما إذا كانت مسميات الأمراض نفسها قد تغيرت أيضا عند أصحابها .

وقد أتت النماذج القليلة للأسباب الذاتية التي يذكرها الفرد لأمراضه المتغيرة مقتصرة على تغير قناعاته مع الوقت ، وبتطور هذه التجربة المرضية الذاتية ، مع بقاء هامش الغموض في الفهم والتفسير قائما ، لأسباب مرتبطة بطبيعة المرض نفسه .

ومن بعض الأمثلة المتكررة المقدمة في مثل هذه السببية الفردية / الذاتية المتصلة، بمعظمها بضعف بنية الجسم والتقدم في العمر بما يلي :

« عنت لي أنني أصبحت متقدمة في السن » ، « إنها بداية الشيخوخة والعد التنازلي » ، « أفسرها بضعف جسمي مع كبر سني » ، « أفسرها بقلة ممارسة الرياضة والمشي » ، « أعتقد أنها من قلة الخروج من المنزل » ، « أنهّد حيلي من كثرة الخلفة » .

أما أهم المصادر الخارجية التي يذكرها أفراد العينة كأسباب عامة متكررة مسؤولة عن أمراضهم :

- طبيعة المجتمع : الفروق الطبقية ، ضغط العادات والتقاليد ، الأحداث السياسية، الأزمات الاقتصادية ، الهجرة ، الحروب .
- طبيعة الحياة العصرية : الإرهاق ، الضغط ، التوتر ، " التفكير المادي " للناس هذه الأيام ، القلق على المستقبل .
- نوع العمل : ثقل الأعباء والواجبات ، الروتين اليومي ، " لقمة العيش صعبة " .
- تأثيرات البيئة : تقلبات الجو ، التلوث ، الضجيج ، الهرمونات ، سموم التغذية .
- تأثيرات العائلة : الوراثة ، أمراض العائلة .
- الأحكام الدينية : قضاء وقدر ، نصيب ومكتوب ، نوع من التحدي للإنسان لبيان ضعفه ، من رب العالمين حتى يتعظ الناس ويتوبوا إليه .

وقد لخص أحد أفراد العينة (ذكر ، جامعي ، عمره ٤٥ سنة ، مدير مصنع ، يعاني من الاكتئاب) حجم هذه التأثيرات السببية الخارجية بإجابته :

« أشعر أن الكثير من أفراد مجتمعنا بحاجة إلى أطباء نفسانيين وأسباب ذلك معروفة ومحسوسة للجميع ، ما عليك إلا أن تمشي في الشارع لترى العجب .. ومن

هنا ترى السبب الرئيسي للجلطة والضغط والفشل الكلوي وتساقط الشعر والتسمم والإسهال . هل تريدني أن أخبرك أكثر ؟ مجتمعنا يا دكتور بحاجة إلى مستشفى كبير بحجم ثلاثة ملايين سرير ؟؟!!! » .

ج - وظائف التفسيرات الشعبية :

أهم ما يمكن تسجيله من هذه التفسيرات الشعبية ، أن الفرد العادي عندنا يميل ، حين تفسير أمراضه ، أتباع " سياسة ثقافية " يتقنها جيدا يمكن تسميتها بسياسة "التهوين / التحجيم " Simplification / Minimization وسياسة " التطبيع / التعميم " Normalization / Generalization ، إذ يتعلم الفرد من تأكيدات ثقافته ومن خلال عملية التنشئة الاجتماعية المستمرة ، طرق وأساليب تقديم الأمور جميعا ، ومنها الأمراض ، بقسريتها وعموميتها وعاديتها : يتعلم تبسيط الأحداث والأفعال والأقوال ، والتقليل من شأنها ، وجعلها تبدو لنفسه والآخرين من حوله ، أمورا عادية طبيعية عند جميع الناس ، لا يتعرض لها لأي خلل ذهني أو سلوكي خاص ، أو لأي تقصير أخلاقي ذاتي . وكل المشكلات والصعوبات الطبية التي تحدث ، ليست إلا أموراً عارضة مؤقتة يزول تأثيرها مع الزمن .

وضمن هذه الخطوط الثقافية العامة ، يقدم الفرد التفسير المقبول لأمراضه التي يعاني منها باعتبارها " شائعة بين جميع طبقات المجتمع الفقيرة والمخملية " ، " يمكن أن يتعرض لها كل إنسان - حتى الأطباء " ، " الجميع يعاني كما أعاني " ، " مادام الناس في القرى والمدن يعيشون في نفس المجتمع ويمرون في نفس الظروف الصعبة فإني اعتقد أنهم يعانون مثلي " ، وتلك طريقة أخرى عند أفراد العينة ، للإدعاء " من كان في مجتمعنا بلا مرض . . . فليرمه بحجر " !!

وقد لخصت فتاة (جامعية عزباء ، عمرها ٣٥ عاما) مصابة بالاكتئاب أيضا ، أحداث القصة المؤلمة في بدايتها ، المريحة في نهايتها بقولها : « أصبت بالفشل ، وشعرت بالنقص ، ظننت في البداية أني معقدة وغريبة ، إلى أن قرأت في الجريدة عنه، فعرفت أنه مرض نفسي منتشر بين الناس . فأصبح الأمر عادي عندي » .

ولا مكان هنا لتجاهل حقيقة أن النموذج الذي يفسر به المريض العادي مرضه ، بتقديمه ضمن أسباب عامة ضاغطة ، ومصادر عريضة منتجة بغزارة للمرض ، وظروف قسرية حتمية التأثير ، لهو نموذج براجماتي وظيفي ثقافي يؤدي لصاحبه مجموعة من المنافع المريحة نفسيا ، والمريحة اجتماعيا ، ومن أهمها :

١- تخفيف حدة شعور الفرد بالاختلاف الضار الملازم له في حالة المرض .
٢- ابعاد مسؤولية المرض عن دائرة الذات ، وطرد تأثير الاحساس المؤلم بالذنب ولوم النفس لإهمال أو تقصير ذاتي ، بالتدليل للنفس والآخرين ، بأن المريض لم يعرّض نفسه طواعية للمرض ، وإنما هو قادر على الحفاظ على صحته ، وضبط توازنه الجسمي والنفسي والاجتماعي .
٣- تجنيب الفرد الأحكام القيمية السلبية والنقد والتجريح الذي يمكن أن يوجه لنمط حياته وانحرافاته السلوكية والأخلاقية . (كالكسل والخمول ، الوسوسة ، العصبية في التعامل ، الأفراط في التدخين ، الشراهة في الأكل ، الإدمان على المسكرات والمخدرات ، السلوك الجنسي المشين ... إلخ) .
٤- استدرار التعاطف والدعم الجمعي ، والطمع في التفهم والقبول الاجتماعي .

وبتفحص دقيق للتفسيرات التي يقدمها أفراد العينة لأمراضهم ، يجعلنا نثق أن ما يقدمه الفرد العادي كأسباب / تفسيرات Interpretations فاعلة لمرضه هي أقرب إلى التبريرات Justifications الدارجة شعبيا والرائجة ثقافيا .

وهناك بالطبع فرق كبير بين التفسير والتبرير . ولكن لا يستطيع الأطباء ، حتى بعد اكتشافهم حقيقة هذه التبريرات ، إقصاءها ببساطة من دائرة التمحيص والتفسير ، لعدم تماسكها المنطقي أو لعدم صلتها العملية . كما أنهم لا يستطيعون الاستمرار في تجاهل معانيها ودلالاتها الرمزية الهائلة باستمرارهم في البحث والتنقيب ، في المكان الضيق ، عن أسباب منطقية مباشرة فقط ، وبالرجوع إلى أعراض مرضية جسمية بيولوجية فحسب .

فالتفسيرات / التبريرات التي يقدمها الناس لأمراضهم ليست بأية حال زائفة ، مضللة أو كاذبة . ولا يمكن أن تؤخذ بمنطق الصواب والخطأ . إنما هي أفكار وتصورات

عامة Images ، ومجموعة متداخلة متكاملة من المفاهيم والمعاني المتماسكة ثقافيا ، تحتفظ بمنطقيتها ومصداقيتها الخاصة ، ضمن سياقها الاجتماعي الثقافي العام . إنها اعتقادات سببية تجد صلتها المستمرة في صلة مخزونها الثقافي الوفير المستقر في نسق الثقافة الشعبية ، الذي يزود الناس جميعا - المرضى والأصحاء ، المنحرفين والأسوياء - بنسقهم المرجعي العادي Lay Referral System في تشخيص وتفسير أو تبرير أفعالهم وأقوالهم ، وتصنيف أحداث عالمهم الاجتماعي ، وفهمها بطرقهم الخاصة .

وأمام ازدحام حياة الفرد العادي بالتغيرات الكثيرة المتسارعة ، نلاحظ أن هذه الاعتقادات السببية هي التي تبقى الثوابت الخاصة الوحيدة التي تجعل لحياته معنى Making Sense ، ليس فقط في مجال المرض والعلاج ، الداء والدواء فحسب ، وإنما في شتى مجالات السياسة والاقتصاد والإدارة والتجارة والتربية والتعليم .. إلخ .

وعند مقارنة هذه النماذج الثقافية الواردة ضمن دائرة السببية الشعبية المبسطة لمرضى مجتمعنا ، مع مرضى مجتمعات أخرى ، نجد أن بعض التفسيرات تبدو أكثر شعبية من غيرها في بيئات ثقافية مختلفة ومغايرة .

فقد وجدت مالدريد بلاكستر (Blaxster, 1984) ، مثلا ، من مقابلاتها مع ٤٦ امرأة من نساء الطبقة العاملة في اسكتلندا أن أكثر الأسباب التي ذكرتها المجموعة تكرارا هي العدوى Infection ، الوراثة ، ظروف البيئة المتدهورة ، الضغط والتوتر ، بينما لم تذكر مسؤولية الفرد عن مرضه إلا في حالات نادرة جدا . فقد ذكرت الشيخوخة وتدهور البنية الجسمية كأسباب مرتبطة بأمراض القصبات الهوائية ، السكري ، ارتفاع ضغط الدم ، أمراض القلب ، السرطان ، تصلب العمود الفقري والروماتيزم .

وقد ربط المبحوثون ، في بحث آخر ، أمراض القلب بالمركز الاجتماعي الأعلى للرجال ، والاكتئاب بالنساء ذوات الظروف الاجتماعية المعاكسة وأحداث الحياة المؤلمة بينما ربطت النساء أمراض السرطان بالتدخين والبنية الجسمية الضعيفة ، والتهاب المفاصل بالوراثة وقلة ممارسة التمارين الرياضية . (Calnan, 1987 : 63-67) .

وقد وجد سيسل هيلمان (Helman, 1984) الطبيب الممارس والباحث الانثروبولوجي في جامعة لندن ، في دراسته الشهيرة حول الأسباب الشعبية للأمراض بعنوانها الشعبي المثير « إطعم نفسك لاتقاء البرد ، وجوّع نفسك لاتقاء الحمى » ، إن الناس من مرضاه يختزلون دائما أسباب جميع أمراضهم بسببين : إما الحرارة وإما البرودة ، وإن النظرية الجرثومية Germ Theory قد نفذت بكثافة إلى الناس المرضى ، إذ أنهم يعتقدون أن الجراثيم المسببة لأمراضهم لا تكمن في أجسامهم وإنما التقطوها من تعاملهم مع الآخرين ، في بيئات غير بيئتهم الأصلية ، ويعتقدون ، في كل الفصول ، أن " هناك فيروس Virus يدور في الجو هذه الأيام " .

وهكذا ترجع أهمية هذه التفسيرات السببية عندنا ، كما هي في أي مكان آخر ، إلى أنها اعتقادات ثقافية راسخة عند أصحابها . ومادامت كذلك فإنها تظل حقائق مؤثرة فاعلة عند أصحابها المرضى - حتى لو قرر هؤلاء المرضى يوما الذهاب بأمراضهم إلى الطبيب ، وحتى لو شخصت تلك الأمراض تشخيصا علميا دقيقا ، وأعطي أصحابها علاجا طبيا موصوفا مهنيا .

رابعاً : استراتيجيات إدارة المرض :

يشير نمط الأمراض غير المشخصة التي مازال يعاني منها أفراد العينة (اكتئاب ، آلام مفاصل ، آلام رأس ، أمراض باطنية . . . إلخ ، انظر الجدول رقم ٣/١ آنفا) إلى تميزها بسمتين أساسيتين :

السمة الأولى : أنها ليست أمراضا طارئة أو مستجدة Emergent Diseases بقدر ما هي **أمراض مزمنة** Chronic Illnesses نظرا لطول فترة الاحساس بها والمعاناة منها .

ويبين الجدول رقم (٩/١) أن الأغلبية العظمى من أفراد العينة (بنسبة يقارب مجموعها ٨٠٪) قد خبرت هذه الأمراض ، وماتزال تعاني منها ، لفترة طويلة نسبيا تمتد إلى حوالي عشر سنوات . بل عانى بعضهم من أمراضه لفترة أطول تمتد إلى عشرين عاما فأكثر .

جدول رقم (9/1)

طول فترة الاحساس بالعرض - غير المشخص - عند أفراد العينة

الفترة	العدد	%
أقل من سنة	54	%18
1- أقل من 5 سنوات	135	%45
5-أقل من 10 سنوات	50	%16.5
10-أقل من15 سنة	20	%6.5
15-أقل من 20 سنة	10	%3.5
20 سنة فأكثر	22	%7.5
لا يتذكر / غير محدد	09	%3
المجموع	300	%100

والسمة الثانية : أنها ليست أمراضا وبائية Epidemic Diseases شائعة قاتلة ، وليست أمراضا حادة خطيرة مهددة للحياة Life - Threatening فتحتاج إلى علاج فوري ينقذ حياة المريض من موت محقق ، أو يحاصرها ويمنع انتشارها . كما أنها ليست ، بالقدر نفسه ، أمراضا هامشية طفيفة Minor Diseases وشكاوي مترفة لبعض طبقات المجتمع المحظوظة ، فتملأ عيادات الأطباء وتعيق عملهم الأساسي في علاج الأمراض القاتلة ، وتستنفذ مرافق الخدمات الصحية بلا طائل أو مبرر . وإنما هي أمراض حقيقية عصرية (وربما بصيغة التعريف) ، موجودة ومؤثرة ، بين عامة الناس. ومادامت كذلك ، فإنها لا تحتاج إلى علاج طبي بالمعنى التقليدي ، بقدر ما تحتاج إلى إدارة طويلة للمرض Long - term Management . فكيف يتدبر الناس أمر أمراضهم غير المشخصة طبيا ؟

أ - طرق إدارة المرض :

يدلنا جدول رقم (١/ ١٠) أن الاعتقادات المرتبطة في ذهن المريض كأسباب لمرضه تلعب الدور الأكبر في تحديد طريقة علاجه . إذ يعتقد أفراد العينة أن " ما من داء إلا وله دواء " . ولكن يبقى السؤال : من يمتلك ذلك الدواء ؟ من يمارسه ؟ متى وكيف

ولماذا يمارس ؟

ويكون الجواب بأن الناس يحاولون مقاومة تأثير أمراضهم بضبط إيقاع وطأتها على حياتهم . فيحاولون إعادة توازنهم الجسمي والنفسي معا ، واستعادة فعالية نشاطاتهم اليومية ، بإدارة أمراضهم وتدبر أمورها بطرقهم الخاصة . ورغم أن هذه إدارة ذاتية وخصوصية حقا ، فإنها تتضمن طرقا وأساليب ثقافية شعبية في الوقت ذاته .

جدول رقم (10/1)

الطرق المتبعة لادارة المرض عند افراد العينة

	طريقة التعامل / العلاج	العدد	٪
1	بمسكنات صيدلانية دون وصفة طبية	91	٪30.5
2	بالتجاهل والإهمال واللامبالاة	66	٪22
3	بالتصبر والتحمل بمرارة	33	٪11
4	بالطب الشعبي	27	٪9
5	بطرق خاصة بنوع المرض	27	٪9
6	بعادية وبساطة	23	٪7.5
7	بمهدئات دينية	17	٪5.5
8	بانتقهم لمصادر المرض وحجمه	11	٪4
9	بالتناوب على عدة طرق خاصة جدا	05	٪1.5
	المجمـــوع	300	٪100

تبرز المسكنات الصيدلانية دون وصفة طبية رسمية (أقراص ، مهدئات كيماوية ، فاليوم ، أسبرين ... إلخ) كطريقة متبعة بكثافة بين أفراد العينة (بنسبة ٥ر٣٠٪) .

وباستثناء هذه الطريقة المباشرة (التي تمثل عندهم بقايا الاعتقاد بفاعلية الأدوية الطبية الكيميائية) ، فإننا نلاحظ أن الأردنيين يعالجون أمراضهم غير المعلنة (ربما كما يتدبرون أمر مشكلاتهم السياسية الاقتصادية والإدارية التربوية .. إلخ) بطريقتهم المفضلة : التجاهل والإهمال واللامبالاة . وذلك إما بتغييبها وتجنب التفكير

فيها وكأنها غير موجودة ، أو تركها للزمن لتشفى من تلقاء نفسها ، للاعتقاد بأن الزمن وحده ، وليس الطبيب ، هو القوة الهائلة لالتئام كل الجروح وطمس كل الآلام بالنسيان ، والأيام وحدها ، وليس المؤسسات الطبية ، هي العلاج السحري لمداواة كل العلل . وإما بالصبر عليها (مثلما الصبر على غيرها) باعتبارها ، مهما كبرت أو ثقلت ، ليست إلا هماً واحداً من جملة الهموم الثقيلة المتراكمة التي " لا ينفع معها غير الله والصبر " .

وفي حين يلجأ المرضى (بنسبة ٩٪) إلى وصفات **الطب الشعبي** - Folk Medicine التي يقدمها الأكبر سناً في دائرة علاقات الفرد العامة (أعشاب طبية ، كاسات هواء ، الكي بالنار . . . إلخ) ، كما يلجأون (بنسبة مماثلة أيضا) **إلى طرق خاصة** بكل مرض Ad Hoc (الراحة ، النوم العميق ، العلاج الطبيعي ، المساج ، الوقاية، الغذاء الجيد ، المشي ، تمارين رياضية ، . . . إلخ) ، فإننا نلاحظ (بانسجام مع اتجاهاتهم في النتائج السابقة) أنهم لا يلجأون إلى **المهدئات الدينية** (الصلاة ، الصوم ، قراءة القرآن ، الدعاء إلى الله ، والاتكال عليه ، " إذا مرضت فهو يشفين . . إلخ " إلا بنسبة ضئيلة (٥ر٥٪ فقط) .

وتتجمع مبررات المرضى في اتجاههم نحو التطبيب الذاتي في محورين متضادين:

المحور الأول : الثقة الكاملة في خبرتهم الذاتية .

المحور الثاني : اهتزاز ثقتهم في الأطباء ونفورهم من الأدوية .

ومن الأسباب / المبررات التي يوردونها في هذا الشأن :

١- الخوف من خطأ الأطباء .
٢- تضارب آراء الأطباء حول المرض الواحد .
٣- الخوف من الآثار الجانبية الضارة للأدوية الطبية .
٤- طول فترة العلاج الطبي .
٥- اليأس من وجود علاج فعال ، (كما جربوه من أمراض أخرى ذهبوا بها إلى الطبيب) .

والأمثلة التالية تلخص تلك المبررات :

- « ما نسمعه كل يوم هو نجاح الأطباء وشهرتهم . أين أخطاؤهم ؟ من يحمي الناس منها ؟ » .
- « السبب استهتار بعض الأطباء بالمرضى ، وعدم علمهم إلا بدواء واحد لكل الأمراض » .
- « ليس هناك جديد على خبرتهم ، أحيانا يضطر المريض منا بتذكير الطبيب باسم الدواء المناسب من كثرة خبرتنا بالأدوية » .
- « آخر مرة ذهبت إلى طبيب عام وسألته عن ألم في عيني ، فقال لي : هناك احتمال الإصابة بفشل كلوي !! »
- « كل طبيب له قول مختلف يفقدك الثقة بصحة العلاج » .
- « لا فائدة من علاج الأطباء ، صدقني ، الأطباء لا يفعلون لك شيئا إلا كثرة الأدوية ، وكثرة الفلوس بلا نتيجة » .

وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لا يكون العلاج " بيدي لا بيد عمرو " ؟

ب - أساليب التطبيب الذاتي :

ليست هناك طريقة وحيدة أو وصفة سحرية لعلاج جميع الأمراض في كل الأماكن والأوقات . وإنما يلجأ الناس المرضى إلى عدة أساليب علاجية يعتقدون بجدواها . وهم يفعلون ذلك بالانتقال من طريقة إلى أخرى ، من التجريب إلى التقييم ثم إلى التثبت والاستقرار . وهكذا يتعلم المريض بنفسه أن يكون طبيبا آخر لنفسه ، باستعماله " توليفة " Synthesis وصفات علاجية بديلة ، ينفذها كما يهوى Ad Lib ، دون حدود أو قيود طبية ، ودون التزام ببرنامج صارم محدد .

ويلخص أحد أفراد العينة ممن يعانون من أمراض الروماتيزم هذه التركيبة العلاجية الشعبية بقوله :

« ... بالأدوية أولا ، ثم بالإبر ، ثم بالعلاج الطبيعي ، ثم بأقدم الطرق وهي الكي بالنار » .

يمثل سعي المريض إلى العلاج البديل الأكثر نفعا في اعتقاده ، سعيا إلى الخبرة (الثقافية) البديلة الأكثر ثراء . وليس استقرار المريض على علاج معين إلا استقرار نفسي في المقام الأول .

وفي عملية التطبيب الذاتي Self Medication ، يتبّع المرضى عدداً من الاستراتيجيات لتحييد المرض وأبطال مفعوله (السببي)باتباع عدة أساليب أولية خاصة لعلاجه موجهة نحو تحفيز القوة العلاجية الذاتية (الكامنة) في الجسم والنفس معاً ، يمكن استخلاص أهمها فيما يلي :

١- العلاج النفسي Psycho - Therapy بطمأنة النفس ، وعدم الخوف من الأمراض ، وبالإصرار على التغلب عليها .

تقول سيدة (جامعية ، قروية ، عمرها ٣٢ عاماً ، متزوجة ولديها طفلان ، وتعمل مدرسة) تعاني من الصداع الدائم والعزلة وعدم القدرة على التأقلم مع المجتمع القروي :

« تدبرت أمرها من خلال إدراكي وإصراري على أن الإنسان يمتلك القدرة الداخلية في السيطرة على الألم . . . » .

٢- العلاج الذهني Mental Therapy بالاعتراف بالاختلاف المرضي ، وتركيز الذهن على مجابهة المرض ، والاصرار على تجاوز الاختلاف .

يقول مستخدم حكومة (جامعي ، متزوج ، في الأربعين من عمره ، ومن سكان عمان) :

« اتعامل معها بمجاهدة الأعراض وتحديها ، وتحاشي الأرتباك ، واعتزال الاجتماعات والمناسبات العامة قدر الإمكان » .

٣- العلاج الروحي Spiritual Therapy بالإرادة والإيمان واللجوء إلى قوة (عليا) قاهرة للأمراض .

تروي سيدة (جامعية عمرها ٥٠ عاما ، لديها أربعة أبناء ، تقيم في جنوب البلاد ، وتعمل مديرة مدرسة ثانوية مهنية) أسلوبها في التعامل مع مرض الاكتئاب والصداع الدائم وألم المفاصل :

« رأيت قبل فترة على القناة الثانية برنامجا كان العلاج فيه عن طريق الإيمان والإرادة ونسيان ما يعاني منه الشخص . وهذا ما أعمل به منذ سنوات » .

٤- العلاج السلوكي Behavioural Therapy بمحاولة تغيير أنماط السلوك والتخلي عن العادات القديمة المتأصلة التي يعتقد المريض أنها سببت له المرض ، ومحاولة التكيف مع الواقع والمتغيرات الجديدة .

« أحاول التأقلم مع الأجواء المحيطة » « أحاول اختيار الأصدقاء المناسبين » « تجديد علاقاتي وتطبيع ظروفي مع الواقع العام » « أحاول ترك الكتاب فورا عند الشعور بالصداع » « جربت أن أنام على جانبي بدل ظهري ... إلخ » .

٥- العلاج البدني Physical Therpay ، بإخفاء العيوب والأعراض المرضية وتجنب الحديث عن المرض وعدم إقامة علاقات طويلة كافية لملاحظته أو اكتشافه .

« عالجت حالتي " التلعثم " بتجنب الحديث مع الغرباء » . « عالجت حالتي " الخجل الشديد " باستعادة ثقتي بنفسي » . « كثيرا مما أعاني منه " البثور وحب الشباب " أخفيه بكثير من الـ Make - Up » . « أقول لك بصراحة : أداري آلامي حتى عن أهلي » .

٦- العلاج المثلي Homeopathy وذلك بأن يعمد المريض إلى تعريض جسمه ونفسه معا لأعراض مرضية مماثلة لتلك التي يعتقد أنها سببت له المرض أساسا . فيكون الدواء من صنف الداء ، ويكون العلاج بهزة عنيفة للجسم والنفس تعيد التوازن إلى المريض .

وصف طالب جامعي (عمره ٢٤ سنة من سكان عمان) يعاني من الأرق والعصبية والملل ، هذا النوع من العلاج بطريقته الخاصة :

« حاولت إدخال مشاكل جديدة لحياتي ، والانشغال بها ، وفعلا صارت أمراضي القديمة غير مهمة في حياتي » ٠

ويقول عامل مبيعات يعاني من آلام الظهر والقدمين : « بالعمل المتواصل ، حتى أني طلبت عملا إضافيا فأعطوني ، ونسيت آلامي » ٠

وتدلل هذه الأساليب الأولية الخاصة على أن الجسم والنفس ، البدن والروح ، المريض ومرضه ، ليست أجزاء منفصلة عائمة متناثرة ، وإنما **هي منظومات متداخلة** متكاملة أو انساق كلية واحدة لا تتجزأ ٠ وإذا جاز الفصل بين الوحدات الأساسية المكونة لهذه الأنساق ، فإننا نلاحظ أن نوع العلاج الذي يقدمه المريض لنفسه وأسلوبه ومادته ليس إلا **علاجا للاعتقادات السببية (النفسية الثقافية) للإنسان المريض وليست بالضبط علاجا لأمراضه البدنية** ٠

ويتابع الأطباء الأساتذة باهتمام كبير ، في مكان آخر ، النجاحات المتواصلة للأساليب الشعبية في **الشفاء الذاتي** Healing Within المتمركزة حول تقوية دفاعات الجهاز المناعي في مقاومة الأمراض وبتناغم العقل والجسم معا ٠ فيلاحظ هؤلاء أن الكثيرين « بدأوا يضيقون ذرعا بالعلاج عن طريق الكيماويات والكهرباء والأسلاك والأنابيب والمجالات ٠ وبدأوا بالإقبال على العلاج بمجموعات العلاج العقلي البدني Mind - Body Groups دون تدخل كيميائي أو اشعاعي ٠ وكانت النتيجة مدهشة في معظم الأمراض تقريبا : من السرطان إلى السكري مرورا بالروماتيزم بأنواعه ٠ ٠ » (Lock & Colligan, 1995) ٠

وهنا يظهر واضحا اختلاف أساسي بين **الطب المهني** التقليدي **والطب الشعبي** الثقافي في كل من **المداخل** Approaches النظرية **والاتجاهات** Directions العملية :

إذ يركز الأول ، بمداواة الجزء المعطوب فقط من الجسم المريض ، على **العرض /** المرض فحسب ، بينما يهتم الثاني بالجسم والنفس معا ، **بالمرض والمريض** في آن واحد ٠

وفي حين يبدأ الأول ، بالانحصار في الأعراض المرضية (**البارزة**) ومحاصرتها ، بالاتجاه من **الخارج** إلى الداخل دون امتداد إلى العالم الداخلي لحاملها ٠ فإن الثاني

يبدأ في الاتجاه من الداخل إلى الخارج ، من المكونات النفسية الثقافية إلى الأعراض المرضية .

ويلاحظ هنا إتجاه عام لدى مرضى الثقافة العربية بالأقبال على التمسك بتقنية شعبية ، قليلة الأخطاء والأخطار ، ضئيلة التكلفة والمضار ، تقترح حجب السلطة والسيطرة والضبط عن " حكماء الطب " ، ومنحها ، بثقة وأمان واطمئنان ، إلى "حكماء الشعب " . . تماما مثل ما يقوم به عامة الناس ، بطرقهم الخاصة ، من عمليات منع ومنح بترك ما لا يطمئنون إليه - رغم حاجتهم إليه - إلى ما يطمئنون إليه ، تجاه حكماء السياسة والاقتصاد والإدارة والتربية والتعليم والمال والأعمال . . إلخ .

ومن الصعب الجزم بأن المعرفة الطبية المهنية معرفة مقصورة تماماً على أصحابها الممارسين ، أو أن المعرفة العامة للناس العاديين حول الصحة والمرض معرفة ثقافية شعبية خالصة . فقد تنفذ نظريات الأطباء وتعريفاتهم وتشخيصاتهم ووصفاتهم العلاجية إلى الناس العاديين ، بالاتصال والتفاعل . ولكن المرضى من هؤلاء الناس لا يأخذون المعرفة الطبية العلمية إلا بطرقهم الخاصة ولا يطبقونها إلا بأساليبهم الثقافية المألوفة .

خلاصة وتوصيات

سجلت هذه الدراسة الميدانية أن مجموعة كبيرة الحجم من الأمراض تبقى في مجتمعنا دون تشخيص طبي ، ويتم التعامل معها خارج إطار الممارسات الطبية المؤسسية .

وما استمرار هذه المشكلة عندنا ، بهذا الحجم والتأثير ، إلا حقيقة عملية تبرز إلى السطح عمق الهوة بين عوالم مستقرة من الخبرة الاجتماعية الطبية لكل من المرضى والأطباء والباحثين على السواء :

- استمرار الناس في العيش بأمراضهم بعيدا عن أعين الأطباء .
- استمرار باحثي العلوم الإنسانية والاجتماعية بالاعتقاد أن حقائق العالم الاجتماعي الصلبة والهشة ، بما فيها الحقائق الجمعية حول الصحة والمرض ، يمكن أن توجد و / أو تؤثر خارج عقول الناس المؤمنين بها ، أو يمكن أن تستمد من الممارسين لمهنة الطب دون غيرهم أو من المرضى دون سواهم .

ولا يبدو أن أيا من هذه الأطراف يمتلك حيال هذه المشكلة برنامجا محددا للتغيير أو التجسير .

وعلى ضوء نتائج البحث ، يمكن التفكير جديا في مجالين أساسيين لأي برنامج مقترح لمواجهة المشكلة القائمة المتفاقمة :

١- دمج الاعتقادات السببية والطرق العلاجية السائدة ثقافيا عن الصحة والأمراض في المنظور الشعبي (اللغة والمفاهيم ، الكلمات والمعاني التي يصف بها الناس أمراضهم ، والطرق والأساليب التي يتدبرون بها أمرها) باعتبارها أجزاء أساسية متكاملة مع الثقافة الفرعية العلمية للأطباء ، ومكونات أصلية موجهة لتأكيدات التربية واتجاهات الممارسة الطبية المهنية .

٢- مراجعة الصور الراسخة في أذهان أطبائنا (وباحثينا) عن المريض العربي ، سواء تلك التي تراه مريضا جاهلا عاطفيا يائسا ، يشل المرض تفكيره ويمنعه من صنع